تدبر
الهيئة العالمية للتدبر القرآن الكريم

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
College of Sharia and Islamic Studies
QATAR UNIVERSITY جامعة قطر

بصائر المعرفة القرآنية
قرآن يتلى لإنسانية ترقى

بصائر المعرفة القرآنية

تسوير السور القرآنية

٣ ٥

التفسير الوسيط

سورة البقرة

الزهراء الأولى

موضوعها الكلي

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم وتجربة الاستخلاف الإسرائيلية

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
كلية الشريعة/ جامعة قطر

زقاق الكتب

الوسيط

سورة البقرة

الزهراء الأولى

موضوعها الكلي

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم وتجربة الاستخلاف الإسرائيلية

عبد السلام مقبل المجيدي

كلية الشريعة/ جامعة قطر

زقاق الكتب

رقم الإيداع	978-625-6725-01-0
اسم الكتاب	الوسيط في تفسير سورة البقرة
اسم المؤلف	أ.د. عبدالسلام المجيدي
الطبعة وتاريخها	الثانية: 1445 هـ / 2023 م
دار النشر	زقاق الكتب

+90 553 915 40 09

facebook.com/zuqak

Fatih-Istanbul-Turkey

www.zuqak.com

المطبعة

Basım Yeri Ve Yılı

Ravza Yayıncılık Ve Matbaacılık

Kale Iş Merkezi No: 51-52

Davutpaşa \ Istanbul

Tel: 0212 481 94 11

copyright © 2024

زقاق الكتب للنشر والتوزيع - إسطنبول - تركيا 2024

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أو الالكترونية أو الميكانيكية بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها دون الحصول على إذن خطي مسبوق من الناشر.

سورة البقرة

الوسيط

عبد السلام مقبل المجيدي

قام بتحكيم الكتاب اثنان من الأساتذة المتخصصين

مراجعة

أ.د. سعيد بن دحباج

د. حمود ردمان

د. نبيل طرمم

أ. أديب المخلافي

أ. أميرة ردمان

أ. وضاح الجبزي

أ. عبد الرحمن حسين

أ. بندر العنابي

أ. زهراء أحمد

تصميم

محمد عبدالحميد عبدالله الزبيدي

الطبعة الثانية

1445 هـ - 2023 م

بصائر المعرفة القرآنية

قرآن يتلى لإنسانية ترقى

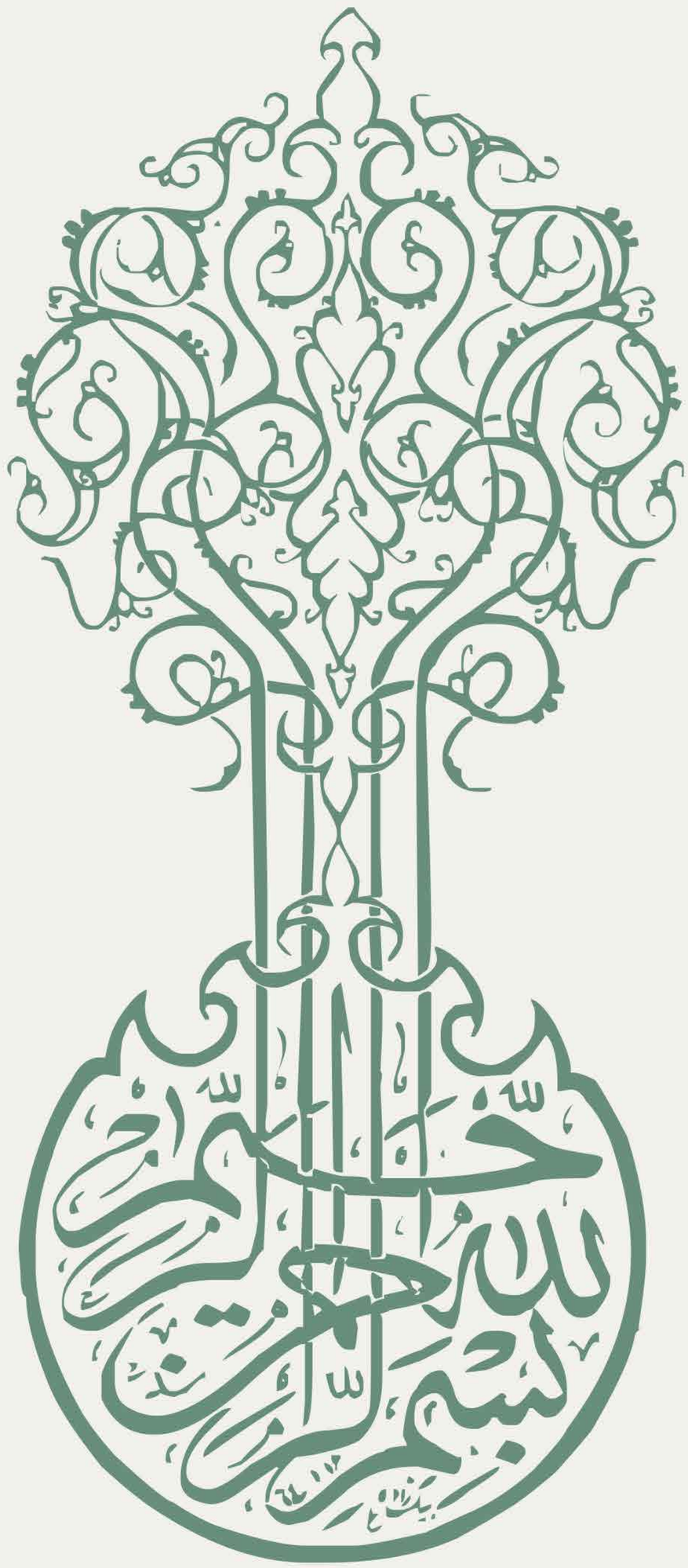

فهرس الموضوعات

1	الفهرس	5
2	مقدمة	7
3	بين يدي سورة البقرة: النور الأول: من فضائلها	10
4	النور الثاني: عمود السُّورَة وهو موضوعها الكلِّيُّ الذي لأجله سُوِّرت آياتها بها	12
5	أسس اختيار هذا الموضوع ليمثِّل الموضوع الكلِّيّ لسورة البقرة	13
6	الأساس الأول: النُّزول التَّاريخيُّ، والفجر الجديد	13
7	الأساس الثاني: التَّرتيب المصحفيُّ	18
8	الأساس الثالث: اسم هذه السُّورَة المباركة (البقرة)، وعلاقته بالموضوع الكلِّيِّ للسُّورَة	19
9	الأساس الرابع: المواضيع الكبرى في السُّورَة التي تهدي إلى الموضوع الكلِّيِّ	23
10	الأساس الخامس: مدد السابقين في تعيين سبب تسوير السورة	28
11	الأساس السادس: الخريطة الكلِّيَّة التي تُظهر المحاور العامَّة لسورة البقرة	30
12	النور الثالث: الأساليب المتبعة في سورة البقرة	32
13	المقدمة الأولى: القرآن الكتاب الذي لا ريب فيه لإصلاح العالم، فهو أساس إدارة نظام الحياة في الأرض [البقرة: 1-2]	33
14	المقدمة الثانية: التَّقسيم العالميُّ للواقع البشريِّ بالنسبة للانتفاع بدستور الحياة الذي لا ريب فيه (القرآن) [البقرة: 2-20]	39

15	المحور الأول: الإعلان الإلهيُ للبشريّة عن النِّظام الحقيقيِّ الوحيد للحياة الإنسانيّة [البقرة:21-29]	81
16	المحور الثاني: القِصّة الحقيقيّة لبدء التّاريخ البشريِّ، والتّكريم الإلهيُ للإنسانيّة بالاستخلاف في الأرض [البقرة: 30-39]	103
17	المحور الثالث: (المحور الإسرائيليُ) دعوة بني إسرائيل إلى الوفاء بالعهد والإيمان بالنّبيِّ الخاتم [البقرة: 40-123]	104
18	المحور الرابع: إرث الأمّة الإسلاميّة للمِلّة الإبراهيميّة [البقرة: 124-158]	183
19	المحور الخامس: أعظم الحقائق الكونيّة التي يجب تبيينها للعالم، وامتنع أهل الكتاب عن تبيينها [البقرة: 159-171]	207
20	المحور السادس: التّمكين التّشريعيُ للحضارة الإسلاميّة الجديدة التي تشرق على العالم من المدينة (القِسْط الأوّل) [البقرة: 172-207]	225
21	المحور السابع: الدُخول في السِّلم كافّة (الإسلام والسّلام) [البقرة 208-214]	273
22	المحور الثامن: التّمكين التّشريعيُ للحضارة الإسلاميّة الجديدة التي تشرق على العالم من المدينة (القِسْط الثّاني) [البقرة 215-242]	281
23	المحور التاسع: سُنَنُ الخروج من حالة الاستضعاف وصناعة التّوازن والسّلام العالمِيّيْن [البقرة 243-254]	339
24	المحور العاشر: الحضارة الإسلاميّة الجديدة تشرق على العالم بالتّعريف بعظمة الله عز وجل [البقرة 255-260]	363
25	المحور الحادي عشر: (إدارة الأموال) إشراق الحضارة الإسلاميّة بالإدارة المتميِّزة للأموال [البقرة: 261-283]	385
26	الخاتمة: السُورة تشرق بالحضارة الجديدة في العالم، فناسب أن تُختم بكنز من تحت العرش [البقرة: 284-286]	429

مقدمة

الحمد لله الذي لا إله إلا هو الحيُّ القيُّوم، عالم الغيب والشَّهادة، القائم بالقِسط، الملك الحقُّ المبين، والصّلاة والسّلام على قائد الخير محمّد، وعلى أنبياء الله أجمعين، وعلى الآل، والصّحب المكرّمين.

وبعد: فهذا كتاب (الوسيط) لـ(بصائر المعرفة القرآنيّة في سورة البقرة- التفسير الكلّي)، أقدّمه لك في شرائح عرض مبتكرة؛ لترى وجهًا مذهلًا من أوجه البيِّنة القرآنيّة المتجدِّدة المعجزة، وأرجو أن تجد فيها التّدبُّر الأقرب الذي يبيِّن لك سرّ (تسوير) سورة البقرة، وذلك بأسلوب مختصر جذّاب. اجتهدت أن تناسب المتدبِّر والمتعلِّم والمعلِّم، والقارئ المسلم، وغير المسلم، وأن تكون منهجًا للمدارسة في الدّورات العلميّة والتّعليميّة.

كان يفترض بهذا المنهج أن يخرج قبل ستِّ سنوات بعد تأمُّل شارف مثلها، وبعد أن قمت بتدريسه في عدد من الدُّول، لكنها قواطع الطريق المانعة.

فإليك -أيّدك الله- خلاصة اللّيالي والأيّام، وزبدة الفكر والأفهام، عصرتُ فيه عقود تحصيلي، وجهود تأصيلي، جعلته ضمن أهمِّ مشاريع حياتي، وأنفقت عليه أعزّ أوقاتي، وما برحتْ أمانيه تساورني حتى سوّرتها، وما فَتِئَتْ مصاعبه تراودني حتى كسرتها، حتى أنشرتني خلقًا جديدًا، وأنشزت أمامي نهجًا سديدًا.

سورة البقرة: بهر فؤادي جمالُ معانيها، وروعةُ مبانيها، وفسحةُ مغانيها، جَدّدتْ لجسدي شبابه، وأزالت عن قلبي عذابه، وخفّفت عن فكري أنصابَه ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّما يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58]

ما إن شرعت في أوّلها؛ إلّا وتتابعت أخواتها، فخذ منها حسناتِها؛ ولا تشغلنّك هفواتُها، وكما قال صاحبي محمّد المثيل:

ولا تَبْخَلْ عَلَيّ بِبَذْلِ نُصْحٍ ❁❁❁ أُدَاوي منه إِخْفَاقِي وضَعْفِي
فلا يخلو كتابٌ مِنْ عيوبٍ ❁❁❁ كذاك خَلِيقَتِي في أَصْلِ وَصْفِي

وبعد طول تأمُّل ومعاودة تدبُّر حاولت أنْ أَتَّجِهَ إلى صراط مستقيم في معرفة عمود السُّورَة الذي يمثِّل الموضوع الكُلِّيّ لها، فاستقررتُ على أنه:

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم وتجربة الاستخلاف الإسرائيلية

تأتي سورة البقرة لتبشِّر الإنسان بإشراق الحضارة التي تنقذه من آلام النَّفس الذَّاتيّة، ومن إجرام تجار الإنسان الذين يغتالون المصلحين، ويعتدون على المستضعفين، ويخرجون الآمنين من ديارهم.

تشرق سورة البقرة لتغيث الإنسانيّة من لهيب الطُّغيان العالميّ، لتمنح كلّ فرد حقّه في معرفة ربِّه عز وجل، وليتنعم بحياة تمتلئ بالإيمان وإنفاق المال على حبِّه على الأقرباء والضُّعفاء. تقدِّم لك سورة البقرة الآيات البيِّنات مُسَلَّمة لا شِيَةَ فيها لتعبِّرَ عن أعظم برهان تشتاق لسماعه الأكوان، فعسى أن يجد القارئ في هذه البصائر بردًا وسلامًا لنفسه الظَّامئة إلى الحقيقة، وأن يلمس فيه أنوارًا صافية ذات بهجة تَسُرُّ النَّاظرين والمتأمِّلين.

أشكر إذاعة القرآن الكريم في قَطَر، وكلّ من أسهم في إخراج هذا الكتاب ماديًّا وعلميًّا، وقام بتحكيمه ومراجعته، وأشكر الهيئة العالميّة لتدبُّر القرآن الكريم في قَطَر لتبنيها نشر هذا الكتاب.

وكذلك أزجي الشكر الكبير لجامعة قطر وكلية الشريعة على الدعم الذي وجده مشروع "تسوير السُّوَر القرآنية"، أكرمهم الله، ورفعهم مكانًا عليًّا.

اللَّهمَّ آتهم أفضل ما آتيت عبادك الصَّالحين.

اللَّهمَّ انشر به نور كتابك في العالمين، واجعل لي به لسان صدق في الآخرين، يا أرحم الراحمين.

عبدالسلام مقبل المجيدي

الاثنين 1 ربيع الآخر 1445هـ

الموافــق 16 / 10 / 2023 م

بصائر المعرفة القرآنية

سورة البقرة

{ الزهراء الأولى }

عمود السورة (موضوعها الكلي)

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم
وتجربة الاستخلاف الإسرائيلية

{ الوسيط }

بين يدي سورة البقرة

النور الأول

من فضائلها

فضيلة [1] هي سنام القرآن

قال ﷺ: «إنّ لكلّ شيءٍ سناماً، وإنّ سنامَ القرآنِ سورةُ البقرة» "الحاكم (3027)، وصحّحه، ووافقه الذّهبي"، فسورة البقرة تمثّل أرفع ما في القرآن من السُّوَر الجامعة للأحكام الإجماليّة، والتّفصيليّة.

فضيلة [2] فيها آية الكرسيّ؛ سيّدة آي القرآن

فعَنْ أُبَيّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ ﷺ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. فَضَرَبَ في صدري، وَقَالَ وَاللَّهِ، لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ، أَبَا الْمُنْذِرِ». "مسلم (810)"

فضيلة [3] خاتمتها آيتان من كنز تحت العرش، فيهما الكفاية التامّة

قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله عز وجل كَتَبَ كتابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِأَلْفَيْ عَامٍ، فَأَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ، فَخَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلَا يُقْرَآنِ فِي دَارٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبُهَا الشَّيْطَانُ» "أحمد (18414)، حسّنه ابن حجر في "نتائج الأفكار 3/275"، " وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُعْطِيتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَلَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي». "أحمد (21565)، وصحّحه الأرناؤوط لغيره»

فضيلة [4] تمثّل الحماية الخاصّة الدُّنيويّة من الشّياطين، وكيد السّحَرة، وأصحاب الشرور

فقد قال ﷺ: «اقْرَؤوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ». "مسلم (804)"، وقال رسول الله ﷺ: «لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِى تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ». "مسلم (780)"

فضيلة [5] الزهراء الأولى التي ترافق صاحبها مرافقة خاصّة يوم القيامة

فالزهراوان تمثّلان محامي الدّفاع المرافق لقارئهما يوم القيامة؛ فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «اقْرَؤوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا)). "مسلم (804)"

فضيلة [6] أوّل السّبع الطّوال، وأخذها يدلُّ على التّأهّل العلميّ

قال رسول الله ﷺ «أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمَئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ» " أحمد (16982) وحسّنه الأرناؤوط، والألباني في الصّحيحة (1480). وقال ﷺ: «مَنْ أَخَذَ السَّبْعَ الْأُوَلَ فَهُوَ حَبْرٌ». "أحمد (24443) وحسّنه الأرناؤوط والألباني في الصّحيحة (2035)"

فضيلة [7] أحد المؤهِّلات القياديّة، وخاصّة في البعثات الخارجيّة، لمن يتعلمها واعياً بمقاصدها، عاملاً بها، معلِّماً لها

فبعث رسول الله ﷺ بعثًا فاستقرأ كلّ رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم مِنْ أحدثهم سِنًّا فقال: «مَاذَا مَعَكَ يَا فُلَانُ؟» قَالَ مَعِي كَذَا وَكَذَا وَسُورَةُ الْبَقَرَةِ قَالَ: «أَمَعَكَ سُورَةُ الْبَقَرَةِ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فاذْهَبْ فَأَنْتَ أَمِيرُهُمْ»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا مَنَعَنِي أَنْ أَتَعَلَّمَ سُورَةَ البَقَرَةِ إِلَّا خَشْيَةَ أَلَّا أَقُومَ بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَعَلَّمُوا القُرْآنَ فَاقْرَؤُوهُ وَأَقْرِئُوهُ، فَإِنَّ مَثَلَ القُرْآنِ لِمَنْ تَعَلَّمَهُ فَقَرَأَهُ وَقَامَ بِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ مَحْشُوٍّ مِسْكًا يَفُوحُ بِرِيحِهِ كُلَّ مَكَانٍ، وَمَثَلُ مَنْ تَعَلَّمَهُ فَيَرْقُدُ وَهُوَ فِي جَوْفِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ أُوكِئَ عَلَى مِسْكٍ». "الترمذي (2876)، وقال: حديث حسن"

فضيلة [7] المؤنسة لصاحبها

فعن أُمِّ الدَّرْدَاءِ رضي الله عنها قالت: "إِنَّ رَجُلًا مِمَّنْ قَدْ قَرَأَ الْقُرْآنَ أَغَارَ عَلَى جَارٍ لَهُ فَقَتَلَهُ، وَإِنَّهُ أُقِيدَ مِنْهُ فَقُتِلَ، فَمَا زَالَ الْقُرْآنُ يَنْسَلُّ مِنْهُ سُورَةٌ سُورَةٌ، حَتَّى بَقِيَتِ الْبَقَرَةُ وَآلُ عِمْرَانَ جُمُعَةً، ثُمَّ إِنَّ آلَ عِمْرَانَ انْسَلَّتْ مِنْهُ، وَأَقَامَتِ الْبَقَرَةُ جُمُعَةً، فَقِيلَ لَهَا: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: 29] قَالَ: فَخَرَجَتْ كَأَنَّهَا السَّحَابَةُ الْعَظِيمَةُ)". (الجامع لابن وهب (9/3)، وحسّنه بعض المعاصرين)، قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ رحمه الله: أُرَاهُ يَعْنِي أَنَّهُمَا كَانَتَا مَعَهُ فِي قَبْرِهِ تَدْفَعَانِ عَنْهُ وَتُؤْنِسَانِهِ، فَكَانَتَا مِنْ آخِرِ مَا بَقِيَ مَعَهُ مِنَ الْقُرْآنِ). فضائل القرآن للقاسم بن سلام (ص236).

النور الثاني

عمود السُّورَة وهو موضوعها الكلِّيُّ الذي لأجله سُوِّرت آياتها بها

ربما تسأل: بعد تدبُّرك للسُّورَة من أولها إلى آخرها: ما الذي وصلت إليه في الموضوع الكلِّيِّ الذي تدور حوله السُّورَة، ويشكِّل عمودًا لها؟

الجواب: عمود السُّورَة الذي توصلت إليه هو:

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم وتجربة الاستخلاف الإسرائيلية

فالسُّورَة تؤسِّس للحضارة الإسلاميّة، التي تشرق على العالم بحنانها، ورحمتها، انطلاقًا من المدينة، وتقدِّم الأنموذج الناجح للاستخلاف في الأرض، من خلال الإفادة من تجربة الاستخلاف الإسرائيليّة لاستنقاذ القيم الإنسانية والدينية من تلاعب وتجبر قياصرة وأكاسرة النظام العالمي الجديد، وتقوم على نظامٍ دستوريٍّ إلهيٍّ، عماده التقوى، والأساس العمليُّ للتّقوى ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وقد تتساءل متلهفًا: كيف وصلتُ إلى اختيار هذا العنوان ليكون عمود السُّورَة وموضوعها الكلِّيّ؟

الجواب: اعتمدتُ على الأسس السِّتَّة التي تهدي لتقرير موضوع كلِّ سورة، وهذه الأسس يلخِّصها الشّكل الآتي:

الأساس الأول

النُّزول التّاريخيُّ

الأساس الثاني

التّرتيب المصحفيُّ

الأساس الثالث

اسم هذه السُّورَة المباركة (البقرة)، وعلاقته بالموضوع الكلِّيِّ للسُّورَة

أسس اختيار هذا الموضوع ليمثِّل الموضوع الكلِّيَّ لسورة البقرة

الأساس الرابع

المواضيع الكبرى التي تضمُّها السُّورَة

الأساس الخامس

مدد السابقين في تعيين سبب تسوير سورة البقرة

الأساس السادس

الخريطة الكلِّيّة التي تُظهِرُ المحاور العامّة لسورة البقرة

أسس اختيار هذا الموضوع ليمثِّل الموضوع الكلِّيَّ لسورة البقرة

الأساس الأول النُّزول التَّاريخيّ، والفجر الجديد

لعلك تسأل: ما الذي حدث قبيل هجرة النَّبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة؟

الجواب:

1 السراج المنير يبحث عن مكان؛ لينقذ العالم

بحث النَّبيُّ ﷺ، طويلًا عن مكان مناسب، يشكِّل حصنًا لدعوة الخير، التي يشرق بها على العالم، ومركزًا لنور العدل الذي يخلِّص الناس من ظلمات الوثنية، والجاهليات، والظُّلم، وتَجَبُّرِ الأكاسرة، وتلاعُبِ القياصرة بالبشرية.

2 تجربة الحبشة وعدلها:

أرسل النَّبيُّ ﷺ المظلومين من أصحابه إلى الحبشة؛ ليجدوا فيها ملجأً، وربما مركزًا للعدل القادم بالإسلام.

3 فزع القوى الوثنية من تحوُّل الحبشة إلى مركز لنور الإسلام:

أرسلت وفدًا رفيع المستوى مكوّنًا من: عبد الله بن أبي ربيعة المخزوميِّ، وعمرو بن العاص السَّهميِّ

4 وسيلة التأثير: الرُّشا والأموال المسمومة:

- الهدف: التفاوض على إرجاع المهاجرين.
- الخطّة: تكوين الوفد القرشيِّ مجموعة (لُوبيّ) الخيانة للتَّأثير على صنع القرار في قصر النَّجاشيِّ

5 جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه يستغلُ الفرصة لقلب الطّاولة على الوفد الوثنيّ، ويدعو إلى نور الإسلام

فَقَالَ لَهُ: "أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، " فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ...". "أحمد (1740) وحسّنه الأرناؤوط، والوادعي"

6 قرأ جعفر رضي الله عنه على النّجاشيّ أوّل سورة مريم ﴿كٓهيعٓصٓ...﴾:

فبكى النّجاشيُّ، حتى أَخضَل (بلّ) لِحْيَتَه. وبَكَتْ أساقفته حتى أخضَلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النّجاشيُّ: "إن هذا -والله- وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ".

7 الغدر والتّشويه سلاح المعتدين لصنع الانتصار:

حاول عمرو رضي الله عنه استثارة النّجاشيِّ بمخالفة المسلمين لهم في عيسى .

قال جعفر رضي الله عنه: نقول فيه الذي جاء به نبيُّنا ﷺ: "هو عبد الله، ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول".

النّتيجة: تأثر النّجاشيُّ بالقرآن، ولم يتحقّق للوفد القرشيِّ هدفه في استثارته ضدّ المسلمين، فخابت مساعيهم.

8 تجربة الطّائف وقسوتها:

- الهدف: إيجاد عاصمة لتنشر الحضارةُ الجديدة نورَها في العالم.
- الواقع: تجربة شاقّة شديدة الألم.

9 تحدّث النَّبيُّ ﷺ عن قسوة تجربة الطَّائف:

فعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: "هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ؛ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ». "البخاري (3231)"

10 جاء الأنصار أخيرًا: فهم المختارون في الاصطفاء الإلهيِّ لينصروا حضارة العدل الجديدة:

عن جابر رضي الله عنه: مَكَثَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ، يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ وَمَجَنَّةَ، وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى، يَقُولُ: «مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؟ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، وَلَهُ الْجَنَّةُ»، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، أَوْ مِنْ مِصْرَ- كَذَا قَالَ - فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ، فَيَقُولُونَ: احْذَرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ، لَا يَفْتِنُكَ، وَيَمْشِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ، وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ، حَتَّى بَعَثَنَا اللهُ لَهُ مِنْ يَثْرِبَ، فَآوَيْنَاهُ، وَصَدَّقْنَاهُ، فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا فَيُؤْمِنُ بِهِ، وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ... "أحمد (14456)، وصحّح البوصيري إسناده"

11 حدث هزّ العالم وغير التاريخ:

متى نزلت هذه السُّورَة المباركة؟ وما السِّياق التَّاريخيُّ الذي نزلت فيه؟

الجواب: سورة البقرة أوّل سورةٍ نزلت بعد هجرة النَّبيِّ صلّى الله عليه وسلم إلى المدينة.. هذه الأوليّة التَّاريخيّة في النُّزول المدنيِّ لها دلالاتٌ عظيمة في وضع قواعد إنشاء الأمة الإسلاميّة لتشرق بنورها على العالم.

12 علاقة وطيدة بسورة المطففين التي نزلت قبلها: بناء اقتصاد السُّوق:

سورة (المطففين) حيث نزلت (إمّا في مكّة، أو المدينة، أو بينهما)، لتؤسِّس القواعد الماليّة المانعة من الظُّلم الاقتصاديِّ.

ولكن لماذا الاقتصاد؟

الجواب: لأن الاقتصاد عمدة الحكم الصالح الرّشيد، فلا بد من وضع قواعد عادلة تكسر احتكار الأسواق من قِبَل القوى اليهوديّة المرابية والوثنيّة.

توقيت النزول

فإن سألت: كيف صارت سورة البقرة نازلة في زمنها التَّاريخيِّ المناسب؟ وما دلالات هذا التَّوقيت؟

الجواب: دلالات توقيت النزول تتجلى فيما يأتي:

1 هي أَول سورة نزلت بعد هجرة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلم إِلى المدينة

فارتبط نزولها بتأسيس حضارة الهدى، والنُّور، والرشد، وظهورها في الواقع العالمي لتزيل احتكار الشرعية الدولية المزورة الظالمة، التي اقتسمت النفوذ فيها دولتا فارس والروم، في الوقت الذي سيطرت فيه القوى الوثنية والمحرفة على زمام الأمور في جزيرة العرب، فارضة أبشع أنواع الظلم، والعبث بمصير البشرية.

2 وانظر إلى جمال الإحكام القرآنيِّ لتشيد الحضارة، حيث أنزل الله عزوجل قبلها سورة (المطففين)

حيث نزلت في طريق الهجرة؛ تمهيدًا لتكوين السُّوق الاقتصاديّة المستقلّة التي يشرف عليها المسلمون.

3 لم يتمكّن النَّبيُّ ﷺ من إقامة حضارة النور الإسلاميّة بمكّة

لشِدّة منابذة القوى الجاهلية هناك، وهذا كما قال بعض الأنصار:

ثَوَى فِي قُرَيْشٍ بِضْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً ... يُذَكِّرُ لَا يَلْقَى صَدِيقًا مُوَاتِيَا
وَيَعْرِضُ فِي أَهْلِ الْمَوَاسِمِ نَفْسَهُ ... فَلَمْ يَرَ مَنْ يؤوي وَلَمْ يَرَ دَاعِيَا
فَلَمَّا أَتَانَا وَاسْتَقَرَّ بِهِ النَّوَى ... وَأَصْبَحَ مَسْرُورًا بِطِيبَةَ رَاضِيَا
وَأَصْبَحَ لَا يَخْشَى ظُلَامَةَ ظَالِمٍ ... بَعِيدٍ، وَلَا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ بَاغِيَا
بَذَلْنَا لَهُ الْأَمْوَالَ مِنْ جُلِّ مَالِنَا ... وَأَنْفُسَنَا عِنْدَ الْوَغَى وَالتَّآسِيَا
نُعَادِي الَّذِي عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ ... جَمِيعًا، وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبَ الْمُوَاسِيَا
وَنَعْلَمُ أَنَّ اللهَ لَا شَيْءَ غَيْرُهُ ... وَأَنَّ كِتَابَ اللهِ أَصْبَحَ هَادِيَا

أبو قيس صِرْمة بن أبي أنس رضي الله عنه

4 وصارت (سورة البقرة) رمزًا للنهوض الإسلاميِّ، في رفع الظُّلم والعدوان، كما كانت بداية له

فيحكي العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه في معركة حنين، حين انكسر المسلمون ذكّرهم النّبيُّ ﷺ بعهد سورة البقرة، فقال: «الآن حمى الوطيس، ناد يا أصحاب سورة البقرة». أحمد (1776)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين

"فَلَمَّا سَمِعُوا النِّدَاءَ أَقْبَلُوا، فَوَاللَّهِ مَا شَبَّهْتُهُمْ إِلَّا بِالْإِبِلِ تَحِنُّ إِلَى أَوْلَادِهَا". أبو يعلى (3606). وحسن حسين سليم أسد إسنادها.

5 فجاءت سورة البقرة تبيِّن الدستور الهادي في العالم لإزالة آلامه، وتحقيق العدالة التي ينشدها في أجمل أحلامه.

الأساس الثاني: التَّرتيب المصحفيُّ

سورة البقرة هي السورة الثانية في الترتيب المصحفي، فهل لهذا من دلالة في معرفة موضوعها الكلِّيِّ؟

الجواب: هذه السُّورَة في ترتيبها الحكيم من المصحف:

بعد الفاتحة:

1. لأنها تضع أسس التَّفاصيل الأولى للمبادئ الجامعة للإسلام في سورة الفاتحة

2. وتعطي الاستجابة الإلهيّة لدعاء المؤمن في الفاتحة، عندما دعا الله عز وجل بأن يهديه الصراط المستقيم في الفاتحة.

وقبل سورة آل عمران:

لأن الكلام مع اليهود مقدّم من النّاحية التّاريخية والمكانيّة والموضوعيّة، فاليهود هم الفريق الأقدم، والأقرب إلى التّوحيد حينها.

وقبل سائر القرآن الكريم:

لأن سورة البقرة تمثّل المقدّمة الكبرى للتّفاصيل الدّقيقة التي نراها في بقية سُوَر القرآن الكريم.

الأساس الثالث: اسم هذه السُّورَة المباركة (البقرة)، وعلاقته بالموضوع الكلِّيِّ للسُّورَة

عندما تنظر في أسماء السُّوَر القرآنيّة يستفزك التَّدبُّرُ إلى أن تتساءل: هل لاسم السُّورَة تأثير على معرفة موضوعها الكلِّيِّ؟

الجواب: اسم السُّورَة يفتح آفاقًا عظيمة في محاولة إدراك الموضوع الكلِّيِّ، ويتجلّى ذلك من خلال ما يأتي:

ضياء [1]

(تسوير السورة) إعجازٌ لفظيٌّ ومعنويٌّ فريد

1. لم يسمّ الله -جلّ مجده- مُنْزلُ القرآنِ السُّوَر التي تكوّن منها القرآن المجيد فصولًا، ولا أبوابًا، ولا موضوعات، بل سمّاها سُوَرًا،
2. أهل الكتاب يقلّدون القرآن، وليس العكس: (سانتيس بانينو) الراهب الدومينيكاني يُقَسِّم نصّ كتابهم المقدّس إلى آيات عام 1527م، وفي عام 1551م قَسّم العالِمُ الفرنسيُّ (روبير إتيان) الإصحاحات إلى أعداد، كما تعرف اليوم تقريبًا.
3. العالَم يجد رجلًا أمّيًّا، هو محمد ﷺ، يخبرنا بدِقّة شديدة عن تقسيم هذا الكتاب الإلهيّ إلى (114) سورة، و(6236) آية، ووفق بيان دقيق لآيات كلِّ سورة.

ضياء [2]

معنى (الآية) والمجد الذي تكتنزه

النوع الأول: آيات القرآن المجيد:

فالآية منها هي الجملة المفصولة المتكونة من مجموعة كلمات بشكل خاص كما قال تعالى جده: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت: 3]

النوع الثاني: المعجزات المادية:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ [الإسراء: 59].

النوع الثالث للآيات: العجائب الكونية:

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾ [الروم: 20]

ضياء [3]

خواصُّ كلمة (سورة)

خاصية [1]

المنزلة الرفيعة للسورة: قَالَ النّابِغَةُ:

أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ أَعطاكَ سُورَةً
تَرَى كُلّ مَلْك دُونَها يَتَذَبْذَبُ

أَي: شَرَفًا ورِفْعَة.

خاصية [2]

أنها كاملة متكاملة، حيث مثّلت سُوْرًا للآيات.

خاصية [3]

هي دَرَجَةٌ إلى غَيرِهَا، فهي درجة إلى المعرفة الحقيقية للكون، فهي مشتقة أيضًا مما طالَ من البِنَاءِ وحَسُنَ.

تسوير السورة لا بد له من امتياز خاص

لاحظ الطِّيبيُّ رحمه الله أن من منابع الإعجاز البحث عن سبب (تسوير السُّورَة) فقال: "ولهذا السِّرّ كان التّحدي بالسُّورَة وإن كانت قصيرة، دون الآيات وإن كانت ذوات عدد". (فتوح الغيب 54/7)

البناء المنطقي للسورة، وغيث المعاني المنهمر:

كلُّ سورة لها شخصيتها المميزة التي لأجلها (سُوِّرت السُّورَة)، وصارت عَلَمًا على مُلْكٍ معرفي عظيم، "وهكذا تتكشف للناظر في القرآن آفاق وراء آفاق من التّناسق والاتّساق...كالكائن الحي الذي تجده مميّزًا في سماته وملامحه، وهو - مع هذا - واحد من جنسه على العموم! ونحن نرى في هذه السُّورَة - ونكاد نحس - أنها كائن حيٌّ، يستهدف غرضًا معينًا، ويَجْهد له، ويتوخّى تحقيقه بشتّى الوسائل.. والفقرات والآيات والكلمات في السُّورَة، هي الوسائل التي تَبْلُغ بها ما تريد!

ضياء [4]

هل تسميات السور توقيفية أم اجتهادية؟

الجواب: قال الطبري رحمه الله: "لِسوَر القرآن أسماءٌ سمّاها بها رسول الله ﷺ". (تفسير الطبري 100/1)، وذكر سليمان البُجَيرِميُّ رحمه الله أنّ أسماء السُّوَر، وترتيبها، وترتيب الآيات، كلٌّ من هذه الثلاثة بتوقيف من النّبيِّ ﷺ. (تحفة الحبيب على شرح الخطيب 24/2)

ضياء [5]

إشراقات نظام تسمية السُوَر القرآنيّة

1

لمْ تأتِ تسمية كثير من السُوَر على النّسَق الموضوعيّ، فلا تجد سورة تسمّى: (العبادات، أو المعاملات، أو الصّلاة، أو الزّكاة، أو السّياسية، أو الاقتصاد، أو السُنَن الكونيّة..) إلا في سُوَر محدّدة، مثل: سورة القتال، والتّوبة.

2

ولا تجد كثيرًا من السُوَر اتخذت تسمياتٍ تاريخيّةً، فلم تسمّ سورة الأنفال باسم معركة: (بدر)، مع أنها تتكلّم عنها منذ أول آية.

3

ولا ترى أن تسمياتِ السُوَر جاءت على نسقٍ واضحٍ لأسماء الرُموز الإسلاميّة المباشرة، مثل: أسماء المسلمين من آل البيت، وبقية الصّحابة -رضي الله عنهم أجمعين-، إلا ما ورد من تسمياتِ السُوَر بأسماء بعض الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، على نحو يستدعي التأمُل في التّخصيص، مثل سورة هود -عليه السلام-، الذي لم تكن قِصّته في سورته أكبر من قِصّة غيره؛ إشارة إلى عِظم معجزته واختصاصها بكونها معجزة معنوية، لا مادية كمعجزات من ذُكروا فيها من الأنبياء عليهم السلام.

4

تجد أسماء السُوَر اتُبِعَ فيه الأسلوب الرّمزيُ المثير للنّظر، والتّفكير، كالبقرة، وآل عمران، والنِساء، والمائدة، ومن أسباب ذلك:

السبب الأول:

التّميز في تفصيل القرآن الكريم؛ إذ لم يأت وَفْقَ أساليب التّأليف البشريّة المعتادة.

السبب الثاني:

لأنّ القرآن كتاب جمع بين خمسة مقاصد مجتمعة:

الهداية | والتربية | والموعظة | والتشريع | والإعجاز

ويتم استخراج ذلك كله بإعمال الاجتهاد البشري عمله، وفق مصادر التفسير المرعية من خلال:

التدبر | والتفكر | والتعقل.

ضياء [6]

لماذا هذه التَّسمية الفريدة المدهشة للزهراء الأولى، وهي أكبر سُوَر القرآن المجيد: (البقرة)؟

الجواب:

من أسباب تسمية هذه السورة بـ(البقرة)

سبب [1]

هذه التَّسمية تدلُّ على البناء التَّنظيميّ والدُّستوريّ المبكّر لحضارة الإسلام التي تشرق على العالم من المدينة؛ وتناسب الكيفية التي ينبغي أن تكون عليها أمّة الرّحمة للعالمين في المجالات الفرديّة والجماعيّة، فلا يبنون مجتمعهم وَفْقَ عقليّة أصحاب البقرة الإسرائيليّة، التي تقوم على الاستهزاء، وعدم أخذ الكتاب بقوّة، والتّستُّر على الجرائم.

سبب [2]

معرفة النّفسيّة الإسرائيليّة، وأثر التّعامل معها على أمّة الإسلام إيجاباً وسلباً، فتعلّمنا سورة البقرة أن ننظر كيف تكون علاقاتنا معهم في الجانب السّلبيّ والإيجابيّ وَفْقَ بيان هذه السُّورَة المشرق.

سبب [3]

الإشارة إلى الغنى الزّاخر للمعرفة القرآنيّة بالمعلومات التّفصيليّة الدّقيقة، فاكتنز ذكر بقرة بني إسرائيل إثارةً كافية لبني إسرائيل ولغيرهم؛ لجذب انتباههم إلى مصدرٍ ثريّ مليءٍ بالمعلومات التي يقتصر ذكرها على خاصّتهم؛ لأن قِصّة البقرة المذكورة غير مشهورة عندهم.

سبب [4]

قِصّة البقرة بيّنت أنّ تحقيق الفلاح والفوز الفرديّ والجماعيّ مرتبط بالإيمان الغيبيّ، فقد أمرهم نبيُّهم بشيء يتعلّق بالغيب فقابلوه بالاستهزاء والتّشكيك والرّيب، فصارت (البقرة) مدخلًا لفهم القلوب البشريّة التي انقسمت إلى نوعين:

الأول: القلوب العاقلة التي تؤمن بالغيب كالشهادة، وتتبع مبدأ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أمام الأنظمة الإلهية.

الثاني: القلوب القاسية التي مُسِخت ففاقت الحجارة في قسوتها وإفسادها الأرض.

الأساس الرابع المواضيع الكبرى في السُّورَة التي تهدي إلى الموضوع الكلِّيِّ

من أجل تحديد الموضوع الكلّيِّ للسُورَة لا بدّ أن ننظر في الموضوعات الكبرى التي عالجتها السُورة، فما هذه الموضوعات البارزة التي رأيناها في سورة البقرة؟

الجواب: أبرز المواضيع التي نراها في هذه السُورَة (7)، وهي:

موضوع [1] الارتقاء بالبشريّة من مرتبة العبودية إلى مرتبة (التّقوى)

1. شكّلت سورة البقرة منظومة واسعة في بيان التّقوى ووسائلها، وآثارها العظيمة في السّعادة الإنسانيّة الدُنيويّة والأخرويّة.
2. فالتّقوى تعني الحماية من الحساب الشّديد بين يدي الله عز وجل، وذلك يقتضي الحماية من المخافات المستقبليّة الدُنيويّة، والأخرويّة.
3. التّقوى من أعظم الأهداف الإنسانيّة، وأعظم الأهداف الحياتيّة.

فبدأت بالتّقوى:
﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:2].

وختامها التّاريخيُّ اقترن بالتّقوى؛ حيث كان آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:281].

وختامها التّرتيبيُّ اقترن بالتّقوى:
﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:282]

موضوع [2] سورة البقرة هي سورة المدنية الإسلامية

1. يمكن القول بأن سورة البقرة تدور حول موضوع إقامة الدولة المدنية الإسلاميّة؛ فوَسَم الطاهر بن عاشور- رحمه الله تعالى- هذا المعنى بأنه الجامعة الإسلاميّة، أي: القوم المجتمعون على الإسلام، الذين يكونون ضمن المدينة المستقرّة النّامية، وليس البادية المتنقّلة الظّاعنة.
(التحرير والتنوير 202/1)
2. أنشأت هذه السُورَة المجتمع المتكامل في تنظيماته الدّاخليّة، وعلاقاته الخارجيّة، فمثلت دستورًا متكاملًا يضمُ المواد المتعلّقة بإنشاء الحياة المدنية، وتنميتها، وحمايتها.
3. نظام المجتمع المسلم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتّقوى، فهي النُقطة المركزيّة في البناء المدنيّ الإسلاميّ في العبادات الذّاتيّة، والأحكام التّشريعيّة والقضايا السّياسيّة والإداريّة.

موضوع [3]

الخلافة الإنسانية في الأرض

1. ذكرت سورة البقرة أصل الاستخلاف الإنسانيّ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30].
2. وفصّلت وسائل النّجاح في هذا الاستخلاف من النّاحية الفكريّة (الإيمان)، والعمليّة (العبادات والأخلاق)، وقصّت قصّة أنموذج للاستخلاف الفاشل: (الاستخلاف الإسرائيليُّ في عهد موسى عليه السلام).
3. وبيّنت أنموذجين للاستخلاف النّاجح: (الاستخلاف الإبراهيميُّ، والإسرائيليُّ في عهد داود عليه السلام).
4. كان ذلك كله ملهمًا للأمّة الإسلاميّة الخاتمة لترث الملّة الإبراهيميّة: وتقيم دين الإسلام عليها تطبيقًا ونشرًا، وتنجح في نظام الاستخلاف.

موضوع [4]

وراثة الأمة المسلمة للمِلةِ الإبراهيمية، وإرجاع القبلة إلى مكة؛ لتُشكِّل عاصمةَ للإلهامِ العالمي.

1. اجتمع على إمامة إبراهيم عليه السلام اليهود والنّصارى والمسلمون، ولكن وراثته لا تكون بالانتساب، بل بالاكتساب: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 124].
2. جدّد إبراهيم عليه السلام بناء أول بيت وضع للناس مع ابنه إسماعيل عليه السلام، وأعلن للبشريّة أن دينه الإسلام: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 132].
3. الإسلام وصية إسرائيل لبنيه: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 133].
4. عادت القبلة إلى مكانها الأصليّ في مكّة؛ لتكون من أعظم الآيات التي يعلمها أهل الكتاب: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ﴾ [البقرة: 144].

مظهر [1]

المبدأ العامُّ الدّالُّ على قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى بخلق الخلق من العدم، أو بإقامتهم من الموات، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 28].

مظهر [2]

ذكر الله عز وجل قصّة قوم ماتت قلوبهم، فأراهم الله عز وجل معجزات متعدِّدة في إحياء الأجساد الميتة؛ عسى أن تكون سبباً في إحياء القلوب، فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 56].

مظهر [3]

جعل مبدأ إحياء الموتى إحدى النِّقاط المفصليّة في قصّة أساسيّة من قصص التجربة الإسرائيليّة، فقال: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: 73].

موضوع [5]

تقرير السُّورَة مبدأ إحياء الموتى، وبعث الحياة في النُّفوس المستضعفة، ويتجلّى ذلك بمظاهر متعدِّدة:

مظهر [4]

بيّن الله تعالى أن الموت في سبيل الله دفاعاً عن الأوطان والرجال والنِّساء والولدان، حياة: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 154].

مظهر [5]

بيّن الله تعالى أن الخائفين من الموت عند مواجهة المجرمين، سيجدونه أمامهم؛ ولذلك أماتهم، ثم أحياهم الله عز وجل أجسادًا، أو أفكارًا؛ لجعلهم آية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: 243].

مظهر [6]

ذكر الله عز وجل ذلك في القصص الثّلاث الأخيرة في السُّورَة، وهي القصص المدهشة، وتكرّر فيها ذكر إحياء الموتى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]، فكان هذا إيذاناً بأن القرآن إحياء للموت العقليّ، والفكريّ الذي ترزح الأمم تحت وطأته.

موضوع [6] "مبدأ السمع والطاعة لأعظم الدساتير الإلهية، واجتناب ورطة أصحاب البقرة الإسرائيلية"

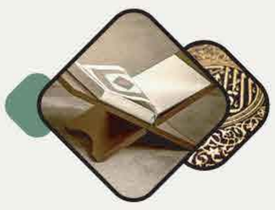

فالسمع والطاعة يمثّلان التّطبيق العمليّ للتّقوى، والاستخلاف النّاجح يقوم على الإنسان النّاجح، وعموده: الاستقامة على الدُّستور والقانون الذي عبّرت عنه السُّورَة بمبدأ: (السمع والطاعة)، فتجد في سورة (البقرة):

1. تجريماً للتّلاعب بالالتزام بالقانون، كأن يطيع الإنسان بعض الكتاب ويعصي بعضه الآخر، الذي يترتّب عليه الخزي في الواقع الحضاريّ بين الأمم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: 85].

2. وتجريماً للمستهزئين السّاخرين من هذه الفكرة المحوريّة لنمو الحياة وتنظيمها، فقال: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: 93].

3. وتسفيهًا للتّبعية العمياء للعلماء، والأمراء في مخالفة القوانين الإلهيّة؛ ممّا يؤدّي إلى إشاعة الظُّلم، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: 166].

4. لكأنّك بالخطاب القرآنيّ ينبعث من خلال السُّورَة قائلاً: أيها البشر! ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ﴾ [البقرة: 93]، فالسّمع والطّاعة للقوانين الإلهيّة، وما يستنبط منها، هو السبيل الوحيد لمنع القوى الشّريرة من الإفساد في الأرض، وسفك الدِّماء.. إنه مدار نجاحكم وسعادتكم، وفي الآية (105) خاطب الله عز وجل المؤمنين بما خاطب به الإسرائيليين، فقال: ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾.

5. تسمية سورة البقرة ينبئك بأن أكبر خطيئة اقترفها قوم موسى عليه السلام عدم السّمع والطّاعة؛ إذ قال لهم موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾، فلم يمتثلوا، بل قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: 67]

6. خُتِمتْ السُّورَة بإعلان المؤمنين الاستقامة على القوانين: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285].

7. وتلمح في هذا الإعلان المخبت المنيب مدحًا وثناءً من الله العليم البصير.

8. لما سمعوا وأطاعوا كافأهم الله عز وجل بهذا الختام الجميل العذب البديع العجيب، مبيّناً أنه يعطي لأمّة السّمع والطّاعة الرِّيادة، والسِّيادة، والقيادة للبشريّة الحائرة المظلومة في وجه الكفار الذين يسترون الحقائق ويغطُّونها، فقال عن المتّقين أصحاب: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، واعدًا إيّاهم بتحقيق الدُّعاء، وإجابة الرّجاء: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 286].

موضوع [7] سورة البقرة بين العهد الحقِّ والعهد الإسرائيليِّ الخُرافيِّ المفترى

1. تكشف هذه السُّورَة أنه لا يوجد عهد مطلق من الله عزوجل لشعب بعينه، بل عهود مشروطة لبني إسرائيل، كما هي لمن بعدهم من أتباع الأنبياء عليهم السلام.

2. وقد تلخّصت قصّة هذا العهد عندما نجح إبراهيم عليه السلام في الاختبار الذي وضعه الله عز وجل فيه: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: 124]، فكافأه الله بأن يكون إمامًا للعالمين ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾، فطمع أن يكون لذريته نصيب من ذلك العهد ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾، فبيّنَ الله عز وجل أن العهد لا يكون إلا للصالحين باعتبار أعمالهم، لا باعتبار أنسابهم ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 124].

3. فذكر الله عز وجل أول صفة للفاسقين، وهي: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: 27]؛ ليبيّنَ أنهم دمّروا علاقتهم بالله عز وجل؛ وليشير إلى ما لحق هذا العهد من الأساطير والأفعال النّاقضة له من قبل أهل الكتب الثّلاثة، ابتداء ببني إسرائيل، واختتاماً بأمّة خاتم النّبيّين عليهم السلام.

4. يصرُّ محرفو الإسرائيليين على أنّ الوعد الإلهيّ لإبراهيم، ثم لإسرائيل مطلق، ففي سفر التكوين 12: 1: وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ، وَمِنْ عَشِيرَتِكَ، وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ. 2 فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً، وَأُبَارِكَكَ، وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً. 3 وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ، وَلاَعِنَكَ أَلْعَنُهُ، وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ».
وفي سفر التّثنية: 14: 2 لأنك شعب مقدّس للرّبّ إلهك، وقد اختارك الرّبُّ لكي تكون له شعبًا خاصًّا فوق جميع الشُّعوب الّذين على وَجْهِ الأرض.

5. فيشيعون هذا، لكنهم لا يبدون أن هذا له تتمّةً في الموضع ذاته، وهو7: 9 فاعلم أنّ الرّبّ إلهك هو اللهُ الإلهُ الأمينُ الحافظُ العهد والإحسان للذين يحبُّونه، ويحفظون وصاياه إلى ألف جيل.
والمجازي الذين يبغضونه بوجوههم ليُهلكَهم، لا يمهل مَنْ يبغضه بوجهه يجازيه.

6. فذلك عهد لمن حفظ عهد الله عز وجل، وأعظم عهود الله عز وجل:
-توحيده -والإيمان برسله جميعاً

7. وهذه المعاهدة تماثل ما قاله الله عز وجل لأمة النّبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران:110]، ومثل ذلك ألقاب الفرقة النّاجية، والطّائفة المنصورة.

8. وللتمييز بين العهد الحقِّ والعهد المفترى تكرّرت كلمة: "ميثاق"، خمس مرّات، هذه أوّلها، ثم ذكرها الله عز وجل في سياق الكلام عن بني إسرائيل أربع مرّات: في الآية: 63، والآية: 83، والآية: 84، والآية: 93، وتكرّرت كلمة: "عهد" وما اشتقّ منها، عشر مرّات على الأقلِّ في هذه السُّورَة، ويكفي فيها أن تسمع الله عزوجل يذكر مواثيق بني إسرائيل، وعهد الله عزوجل المشروط لهم: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة:40]، وقال الله عزوجل عن الأمّة البارّة في الأرض ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ﴾ [البقرة: 177].

ابن الزبير الغرناطيُّ
رحمه الله (ت708هـ)

سورة البقرة تدور حول الصِّراط المستقيم أخذًا وتركًا

البقاعي رحمه الله
(ت 855هـ)

سورة البقرة تدور حول الكتاب الهادي

محمد رشيد رضا
رحمه الله (ت1354هـ)

السُّورَة شطران: شطر لأمَّة الدعوة، وشطر لأمَّة الإجابة

1 2 3

الأساس الخامس
مدد السابقين في تعيين سبب تسوير السورة

4 5 6

سيد قطب رحمه الله
(ت1386هـ)

يجمعها محور واحد مزدوج:

موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلاميّة.

موقف الجماعة المسلمة في أوّل نشأتها، وإعدادها لحمل أمانة الدّعوة، والخلافة في الأرض.

ابن عاشور رحمه الله
(ت1393هـ)

"الجامعة الإسلاميّة، واستقلال أهل الإسلام بمدينتهم"، وسمو الدِّين على ما سبقه، والتشريع والإصلاح

فضلاء موسوعة التفسير الموضوعي-الشَّارقة

خلافة الأرض

سورة البقرة

لعلك تسأل: كيف وصلت إلى هذه الخريطة الكلّيّة؟

الجواب: بعد تدبُّر عميق، وتفكر طويل، وبعد مراحل متعدّدة وصلت إلى هذه الخريطة:

الأساس السادس: الخريطة الكلِّيَّة التي تُظهر المحاور العامَّة لسورة البقرة

الموضوع العام

إشراق الحضارة الإسلامية على العالم وتجربة الاستخلاف الإسرائيلية

المقدِّمة الأولى

القرآن الكتاب الذي لا ريب فيه لإصلاح العالم، فهو أساس إدارة نظام الحياة في الأرض

[البقرة: 1-2]

المقدِّمة الثانية

التَّقسيم العالميُّ للواقع البشريِّ بالنسبة للانتفاع بدستور الحياة الذي لا ريب فيه (القرآن)

[البقرة: 2-20]

المحور الأول

الإعلان الإلهيُّ للبشريَّة عن النِّظام الحقيقيِّ الوحيد للحياة الإنسانيَّة، وهو نظام العبادة الذي يؤدِّي إلى الفلاح، وأرقى درجات السَّعادة، وبراهين ذلك

[البقرة: 21-29]

المحور الثاني

القِصَّة الحقيقيَّة لبدء التَّاريخ البشريِّ، والتَّكريم الإلهيُّ للإنسانيَّة بالاستخلاف في الأرض

[البقرة: 30-39]

المحور الثالث

(المحور الإسرائيليُّ) دعوة بني إسرائيل إلى الوفاء بالعهد، والإيمان بالنَّبيِّ الخاتم، والأنموذج الإسرائيلي بين النجاح والفشل في إقامة مبادئ الاستخلاف

[البقرة: 40-123]

المحور الرابع

إرث الأمة الإسلاميَّة للمِلَّة الإبراهيميَّة

[البقرة: 124-158]

المحور الخامس

أعظم الحقائق الكونيَّة التي يجب تبيينها للعالم، وامتنع أهل الكتاب عن تبيينها بالصُّورة المطلوبة: حقيقة التوحيد المقترنة بالرَّحمة، وموانع اعتناقها

[البقرة: 159-171]

المحور السادس

التَّمكين التَّشريعيُّ للحضارة الإسلاميَّة الجديدة التي تشرق على العالم من المدينة (القِسْط الأوَّل): وذكر الله عز وجل فيه النُّظُم التَّشريعيَّة الفقهيَّة الحياتيَّة، وآثارها في صناعة حياة الرُّشد، والعدل، والإحسان

[البقرة: 172-207]

المحور السابع

الدُّخول في السِّلم كافَّة (الإسلام والسَّلام)، فهو شرط تحقُّق الرُّشد، والعدل، والإحسان في الحضارة الجديدة التي تشرق على العالم

[البقرة: 208-214]

المحور الثامن

التَّمكين التَّشريعيُّ للحضارة الإسلاميَّة الجديدة التي تشرق على العالم من المدينة (القِسْط الثَّاني): وذكر الله عز وجل فيه النُّظُم التَّشريعيَّة الفقهيَّة الحياتيَّة، وآثارها في صناعة حياة الرُّشد، والعدل، والإحسان

[البقرة: 215-242]

المحور التاسع

سُنَنُ الخروج من حالة الاستضعاف وصناعة التَّوازن والسَّلام العالمِيَّيْن (سُنَّة التَّدافع)؛ لتقوم الحضارة الإسلاميَّة الجديدة في المدينة، وتخرج من استضعاف القوى المجرمة، كما أقام داود عليه السلام حضارته

[البقرة: 243-254]

المحور العاشر

الحضارة الإسلاميَّة الجديدة تشرق على العالم بالتَّعريف بعظمة الله عز وجل، ومزايا دينه، ودلائل قدرته؛ لتتحقَّق الثِّقة به في الخروج من الاستضعاف، ولتكون الرِّسالة عالميَّة

[البقرة: 255-260]

المحور الحادي عشر

إشراق الحضارة الإسلاميَّة بالإدارة المتميِّزة للأموال إنفاقًا عادلًا لها في المجتمع، وتنظيمًا لاستثمارها وتنميتها

[البقرة: 261-283]

الخاتمة

السُّورة تشرق بالحضارة الجديدة في العالم، فناسب أن تُختم بكنز من تحت العرش

[البقرة: 284-286]

النور الثالث

الأساليب المتبعة في سورة البقرة

1 الأسلوب التَّربويُّ الإصلاحيُّ الجذَّاب

كقولـه تعالـى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّـٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾

[البقرة: 40]

2 الأسلوب النَّفسيُّ العاطفيُّ السَّلس الكاشف

كقولـه تعالـى: ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ﴾ [البقرة: 187]

3 الأسلوب العقليُّ المنطقيُّ

كقولـه تعالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21].

4 الأسلوب التَّزكويُّ الوعظيُّ التَّذكيريُّ

المشـرق المتميـز، كقولـه تعالـى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾

[البقرة: 281]

5 الأسلوب الدُّستوريُّ القانونيُّ

الفائـق فـي المجـالات التّشـريعيّة التّنظيميّـة، كالـذي تجـده فـي آيـات الطّـلاق، والصِّيـام، وأنظمـة الحـج، والحرب والقتال

6 الأسلوب القصصي الرّوائي الآسر

كقولـه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ [البقرة:258]

المقدِّمة الأولى

القرآن الكتاب الذي لا ريب فيه
لإصلاح العالـــــم، فهو أساس
إدارة نظام الحياة في الأرض
[البقرة: 1-2]

المقدِّمة الأولى

القرآن الكتاب الذي لا ريب فيه لإصلاح العالم، فهو أساس إدارة نظام الحياة في الأرض

[البقرة: 1-2]

المناسبة والاتصال:

نجد ذلك في الآيتين الأولى والثانية: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:1-2]

فلماذا بدأت سورة البقرة بهذه البداية؟

الجواب:

طلب أصحاب الصّراط المستقيم الهدى من الله عز وجل في الفاتحة، فأجابهم هنا، وبيّن لهم أن الهدى موجود في الدُّستور الذي يدير الكون نحو الحياة الطّيبة السّعيدة الرّشيدة؛ ليؤسِّس فكرة الاعتماد على الدُّستور الذي يمثِّل كلمة الله عز وجل الخاتمة.. إنه المصدر المعرفيُّ الأوّل المبيِّنُ لأساس بناء الكون وسعادته، ولأنه كذلك؛ فقد جمع الله عزوجل في هاتين الآيتين خصائص القرآن الدّالّة على عظمة الإعجاز، وجلال الهداية بصورةٍ عجيبة تأخذ الأنفاس.

ربما تتساءل: ماذا تظنه اجتمع في هاتين الآيتين المباركتين من المزايا التي تقدِّم تلخيصًا معجزًا لخصائص (القرآن الكريم) دستور السّعادة والرِّيادة؟

الجواب: خصائص القرآن الكريم التي منحته دور الإصلاح العالميّ، كما توضِّحه هاتان الآيتان

1. الوضوح، والبيان.
2. المصدرية الإلهيّة للقرآن الكريم.
3. عَظَمَة المنزلة، وعُلُوُّ المكانة عند الله عز وجل، وعند عقلاء الأرض.
4. الكتابة المعتمدة على السّند من أهمِّ وسائل توثيقه.
5. التّحدي، والإعجاز.
6. هو الدُّستور الهادي لتنظيم الواقع الحياتيِّ الدُّنيويّ.
7. التّقوى شرط للانتفاع التّام بالقرآن، ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾

1 خاصِّيَّة [1] : الوضوح، والبيان

ويبصِّرنا بذلك قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أي: فكلام الله عز وجل في هذا الكتاب على عظمته وعلوِّ مكانته، ليس مُكَوّناً من حروفٍ غريبة لا يعرفها البشر، بل هو مُكوّنٌ من هذه الحروف العربيّة التي تتكلّمون بها، وتكتبون بها؛ لتعبِّر عن خاصِّيّة أسلوبيّة فريدة، فتمثِّل وجود ابتكار أسلوبيّ مشوِّق في القرآن الكريم، مع كونه يتكوّن من الحروف العربيّة المعتادة؛ ليدلّ على كنزٍ ضخم من المعاني، لا حدود له، وجُمِع ما ورد منها في أوائل السُوَر في قولك: (نصٌّ حكيم قاطع له سرٌّ)، أو (صراط عليٌّ حقٌّ نمسكه)، أو (طرق سمعَك النّصيحة)، أو (صحّ طريقك مع السُنّة).

2 خاصِّيَّة [2] : المصدريَّة الإلهيَّة للقرآن الكريم

وقد تسأل: ونحن نفسِّر الآيتين الأُولَيين من سورة البقرة، فأين ما يُبصِّرنا بالمصدريّة الإلهيّة للقرآن العظيم؟

الجواب: يبصِّرنا بذلك ثلاثة مواضع في هاتين الآيتين:

موضع [1]	موضع [2]	موضع [3]
الحروف المُقَطّعة، فهي تَدُلُّ على أنّ الرسولَ ﷺ مُبَلِّغٌ للقرآن الكريم، وليس مصدراً له.	﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، أي: المعهود لكم -وهو القرآن- قد جمع جميع خصائص الكمال التي يستحقُّ بها أن يكون الكتاب كاملاً، ومن ذلك أن يكون مهيمناً على الكتب السّابقة، خاتماً لها.	قوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾، فإن من معاني الرّيب المنفيّ في الكتاب: الرّيب في مصدريّتِه الإلهيّة.

3 خاصِّيَّة [3] : عَظَمَة المنزلة، وعُلُوُّ المكانةِ عند الله عز وجل، وعند عقلاء الأرض

ستسأل: من أين استنبطنا علوّ المكانة ضمن هذه الآيات؟

الجواب: يبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، فالكتاب هو القرآن، فالمعنى: هذا القرآن، و﴿ذَٰلِكَ﴾ للإشارة إلى البعيد مكاناً، أو مكانة، أي: هذا الكتاب العظيم المنزلة، البعيد المكانة، السّامق الرُتبة، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى:10].

4 خاصِّيَّة [4] : الكتابة المعتمدة على السَّند من أهمِّ وسائل توثيقه

فإن سألت: كيف بصَرنا قوله: ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أن القرآن يجب أن يُكتب مع أن الرسول ﷺ الذي بلّغه كان أميًا؟

الجواب:

يبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾؛ فهو الدُستور الوحيد الذي لم يتعرض للتَّغيير، أو التَّحريف منذ أن نزل وكُتب، فاشتقَّ اسمه الكتاب من كَتَبَ، بِمَعْنَى: جَمَعَ وَضَمّ؛ لِأَنّ الْكِتَابَ تُجْمَعُ أَوْرَاقُهُ وَحُرُوفُهُ، وتسميته كتاباً يدلُّ على وُجُوبِ كِتَابَتِهِ؛ ليتمّ التَّوثيق الكتابيُّ له في السُطور، فيوازي حفظه في الصُدور، وهذا معنى قول الله تعالى لنبيّه ﷺ: «وأنزلت عليك -أي: يا محمّد- كتابًا لا يغسله الماء» "مسلم (2865)"، أي: لا يمحى، والكتاب الذي يُعَلِّمُهُ الأمّيُ يصدِّق ما ورد في سفر أشعياء:

"29: 12 أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة، ويقال له: اقرأ هذا، فيقول: لا أعرف الكتابة".

5 خاصِّيَّة [5] : التَّحدي، والإعجاز

فإن قلت: ما وجه الدِّلالة على التَّحدي والإعجاز في هاتين الآيتين؟

الجواب:

يبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ [البقرة:1-2]، فعلى الرَّغم من تكوُّنه من الأحرف المعهودة، إلا أنه لا يمكن الإتيان بمثله، ويقتضي قوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ ألا يشكّ فيه العقلاء، وألا يحاول الطَّعن فيه النُبلاء، فالرَّيب بمعنى: الشَّك، وبمعنى: التُهمة، فلا شكّ فيه، ولا تهمة تعتريه.

«والفرق بين كلام الله وكلام غيره، كالفرق بين خلق الله عزوجل وصنع غيره: يصنع الإنسان تماثيل من التُراب، فانظر إلى الإنسان المخلوق من الذَّرّات ذاتها؛ لتجد أن الله عزوجل وضع فيه سرّ الحياة.. وهكذا القرآن.. حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلامًا وأوزانًا، ويجعل منها الله عزوجل قرآناً وفرقاناً».

6 خاصِّيَّة [6] : هو الدُّستور الهادي لتنظيم الواقع الحياتيِّ الدُّنيويِّ

قد تسأل: كيف دلّت هاتان الآيتان على أنّ القرآن كتاب الهداية العظمى لكافة شؤون الحياة؟

الجواب:

يبصِّرنا بذلك قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة: 2]، فوصفه بالكتاب جاء على سبيل الحقيقة، فهو المنهج المكتوب الكامل الذي لا يُنسخ؛ ليكون دستور البشريّة المنظِّم للأمور الحياتيّة، وهو هدى يحمل الأنوار الهادية في القضايا الفرديّة، والجماعيّة، والعالميّة المتشابكة.

7 خاصِّيَّة [7] : التَّقوى شرط للانتفاع التَّام بالقرآن

الكتاب يعطي قوّته وهدايته للمتّقين لا غير، ويبصِّرنا بذلك قول الله تعالى: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾.

فإن سألت: فما مراتب الهداية في القرآن؟

الجواب: القرآن له ثلاث مراتب في هداه للعالم:

مرتبة [1]	مرتبة [2]	مرتبة [3]
مرتبة النّاس عموماً	مرتبة المؤمنين	مرتبة المتّقين
﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:185]. فالهدى هنا بمعنى: البيان، والإرشاد، والدِّلالة، والإعلان العامِّ عن مصالح البشر.	﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ﴾ [فصلت:44]، والهدى للمؤمنين بمعنى: الانتفاع الجزئيِّ الفرديِّ، أو الجزئيِّ الجماعيِّ.	وهي المرتبة العليا: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:2]، فالمتّقون صنفٌ خاصٌ من المؤمنين، إلا أنهم أعظم المؤمنين به انتفاعاً.

وقد تتساءل: ما الفائدة الواقعيّة من نسبة الهداية للقرآن؟

الجواب:

فائدة نسبة الهدى للقرآن، أن نستقي الهدى في معناه العامِّ من الكتاب، لا من المناهج الوضعيّة القاصرة.

المقدمة الثانية

التَّقسيم العالمـــيُّ للـــواقع البشرِيِّ بالنسبـــة للانتفـــاع بدستور الحياة بدستور الحياة الذي لا ريب فيه (القرآن)

[البقرة: 2-20]

المقدمة الثانية

التَّقسيم العالميُّ للواقع البشريِّ بالنسبة للانتفاع بدستور الحياة بدستور الحياة الذي لا ريب فيه (القرآن)

[البقرة: 2-20]

تبدأ هذه المقدمة من قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]

وهنا ترى المناسبة والاتِّصال بين الآيات يُظهران جمال النظم القرآني:

فبعد معرفة خصائص الكتاب العظيم في القِسم الأول من المقدِّمة، يأتي السُّؤال: ما حال العالم في التَّعامل مع ذلك الكتاب العظيم المكانة؟ وكيف يتفاعل البشر معه؟ وما صفات من ينتفع به؟ ومن الذين يعملون ضدَّهم؟

هنا تأتي الإجابة في الآيات من [2-20] من هذه السُّورَة المباركة؛ لتبيِّنَ أقسام العالم في المنظور الإسلاميِّ، ويظهر من خلال ذلك التَّقسيم العالميُ الحقيقيُ، لا الزَّائف الذي تخدع به جماهير النَّاس.. إنه التَّقسيم الذي ينبغي أن يكون حاضرًا في العقليّة المسلمة عند التُّعامل مع العالم، وهو التَّقسيم الذي يجب بناء العلاقات المحليّة والدّوليّة وَفْقَه.

أقسام العالم في المنظور القرآني من حيث الموقف من القرآن الكريم [البقرة: 2-20]

ذكر الله عز وجل هنا الأقسام الثلاثة المتفاعلة مع دستور الحياة تطبيقًا، أو محاربة:

قِسم [1]

المتَّقون، وهم المحكِّمون للكتاب المؤمنون ظاهرًا وباطنًا، وهم صِنفٌ خاصٌ من المؤمنين [البقرة: 2-5].

قِسم [2]

الكفَّار المتطرِّفون المحاربون لإنذار الكتاب، وهم صنف خاصٌ من الكفار [البقرة: 6-7].

قِسم [3]

المنافقون، وهم نوعان: الخُلَّص (المَثَل النَّاريُ)، والمترددِّون (المَثَل المائيُ) [البقرة: 8-20].

وهناك أقسام أخرى للعالم ذكرها الله عز وجل في بقية السُورَة منها:

قِسم [4]

المؤمنون عامّة من الآية (104) (متّقون وغير متّقين).

قِسم [5]

الكفّار غير المعاندين، وتبدأ مخاطبتهم مع سائر الأصناف، من قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: 21].

قِسم [6]

اليهود ويبدأ ذكرهم من الآية (21)، ثم خُصِّصوا بنصيب كبير من الآية (40).

قِسم [7]

النّصارى دخلوا في خطاب الآية (21)، وصرّح باسمهم ابتداء من الآية (62).

قِسم [8]

الصّابئون دخلوا في خطاب الآية (21)، وصرّح باسمهم ابتداء من الآية (62).

فإن سألت: كيف رسمت سورة البقرة خريطة العلاقات العالميّة؟ وما فائدة ذلك في المجالين السِّياسيِّ والدُّبلوماسيِّ؟

الجواب:

اشتملت السُورَة على خريطة عالميّة تنير الوعي بأوضاع العالم، وتقدِّم توعية سياسيّة فريدة، تجمع بين تحليل النّفسيّات، ووصف الواقع، وكشف خفايا المؤامرات، وبيان كيفية التُعامل العادل في الحالات المختلفة؛ لذا وجب أن تكون السُورَة محور الاهتمام الإعلاميِّ، والتّعليميِّ، والثّقافيِّ في وسائل الإعلام، والتّوجيه، والتّربية.

الأقسام الثلاثة المتفاعلة مع دستور الحياة الهادي

القسم الأول: المتّقون وهم صنف خاصٌ من المؤمنين [البقرة: 2-5]

مكافأتهم على الاستقامة على تلك الصِّفات

مرتبة التقوى

بصيرة 1

يبصِّرنا قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بمراتب التّرقي في الكمال الإنسانيِّ.

فأول المراتب:

مرتبة [1] مرتبة التَربية الإلهيّة للخلق

وهذه المرتبة ذكرها الله عز وجل في تعريف الخلق بأنفسهم في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2]، خلقهم الله عز وجل كما شاء، في الوقت الذي شاء، وزوّد كُلًّا منهم بما يحتاج إليه من نظامٍ حياتيٍّ ضرويٍّ، غير إرادي من النّفَس، وطريقة الحياة شُربًا وطعامًا.

ثم يأتي:

مرتبة [2] العبادة الاختياريّة

وهي التي دلّ عليها قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: 5]، التي لا تكون إلا بالسّير على الصّراط المستقيم.

ويتمُّ التّرقّي من المرتبة الثّانية إلى:

مرتبة [3] مرتبة التّقوى

فنقلهم الله عز وجل من مقام العابدين نَقْلَةً نوعيّة إلى مرتبة المتّقين، فقال هنا: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

بصيرة 2

يبصِّرنا قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2] بأن معيار الانتفاع الكامل بالقرآن إنما يكون بالتقوى، وأن التقوى لا تتحقّق دون الانتفاع بالكتاب؛ وبذا يكون بناء التقوى أهمّ الأهداف التي يجب أن تعمل الأفراد والحكومات على تحقيقها.

بصيرة 3

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ تعرِّفك إلى التّقوى.

فما معنى التّقوى؟

الجواب: هي الوقاية الحقيقيّة، والحماية الصّادقة للإنسانيّة، بترك كلِّ ما يسبِّب الضّرر من الجرائم والصِّفات الخسيسة والرّذائل، ولا يتمُّ ذلك على أحسن وجه إلا إذا ملأ الإنسان نفسه بالصِّفات الكريمة النّفيسة، والفضائل، فالتّقوى توجد الإنسان الصّالح الذي يعمر الحياة، ويحمي نفسه من نقاط الضّعف الكامنة، والأخطار المستقبليّة.

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله:

" التَّقْوَى ألَّا يَجِدَ الْخَلْقُ فِي لِسَانِكَ عَيْبًا، وَلَا الْمَلَائِكَةُ فِي أَفعَالِكَ عَيْبًا، وَلَا مَلِكُ العرش في سِرِّك عَيْبًا" (تفسير الرازي 2/ 268)

بعد أن تعرفنا على المراد بالتقوى، وتجلّى لنا واسع دلالة لفظ (التّقوى)، نتساءل هل التقوى منزلة واحدة أو أنها درجات متعدّدة؟

الجواب:

درجات التّقوى:

1. (اتّقَوْا ما حُرِّم عليهم، وأدّوا ما افتُرِض عليهم)

2. عن الحسن بن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دَعْ مَا يَرِيبُكَ، إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ».
"أحمد (1723) وقوّى الذهبي إسنادَه".

3. وجود النَّفْس اللّوامة، التي تؤنِّب الذّات على فعل الأخطاء، وتلوم على التقصير.

صفتان تؤسّسان التقوى في قولهِ تعالى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

صفة [1]

النفس المضيئة الطّموحة المتطلّعة إلى التّقوى، ويبصّرنا بذلك ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾:

صفة [2]

الاهتداء بالقرآن، ويبصّرنا بذلك: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، فالانتفاع الكامل بالقرآن إنما يكون بالتّقوى، والتّقوى لا تتحقّق دون الانتفاع بالكتاب.

فبدأ القرآن بمرتبة التربية الإلهيّة للخلق ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2]، ثم نقلهم إلى مرتبة العبادة الاختيارية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: 5]، ثم رقاهم إلى مرتبة التّقوى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]، وفي ذلك إشارة أن يكبر طموحهم، فيتطلّعوا لمرتبة المتّقين.

الصِّفات الخمس المؤسِّسة للتَّقوى

ربما تتساءل: ما خماسيَّة بناء التّقوى؟ أو ما الصِّفات التي تؤسِّس للتّقوى؟

الجواب:

الصِّفتان اللتان تكونان مصدرًا للتّقوى بصّرنا بهما قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، لكنّ الآيتين الثّالثة والرّابعة تحتويان على الصِّفات الخمس المؤسِّسة للتّقوى، وهي:

1 صفة [1] الإيمان بالغيب ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: 3]

(آمن)، أي: صار ذا أمن، والغيب ما غاب عن الإنسان رؤيته، أو إدراكه على وجهه، يعني أنهم استطاعوا أن يكونوا ذا أمن، وسكون، وطمأنينة؛ لأنهم آمنوا بما يحميهم من التّذبذب، والارتباك، والتّردُّد، والحيرة، حيث اعترفوا بما أخبر به الرسول ﷺ من الغيب.

وقدّم هذه الصِّفة:

1
لأنها أساس الصِّفات الأخرى.

2
وتمثِّل صفة قلبيّة عقليّة لإدراك بناء الكون المخلوق الذي يتكوّن من عالم الشهادة، وعالم الغيب، وكلاهما يدلُّ على الخالق الذي لا تدركه الأبصار.

3
أنها تمكنك من تحديد أهدافك في الحياة بوضوح، وما يتلوها من مظاهر جزئية لها.

2 صفة [2]

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 3]

الصفة التي توجد الإشراق الإنسانيّ بصلة المخلوق بالخالق مالك الملك العالم، ووصف أداءهم للصلاة بأنهم يقيمونها؛ لأن الإقامة تقتضي أداء صورتها، وإنجاز حقيقتها، والتّكلُّف لذلك.

وسميت صلاة؛ لأن الصّلاة هي الدعاء لغة، فغايتها ذكر الله عز وجل، وتعويد النّفس على دعائه؛ لتستمدّ منه النّجاح في الحياة.

3 صفة [3]

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 3]

صفة العطاء لتواصل المخلوق ببقيّة الخلق في عالم الشهادة، فينفق من كلِّ رزق رزَقَه الله عز وجل إيّاه من قوّة، ومال، وجاه، وعلمٍ ابتغاء العطايا في علم الغيب.

4 صفة [4]

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: 4]

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن والسُّنّة المقبولة، ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الكتب، سواء أوصلت أو لا.

وهذه الصِّفة تمثِّل صفة السّلام الدِّينيِّ بجميع الكتب الإلهيّة.

وهي أعظم مميِّز للمسلمين عن غيرهم من أهل الكتاب.

5 صفة [5]

﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 4]

صفة اليقين المطمئن بالعدالة اللّازمة، وإنصاف العاملين والمظلومين في الحياة الحقيقيّة القادمة بعد الحياة الأولى، واليقين علم تشاهد منه الغيوب بصفاء القلوب.

1 الصفة الأولى:

الإيمان بالغيب ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 4]

الصِّفة القلبيّة العقليّة لإدراك بناء الكون

ما المعاني التي تتعلّق بصفة الإيمان بالغيب؟

الجواب: يتعلّق بها ثلاث معان:

1 {يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ}

وجدوا الأمن والاطمئنان، بالتّصديق بالجَنان، والإقرار باللِّسان، والخضوع والعمل بالجوارح والأركان، فآمنوا بالمغيّب عن العيون البشريّة؛ لأن العقول تقتضيه، والأخبار الثّابتة ترويه كالإيمان باللّهِ، وملائكته، ورسله، وما خفي على البشريّة من العوالم الزّمانيّة والمكانيّة ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النحل: 77]، والأحداث التّاريخيّة الماضية والمستقبليّة.

2 تؤمن بالله عز وجل في السِّرِّ كما آمنت به في العلن ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [فاطر: 18].

3 صفة الإيمان بالغيب من أعظم أبواب الرُّدود على الملحدين، وتقدِّم حقيقتين:

1 تقدّم للإنسان أهدافاً حقيقيّة في الكون، وتحقّق للحياة غاياتها العظمى، وتبيّن أن هناك معنىً للوجود، فآمنوا بما يحميهم من التّذبذب، والارتباك، والتّردُّد والحَيرة، فتقول الملائكة لربّها عن المؤمنين: «يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ»، فيَقُولُ: «وَهَلْ رَأَوْهَا؟»، فيَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا"، فيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟"، فيَقُولُونَ: «لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا». "البخاري (6408)"

2 الإيمان بالغيب يؤدّي إلى اكتشاف الكون، عن ابن مسعود رضي الله عنه يَبْلُغُ به النّبيّ ﷺ: «مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً، إِلَّا قَدْ أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ)) "أحمد (3578)، وصحّحه الأرناؤوط"

2 الصِّفة الثانية: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 3]

وهي صفة تقتضي اتصال الضّعيف بالملك القوي، ولها أربع حقائق:

1 ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

أن يُظهروا الاهتمام بها، فالْقِيَام هُوَ الِانْتِصَابُ الْمُضَادُ لِلْجُلُوسِ، وَالِاضْطِجَاع، والخمول، والكسل.

2 ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

يداومون فيربحون مِنْ قَامَتِ السُوقُ إِذَا نَفَقَتْ، فبيعت السِّلَع، وربح التّاجر.

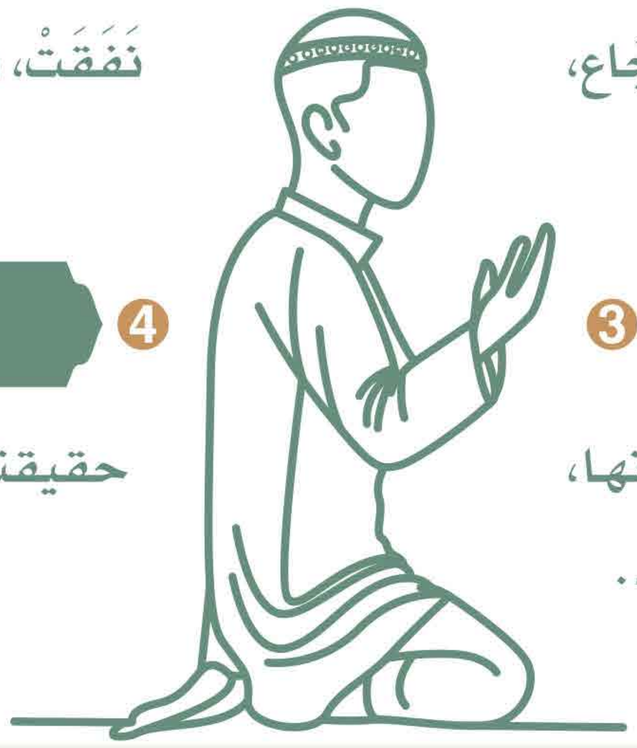

3 ﴿وَيُقِيمُونَ﴾

صورة الصلاة وهيئتها، بتعديل أركانها، وحفظها من الخلل، كما يقام العُود.

4 ﴿وَيُقِيمُونَ﴾

حقيقتها وروحها؛ حتى يتلذّذون بها.

وقد تسأل ما الحكمة من ذكر هذه الصِّفة هنا في أول سورة البقرة؟

الجواب:

ذكرها الله عز وجل في أوّل سورة البقرة؛ ليدلِّل على صدق نبوّة النّبيّ ﷺ، وليقيم الحجّة على أهل الكتاب.

لأنّ آل إبراهيم عليه السلام كانوا يقيمون الصلاة: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [الأنبياء: 73]

وفي سفر (التكوين 17 :3-5) "فَسَقَطَ أَبْرَامُ عَلَى وَجْهِهِ ...»، ولكن أهل الكتاب أضاعوا هيئة صلاتهم.

ما الحكمة من التعبير بلفظ (الصلاة) عن العبادة المعروفة، بينما قصرها العرب على الدعاء؟

الجواب:

لأنها أعظم أوجه صلة الإنسان الضّعيف المحتاج بربِّه القويِّ الغنيِّ، فالصلاة تعني:

1 الصِّلَة الممتلئة بالثّناء الحسن

الدّالِّ على المحبّة، والمكانة المتميزة للمصَلّى عليه، ومن ذلك صلاة الله عز وجل على نبيِّه ﷺ.

2 الصِّلَة الممتلئة بالدُّعاء

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ﴾ [التوبة: 103]، **أي: ادع لهم أن يثني الله عز وجل عليهم، فَقَالَ ﷺ لبعضهم: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى».**

"البخاري (1497)".

3 الصِّلَة الممتلئة بالثّناء والدعاء

من خلال الهيئة الخاصّة العظيمة.

إنها الصِّفة التي تحرِّر الإنسان من عبادة العبيد؛ ليكون سيِّد قراره بهداية العزيز الحميد

سجدةٌ تَخْفِضُ الجَبَاهَ ولكنْ ... عَزَّ فيهـــا مُسَبِّحٌ وتَعَالـى
ظنّها الجاهلون غُلًّا على العبدِ ... ولكـــــنْ تُحَطِّمُ الأغـــلالا
تُثْبِتُ الوجهَ والجوارحَ في الأر ... ضِ، ولكنْ تُقَلْقِـــلُ الأجبـــالا
تَهْدِمُ الشّركَ والوساوسَ في النّفـ ... ـسِ، ولكـــنْ تُشَيِّدُ الأجيـــالا
في سكونٍ، وللقلوبِ مَسِيرٌ ... سَخَّـــــرَ الأرضَ رَهبةً وجَلالًا
هـــي لله، وحّدَتْـــهُ، فَقَرَّتْ ... ومَحَـــتْ كلّ غاشـــم يَتَعَالى
مَنْ وَعَاها: وَعَى السِّيادةَ في الـ ... ـأرضِ جَـــلالاً، ورحمَـــةً، وجَمَالا

الدكتور عبد الوهاب عزام رحمه الله

3 الصِّفة الثالثة: الإنفاق ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 3]

الصِّلة بالمخلوقين، حيث تنفق ما عندك في عالم الشَّهادة؛ ابتغاء العطايا في عالَم الغيب

وقد تسأل: ما الحكمة من ذكر الإنفاق ضمن الصِّفات الأساسيّة للمتّقين في أوّل سورة البقرة؟

الجواب:

1. الصّلاة تبيِّن الصِّلة المباشرة بالله عز وجل، والإنفاق يبين الصِّلة المباشرة بخلق الله عزوجل.

2. سورة البقرة تبني عاصمة الحضارة الإسلاميّة الجديدة التي بدأت بالإشراق على العالم، وذلك يعني أن تبني لها الاستقلال الاقتصاديّ في العالم.

فيدخل في الإنفاق:

- التكافل التطوعي
- والتعاون الاستثماري.

وتكرر الإنفاق في هذه السُّورَة في أكثر من اثني عشر موضعًا، وذلك يعني تحصيل المال وسائر أنواع الرِّزق المكتسب؛ ليتم إنفاقه في الوجوه المشروعة.

فإن قلت: الإنفاق هنا أعمُّ من الزّكاة، فماذا يدخل فيه؟ وما المقدار الذي ينبغي إنفاقه؟

الجواب: يَدْخُلُ فيه: الْإِنْفَاقُ الْوَاجِبُ، وَالْإِنْفَاقُ الْمَنْدُوبُ، وقد رتّب الله عز وجل القَدْر الذي ينبغي إنفاقه من المال على المراتب الآتية:

1. النّفقات الواجبة، كالنفقة على النّفس، والأهل.
2. الزّكاة، قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَنْ كَنَزَهَا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهَا، فَوَيْلٌ لَهُ، إِنَّمَا كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تُنْزَلَ الزَّكَاةُ، فَلَمَّا أُنْزِلَتْ جَعَلَهَا اللَّهُ طُهْرًا لِلْأَمْوَالِ». "البخاري (14049"
3. الْإِنْفَاقُ فِي أنواع الْجِهَادِ؛ لحماية الثغور العلميّة، والأمنيّة، والمكانيّة.
4. الإنفاق على قضاء الدّين.
5. الإنفاق على المحتاجين خارج نطاق الزّكاة: إن لم يكن معهم ما يكفيهم.
6. الْإِنْفَاقُ الْمَنْدُوبُ.
7. إنفاق الزّائد الذي لا يُحتاج إليه في الحال، أو في المآل القريب، مما جرت العادة بعدم التّضرُّر بإنفاقه.
8. ينبغي أن تعرف التّوازن الكامل بين الإنفاق وبين الإمساك ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: 29].

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عِنْدِي دِينَارٌ فَمَا أَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «أَنْفِقْهُ عَلَى نَفْسِكَ». قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، فَمَا أَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «أَنْفِقْهُ عَلَى أَهْلِكَ». قَالَ: عِنْدِي آخَرَ، قَالَ: «أَنْفِقْهُ عَلَى وَلَدِكَ». قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، فَمَا أَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «أَنْفِقْهُ عَلَى خَادِمِكَ». قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، فَمَا أَصْنَعُ بِهِ قال: «أنت أعلم». "ابن حبان (4233)، وحسّنه الأرناؤوط".

وعن ابن عمر رضي الله عنه، وإبراهيم النّخَعيّ، ومجاهد-رحمهما الله- قال:

"كانوا يرون في أموالهم حقًا سوى الزّكاة" "ابن أبي شيبة (10625) بسند صحيح"

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن النّبيّ ﷺ قال:

«ليس المؤمن بالذي يشبَعُ وجارُه جائع إلى جنبه». "المعجم الكبير (12741)، وصحّحه الألباني"

وفي هذا التعبير المثير ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، يبرز لنا هذا السؤال: ما معنى قوله: ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾؟ ما الرِّزق الذي ينفقونه؟

الجواب: الرِّزق الذي ينفقونه يشمل ما يأتي:

1 الرِّزق الذي ينفقونه هو العطاء الجاري الذي يصلهم من ربِّهم رضي الله عنه، وهو النّصيب المقسوم، والحظُّ المعلوم، سواء أكان من المال، أم من الجاه، أم من العلم، أم من القوّة.

قال عُوَيْفُ القَوافي في عُمَرَ بنِ عبدِ العَزِيزِ رحمه الله:

" سُمِّيتَ بالفارُوقِ فافْرُقْ فَرْقَه ... وارْزُقْ عِيالَ المُسْلِمينَ رَزْقَهْ

2 فيدخل في الرِّزق كلُّ عطاء يصل من ربِّ الأرض والسّماء، مثل:

1 الغذاء

كما قال تعالى ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ [يُوسُف: 37]

2 والمسكن والماء

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: 6]

3 والمال السّائل، والكنوز المدّخرة، مهما كان مصدرها

كما قال الله عز وجل -تعقيباً على كنوز قارون-: ﴿وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ﴾ [القَصَص: 82].

3 أنواع الرِّزق:

1 ظاهرة:

للأبْدانِ، كالأَقْواتِ، والكنوز، والطّعام، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾ [الكهف: 19]، أي: بطعام يتغذّى به.

2 باطنة:

وهي أرزاق القُلُوبِ، والنُّفوسِ، والعقول، كالمَعارِف، والعُلُوم.

4 قال ﷺ:

«إِنَّ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ التَّكْبِيرَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَعْزِلُ الشَّوْكَةَ عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ وَالْعَظْمَ وَالْحَجَرَ، وَتَهْدِي الْأَعْمَى، وَتُسْمِعُ الْأَصَمَّ وَالْأَبْكَمَ حَتَّى يَفْقَهَ، وَتَدُلُّ الْمُسْتَدِلَّ عَلَى حَاجَةٍ لَهُ قَدْ عَلِمْتَ مَكَانَهَا، وَتَسْعَى بِشِدَّةِ سَاقَيْكَ إِلَى اللَّهْفَانِ الْمُسْتَغِيثِ، وَتَرْفَعُ بِشِدَّةِ ذِرَاعَيْكَ مَعَ الضَّعِيفِ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ، وَلَكَ فِي جِمَاعِكَ زَوْجَتَكَ أَجْرٌ». "أحمد (21484) وصحّح إسناده الأرناؤوط، والألباني في الصحيحة (575)"

فإن قلت: ما الحكمة من إسناد الرِّزق إلى الله عز وجل دون العبد، فقال: ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾ ولم يقل: ومِنْ رِزْقِهم؟

الجواب:

1

الرِّزق من ربِّك، فلا تغترّ بنفسك، لا تكن كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾

2

يذكِّرك بأنك تضارب في رزق أعطاكه الله عز وجل، وستربح من الله عزوجل الذي أعطاك هذا الرِّزق، عندما تُخرج منه شيئاً يسيرًا، تنشره على بقية بني الإنسان والمخلوقات حولك.

وكان ابن تيمية رحمه الله يقول:

أَنَا الْفَقِيرُ إِلَى رَبِّ الْبَرِيَّاتِ ... أَنَا الْمُسَيْكِينُ فِي مَجْمُوعِ حَالَاتِي
أَنَا الظَّلُومُ لِنَفْسِي وَهِيَ ظَالِمَتِي ... وَالْخَيْرُ إِنْ يَأْتِنَا مِنْ عِنْدِهِ يَأْتِي
لَا أَسْتَطِيعُ لِنَفْسِي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ ... وَلَا عَنِ النَّفْسِ لِي دَفْعُ الْمَضَرَّاتِي
وَلَسْتُ أَمْلِكُ شَيْئًا دُونَهُ أَبَدًا ... وَلَا شَرِيكٌ أَنَا فِي بَعْضِ ذَرَّاتِي
وَالْفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لَازِمٌ أَبَدًا ... كَمَا الْغِنَى أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي

وقد تسأل: ما الحكمة في التعبير بـ: ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾ بـ(نا) الدّالّة على العظمة، ولم يقل: (رزقتهم) مع أنه واحد أحد جل جلاله؟

الجواب:

التعظيم هنا أقوى في إدخال الهيبة عليك.

فإن قلت: ما الحكمة في اختيار الفعل ﴿يُنفِقُونَ﴾ على أيِّ فعلٍ آخر مثل: يقدِّمون، يعطون؟

الجواب:

لأنه أعظم دلالة، وأوضح مقصودًا، فـ﴿يُنفِقُونَ﴾ مشتقةٌ من (أنفق)، وأصلها (نَفَقَ)، من نَفَق البَيْعُ نَفَاقاً، كأنّ رأس المال ذهب، وخلفه عوض عنه: رأس مال مع ربح، فالنّفقة تقتضي ذهاب شيء مقابل الحصول على شيء، فهم عندما ينفقون لا بدّ أن يربحوا، والسبب واضح.. أنهم يتعاملون في إنفاقهم مع ربِّهم عز وجل، فهو الضّمين لهم بتحقُّق ما يريدون، وفوق ما يريدون.

4 الصِّفة الرابعة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [البقرة: 4]

صفة السّلام الإيمانيِّ بالجمع بين الكتب الإلهيّة.. إنها أعظم مميِّز للمسلمين عن محرِّفة أهل الكتاب

المعنى:

والذين يؤمنون بما أنزل إليك من الوحي الخاتم إيمانًا تفصيليًا، ويؤمنون بما أنزل من قبلك من الوحي السّابق على الأنبياء؛ إبراهيم، وموسى، وعيسى، وغيرهم عليهم السلام إيمانًا إجماليًا.

فإن قلت: كيف ظهر الإعجاز البيانيُ القرآنيُ في هذه الصِّياغة المدهشة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾؟

الجواب: يظهر ذلك من خلال سوق البصائر الآتية:

بصيرة 1

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ عبّرت عن المتّقين عمومًا، وعن صنفٍ آخر خاصٍّ من المتّقين في الوقت ذاته هم المؤمنون من أهل الكتاب، فالواو مع تجدُّد ذكر الاسم الموصول يحبوانك بمعنيين:

1 إكمال صفات المتّقين الذين ذكرهم من قبل، فتكون هذه الصّفة الرّابعة، وقد ميّز الله عز وجل الصّفتين الرّابعة والخامسة بالنسبة للمتّقين عمومًا بإعادة الاسم الموصول دون الاكتفاء بالعاطف؛ إشارة إلى تميُّز هذه الأمّة في هذه الصّفة، وهذا العموم رجّحه ابن كثير رحمه الله، فيدخل في الْمَوْصُوفينَ مُؤْمِنُو الْعَرَبِ، وَمُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ، وَغَيْرُهُمْ، وهو قول مُجَاهِد رحمه الله، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾ [الأعلى: 1-5]، فَعَطَفَ الصِّفات بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، مع إعادة الاسم الموصول والعاطف، وَالْمَوْصُوفُ وَاحِدٌ. (تفسير ابن كثير 1/170)

2 تجدُّد الاسم الموصول مع العاطف ينبئك بصنف آخر من أصناف المتّقين: إنهم مؤمنو أهل الكتاب، ورجح هذا المعنى الطّبريُّ. (تفسير الطبري 1/237)

بصيرة 2 هذه الصّفة ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: 4] داعيةٌ بذاتها لأهل الكتاب عن محبّة وقوّة؛ لأنها أظهرت تميُّز المسلمين بالإيمان بجميع الكتب، وهذا يعني الإيمان بجميع الرُّسل دون تفريق، أما أهل الكتاب فيفرّقون.

من أسرار نزولها في أول سورة البقرة:

1 أن تمثِّل حكمة تربويّة عظيمة

لتجميع الصُّفوف حول النّبيِّ ﷺ، وأن تُحْرِج مَن أبى من أهل الكتاب.

2 وقبل الهجرة أنزل الله عز وجل:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: 54]؛ ليبشّر الكتابيين، وذكّرهم النّبيُّ ﷺ بذلك في المدينة، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ...». "البخاري (97)"

صفة النَّبيِّ ﷺ في الكتب السّابقة آصرة قويّة بين الوحيين السّابق والخاتم

وَصْفُ النَّبيِّ ﷺ موجود عندهم، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه في صفة رسول الله ﷺ في التّوراة:

1 «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: 45]، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ، وَلاَ غَلِيظٍ، وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا». "البخاري (2125)"

هذه البشارة موجودة في سفر أشعياء 42:

2 1 «هُوَ ذَا عَبْدِي الَّذِي أَعْضُدُهُ، مُخْتَارِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي، وَضَعْتُ رُوحِي عَلَيْهِ، فَيُخْرِجُ الْحَقَّ لِلأُمَمِ».

2 «لاَ يَصِيحُ، وَلاَ يَرْفَعُ، وَلاَ يُسْمِعُ فِي الشَّارِعِ صَوْتَهُ».

4 «لاَ يَكِلُّ، وَلاَ يَنْكَسِرُ حَتَّى يَضَعَ الْحَقَّ فِي الأَرْضِ، وَتَنْتَظِرُ الْجَزَائِرُ شَرِيعَتَهُ».

6 «أَنَا الرَّبَّ قَدْ دَعَوْتُكَ بِالْبِرِّ، فَأُمْسِكُ بِيَدِكَ، وَأَحْفَظُكَ، وَأَجْعَلُكَ عَهْدًا لِلشَّعْبِ وَنُورًا لِلأُمَمِ».

7 «لِتَفْتَحَ عُيُونَ الْعُمْيِ، لِتُخْرِجَ مِنَ الْحَبْسِ الْمَأْسُورِينَ، مِنْ بَيْتِ السِّجْنِ الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ».

ثم يُكمِل السِّفْر الكلام بما يشعرك بأن المقصود محمد ﷺ؛ إذ يذكر ديار قيدار (وهم بنو إسماعيل) فيقول:

11 «لِتَرْفَعِ الْبَرِّيَّةُ وَمُدُنُهَا صَوْتَهَا، الدِّيَارُ الَّتِي سَكَنَهَا قِيدَارُ، لِتَتَرَنَّمْ سُكَّانُ سَالِعَ، مِنْ رُؤُوسِ الْجِبَالِ لِيَهْتِفُوا».

18 «أَيُّهَا الصُّمُّ اسْمَعُوا، أَيُّهَا الْعُمْيُ انْظُرُوا لِتُبْصِرُوا».

5 الصِّفة الخامسة: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 4]

بصيرة

الآخرة مقابل الأولى، ويجمع هذا اللفظ ثلاثًا: وصف المكان فهي الدّار الآخرة، ووصف الزّمان، فهو اليوم الآخر، ووصف طبيعة الحياة فهي الحياة الآخرة، فالآخرة هي المستقبل الحقيقيُ القادم ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: 64].

ذكر الله عز وجل اليقين بالآخرة في الآية الرّابعة من سورة البقرة؛ ليظهر التّفاعل الحقيقي المؤثّر مع أهل الكتاب، ولينبِّه الوثنيين أنه حقٌ، وليُحييَ في اليهود ما طمسوه، ونسوه من حقيقته.

فإن سألت: ما الحكمة في التّعبير عن الإيمان باليوم الآخر بلفظ الإيقان دون الإيمان، بينما عبّر عن الأركان السّابقة بلفظ الإيمان؟

الجواب:

بصيرة 1

جاء لفظ ﴿يُوقِنُونَ﴾ بدلًا من لفظ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ في قوله: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾؛ لأن اليقين أعلى درجات الإيمان:

1. **فهو العلم الصّافي الذي يورث سكون النّفْس، وثَلَجَ الصّدر، وصفاء النّفْس من شوائب الرّيب والشّك، ويثمر استقرار التّفكير، ورسوخ التّصوُّر والحكم، فيجمع الصّفاء والصّلابة في أعماق النّفْس، من (الموقونة)، وهي الجارية المصونة المخدّرة التي لا يحوم حولها حائم، ويقال يَقِن الماءُ: إذا سكن، وصفا، وظهر ما تحته.**
2. **فكلمة (يوقن) أخصُ من كلمة (يؤمن)، فشِدّة الإيمان ومنتهاه هو اليقين.**
3. **يعبِّر عَبْد اللهِ بْن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن ذلك، فيقول: «الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ، وَالْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ» "المستدرك (3666)، وصحّحه موقوفًا الذهبي، وابن حجر"، أي: غايته، وذروته، ومنتهاه.**

بَصِيرَة

- حتى يصل المؤمن إلى اليقين ينبغي أن يمرّ بمراحل:

1. أن ينظر في القضية أمامه، ويفكر في أدلّتها.
2. يزداد عنده الفهم للقضية والإدراك لحقيقتها، فيصل إلى مرتبة العلم.
3. ينتقل من العلم الفكريِّ إلى الاطمئنان القلبيِّ بصحّة تلك القضية، ويرسخ علمه بها، وهذا هو علم اليقين:

ولذا قالوا في تعريف اليقين:

"رُؤْيَةُ العِيانِ بقوّةِ الإيمانِ، وليس فقط بالحجّةِ والبُرْهانِ"، وقالوا: "هو مشاهَدَةُ الغُيوبِ بصَفَاءِ القُلوبِ، ومُلاحَظَةُ الأَسْرار بمحافَظَةِ الأفْكارِ".

بَصِيرَة

التّعبير باليقين يوقظ من يزعم الإيمان بالآخرة دون نظر، أو تفكُّر في حقيقتها، إلى أن يجعلها دائمًا أمام عينيه، كما قال الصّالحون:

(إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا)

[الإنسان 10].

بصيرة

هذه الصِّفة (الإيمان باليوم الآخر) جاءت مباشرة بعد الإيمان بالوحي اللّاحق والسّابق في هذه السُورَة المَدَنِيّة،

فلها علاقة وثيقة ببني إسرائيل؛ إذ الإشارة هنا إلى اليهود واضحة، ليحيوا ذكر الآخرة الذي نسوه.

1

فالمصريون القدماء يعتقدون بوجود اليوم الآخر فقد قال يوسف عليه السلام لهم: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: 37]، ولكنهم حرّفوا تفاصيله

2

والنّصارى يسمُون الآخرة "الاسخاتولجيا"، ومن عقائدهم ما ورد أن مهاجرة الحبشة حدّثوا رسول الله ﷺ أن عجوزًا نصرانيّة قالت لشاب ظلمها: سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ اللَّهُ الْكُرْسِيّ، وَجَمَعَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَت الأَيْدِي وَالأَرْجُلُ، بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا". "ابن ماجه (4010) وحسّن البوصيري إسنادَه"

3

ولكنك لا تجد ذلك عند اليهود في (التّناخ) على الرّغم من وروده عنهم، عندما كانوا يجاورون النّبيّ ﷺ، حيث قال رسول الله ﷺ ليهود خيبر «مَنْ أهل النار؟» قالوا: نكون فيها يسيرًا، ثم تخلفونا فيها، فقال النّبيُ ﷺ: «اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبدًا». "البخاري (3169)"

فمن إشارات اليوم الآخر في التّناخ ما ورد في سفر دانيال12: "وَكَثِيرُونَ مِنَ الرَّاقِدِينَ فِي تُرَابِ الأَرْضِ يَسْتَيْقِظُونَ، هؤُلاَءِ إِلَى الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ، وَهؤُلاَءِ إِلَى الْعَارِ لِلازْدِرَاءِ الأَبَدِيِّ".

1

هذه الصّفة صفة تربط الدُّنيا بالآخرة، والمبدأ بالمصير، والعمل بالجزاء، فهي الصِّفة التي تُشعر الإنسان أنه ليس مهملًا، وأن العدالة المطلقة في انتظاره، ليطمئن قلبه، ويفيء إلى العمل الصالح.

2

هذه الصِّفة هي معيار جودة كلّ تلك الصِّفات، فهي التي تؤدِّي إلى العمل الحقيقيّ في إقامة بقية الصِّفات.

بصيرة

ما الحكمة في كون هذه الصِّفة خاتمة الصِّفات السّابقة؟

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: "أَضْحَكَنِي ثَلَاثٌ، وَأَبْكَانِي ثَلَاثٌ: أَضْحَكَنِي مُؤَمِّلُ دُنْيَا وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ، وَغَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ، وَضَاحِكٌ بِمِلْءِ فِيهِ، وَلَا يَدْرِي، أَرَضَى اللَّهَ أَمْ أَسْخَطَهُ؟ وَأَبْكَانِي فِرَاقُ الْأَحِبَّةِ، مُحَمَّدٍ وَحِزْبِهِ، وَهَوْلُ الْمَطْلَعِ عِنْدَ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ، وَالْوُقُوفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ تَبْدُو السَّرِيرَةُ عَلَانِيَةً، ثُمَّ لَا أَدْرِي إِلَى الْجَنَّةِ أَمْ إِلَى النَّارِ؟". "الزهد لابن المبارك (249)، وسنده جيّد خلا شيخ ابن المبارك ففيه إيهام، وهذا لا يضر لأن لابن المبارك فيه أكثر من شيخ؛ ولهذا أبهمهم اختصارًا، وله شواهد أخرى تجعل الأثر لا ينزل عن رتبة الحسن".

ومِمّا بقي مركوزًا من المِلّة الإبراهيميّة في نفوس عقلاء العرب: الإيمان بالآخرة، كما قال زهير:

فَلا تَكتُمُنَّ اللَهَ ما في نُفوسِكُم *** لِيَخْفَى، وَمَهما يُكتَمِ اللَهُ يَعلَمِ
يُؤَخَّر فَيوضَع في كِتابٍ فَيُدَّخَر *** لِيَومِ الحِسابِ أَو يُعَجَّلْ فَيُنقَمِ

مكافأة المتقين عندما يستقيمون على تلك الصِّفات

المكافأة الأولى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة:5]، وهذه المكافأة تبصِّرنا بالآتي

بصيرة 1
الاستقامة على الصِّفات الخمس يورث الصَّوابيّة في القرارات، والاطمئنان في تحقيق المصير.

بصيرة 2
من أسباب هداية المتّقين، صحّة المصدر الذي استقوا منه الدّليل، لا تمسُّكُهم بالهوى، والعبث، والأقاويل.

بصيرة 3
﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾: تعني أنهم يزدادون هداية مع استمرار استقامتهم على الصِّفات الخمس.

بصيرة 4
﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾: تدلُّ على احتياجهم الدّائم لاستقاء الهدى والتوفيق من الله عز وجل، وافتقارهم لإثبات صدق العبوديّة له جلّ في علاه.. ألا تراه سبحانه قال: ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾، ولم يقل: (من الله).

بصيرة 5
﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: تدلُّ على تعظيم من عظّمه الله عز وجل، فلم يقل: "هؤلاء" باسم الإشارة للقريب؛ لأن المراد بيان بُعْدِ منزلتهم، وعلوّ مكانتهم، وعِظَمِها، ولمكانتهم في الدُّنيا استحقُّوا مثلها في الآخرة.

المكافأة الثّانية: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة:5]، تحقيق الفلاح الدُّنيويّ والأخرويّ

القسم الثاني من أقسام العالم المتفاعلة مع دستور الحياة الهادي محاربة له

الكفّار المتطرفون

وهم صنفٌ بشريٌّ خطيرٌ، يهدِّد البشريّة بسبب عناده، وتحجُّره، وإغلاقه لأدوات المعرفة والتّواصل: [البقرة: 6-7]

المناسبة والاتصال:

لمّا ذكر الله عز وجل المتّقين -وهم المؤمنون الصُرحاء حقًا-، ذكر أعداءهم الصُرحاء حقًا مقابلهم، وهم فئةٌ خاصّة من الكفّار؛ إنهم الكفّار المتطرِّفون.

صفات الكفّار المتطرِّفين

1 الصِّفة الأولى: تغطية الحقِّ والحقائق؛ لئلا يراها العالم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾

فأصْلُ الكفر عند العرب: تَغطيةُ الشيء؛ ولذلك سمّوا الليل "كافرًا"؛ لتغطية ظُلمته ما لبِسته، كما قال الشّاعر:

فَتَذَكَّرَا ثَقَلًا رثِيدًا بَعْدَمَا ... أَلْقَتْ ذُكاءُ يَمِينَهَا في كافِرِ.

أي: إن الشّمس ألقت يمينها في الليل، والمقصود أنها غابت، فدخل الليل.

2 الصِّفة الثّانية: القلب المغلق

وذلك بسبب العناد، والتّعصب، وعدم المبالاة بسماع ما ينفع، ويبصِّرنا الله تعالى بهذه الصِّفة في قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة:6]، فلم يتلقّوا الإنذار المشفق بالاهتمام، بل كأنه معدوم في حياتهم، فرفع ﴿سَوَآءٌ﴾ على أنه خبر لـ(إنّ)، فيكون المعنى: إنّ الّذِينَ كَفَرُوا مُسْتَوٍ عَلَيْهِمْ إِنْذَارُكَ وَعَدَمُهُ.

بصيرة 1

يبصّرنا تأكيد حقيقة المتطرّفين بالحرف (إنّ) هنا بضرورة معرفة النّفسيات الإنسانيّة التي تتقبّل الحقائق، أو تحاربها أشدّ المحاربة، فأكدّ هذه الحقيقة بـ(إنّ)، كأنّه أخبرهم بِأَمْرٍ قد يستبعده السّامع، كَقَوْلِ أبي نواس:

عليك بِالْيَأْسِ مِنَ النّاسِ ... إِنّ غِنَى نَفْسِكَ فِي الْيَاسِ

بصيرة 2

إِذَا كَانَ يُوجَدُ فِي النّاسِ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ، فَلَيْسَ هَذَا عَيْبًا وَتَقْصِيرًا فِي هِدَايَةِ الْكِتَابِ، وَإِنّمَا الْعَيْبُ فِيهِمْ، لَا فِي الْكِتَابِ؛ لِأَنّهُ هِدَايَةٌ كَسَائِرِ الهِدَايَاتِ الطّبِيعِيّةِ الّتِي أَعْرَضَ النّاسُ، وَعَمُوا عَنْهَا، وَقَدْ يَحْكُمُ الرّجُلُ بِأَنّ فِي الْعَمَلِ مَضَرّةً تَلْحَقُ بِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَعْدِلُ عَنْ حُكْمِهِ؛ انْتِهَازًا لِلَذّةٍ زَيّنَهَا لَهُ حِسُّهُ، أَوْ وَهْمُهُ.

انْظُرْ إِلَى رَجُلٍ يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ، وَيَمْشِي فِي طَرِيقٍ لَا يَعْرِفُهَا، فَيَسْقُطُ فِي حُفْرَةٍ، وَتَتَحَطّمُ عِظَامُهُ، هَلْ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ قَدْرِ بَصَرِهِ، وَيَبْخَسُ مِنْ حَقّ اللهِ تَعَالَى فِي الْإِحْسَانِ بِهِ عَلَى هَذَا الّذِي لَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ فِيمَا خُلِقَ لَهُ؟

بصيرة 3

تعال نرجع بَصَرَ التدبُر كرّتين في قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة:6]، فما الذي سينذرهم به المُبلِّغ، سواء أكان النّبيُ ﷺ أم ورثته؟

سينذرهم بالرّسالة القرآنيّة، وبما تتضمّنه المعرفة القرآنيّة.. ألم يقل الله مبيّناً ذلك: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: 19]، فعبّر عن رسالة القرآن بالإنذار؛ لأنه رسالة إنذار لحماية العالم من الشُرور الحاضرة والمستقبلة؛ وهذه هي الرحمة الحقيقيّة بالعالمين؛ فالإنذار يدلُ على شِدّة الحرص على سلامة من وصله النّذير.

بصيرة 4

الإخبار عن عدم إيمانهم لا يعني عدم وجوب الإيمان عليهم، أو عدم إنذارهم وتبليغهم، فالآية تبيّن لنا أن هذا الصّنف المعاند لن يؤمن مهما كان

لكن ذلك لا يعني عدم تبليغه نور القرآن الكريم؛ إقامة للحجّة عليه، وهذه البصيرة أدركناها من الآيات الأخرى التي نجمعها مع هذه الآية، مثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1].

3 الصِّفة الثّالثة: مختوم على قلوبهم

صفة تعليلية مآليّة عقليّة نفسيّة، هي صفة إغلاق أدوات المعرفة

ويبصِّرنا بها قوله تعالى:

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة: 7]

فالتّحذير القرآنيُ والنبوي، يبيّن المراحل الخطيرة التي يصل إليها القلب بسبب الذُنوب، وهي سبع مراحل:

مرحلة [1] مرحلة الرّان

حيث يستمرُ المرء على غشيان الذُنوب، والرّان والرين: صدأٌ يعلو الشيء الجليل، فيحدث فيه صدأ، يدمّر جودته، وبياضه، وتتضاءل مقاومته للشُرور: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ، حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبَهُ ذَاكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ عز وجل فِي القرآن: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]» "أحمد (7952) وقوّى شعيب الأرناؤوط إسنادَه"

مرحلة [2] الإغفال

وهي التي قال الله تعالى عنها: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ [الكهف: 28]، أيْ: لا تطع من جَعَلْنا قَلْبَهُ غافِلًا عَنْ ذِكْرِنا.

مرحلة [3] مرحلة الطَّبع

وهي تَطَبُّعُ القلب على الذُنوب حتى تصبح عادته التي لا يصبر على غيرها، ولو فعل لشعر بانزعاج، كما قال الله جل جلاله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [الزمر: 45].

مرحلة [4] مرحلة الأكنّة

وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: 46].

مرحلة [5] مرحلة الوَقر

ويبصرنا بها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ﴾ [الأنعام: 25]، والأذن بوابة القلب.

مرحلة [6] مرحلة الإقفال

وهي التي ذكرها الله عزوجل في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: 24]، وكأن الأكنّة التي جعلوا قلوبهم فيها أُقفلت بأقفالٍ محكمة.

مرحلة [7] مرحلة الختم

وهي المذكورة في هذه الآية من سورة البقرة؛ لبيان أن صاحبها لا ينتفع بالإنذار أبدًا، فبعد تكاثر حصار الذُنوب، وإغلاقها للقلب يأتي الطّبع والختم، فمنع ظلمات الذُنوب والمعصية والإجرام من الخروج منها، ومنع أنوار التوحيد والحقِّ والمحبّة والخير من الدُخول إليها.

4 الصِّفة الرّابعة: وهي صفةٌ مآليةٌ جسديّةٌ معنويّة، ويبصّرنا بها قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

فنتيجة ما سبق أن يجدوا العذاب، والْعَذَابُ: اسْمٌ لِمَا يُؤْلِمُ، وَيَذْهَبُ بِعُذُوبَةِ الْحَيَاةِ في الأمور المعنويّة والأمور الحسّيّة، مثل: الضَرْب، وَالوَجَع، وَالجُوع، وَالظَمَأ.

بصيرة

من أهم الفوائد العملية لذكر هذا الصِنف: التَّبصير القرآنيُ ببيان سبيل المجرمين، وكيفية التَّعامل السِّياسيِ، والحياتيِ معهم: بالاحتراس منهم، وإعداد العُدَّة لمواجهتهم في الميادين المختلفة، مثل: ميادين الحجَّة، والجدال، وعدم الغلوِ في التَّعامل معهم شِدَّة، أو رخاوة.

القسم الثالث: زاعمو الإيمان من المنافقين، وغيرهم [البقرة: 8 -20]

المناسبة والاتصال:

أراد الله –جل في علاه- أن يملأ العقلية المسلمة بمعرفة الأصناف الأساسيّة المؤثِرة على الواقع العالميّ، وموقفها من الانتفاع بدستور الحياة الحقيقيّ (القرآن)، فذكر المتَّقين الذين ينتفعون بهدى القرآنَ أعظم الانتفاع، وذكر مقابلهم الكفَّار المعاندين، وهم أعداء النُور القرآنيّ الذين يغطُّون حقيقة المجد الذي يرسمه القرآن للعالمين، وهذان الفريقان: (المتَّقون، والكفَّار المتطرِّفون) واضحان، واستدعى هذا ذكر الفريق الغامض المؤثِر على الواقع العالمي، وهو ينتمي إلى المتَّقين في الظاهر، وإلى الكفَّار المعاندين في الباطن.. إنهم زاعمو الإيمان.

خريطة الكلام عن المنافقين في هذه الآيات

انقسم الكلام عنهم إلى فصلين كبيرين:

الفصل الأول

صفات زاعمي الإيمان من المنافقين وغيرهم [البقرة: 8-16].

الفصل الثاني

المعرفة القرآنيّة تنير الوعي بإدراك أصناف زاعمي الإيمان [البقرة: 17-20].

الفصل الأول

صفات زاعمي الإيمان من المنافقين وغيرهم

[البقرة: 8-16]

ذكرت آيات هذا الفصل (15) صفة لهم، وهي:

1 صفة [1] مخالفة قلوبهم لأقوالهم في زعم الإيمان

ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى جدّه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8]، وينشأ عن ذلك مخالفة أفعالهم لأقوالهم:

1

بدأ بالواو العاطفة، وبتقديم الخبر على المبتدأ للتّشويق والتّنبيه على هذه الفئة الغريبة الفريدة التي لا يتم التركيز على وجودها؛ لشدّة مكرها.

2

وفيهم يقول ابن جريج رحمه الله: "هذا المنافقُ، يخالِفُ قولُه فعلَه، وسرُّه علانِيَتَه ومدخلُه مخرجَه، ومَشهَدُه مَغِيبَه" (تفسير الطبري 270/1)

2 صفة [2] ترديد زعم الإيمان أمام المجتمع

ويبصِّرنا بذلك صيغة المضارعة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾، ولم يقل: (قالوا)؛ وذلك يدلُّ على تردُّد هذا القول، ليفعلوا الجرائم ثم ينكروا على من أنكر عليهم فعل الجرائم.. يا للإرباك الذي يحدثونه في التّعامل معهم، وكذّبهم الله عز وجل فقال: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن هذا النفي أعلى بلاغة، حيث أخرج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون ضمن طوائف المؤمنين.

3 صفة [3] الخداع

ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة:9]، والخداع يجمع الخفاء والفساد، لأن أَصْل هَذِهِ اللَّفْظَةِ: الْإِخْفَاءُ، وَسُمِّيَتِ الْخِزَانَةُ: الْمِخْدَعَ، وَالْأَخْدَعَانِ: عِرْقَانِ فِي الْعُنُقِ؛ لِأَنَّهُمَا خَفِيَّانِ، وخدع الرِّيق في الفم: قلّ وجفّ وفَسَد.

4 صفة [4] عدم الشعور، وفقدان الأحاسيس

ويبصِّرنا بذلك قول الله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:9]، ففقدوا المشاعر مطلقاً، وخاصّة في خداعهم لأنفسهم، فالشُعور عدم الإدراك بالحواس للأمور الخفيّة.

5 صفة [5] ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة:10]:

مرض القلوب يدلُّ على السّواد، والنّتَن، وعلى فساد التفكير، واعتلال العقل، والمرض: الخُرُوجُ عن حالة الاعْتِدَالِ، وعدم إعمال الوظائف على نحوٍ مستقيم.

6 صفة [6] الكذب: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:10]:

وهو أسوأ أسلحتهم، ولذا قدّم الله عز وجل ذكر عقوبته عليه فما أكثر ما يعقدون العهود، ويقيمون المصالحات، ويحلفون الأيمان، ويبرمون المواثيق والاتفاقيات، ثم ما أسرع ما ينقضون كلّ ذلك، والتّحذير من هذه الصِّفة حتى لا نركن إلى أيِّ كلمةٍ تخرج من أفواههم الكاذبة؛ وينبغي أن نتعامل معها بحذرٍ شديدٍ خوفاً من أن نقع ضحايا أكاذيبهم.

7 صفة [7] التّكذيب

ويبصِّرنا بذلك قراءة الجمهور في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ [البقرة:10]، فإذا سمعوا الصّدق بادروا بتكذيبه، والردّ عليه، فيقيموا السّنوات الخداعات التي قال عنها النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتُ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ». "ابن ماجه (4036)، وحسّنه الأرناؤوط"

8 صفة [8] الإفساد في الأرض

ومنع الناس من الحصول على أيِّ خير في الدنيا والآخرة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 11]: والإفساد إخراج الأرض عن الانتفاع بها إلى ألا تكون صالحة للحياة، بالتمرُّد على النِّظام الذي يصلحها، ويحفظ مواردها ونُظُمها.

وكلمة ﴿قيل﴾ تدلُّ على تنوُّع جهات نصحهم لتشمل الأنبياء والصّالحين، وحتى الصّادقين من الكافرين، فيجب ردعهم بالكلام من كلِّ الجهات، ولو بتفعيل الأقلِّ سوءًا ضدّ الأكثر شرًّا.

9 صفة [9] تبديل المعاني، وتغيير الحقائق

من خلال اللّعب بالألفاظ، واستخدام المصطلحات التّمجيديّة لتغطية الجرائم الجسيمة:

ويبصِّرنا بذلك قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة:11].

10 صفة [10] عدم الشعور بإفسادهم في الأرض

ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 12]، وهذا يعني أنه يجب إيجاد الوسائل المناسبة على جميع الأصعدة لتعقُّب المفسدين، والعمل الإعلاميّ، والتّبليغيّ العامّ؛ للردِّ على افتراءاتهم، والتّعليق على جرائمهم اللّفظيّة، والفعليّة، فالاكتفاء بمجاملتهم يؤدّي إلى استفحال شرِّهم.

11 صفة [11] نبز الصَّالحين بالألقاب المنفِّرة

ومطاردة القوى الصّالحة في المجتمع بحملات التّشويه الإعلاميّة القذرة، التي تطعن في أهليتهم التّفكيريّة، حيث يسمُّونهم بالسُّفهاء:

ويحدِّث الله تعالى عن ذلك فيقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: 13]، وَالسُّفَهَاءُ: جَمْعُ سَفِيهٍ، وَهُوَ الْمُتَّصِفُ بِالسَّفَاهَةِ، والسّفه: خِفّة في العقل، وسَخَافَة في التّفكير، واضطراب مدمِّر لإدارة الأمور.

12 صفة [12] يتّصفون بالجهل المركّب، والبعد عن العلم

ويبين الله عز وجل هذه الصِّفة في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 13]، فهذه الجملة تضمّنت أمرين:

1. وصفهم بعدم العلم.
2. الرَّدُّ الإعلاميُ عليهم في وصفهم المصلحين في الأرض بالسُفهاء.

13 صفة [13] التآمر المستخفُّ المستهزئ بالمؤمنين

بتقديم ما يظنُّه المؤمنون كلاماً حسناً:

1. ويبصِّرك بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة:14]، فيجتمعون مع قياداتهم الشَّيطانيّة؛ ليقدِّموا تقاريرهم حول مدى تلاعبهم بالمؤمنين.
2. والشّياطين كلُّ بعيد، متمرِّد، محترق، يستشيط غيظاً، وغضباً، وحنقاً على الحقِّ وأهله، وقد يكونون من الإنس، وقد يكونون من الجنِّ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ [الأنعام: 112].
3. والمراد بهم هنا: قياداتهم من متطرِّفي القوى المعتدية المجرمة داخليًا وخارجيًا، وانظر كيف يؤكِّدون ولاءهم لشياطينهم بتكرار حرف ﴿إن﴾.
4. واستعمل الحرف (إلى) دون (الباء) في فعل (خلا)؛ ليضمِّنه معنى أسرع إلى، ويدلُّ على حركتهم المُسارِعة لقيادات الفساد الشّيطانيّة.
5. وتختصر لك كلمة ﴿مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ تحركاتهم الغادرة؛ فالهزء: مَزْحٌ ساخر ماكر في خفية، مشتق من الْهَزْءِ، وَهُوَ الْعَدْوُ السَّرِيع.

14 صفة [14] ازدياد العمى على طول المدى

ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [البقرة: 15].

1

فتضمّنت الآية كشفاً لصفةٍ جديدة من صفاتهم، وردًا عليهم في الوقت نفسه على الأسلوب القرآنيِّ المعجز.

2

وهذه الجملة العربية المبينة تعني المشاكلة لأفعالهم، فهم يظنُّون الاستهزاء والسُّخرية مصدر قوتهم، فيردُّ الله عز وجل عليهم بالمنطق ذاته؛ إذ هو الذي يستهزئ بهم.

3

﴿وَيَمُدُّهُمۡ﴾: يزيدهم بقوى يستخدمونها في السُّوء، والطُّغْيَان: هو مجاوزة الحدِّ المعتاد، و﴿يَعۡمَهُونَ﴾ من: عَمِه فلان يَعْمَهُ عَمَهانًا، وعُمُوهًا، إذا ضلّ فتحيّر.

15 صفة [15] باعوا الهدى واشتروا الضلالة

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: 16]:

1

فهذه صفةٌ تعليليّة (سببيّة) مآليّة في الوقت ذاته.. كأنّ السامع تعجّبَ من شدّة العقوبة الواردة في الصِّفة قبلها عندما سمع: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [البقرة: 15]، فسأل عن السبب الذي أوجب لهم هذا المصير المخزي.

2

كما أنّ هذه الصِّفة تبيِّن مقدار سفههم، وانظر إلى قوة التصوير: فهذه المخلوقات بلغ بهم الأمر أن يشتروا القذارات ويعطوا مقابلها الذّهب والمجوهرات، انظر إليهم: يقدّم أحدهم الأثمان الباهظة لقاء فعلٍ محرّم يدمّر نفسه أو بلده.. يبيعون تعليم القرآن مقابل تعليم شرب الخمر، ونشر المخدِّرات.. يعيّنون الخبراء والقدرات العسكريّة والأمنيّة؛ ليمدُّوهم بأفكار إبداعيّة في ضلالات قتل المستضعفين، واغتصاب الأموال والبلدان.

3

ويأتي الرَّدُّ المزلزل على ظنونهم الكاذبة: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [البقرة: 16]، فلا ربح، ولا صواب في القرارات.

4

والتّعبير بالتِّجارة مدهش في كشفه لهم، حيث يصف حالهم، فهم يعتقدون أن العالم عبارة عن صفقات تجاريّة للمواد والأفكار والأجساد، فلن يجدوا ربحاً، ولن يوفّقوا إلى محافظة على ملك.

الفصل الثاني

المعرفة القرآنيّة تنير الوعي بإدراك أصناف زاعمي الإيمان

[البقرة: 17-20]

المناسبة والاتصال:

بعد أن عرف العقل المسلم صفات زاعمي الإيمان، (وأوّلهم المنافقون، ويدخل فيهم من يزعم الإيمان بالله واليوم الآخر من الدّيانات الأخرى)، وامتلأ إدراكه من كيفية مخالطتهم دعوة، وردًّا مفحمًا.. هنا يأتي البيان القرآنيُّ ليكشف حقيقة أنواع المنافقين، ويبيّنَ طبقاتهم؛ حتى لا يتم التّعامل معهم وَفْقَ نمطٍ واحدٍ..

وقد يتبادر إلى ذهنك هذا السؤال: لماذا تغيّر الأسلوب القرآني في الحديث عنهم هنا، ونقلنا إلى التمثيل لواقعهم؟

الجواب:

حين تتأمّل في البيان القرآنيّ لأنواع المنافقين تجد أنه لم يتخذ طريقًا مباشرًا، بل سلك أسلوب التّمثيل لهم؛ لينوِّعَ في الخطاب، ويشوِّقَ الناس إلى معرفتهم، ويحرِّكَ العقول لتتدبّرَ الكلام الذي يلقى لهم.

وهنا ضرب الله عز وجل لهم مَثَلين؛ ليبيّنَ أنواعهم، ويوضِّح حقيقتهم زيادة في الكشف وتتميمًا للبيان:

الصنف الأول

الخُلَّص من كَذَبة زاعمي الإيمان، وضرب الله عز وجل لهم المثل الناري، وذكرهم الله عز وجل في الآيتين (17-18).

الصنف الثاني

المتردِّدون من زاعمي الإيمان، وضرب الله عز وجل لهم المثل المائي، وذكرهم الله عز وجل في الآيتين (19-20).

الصنف الأول

الخُلّص من كَذَبة زاعمي الإيمان، وضرب الله عز وجل لهم المثل الناري:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة:17-18]

وقد تسأل: ما المشاهد التي تبصّرنا بها هاتان الآيتان حول الصِّنف الأوّل (الفريق الصُلب الخالص في نفاقه)؟

الجواب: تبصّرنا هاتان الآيتان بـ (9) مشاهد، وهي:

مشهد [1] 1 ظهور قائد المنافقين

تبصّرنا كلمة ﴿ٱلَّذِى﴾ من قوله تعالى ذكره: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17] بأن أحد المنافقين كان نشطًا ذا صفات قياديّة، وطلب أن يكون له دور في الأرض، فأوقد نارًا ينشر من خلالها نورًا له يجمع الأتباع من حوله، وبدأ بأقوى المؤثِّرين، فكوّن معهم قيادة مشتركة هو أعلاهم فيها.

فالسين والتاء يدلّان على الطلب، والانتقال من الإفراد ﴿ٱلَّذِى﴾، ﴿حَوْلَهُۥ﴾ إلى الجمع في قوله: ﴿بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ﴾ دلّنا على أثر نشاط هذا القيادي في محيطه.

مشهد [2]

قائد النِّفاق يمتلك المهارات القياديّة الفذّة للتّأثير على من حوله

فقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ يبصِّرنا بأن انتشار النفاق بدأ بمنافق صُلب، خالص في نفاقه، عنده روح المبادرة، وصفات القيادة طلب إيقاد النار وبعث النور حتى يضيء ما حوله ليحقّق إنجازًا في حياته، لكنه يوجّه طاقته نحو الجانب المظلم المجرم من خلال الكذب بأنه يوقد نارًا.

مشهد [3]

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ الثوب مسلم، والفعل كالقلب مجرم

فيبصرنا قول الله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ بأن الذي استوقد كان قياديًّا فريدًا في عقليته، وجمع آخرين حوله، لكنه أسرّ المعصية كإسرار إبليس ثم أظهرها، فذهب الله عز وجل (بنورهم)، أي: بنور الجميع، القيادي والأتباع، ولم يقل بنوره وحده، وذهابه إمّا ذهاب نور الإيمان والقرآن، وإما ذهاب نور النّصر والنّجاح الحياتي.. لماذا ذهب الله عز وجل بنورهم؟ لخلل ظاهر، أو مستتر في المستوقد وأتباعه.

مشهد [4]

النفاق الخفي يكشفه جواب ﴿لمّا﴾ الخفي

فيحتمل أن يكون جواب ﴿لما﴾ في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة 17] ظاهرًا مذكورًا، كما يحتمل أن يكون محذوفًا، كأنه قيل: فلما أضاءت ما حوله عمل الشقي قائد المنافقين على محاصرة النور وإيقافه، والتّلاعب به، وتابعه على ذلك أتباعه، وهنا يأتيك ما بعد الجواب ليدلّ على الجواب المحذوف، وهو قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾.

مشهد [5]

ملء الفراغ بالظُّلمات، ويبصّرنا بذلك قوله: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾

وَالظُّلْمَةُ: النُّقْصَانُ، وهي ليست عدم النور، بل هي عَرَضٌ ينافي النور، فإذا جاء النور أزالها، والله تركهم هنا في ظلمات، وليس في ظلمة واحدةٍ، فهم يتخبطون ويفسدون، ويظنون أنهم يصلحون:

6 مشهد [6]

مشهد البصر المفقود ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾

هذا هو الوصف الواقعي الثّالث لحالهم، فلم يذهب الله عز وجل بنورهم فقط، ولم يتركهم في ظلمات فقط، بل هم لا يبصرون أيضًا.

7 مشهد [7]

ذهاب النور، وحلول الظلمة، وعدم الإبصار تمتدُ من الدنيا إلى الآخرة

فيبصرنا الله عز وجل بقوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: 17] بأن ذهاب النُور، وغشيان الظُلمات، وعدم الإبصار صارت حالات ملازمة في الدنيا والآخرة:

8 مشهد [8]

الإصرار على الدّمار وعدم التّراجع عنه:

فيبصرنا قوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة 18] بأن المنافقين الخُلّص متشبعون بفساد القلب، وغرور النفس، فهم في نفاقهم (صمٌ) عن سماع الإرشاد، (بُكْمٌ) عن قول الخير، (عُمْيٌ) عن رؤية النور، والنتيجة: أنهم ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى حالهم عندما استوقدوا نارًا أنتج منه النور، فقد أذهب الله عز وجل نور المعرفة القرآنية منهم.

9 مشهد [9]

الاستماتة في نشر ظلمات الكفر، والفسق، والفساد ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾

فهؤلاء المنافقون يصرُّون على ألّا يرجعوا إلى أدنى خير مما أعلنوه عندما قالوا: آمنا، فقد اعتنقوا النِّفاق لا ليدفعوا عن أنفسهم القتل، بل لينفِّذوا أقسى المؤامرات وأقصاها وأخبثها مما لا يستطيعه أقوى المتآمرين من الكفّار ضدّ الإسلام والمسلمين.

الصنف الثاني

المتردِّدون من زاعمي الإيمان، وضرب الله عز وجل لهم المثل المائي

﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [البقرة: 19-20]

وقد تسأل: ما المشاهد التي تبصِّرنا بها هاتان الآيتان حول الفريق الثاني (الفريق المتردِّد والمراوغ)؟

الجواب: تبصِّرنا هاتان الآيتان بـ (12) مشهدًا، وهي:

مشهد [1] 1

مشهد تعدُّد البدائل النِّفاقية، وتبادل الأدوار: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ﴾

فـ﴿أو﴾ تبصِّرنا بأن التّمثيل هنا لبيان صنفين من المنافقين، وليس لتكرير وصف فئة واحدة، فالنوع الثاني هو المنافق المتردِّد والمنافق المراوغ، فهي للتّنويع والتّوزيع؛ ليشمل ضرب الأمثال الحالات المختلفة، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ [الإنسان:24]، فإن المراد تساويهما في عصيانهما، ولكن كلاً منهما غير الآخر في إجرامه.

مشهد [2]

الاضطراب الدّائب، والتّردُّد الشّهواني

ويبصِّرنا بذلك قوله: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ﴾، فهذا النوع من المنافقين متردِّد بين الإيمان والكفران، وبين الإخبات والطغيان، فتراه أحيانًا مبصرًا يطلق التّصريحات الصّادقة الرّائعة، ويقوم بالأفعال الصّالحة الطّيِّبة، ثم ما يلبث أن ينتكس، فكأنه ليس ذلك الذي سار في هدىً سائق، ولا الذي صدر عنه نورٌ فائق.

مشهد [3]

صيِّبٌ كثيفٌ من نواحٍ متعدِّدة، ويبصِّرنا بذلك قوله: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

فكلمة ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تصوِّر لنا أن الصَّيِّب ليس قليلاً محدودًا، بل هو صيِّب مخصوص كثيرٌ كثيفٌ، قد جاء مِنْ جَمِيعِ أَقْطَارِ الْجَوِّ المحيط مع علوه إِذَا قُلْنَا: إِنَّ التَّعْرِيفَ فِي (السَّمَاءِ) يستغرق جميع جوانب السّماء التي يعيش تحتها هذا الفريق الذي يماثل المنافقين في تفكيره وحركته، فكلُّ أفق من آفاقها سماء.

مشهد [4]

الجمال والوبال

فيبصِّرنا قوله: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ﴾ بأن الهدى القرآنيّ مثل الصَّيِّب، وهو الماء المصوَّب على الأرض ليغيث الأبدان والنفوس، وتصحبه ظلماتٌ كثيفة؛ لغزارته، وكثافته، وتعدُّد جهات نزوله، وبدلاً من رؤية الجمال الكلِّيّ يرى المرضى الظلمات وبالاً عليهم.

فعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه

أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ تَرَكَ الْحَدِيثَ، وَقَالَ: "سُبْحَانَ الَّذِي ﴿يُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد:13]، ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا لَوَعِيدٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ شَدِيدٌ" (الأدب المفرد (723)، وصحّح إسنادَه النووي في (خلاصة الأحكام 2/888) وابن حجر في (نتائج الأفكار 5/141).

مشهد [5]

صيِّبٌ مهدِّد!

المنافقون يرون في الصيب القرآني تهديدًا كما يرى السائرون في ظلمات الصَّيِّب المائي تهديدًا يظهر في الصّواعق النازلة، فيحاول المنافقون التّحصُّن بما يقدرون عليه من الاحتياطات، وقد اعتنقوا عقيدة استحوذت عليهم ملخّصها أن أهمّ التهديدات التي يخافون منها إنما جاءت من القرآن، ويبصّرنا الله عز وجل بكلِّ هذا في قوله: ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ [البقرة: 19].

مشهد [6]

إحاطة غير قابلة للاختراق

الاحتياطات الأمنيّة والمخابراتيّة والعسكريّة التي يتحصّن بها المنافقون لا يمكن أن تحميهم من الإحاطة الإلهيّة، ويبصّرنا بذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 19]، جاءت لفظة (محيط)، ولم يقل (والله أحاط بالكافرين)؛ لدلالة الجملة الاسمية على ثبات الإحاطة وبقائها.

مشهد [7]

البرق الخاطف

يظهر مشهد البرق الخاطف ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾ [البقرة: 20]، فالْبَرْقُ هو النُّور السّريع القويُ المنبعث في السّماء، ويمثِّل النور القرآني، ولشِدّة لمعانه يكاد يخطف أبصارهم؛ لأنهم لا يريدونه أن يصلح الحياة، والخطف: الأخذ بسرعة وحِدّة.

مشهد [8]

التّلاعب المصلحيُ

يصّور لنا قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾ [البقرة: 20]، أنهم إذا وجدوا في النُّور ما يزيدهم ظلمات، ويسوِّغ لهم المحرّمات، ويحقِّق لهم الشّهوة والشُّهرة قبلوه بصورةٍ مؤقتة، وخدعوا العالم بذلك.

9

مشهد [9]

القيام في الظّلام

فالمنافقون ينظرون إلى القرآن نظرتهم إلى الظلام المخيف، ويبصِّرنا بذلك قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ﴾ [البقرة: 20]، فإذا عارض أهواءَهم وشهواتِهم وحقدَهم وحسدَهم أظلم عليهم، فقاموا: أي ثبتوا ولم يسيروا في ضوئه؛ لأنهم لم يعودوا يرونه كالبرق، بل يجدون الظلمة في التعامل معه، ويعودون إلى ظلمهم كما يعيش هؤلاء في ظلماتهم.

10

مشهد [10]

النِّفاق: فنُّ المراوغة الحذرة

فالتمثيل المائي يُظهر الصِّنف المنافق المراوغ قلقًا حذرًا يحسب الحسابات المتعدِّدة، ويخاف أن يكتشف الآخرون حقيقته.

11

مشهد [11]

مشهد القوّة المحيطة القادرة

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ﴾ [البقرة: 20] تبصِّرنا بأنه لو شاء الله تعالى لحرمهم الانتفاع بحواسِّهم التي لم يستخدموها إلا الاستخدام الخاطئ، ولو شاء أن يهلكهم على إفسادهم لفعل.

12

مشهد [12]

القوّة المطلقة القاهرة

ختم المشاهد بمشهد القوة المطلقة التي تبيِّن سبب المشيئة الكاملة النافذة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: 20]، كما أنه يرسل الصّواعق أحيانًا فتأخذ بعض خلقه، فلا يغرُّهم بقاؤهم أو تقلبُهم في البلاد، مع سفكهم للدِّماء، وإفسادهم في الأرض.

وقد تسأل: ما الحكمة في ختم الله تعالى الآية الأولى من المثل المائي بقوله: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، والثانية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؟

الجواب:

لتنبيه الذين بهرهم تقلُّب الكافرين والمنافقين، ونشرهم للكفر العالمي أن ذلك لا يعني قدرتهم على الخروج من ملك الله عز وجل، فالله محيط بهم، ولو أراد الله عز وجل إهلاكهم لفعل فهو على كلِّ شي قدير، لكنه جعل ذلك وَفْقَ سُنَن كونيّة بشريّة.

بعد أن عرفت مقدِّمتي سورة البقرة قد تتساءل: ما المحور الأوّل لهذه السُّورة؟ وما الموضوع الذي دارت حوله آيات هذا المحور؟

الجواب: هنا يأتي المحور الأول

المحور الأول

الإعلان الإلهيُّ للبشريَّة عن النِّظام الحقيقيِّ الوحيد للحياة الإنسانيَّة، وهو نظام العبادة الذي يؤدِّي إلى الفلاح، وأرقى درجات السَّعادة، وبراهين ذلك

[البقرة: 21-29]

المحور الأول

الإعلان الإلهيُّ للبشريَّة عن النِّظام الحقيقيِّ الوحيد للحياة الإنسانيَّة، وهو نظام العبادة الذي يؤدِّي إلى الفلاح، وأرقى درجات السَّعادة، وبراهين ذلك

[البقرة: 21-29]

المناسبة والاتصال:

كانت الآيات العشرون الأولى بمثابة المقدِّمة الكبيرة الجليلة لهذه السُورَة المباركة، ذكر الله عز وجل فيها أهمِّيَّة المعرفة القرآنيَّة في الحياة البشريَّة، فالقرآن المجيد لا ريب في أنه منزل من الله عزوجل، ولا ريب في إدارته للنِّظام العالميِّ الإنسانيِّ على أحسن الوجوه، وبيّن الله عزوجل بعد ذلك أقسام العالم بالنسبة للتَّفاعل مع القرآن، فقسّم العالم ثلاثة أقسام، وبيّن حقيقة كلٍّ منهم، وصفاته، ثم جاء (الإعلان الإلهي للبشريّة عن النِّظام الحقيقيِّ الوحيد للحياة الإنسانيّة، وهو نظام العبادة الذي يؤدِّي إلى الفلاح، وأرقى درجات السّعادة، وبراهين ذلك).

فإن قلت: فما أقسام هذا الإعلان الإلهيِّ الذي تضمنه هذا المحور؟ وهل تنوعت البراهين الدالة على نظام العبادة؟

الجواب:

انقسم هذا المحور إلى إعلانين

الإعلان الأول	الإعلان الثاني
الإعلان الإلهيُ العالميُ للبشريّة عن نظام الحياة في الأرض، وهو نظام العبادة [البقرة: 21]	الأدلّة والبراهين الإقناعيّة على استحقاق الله تعالى للعبادة [البقرة: 22-29]

وتنقسم هذه الأدلّة والبراهين والمخاطبات إلى أربعة أقسام:

قِسم [1]: أدلّة الحياة السّبعة التي تعود إلى آيات الأنفس والآفاق المادِّيّة المشاهدة المحسوسة.	قِسم [2]: المخاطبات العقليّة الجدليّة الكلاميّة المقنعة.
قِسم [3]: المخاطبات العاطفيّة التي تثير عاطفة الإنسان رهباً ورغباً.	قِسم [4]: أدلة القدرة، والعظمة، والإحاطة التي لا يمكن لأحد أن يدّعيَها.

الإعلان الأول

الإعلان الإلهيُ العالميُ للبشريّة عن نظام الحياة في الأرض، وهو نظام العبادة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21]

الآن استمع معي لمضمون هذا الإعلان المذهل الذي يأخذ الأنفاس.. إنه الإعلان الإلهيُ الموجه للعالم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: 21]، أعلن الله عز وجل أعظم إعلان للعالم أجمع، ومنهم الأصناف الثلاثة السابقون: المتَّقون، والكفَّار المتطرِّفون، وزاعمو الإيمان:

التزموا بالنِّظام الوحيد الذي يصلح لكم أنفسكم، ويصلح العالم من حولكم، واعبدوا ربّكم موحِّدين له في العبادة، ونظام العبادة يوصلكم إلى مرتبة التَّقوى، التي تعني وجود الإنسان الصالح الذي يتَّقي المخافات، والمكروهات المستقبليّة الدُّنيويّة، والأُخرَويّة.

بصيرة 1 ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ إنه نداء عالميٌ يخاطب الله عز وجل فيه البشريّة على قدم المساواة.

بصيرة 2 يدخل الكفَّار والمنافقون في قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ)؛ ويمنحنا ذلك بصيرة التَّواصل الحكيم الحَذِر معهم؛ لنخفِّف من شرِّ المتطرِّفين، ونجذب المتابعين.

بصيرة 3 الدّعوة إلى عبادة الله عز وجل هي أوّل واجب ينبغي أن يقوم به المصلحون، والعبادة هي النِّظام الذي يذلِّل نفسك، وينظِّم الحياة الإنسانيّة؛ لتتوافق بسعادة مع نظام الكون الذي جعله الله عز وجل في السّمَوات والأرض، ويبصّرنا بذلك قوله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: 21].

بصيرة 4 قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ يبصّرنا بأن التَّعريف بنظام العبادة الموحِّدة لله عز وجل إجمالاً تعريفٌ بالله -جلّ مَجدُهُ-، وهذه هي البداية المنطقيّة الحكيمة في القرآن الذي يمثِّل كتاب المعرفة الإنسانيّة الحقيقيّة؛ ولذا ساق أدلته بأوضح طريق يمكن للإنسانيّة أن تدركه.

3 بعد أن سمع العالم هذا النِّدَاء الذي يدعوهم إلى عبادة الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: 21]، هنا قد يتساءل السّامعون: ما الأدلّة على أن الله عز وجل يستحقُ العبادة دون غيره؟

الجواب: هنا يأتي:

الإعلان الثاني

الأدلّة والبراهين الإقناعيّة على استحقاق الله تعالى للعبادة [البقرة: 22-29]

ستقول: فما هذه الأساليب المقنعة، التي تدلُ على استحقاق الله عز وجل للعبادة؟

الجواب: تنقسم هذه الأدلّة والبراهين إلى أربعة أقسام، كما سبق ذكرها، وتندرج تحت هذه الأقسام (16) دليلًا، فنبدأ بذكر أدلّة الحياة السّبعة مجملة، ثم يأتي بعد ذلك تفصليها، وذكر بقية الأدلّة، وذلك كما يأتي:

أدلّة الحياة السّبعة التي تعود إلى آيات الأنفس والآفاق المادّيّة المشاهدة المحسوسة

1. الدّليل الأول: دليل التّربية، ويبصّرنا بهذا الدّليل قوله تعالى: ﴿رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: 21].
2. الدليل الثاني: دليل الخلق ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة: 21].
3. الدّليل الثّالث: دليل خَلْق من كان قبلنا إلى الإنسان الأول ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: 21].
4. الدّليل الرّابع: دليل المسكن ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ [البقرة: 22].
5. الدّليل الخامس: البناء العظيم المحيط بأهل الأرض ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [البقرة: 22].
6. الدّليل السّادس: الأمن المائي المجاني، فالله عز وجل الذي يُكَوّن الماء ويتحكّم في إنزاله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ [البقرة:22].
7. الدّليل السّابع: دليل الرِّزْق والتّغذية (الأمن الغذائي): ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ﴾ [البقرة: 22].

مَن ذَا الذي بَسَطَ البَسِيْطَةَ لِلْوَرَى ❁❁❁ فُرُشًا وتَوَّجَهَا بَسَقْفِ سَمائِهِ
مَن ذَا الذي جَعَلَ النُجُومَ ثَواقِبًا ❁❁❁ يَهْدِي بها السّارينَ في ظَلْمَائِهِ
من ذَا أَتَى بالشمس في أُفُق السَمَا ❁❁❁ تَجْرى بَتقْدِير على أَرْجَائِهِ
أَسوَاهُ سَوَّاهَا ضِيَاءً نَافِعًا ❁❁❁ لا وَالذي رَفَعَ السَّمَا ببنَائِهِ
مَن أطلعَ القَمَرَ المُنِير إذَا دَجَى ❁❁❁ لَيْلٌ فَشَابَهَ صُبْحَهُ بضيائِهِ
يَا وَيْحَ مَنْ يَعْصِي الإِلهَ وَقَدْ رَأَى ❁❁❁ إِحْسَانَهُ بِنَوَالِهِ وَنَدائِهِ

الأمير الصنعاني رحمه الله

وهنا تسمع الله عز وجل يسوق لك أدلّة استحقاقه العبادة بأوضح سبيل يمكن أن تدركه أفهام الإنسانيّة، فالأدلّة ووسائل الإقناع التي ساقها تتسم بالآتي:

1 العموميّة

حيث يفهمها الجميع ويستوعبونها سواء أكانوا من العامّة أم من الخاصّة، وهذه الخاصّيّة يتكرّر التأكيد عليها ضمن ذكر مزايا القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 17].

2 التّنوُّع

فبعضها ماديّة محسوسة مشاهدة، وبعضها عقليّة منطقيّة، وبعضها عاطفيّة شعوريّة، وبعضهاتاريخيّة.

وإليك تفصيل هذه الأدلّة السّبعة وغيرها من الأدلّة والبراهين التي تضمّنها هذا الإعلان الثّاني:

1 الدّليل الأول: دليل التّربية، ويبصِّرنا بهذا الدّليل قوله تعالى: ﴿رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: 21].

من التربية، والرَّبُّ هو:

1. السَّيِّد المطاع.
2. المربّي للشيء حالاً فحالاً من التَّربية.
3. المالك له.

فهو أنشأنا من العدم، وغذّانا بالنِّعم، ووالى علينا شتى أنواع العطاء والكرم.

2 الدّليل الثّاني: دليل الخلق ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: 21]

كلمة (خلق) تدلُّ على إيجاد شيء لم يكن موجودًا، ثم تقدير الشَّيء الذي تمَّ إيجاده، وفي هذه الحالة فالخالق الأوّل هو مصدر الخلق، فلا يحتاج إلى خالق.

ويبطل السُّؤَال: من خلق الخالق، فالله جل جلاله أحدٌ صمدٌ، لم يلد ولم يولد، ولهذا قال علماؤنا:

إلهي كيف يستدلُّ عليك من هو في وجوده مفتقر إليك". (البحر المديد 25/3)"

بصيرة 1 التَّربية أهمُ من الإيجاد؛ ولذا قدّم الله عزوجل ما يدلُّ على ربوبيته وتربيته للعالم على قوله ﴿خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: 21].

بصيرة 2 يبصِّرك الاهتمام القرآني بأفعال الرُّبوبيّة التي تشعر معها بعظمة الله، فلا يصرفنّك قول بعضهم: حتى الوثنيين يقرُّون بذلك، بل اهتمّ بتفاصيل ذلك، فكلُّ ما لفت القرآن المجيد نظرَنَا إليه فالاشتغال به من أعظم العبادات التي تبني العلاقة بين الإنسانيّة وربِّهم العظيم.

3 **الدّليل الثّالث: دليل خَلْق من كان قبلنا إلى الإنسان الأوّل:** ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 21]

بصيرة

العبادة سبيلها العلم بأن الله عز وجل خلق الكون، والعبادة مجاهدة للنّفس، نتيجتها تحقُّق التّقوى، ويبصِّرنا بذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21].

4 **الدّليل الرّابع: دليل الإقناع بالنّتيجة المثلى المتوقّعة من العبادة، وهي (تكوين الحياة الآمنة من المخافات)** ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21]:

وذلك يتحقّق بـ(التّقوى)، وهذه النّتيجة تلبّي مصالح البشريّة الدُّنيويّة، ولا يمكن أن تتحقّق هذه النّتيجة إلّا بعبادة الله وحده.

5 **الدّليل الخامس: دليل المسكن** ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: 22]

أي: جعلها لكم فراشاً تصنعون على ظهرها ما تصنعونه على الفِرَاش الذي تتحكّمون به كيف شئتم، وجمع الله عز وجل لها بين خصائص مدهشة، فهي:

- **مسطّحة حال تكوُّرها.**
- **وساكنة حال تحرُّكها.**

ومتنوعة التضاريس، والعناصر، والمواد؛ ليستعان ببعضها على تشكيل بعضه الآخر.

6 **الدّليل السّادس: البناء العظيم المحيط بأهل الأرض** ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: 22]

وسُمِّيت السّماء كذلك؛ لعلوّها على الأرض، وعلى سُكانها، وهي بناء مُحْكَم مرتفع، بغير عمد مرئية، لا يمكن أن تختلّ قوانينه، أو نُظُمُه بفعل إنسانيٍّ.

7 **الدّليل السّابع: الأمن المائي المجاني، فالله عزوجل الذي يُكَوِّن الماء ويتحكّم في إنزاله:**

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [البقرة: 22]

ولا يستطيع أحد أن يزعم أنه يمكنه توليد الماء من العدم، أو التحكُّم في إنزاله في المناطق المختلفة من الأرض.

8 **الدّليل الثامن: دليل الرِّزْق والتّغذية (الأمن الغذائي):**

﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: 22]

والأمن الغذائيُ الإلهيُ لن يستمرَ لسنتين، كما تفعل الدُول التي تتخذ الاحتياطات الغذائيّة؛ خوفاً من النّكبات والحروب، بل هو مستمرٌ منذ ما قبل آدم عليه السلام على امتداد السّنوات والأعوام، ولمختلف الأجناس والأقوام.

ولذا قال النّبيُ ﷺ -عندما سئل إِلَامَ تدعو؟-:

«أدعو إلى الله وَحْدَهُ الذي إن مسّك ضرٌ فدعوتَه كشف عنك، والذي إن ضللت بأرض قَفْرٍ دعوتَه ردّ عليك، والذي إن أصابتك سَنَةٌ -يعني جدبٌ وجفاف مطر- فدعوتَه أنبت عليك».

"أحمد (20636)، وصحّحه الأرناؤوط، و الألباني في الصحيحة (420)"

ففي هذه الأدلّة السابقة تبرز كلّيتان من كلّيات الرؤية القُرآنيّة:

الكُليَّة الأولى:

وحدة الخالق لكلِّ الخلائق

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 21].

الكُليَّة الثَّانية:

وحدة الكون، وتناسق وحداته، وصداقته للحياة وللإنسان ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: 22].

بصيرة 1

أدلّة الخلق الإجماليّة، والتّفصيليّة السّابقة، تشكّل أعظم المعجزات البرهانيّة على استحقاق الله عز وجل للعبادة.

بصيرة 2

النّتيجة الحاسمة لهذه الأدلّة: التّأكيد على توحيد مَنْ صنع ذلك، ونفي الشّرك عنه، وتجد هذه النّتيجة الحاسمة في ختام الآية: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22].

بصيرة 3

ختم الله عزوجل هذه الجملة: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ بقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ لأنه يخاطب كلّ واحدٍ من أفراد البشريّة بما هو بدهيٌ، سواء أكان عالماً نحريرًا، أم كان من عامّة الناس.

والنِّدُّ:

العِدْلُ والمِثْل، وهو مثْل الشيءِ الّذي يُضادُّه فِي أمورِه ويُنَادُّهُ، أي: يخالفُه.

وقال (إريك ميتاكساس) موجِّهًا ضربة قاضية للإلحاد:

"إن أعظم معجزة على مرِّ الزّمان هي وجود الكون، ولا يكاد يقترب شيء من عظمة هذه المعجزة. إنها أمُّ المعجزات. إنها المعجزة التي تشير حتمًا عند كلِّ ومضة ضياء تنبعث من كلِّ نجم من النُّجوم إلى شيء، أو أحد، فوق الكون".

(ينظر: موقع "عربي21" نقلًا من صحيفة (وول ستريت جورنال)

9

دليل التّحدّي، وإثبات النُّبوّة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: 23]

بصيرة 1

هذا دليلٌ مزدوجٌ له هدفان:

1 أولهما:

تتمّة إثبات وحدانية الله عز وجل بأسلوب عقليٍّ مختلفٍ عن الأدلّة الأخرى؛ إذ القرآن مكوّنٌ من الأحرف التي تتكلّمون بها، لكنه معجزٌ في ذاته، فلا بدّ أن يكون دالًّا على أنه كلمات الإله الذي تجب عبادته.

2 والثاني:

هذا الدليل انْتِقَالٌ لِإِثْبَاتِ ركن الإيمان بالمَلَك الذي نزل بالوحي، وبالكتاب المنزّل، وبالرسول الذي جاء بالكتاب، فأَقَامَ فيما سبق الدَّلَائِلَ الماديّة المشاهدة الْقَاهِرَةَ عَلَى إِثْبَاتِ وحدانية الله عز وجل في استحقاقه لأن يعبد، وَأَبْطَلَ الشِّرك، وهنا أثبت ما يتعلّق بالنُّبوّة: المَلَك، والكتاب، والرسول، على هيئة التَّحدِّي.

بصيرة 2

التَّحَدِّي بِسُورَةٍ، وليس بآيات تعادل سورة؛ لِأَنَّ مِنْ جُمْلَةِ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ أُمُورًا لَا تَظْهَرُ خَصَائِصُهَا إِلَّا بِالنَّظَرِ إِلَى كَلَامٍ مُسْتَوْفًى فِي غَرَضٍ مِنَ الْأَغْرَاضِ، كما أن التَّحَدِّي بالسُّورَة يثبت بقاء التَّواتر اللَّفظي للقرآن الكريم، ويحقّق استعصاءه على التَّغيير، مهما حاول شانئوه.

بصيرة 3

منشأ التَّحَدِّي المدهش: الإعجاز القرآنيُّ المتنوع والمذهل؛ إذ يملك الكنوز التي يعجز الكلام البشريُّ عن استيعابها، فمنها ما يرجع إلى اللفظ، ومنها ما يرجع إلى المعنى

وبعض أنواع الإعجاز ظاهرة بمجرّد النُّزول، وبعضها تظهر تباعاً حسب تقدُّم البشريّة، واكتشافها للجديد؛ إما من خلاله، وإما من خلال معارفها، فتجد حقائقها متطابقة مع ما تمّ ذكره في القرآن الكريم.

هنا تدرك ما أراد ابن كثير رحمه الله حينما ذكر وجود وجوه خفيّة للإعجاز القرآنيِّ في قوله: "ومن تَدَبَّرَ القرآن وجد فيه من وُجُوهِ الإعجاز فُنُونًا ظاهرة وخفيّة، من حيث اللفظ، ومن جهة المعنى"

(تفسير ابن كثير 1/ 199)

فما هذا الذي تجدّد بالقرآن من عظيم المزيّة، وباهر الفضل، والعجيب من الرّصف؛ حتى أعجز الخلق قاطبة، وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القُوَى والقُدَر، وقيّد الخواطر والفِكَر؛ حتى خرست الشّقاشِقُ (أي: الخطباء تشبيهًا لهم بالإبل الهائجة)، وعُدِمَ نُطْقُ الناطق، وحتى لم يَجْرِ لسان، ولم يُبِنْ بيان، ولم يُساعد إمكانٌ، ولم ينقدح لأحد منهم زَندٌ، ولم يمض له حدٌّ، وحتى أسالَ الوادي عليهم عجزًا، وأخذ منافذَ القولِ عليهم أخذًا؟!

ويروي الدكتور (موريس بوكاي) أنموذجًا للإعجاز العلميّ المذهل من خلال قِصّة هامان المسؤول عن المحاجر الفرعونيّة، ورئيس البنّائين، الذي لم توجد قِصّته في الكتب السّابقة، ولم تُكتشف إلا مؤخرًا عبر الكتابة الهيروغليفية.

والآن ماذا نقول إلا كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص: 44-46]؟

بصيرة 4

وُصِفَ النَّبيُّ ﷺ في آية التَّحَدِّي بالقرآن بالعبودية، ولم يوصف بالرِّسالة؛ لبيان المصدريّة الإلهيّة للقرآن، وكون عبده قائمًا برسالته على وجه التّكليف، والالتزام.

بصيرة 5

قوله ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جملة إثاريّة استفزازيّة، تتضمّن تحديًا صارخًا مدهشًا؛ وذلك حتى يكتمل التّحَدِّي، ويظهر العجز من الخَصْم.

وبذا يظهر لنا معانٍ لهذه الجملة الإثاريّة الجدليّة المتضمِّنة للتَّحدِّي:

1 معنى [1]

ادعوا آلهتكم من غير الله عزوجل من معبوداتكم، أو: ادعوا أكابركم من نصرائكم؛ ليعينوكم على المعارضة، والإتيان بشيء يماثل القرآن، فيكون الشهيد مجازًا عن النّاصر، والمعين.

ويكون معنى قوله: ﴿وَٱدۡعُواْ﴾: استنصروا، واستغيثوا.

2 معنى [2]

ادعوا من يشهد لكم، أو ممن يشهد لكم ممّن نرضاه وترضونه، ممّن يقبل قولهم بأن ما أتيتم به يماثل القرآن.

ويكون معنى: ﴿ٱدۡعُواْ﴾: اطلبوا حضورهم؛ ليشهدوا لكم.

بصيرة 6

عجزهم عن معارضته، واستمرار ذلك العجز أمر مؤكّد محتوم، لا مراء فيه: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ [البقرة: 24].

قوله: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾

فهذه معجزة قرآنيّة مدهشة؛ لأنها تستفزُّهم استفزازًا شديدًا إلى أن يبذلوا أقوى وسائلهم لمعارضته ليثبتوا كذب هذه الجملة فحسب، لكن النّتيجة أنهم: لم يفعلوا، وإمعاناً في التّحدّي رأيت النفي القرآني لفعلهم مقترناً بالمستقبل (ولن تفعلوا) في تحدٍّ مستمرٍّ عَلَى تَعَاقُبِ السِّنِينَ.

قِصّة مسيحيٍّ حاول أن يستجيب للتّحدِّي

تعالوا بنا إلى الدكتور إبراهيم خليل في كتابه الماتع "لماذا أسلم صديقي، ورأي الفاتيكان في تحدِّيات القرآن"؛

إذ نجده يحكي قِصّة طبيب مصريّ مسيحيّ قرّر كتابة كتاب يردُّ فيه على تحدّي القرآن، واختار له عنواناً مثيرًا: "وانتهت تحدِّيات القرآن"، وقد كتب عناوين بعض الفصول قبل أن يكتب تفاصيل العناوين الأشدّ إثارة: (القضاء على أكبر الأكاذيب الدِّينيّة في التّاريخ)، (أخيرًا هزمنا القرآن بالضربة القاضية).. كتب لأجل ذلك ثمانية آلاف خطاب لجميع أنحاء العالم يستحثُّهم على كتابة (خمس عشرة كلمة) فقط هي عدد كلمات أصغر سُوَر القرآن لإثبات أنّ التّحدِّي القرآنيّ قد فشل.

المفاجأة بعد أربع سنوات من إثارته لكلِّ من خاطبه لم يأته إلا أربعة ردود باهتة، تثبت بفحواها صدق القرآن، بدلاً من أن تتحدّاه.. خاطب أَلْفَي عالم ومعهد وجامعة يستحثُّهم على الاستجابة لتحدِّي القرآن.

عبّر عن خيبة أمله فقال: إنه أمر غريب أن يصاب العالم أجمع بعُقْم فكريٍّ، فلا يستطيع أحد من علماء القرن العشرين أن يعارض القرآن بـ(15) كلمة فقط، إنه أكبر ألغاز القرن العشرين!

10 الدّليل العاشر: الإقناع بالتّرهيب من عاقبة السُّوء في المستقبل لمن يغطّي الحقائق: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 24]

11 الدّليل الحادي عشر: الإقناع بالتّرغيب بحسن العاقبة في المستقبل لمن يجمع الاعتقاد الصّحيح، والعمل الصّالح:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًاۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 25].

وهذا التبشير قائم على ستّة أصول، هي أهمُّ ما يضمن السّعادة الدّائمة للبشر، ويقيمون حياتهم في الدُّنيا لتوفيرها:

1 الأصل التبشيري الأول

إشاعة البشرى المحفِّزة للنّفس المطربة للقلب: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 25].

2 الأصل التبشيري الثاني

استحقاق الجنّات: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾، الجنّات: جمع جنّة، فهي تشكّل المسكن الهانئ المريح، حيث يمتلئ بالخضرة المتعدِّدة الألوان؛ حتى أصبحت جمعًا، لا مفردًا.

3 الأصل التبشيري الثالث

تزيين المسكن بأجمل ما يتطلّع له الإنسان: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾، فهناك ترى المياه المتدفِّقة، الجالبة للامتلاء، والسّعادة، والمرح.

4 الأصل التبشيري الرابع

تجدُّد ألوان رزق الثَّمَرات الذي يتنافس فيه حسن المنظر، ولذّة الطّعم والجوهر: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا ...﴾.

5 الأصل التبشيري الخامس

إكمال متعة الحياة الجَسديّة والنّفسيّة بوجود الأزواج المطهّرة: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ﴾، أي: الكاملة الأوصاف في حسنهن.

6 الأصل التبشيري السادس

﴿وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، والخلود يعني الدّيمومة، فهم آمنون من أن ينقطع نعيمهم.

12 الدّليل الثّاني عشر: دليل صِغار المخلوقات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا﴾ [البقرة: 26]

بصيرة 1

ضرب الأمثال أسلوبٌ قرآنيٌ لا يُستحيى منه، فهو يُنَمّي العقل، ويزّكي الرُّوح، ويوسّع آفاق التّفكير، ويلفت النّظر إلى استكشاف البيئة التي تحيط بنا، ويبصّرنا بذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا﴾ [البقرة: 26].

بصيرة 2

مثل البعوضة يختصر صورة الحياة الدنيا، فهي تجمع البساطة لوضوحها، والضعف لصغرها وهشاشتها، والتعقيد لما تحتويه من أجهزة هائلة في حجم صغير، والإدهاش لامتلاكها ما لا يمتلكه الإنسان، والقوّة لقدرتها على سلبه وقتله.

بصيرة 3

قد يكون الأصغر أكبر، فيبصّرنا قوله: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ إلى ما هو أقّل من البعوضة في الصِّغَر والحقارة، أو إلى ما هو أكبر منها.

بصيرة 4

تبصّرنا الآية بردّة الفعل الذي ينبغي أن نستعدّ للتّعامل معها أمام هذه الأمثال، حيث تنقسم البشريّة إلى فريقين:

فريق [1]

المؤمنون، وهم أعظم الناس فِكرًا

إذ يهديهم فِكْرُهم إلى الإيمان والتسليم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 26]: يؤمنون بالغيب، ويتيقّنون أن هناك كنوزًا من المعاني فيما ضربه الله عز وجل من مثل، فتكون مركزًا للاستكشاف والتّفكُّر.

فريق [2]

الكفّار الذين يغطُّون الحقّ والحقائق بالتّشويش والإعلام المضلِّل

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾ [البقرة: 26].

بصيرة 5

يبصّرنا قوله جل ذكره ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗا﴾ [البقرة: 26] بالأثر العظيم الذي يُحْدِثُه المَثَل القرآنيُّ حسب صفاء القلوب: فالفُسّاق قساة القلوب يضلُّهم الله عز وجل به لرداءة قلوبهم، حيث يصرُّون على ردِّ الحقِّ، وأما المؤمنون فيهتدون به لصفاء قلوبهم، حيث يسمعون الحقائق ويعتنقونها.

بصيرة 6

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: 26] الإضلال.. جزاء وفاقًا، فليس المَثَل القرآنيُ منشأ للإضلال بذاته، لكن الفاسق يتلقّاه بالردِّ والصدِّ، ويستخدمه في السُوء، فطبيعته الفاسقة جعلته يتلقّى الخير بالسُوء، فيصبح به ضالًا، من قول العرب: فَسَقتِ الرُطبة مِن قشرِها إذا خرجت منها لعَاهَةٍ أفسدتها فجعلتها رديئة.

بصيرة 7

قوله -تعالى ذِكْرُهُ- ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: 26] تعني انتبه لخطواتك، فالله تعالى خلقك على الفطرة، ولكنه مع ذلك جعلك مختارًا، فإن خرجت عن طاعة الله فستُعَاقَب بالطّرد والإبعاد عن مهيع السّعادة والرّشاد:

بصيرة 8

الصِّفات العمليّة الثّلاث الكبرى المجرمة المدمِّرة للفاسقين، وبها استحقُّوا أن يضلّهم الله عز وجل، سواء انتسبوا للكفر أم للإسلام:

1 صفة [1] تدمير علاقتهم بالله ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: 27]

فالنَّقْضُ: إفساد ما كان مُحْكَمًا، أو نكث ما كان مُبْرَمًا، والعهد: هو الوَصِيّةُ الملزمة الحاضرة دومًا، وتكون من طرفٍ ويلتزم بها طرفٌ آخر، والمعنى: ينقضون وصية الله عز وجل الملزمة التي عاهدوه عليها مع إحكام هذا العهد بشتى المواثيق المؤكّدة، مثل عهد الألوهِيّة، وعهد العدل بين الناس.

وذكره في أوّل سورة البقرة؛ ليشير إلى العبث الإسرائيلي بالعهد الإلهيّ، حيث جعلوه مزيّة لهم، لا يترتب عليه أي التزامات من جهتهم وفسّروه تفسيرًا عنصريًا.

2 صفة [2] تدمير العلاقة مع البشريّة ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: 27]

فقد أمر الله عز وجل أن تُوصَل العلاقات بين الإنسان وربه، وشدّد على أن تُوصَل العلاقات الإنسانيّة ابتداء بالوالدين، فذلك يُفضي إلى التنمية والاستقرار، ووصفها النّبيُ ﷺ وصفاً توضيحيًا تنمويًا مدهشًا، فقال: «وَصِلَةُ الرَّحِمِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَحُسْنُ الْجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ». "أحمد (25298)، وصحّحه الأرناؤوط، والوادعي في الصحيح المسند (1629)"

3 صفة [3] تدمير العلاقة مع الحياة وبيئة الحياة ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 27]

فيفسدون فيها بالإدارة الأنانيّة، وسنِّ قوانينَ وتشريعاتٍ تدمّر الأرض، وتقضي على الحياة الطّيبة فيها، وكلُّ ذلك يعكس الجشع الفظيع الذي يستحوذ على قِلّةٍ غنيّةٍ تبني أمجادها على تدمير ما حولها، وتريد -فقط- مضاعفة أرباحها السّنويّة، حتى لو دمّرت الأرض، ويُشَرّعون نظامًا مفترىً قائمًا على الأكاذيب، والتّغيرات المناخيّة مجرد نذير صغير ظهر بسبب إفسادهم في الأرض.

بصيرة 9 من بصائر واو الجماعة في هذه الأفعال الثلاثة: (يَنقُضُونَ -يَقْطَعُونَ -يُفْسِدُونَ): بناء الصّداقات، والتّحالفات -الصّغيرة، والكبيرة، المحليّة، والدّوليّة- التي تجتمع على الإثم والعدوان، بدلاً من إسعاد الناس، وتنمية الحياة

فيجب على المتّقين، أن يواجهوا هذه التّحالفات الفاسقة؛ ببناء صداقات، وتحالفات صغيرة وكبيرة، محليّة، ودوليّة، تجتمع على البرِّ، والتّقوى، والحقِّ، والعدل.

بصيرة 10 يبصِّرنا الله عز وجل بنتائج فسقهم وأفعالهم المجرمة، فأمّا في الدُّنيا فيعاقبهم الله عز وجل بأن يبعدهم عن الهدى ويضلّهم ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: 26]، وأمّا في الآخرة فقد قال الله عز وجل عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: 27]،

فالخاسر هو الذي أضاع جزءًا من رأس ماله دون مقابل، فكيف بمن أضاع نفسه وأهله وماله؟!

13 الدليل الثالث عشر: دليل مراحل الوجود الإنساني: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 28]

فالخطاب متصلٌ، حيث قال الله عز وجل وهو يعلن للناس عن نظام العبادة، وبراهينها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21]

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ ... فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة: 22]

﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا..﴾ [البقرة: 23]

﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ..﴾ [البقرة: 24]

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ..﴾ [البقرة: 25]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا..﴾ [البقرة: 26]

﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا..﴾ [البقرة: 28]

أي: كيف تسترون حقيقة الإيمان بالله عز وجل ومراحل وجودكم الإنساني خمس لا يتحكّم بها أحدٌ إلا هو: ثلاث مشاهَدة (العدم، ثم الحياة، ثم الموت)، واثنتان غيبيّتان تدلُ عليهما المراحل المشاهدة السّابقة، وهما: (الحياة الأخرى، ثم الرجوع إلى الله عز وجل للحساب).. إنّ كفركم بمن يتحكّم بكم وجودًا وعدمًا وعنده حسابكم النهائي حالة خَبَل عقليٌ، فالاستفهام في قوله: ﴿كيف﴾ للتّعجب والإنكار التّوبيخيِّ. وكتب (Lammens) بأن القرآن يعتبر تقريبًا أنّ حالة الكفر هي حالة ضعف في العقل البشريِّ.

الدليل الرابع عشر: دليل التسخير لخيرات الأرض؛ ليتم الاستمتاع بالحياة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: 29]

14

وكلمة: ﴿جَمِيعًا﴾

تدلُ على أن كمال الاستمتاع الحياتيِّ بالأرض لا يتم إلا باستشكاف الأرض، والبحث عن خيراتها كلِّها، وهذا يقتضي التّعاون، والتّآزر، والتّساند، والتّعاضد بين أبناء البشريّة.

15 الدّليل الخامس عشر: دليل الملك والحكم للمخلوقات العظيمة: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ [البقرة: 29]

والمعنى -كما يفهم من كلام الطَّبريّ وابن كثير رحمهما الله-:

قصد وأقبل إليهنّ، فَعَلَا عليهنّ، وارتفع، فدبّرهنّ بقدرته، وخلقهنّ سبع سموات، وخلقهنّ أكبر من خلق الناس، ولا يوجد أحد من الجبابرة الذين زعموا الألوهِيّة يدّعون أنّهم يقدرون على شيء منها، فهي من أعظم أدلّة استحقاق الله ع للإيمان به، وعبادته.

قصة تبيِّن بداية الخلق الكونيِّ، وتشير إلى تحديد الموعد الزمني بين خلق الأرض والسماء.

لمّا ذكر الله عز وجل أنه خلق لنا ما في الأرض جميعًا، (ثم) استوى إلى السّماء فسوّاهنّ سبع سموات، قد تسأل: ما التّرتيب الزّمنيُّ بين خلق السّموات والأرض؟

للإجابة عن هذا السؤال أقدِّم لك هذه الخلاصة الهادية في الجمع بين الآيات، فقد مرّ الخلق بخمس مراحل متداخلة:

1 المرحلة الأولى: خلق الله عز وجل السّماء ولكن على هيئة دخان

ويدلُّ لذلك قوله في سورة فصّلت: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ [فصلت: 11]، وخلق الأرض في الوقت ذاته لتكون جزءًا من الكون فقال: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: 9]، فكانتا مرتتقتين (متلاصقتين)، كما أفاد ذلك قول الحق: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: 30]، ففتق الله عز وجل السّماء عن الأرض، وبناها: بأن رفع سمكها فسوّاها.

2 المرحلة الثانية: لما فتق الأرض عن السّماء جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا

وَبَارَكَ فِيهَا، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي يومين آخرين، وبذا خلق لنا ما في الأرض جميعًا، وتمّ ذلك في أَرْبَعَةِ أَيّامٍ سواء.

3 المرحلة الثالثة: بعد ذلك استوى إلى السَّماء وهي ما زالت دُخانًا

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11].

4 المرحلة الرابعة: ولما قالتا أتينا طائعين وهو قد استوى إلى السَّماء

قضاهن –كما في سورة فصّلت المكّيّة- وسوّاهن –كما في سورة البقرة المدنيّة- ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَا﴾ [فصلت: 12]: أي: قدّر أنظمتها وقوانينها، ثم قال: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظًاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [فصلت: 12]، فخلق نجومها التي صارت مصابيح للسماء.

5 المرحلة الخامسة: مرحلة دحو (دحي) الأرض

فقد قرّر أئمة اللغة أن الدحو غير الخلق، وقد قال الله عز وجل عن هذه المرحلة: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾ [النازعات: 30-31]، وَاكَبَتْ هذه المرحلةُ المرحلةَ الرّابعة، فكانت خلال اليومين الأخيرين.

> "والدحو"

يدلُّ على التَّمهيد، والبسط، والسّعة بما يتناسب مع من يعيش على الأرض، كالبسط المناسب لبيضة النّعام، فإنه بَسْطٌ على هيئة البيضة، وليس امتدادًا محضًا، وقد قالوا: اندحى البطن: اتسع، ولا يظهر اتساعه إلا إذا انبسط واستدار للسِّمَن، وفَسَّرَ الدَّحْيَ بِإِخْرَاجِ مَا كَانَ مُودَعًا فِيهَا بِالْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ، فأخرج مَا كَانَ مُودَعًا فِيهَا مِنَ الْمِيَاهِ، فَنَبَتَتِ النَّبَاتَاتُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ٣٢﴾ [النازعات: 30-32].

16

االدّليل السادس عشر: دليل العلم الشامل، ويبصِّرنا بذلك قوله -جلّ ذكره-: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 29]

فمن لا يعلم شيئًا لا يستحقُّ أن يُعبد، بل الذي يُعبد هو الذي علم كلّ شيء، وناسب وجود هذا الدّليل قبل قِصّة آدم عليه السلام، حيث لا يعلم بتفاصيلها إلا الذي خلق آدم عليه السلام.

نقل موقع عربي21:

عن عالم الفيزياء الفلكيّة البريطانيِّ (مارتن جون ريس) أنه وبعد إجراء سلسلة من البحوث، انتهى إلى أنّ الكون لم يأت من عدم، وأنّه مِنْ صُنعِ خالق.

وأوضح (ريس) أنه وبعد أن كان يعتبر نفسه غير متدين في السّابق رغم ارتياده الكنيسة، إلا أنه لم يؤمن بالله عز وجل إلا بعد بحوثه والفتوح العلميّة التي توصّل إليها.

وهذا مثال أورده موقع موسوعة Wikimedia

لقد كان معلوماً للناس قديماً أن الذُكورة والأنوثة لا توجد إلا في الإنسان والحيوان، أما في النباتات فلم يعلم الناس حقيقة هذا الأمر إلا في الوقت الرّاهن بعلم النّبات، مع تقدُّم علم التّشريح للنّبات، في حين أن القرآن ذكر ذلك في قوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يس: 36]، **كما كان الناس قديمًا يجهلون حقيقة النّباتات وتكوينها، وكشفت العلوم الحديثة أن النّباتات تتكوّن من مواد أساسيّة واحدة هي :(كربون، وهيدروجين، ونتروجين، وكبريت أو فسفور)، وبعض المواد الضّئيلة الأخرى، غير أن سبب اختلاف نسبة التّراكيب الكيمياويّة في النّبات يرجع إلى اختلاف أوزان النّبات في كلٍّ منها، وأن جذر كلِّ نبات لا يمتصُّ من المواد في الأرض إلا بمقادير موزونة محدّدة، وبهذا تكلّم القرآن لنا عن هذه الحقيقة العلميّة بقوله:** ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ [الحجر: 19].

وقد تسأل: إذا كان المحور الأوّل من سورة البقرة قد تحدّث عن الإعلان الإلهيّ للبشريّة عن النِّظام الحقيقيّ الوحيد للحياة الإنسانيّة، وهو نظام العبادة، فما المحور الثاني؟ وما الموضوع الذي دار حوله؟

الجواب: هتا يأتي المحور الثاني والذي عنوانه:

المحور الثاني

القِصَّة الحقيقيَّة لبدء التَّاريخ البشريِّ، والتَّكريم الإلهيُّ للإنسانيَّة بالاستخلاف في الأرض

[البقرة: 30-39]

المحور الثاني

القِصَّة الحقيقيَّة لبدء التَّاريخ البشريِّ، والتَّكريم الإلهيِّ للإنسانيَّة بالاستخلاف في الأرض

[البقرة: 30-39]

المناسبة والاتصال:

تتجلى الوجوه الآتية في المناسبة والاتصال بين هذا المحور وما قبله، وهي:

1 بدأت سورة البقرة بذكر الكتاب الذي لا ريب في إصلاحه العالم، ثم ذكرت خلق الكون، وتسخير ما في الأرض قبل ذكر بداية وجود للبشر؛ ليستبين للإنسانيّة أن الله عزوجل جعل الشّريعة لمصالحهم، كما جعل الطّبيعة مسخّرة لهم، وهنا ترى القرآن المجيد يقدِّم لك -وحده- ثروة هائلة من الحقائق، والتّصورات القويمة، وثروة من الإيحاءات، والتّوجيهات الكريمة، وثروة من الأسس التي يقوم عليها تصوُّر اجتماعيٌّ، وأوضاع اجتماعيّة، يحكمها الخلق، والخير، والفضيلة.

2 الاتّصال اللغويُّ الخطابيُّ الذي يؤدّيه حرف العطف: (الواو) بصورةٍ مدهشة!، فكأنّ الله -سبحانه وتعالى- قال لهم: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:28]؟

- وكيف تكفرون بالله عز وجل و﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:29]؟
- وكيف تكفرون بالله عزوجل وهو الذي ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة:29]؟
- وكيف تكفرون به ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾؟
- وكيف تكفرون به وقد قال للملائكة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فأعطاكم هذه المكانة..؟

3 ختم المحور السّابق بصفة العلم وهنا بيّن تميُّز الجنس البشريِّ بصفة العلم.

وربما تسأل: ما الأقسام التي تضمّنها هذا المحور؟

الجواب:

يتكوّن هذا المحور من ثلاثة أقسام، توضِّح للبشريّة البداية الحقيقيّة لوجودهم في العالم، وهذه الأقسام هي:

القسم الأول:	بداية الوجود البشريِّ، ومظاهر تكريم الإنسان الأوّل (آدم عليه السلام) [البقرة:30-34].
القسم الثاني:	تدريب آدم عليه السلام على الحياة الأرضية النِّظامية خلال الفترة التّجريبية للتّعامل مع الواقع [البقرة: 35-36].
القسم الثالث:	عوامل النّجاح في اختبار الاستخلاف في الحياة الدنيا [البقرة: 36-39].

القِسم الأول

بداية الوجود البشريِّ، ومظاهر تكريم الإنسان الأوّل (آدم عليه السلام) [البقرة:30-34]

فإن قلت: ما أصول مظاهر التّكريم الإلهيِّ لآدم عليه السلام، التي ذكرتها آيات هذا القِسم؟

الجواب: يتكوّن هذا القِسم من 7 أصول تكريميّة، هي:

الأصل التكريمي الأول

بيان الخريطة الحقيقيّة للحياة الإنسانيّة، بعيداً عن التخمين، والتيه، والضياع، والضلال، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:28].

الأصل التّكريميُّ الثّاني

تهيئة البيئة المناسبة للحياة الإنسانيّة، فالإنسان هو السيد الأول للأرض، ويبصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:29].

هنا توقن بالنّظرة الإسلاميّة للإنسانيّة.. إنها نظرة مدهشة، لقد خلق الله عز وجل لنا ما في الأرض جميعاً، وبذلك ترى الإنسان "أعزّ، وأكرم، وأغلى من كلِّ شيء ماديٍّ، ومن كلِّ قيمة ماديّة في هذه الأرض جميعًا، ولا يجوز إذن أن يُستعبد، أو يُستذلّ لقاء توفير قيمة ماديّة، أو شيء ماديٍّ.

الأصل التّكريميُّ الثّالث

التّكريم بالإعلام عن خلق آدم عليه السلام: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة:30].

1

فـ﴿إِذۡ﴾ اسم مبهم، يدلُّ على حدثٍ في زمنٍ مضى، ويلزم الإضافة إلى الجُمَل أبدًا، أي: كيف تكفرون بالله عز وجل، وقد خلق لكم ما في الأرض جميعًا، واذكروا إذ قال للملائكة تكريماً لكم: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً﴾، فاسمعوا القِصّة الحقيقيّة لوجودكم على الأرض، بدلاً من الأوهام، والخرافات، والأساطير التي يتمُّ بها إضلال العقل البشريِّ.

2

ولا يظهر سببٌ مقنعٌ يتناسب مع جلال الألوهيّة، وواقع البشريّة لإخبار الله تعالى ملائكته عن هذا المخلوق الجديد الذي سيكون خليفة في الأرض إلا سبب واحد، هو تكريم الله تعالى آدم عليه السلام وذرّيّته؛ بإعلام العباد المكرمين من الملأ الأعلى -وهم الملائكة عليهم السلام- عن خلق البشريّة.

3

﴿إِذۡ﴾ تأتي لمعان كثيرة، أهمها:

الأول:

لبيان الماضي، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30]، كأنه يقول: أيُها البشر، إليكم قصّة مجيئكم إلى هذا الكون.

الثاني:

لبيان الحقيقة، كما في قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾ [النجم: 32].

الأصل التّكريميُّ الرابع

التّكريم بجعل آدم عليه السلام خليفة في الأرض: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30].

بصيرة 1

الوجود الإنساني يعكس الرّحمة الإلهيّة، والتّكريم الربانيّ، والخلافة في الأرض ليست عقوبة، بل تشريفٌ يتضمّن التّكليف، حيث قرّره الله عز وجل قبل الخلق الإنسانيّ، وأعلم به الملائكة

فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30]، فكأنه قال: إني خالق بشرًا، وجاعله خليفة، فوصول الجنس البشريّ إلى الأرض ليقوم فيها بوظيفته الوجوديّة، كان محسوماً من قبل.

بصيرة 2

الاستخلاف هنا يعني القيام على عمارة الأرض، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:61]

وقال: ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: 84- 85]، وإذا كان الله عز وجل خَلَقَ الْعَالَمَ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً، فإنه قد سخّر كلّ تلك الأنواع لخدمة خليفة الأرض المختار، وهو الإنسان.

بصيرة 3

﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة:30]، تبصّرنا بأخطر جريمتين يمكن أن يقوم بهما مخلوق، وهما:

الأولى

الإفساد في الأرض، وهي كلمة جامعة لكلِّ تغيير سيء، أو هدمٍ للواقع الصالح الذي خلق الله عز وجل عليه بيئة الأرض أو تغيير فطرة أهلها.

الثانية

سفك الدماء، ويعني التخلُّص ممن خلقهم الله عز وجل، ليشاركوا إخوانهم في الإنسانيّة في حقِّ الحياة، فيسكبها المعتدي بسطوة وبطش من خلال القوة الغضبيّة والاستكباريّة لتخرج خارج الجسد، وتفارقه، فيموت الجسد.

بصيرة 4 ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة:30]، يبصّرنا السؤال الملائكيُ بأن سؤال الاستفهام، والاستعلام، والاستكشاف جزء من النِّظام الإلهيّ في الخلق، وهو مفتاح المعرفة المبصرة الصّادقة لاستكشاف الوجود الكونيّ.

بصيرة 5 ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة:30]، تبصّرنا بأن الملائكة ذكرت التّسبيح؛ ليبيّنوا اجتهادهم في تنفيذ أمر الله عز وجل، لا على أنهم يمنُّون في ذلك، فهم أرادوا أن يخبروا أن سؤالهم كان للاسترشاد، لا للاعتراض.

والتّسبيح: هو التّنزيه والتّعظيم، والحمد: هو الشُكر والثّناء، أي: ننزهك عن النّقص في فعلك، ونعظّمك في ذاتك حال كوننا حامدين لك، ويظهر لي أن معنى قولهم ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ هنا معناه: نطهّر لك أنفسنا بالثناء عليك وطاعتك؛ لتكون لائقة بالتّسبيح بحمدك، ولذلك عدّوه باللام فقالوا: ﴿نُقَدِّسُ لَكَۖ﴾.

بصيرة 6 ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة:30]: من واجب المخلوق المستخلف في الأرض -بحسب التّصور الملائكيّ- أن يلزم خطّة العبوديّة لله عز وجل، مديمًا لذكره وتسبيحه، حتى تستمرّ أهليّته لمنصب الخلافة.

بصيرة 7 ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:30]: هذا الجواب عن سؤالهم: لا يمكن لهم أن تَظهر لهم الحكمة؛ لضعفهم، لكنّهم يجب أن يذكروا أن هناك أهدافًا يعلمها الله عز وجل، ربّما استبان لهم بعضها لاحقاً.

فالجواب تذكيرٌ بما تعلمه الملائكة من سعة علمه؛ ليكون تذكيرًا مُشَوِّقًا للمعرفة المستقبلة، ويعطي أمرين معاً:

1. التّسليم للغيب.
2. والاندفاع للبحث عن المعرفة الكاشفة لما يمكن معرفته من هذا العلم الإلهيّ، وَفْقَ الاستطاعة؛ كما تدلُ على أن وجود إفسادٍ مستقبليّ جزئيّ لا يعني ترك إقامة ما يؤدّي إلى الصّلاح الكلّيّ.

الأصل التّكريميُّ الخامس

تكريمه بالعلم، والمعرفة (الاستعداد الإنساني للمعرفة) ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ...﴾ [البقرة:31-33].

بصيرة 1

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ...﴾ [البقرة:31]، **تبصّرنا بأن تسمية الله تعالى لآدم عليه السلام بهذا الاسم؛ ليعبِّر عن طبيعة ذرِّيّته المختلفة، حيث خلق آدم عليه السلام من أديم الأرض**

ولذا قال النّبيّ ﷺ «إن الله تعالى خلق آدم عليه السلام من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم: الأحمر، والأبيض، والأسود، وبين ذلك، والسّهل، والحَزْن، والخبيث، والطّيِّب» "أحمد (19582) وصحّحه الأرناؤوط، والألباني في الصحيحة (1630)"، **فينبغي التّعامل بواقعيّة معهم، لا بمثاليّة تعمي، وتصمُّ.**

بصيرة 2

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31]، **تبصّرنا بأن أعظم المزايا الإنسانيّة تعليم الأسماء كلِّها، أي: أسماء كلّ شيء، وذلك يعني معرفة سبب التّسمية، ومعرفة خصائصها.. فعلى ماذا يدلُّ هذا؟ يدلُّ على وجود الأساس المعرفيّ لتكوين المعارف المتراكمة.**

بصيرة 3

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:31]، **عرض هذه المسمّيات بأشكالها، وشخوصها؛ وفي ذلك إشارة إلى استعمال الأساليب المختلفة لإيصال العلم، وبيان الحكمة.**

بصيرة 4

جواب الملائكة: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:32]، **من أعظم مفاتيح صلاح القلوب، وتَملُّك المعرفة، فطلب العلم يكون بالاعتراف بعدم العلم. وفي ذلك تزكية النُّفوس وصفاء القلوب، وفتح المغلقات، ومعرفة الجديد.**

بصيرة 5

هذه القصّة من أعظم الأدلة على المصدريّة الإلهيّة للقرآن الكريم، ومن أكبر المعجزات التي تدلُّ على صدق نبوّة النّبيِّ ﷺ؛

1 إذ إنها تتضمّن علمًا غيبيًا، ليس بيد البشر اكتشافه.

2 وتتضمّن معلوماتٍ وُجدت في الكتب السّابقة، فجاء القرآن مصدِّقًا لها.

3 وتتضمّن تصحيحاً لمعلومات مغلوطة محرّفة وردت في الكتب السّابقة، فجاء القرآن مقوِّمًا لها.

وكلُّ ذلك بيانٌ للتّحدّي الوارد في قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة:23].

بصيرة 6

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾: العلم الكامل، والحكمة المطلقة أهمُّ صفتين للتّدبير الحقِّ في الكون، ولا يتّصف بهما أحدٌ على سبيل الكمال إلا الله عز وجل، وذلك يعني أن نُسَلِّمَ له في شرعه.

فـ﴿عليمٌ﴾:

صيغة مبالغة من عالمٍ، فله العلم الذّاتيُّ كلُّه من غيرٍ تعليم.

و﴿حكيمٌ﴾:

صيغة مبالغة من المُحْكَم، فله الحكم والإحكام الذي يتضمّن الحكمة التّامّة، وَالْحكمَة: «معرفَة أفضل الْأَشْيَاء بِأَفْضَل الْعُلُوم» عند الغزالي رحمه الله، وهي المتقنة للصُّنع، المانعة للفساد.

بصيرة 7

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة: 33]، العلم المُؤَسّس على الوحي الإلهيّ، سرُّ تميُّزِ الجنس البشريِّ، فاستمدّ آدم عليه السلام علمه من الوحي الإلهيِّ

وبَنَى على تعلُّم أسماءِ كلِّ شيء: العلم المتراكم المبني على التجربة. فتمّ تعليم آدم عليه السلام، ولكنه استمدّ علمه من الذي يعلم السِّرّ في السّمَوات والأرض.

بصيرة 8

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة:33]، **تبصّرنا بأنّ الأصل في التّعليم الحوار، والحلم، والتّلطف، وإعادة المعلوم نظريًا لتثبيته واقعيًا.**

وقد تسأل: ما الحكمة في التفريق بين الإبداء والكتمان، حيث قال: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾، فزاد كلمة: ﴿كُنتُمۡ﴾؟

الجواب:

فَرّقَ بين الإبداء والكتمان، حيث قال ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾؛ لأن الإبداء يتحقّق فور الفعل، أما الكتمان فإنه يكون قبل الحوار، ثم يستمرُّ بعد الحوار، فهذه الكلمات تجمع الخوف والرجاء، فحريٌّ بالبشريّة أن تخاف منه -جلّ ذكره- وترجوه، فهو يعلم آلام النفوس وخفيّ مكرها.

الأصل التّكريميُّ السّادس

تكريم آدم عليه السلام بإسجاد الملائكة له: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾ [البقرة:34].

فكانت الطاعة لله عزوجل، **والسّجدة لآدم** عليه السلام، **أكرم الله** عزوجل **آدم** عليه السلام **بأن أسْجَد له ملائكته.**

وتجد آية الحجر، وص، تدلّان على أن الأمر بالسُجود تمّ الإعلام به قبل خلق آدم عليه السلام، حيث قال الله -جلّ شأنه-: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر:28-29]، ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص:71- 72].

اجمع بين هذه الآيات جميعاً ليتّضح لك أن الأمر بالإسجاد أمرٌ مستقلٌ، تمّ قبل خلق آدم عليه السلام، والعطف بالواو هنا، فأذعنت الملائكة لذلك دون مراجعة.

والسُجود في الإسلام أعلى أنواع الذلِّ أمام الله الرّبِّ الأجلِّ؛ إذ هو أخفض طأطأة للرأس، ليلامس الأرض، لقصد التّعظيم، أو التّكريم لمشاهَدٍ بالعيان، أو لمشاهدٍ بالجَنان.

الأصل التكريمي السابع

رسم خريطة المستقبل بالتمييز بين الأولياء الحلفاء وبين الأعداء: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ [البقرة:34]، وفي هذا الأصل البصائر الآتية:

بصيرة 1

التّحالف مع عدوِّ البشريّة الأوّل (إبليس)، يعني جلب الخسارة، واليأس، والحرمان؛ فـ(إبليس) على وزن (إفعيل)، من أبلس، أي: أصيب بالدّهشة، والوجوم؛ لخيبة أمله، ويأسه، وانقطاع رجائه.

بصيرة 2

اعرف عدوّك، واحذر خطواته؛ فقد جمع إبليس بين ثلاث صفات إجراميّة هي المراحل المتدرجة للوصول إلى مرحلة الإجرام الكامل: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 34]

فالإباء: رفض السّمع والطاعة، والاستكبار: طلب تكبير نفسِه فوق حجمها، فرفع نفسه إلى مرتبة فوق مرتبة المخلوق، والكفر: يعني التّغطية الذي يؤدي إلى الجحود.

والمبادرة إلى السّمع، والطّاعة، والانتظام في النِّظام الكونيّ العامّ الذي وضعه خالقه، أعظم معين على ترك النّزعة الإبليسيّة، والبعد عن اليأس والنّدم، والأحزان والألم.

بصيرة 3

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 34]، الصّفات الثلاث بوابة سفك الدِّماء، والإفساد في الأرض ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: 30].

القسم الثاني وهو الأصل التكريمي الثامن

تدريب آدم -عليه السلام- على الحياة النِّظامية خلال الفترة التّجريبيّة للتّعامل مع الواقع [البقرة: 35-36]

بصيرة 1

خلق الله عز وجل البشر لمصلحتهم ومنفعتهم وتكريمهم؛ ولذا أسكن أبويهم الجَنّة ابتداء، ويبصّرنا بذلك قوله جل ذكره:

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: 35]

خاطب الله عز وجل آدم عليه السلام باسمه تكريمًا حسب السِّياق، فقال له: ﴿ٱسْكُنْ﴾ من السُّكون، والاطمئنان، والأمان، والاستقرار، وعدم القلق، وهيّأ له رفيقًا يأنس به، أمره بالأكل ليجد اللّذّة، ويبقي الجسد حيًا نشطًا قويًا. ﴿رَغَدًا﴾ أي: كُلا هنيئًا، واسعًا، رافهًا لا يتعب صاحبه؛ ولا يجد فيه مَنْ يحاسبه

بصيرة 2

من أعظم أهداف الشريعة الإسلاميّة حماية الإنسان من الوقوع في الظُّلم، وتربية الإرادة القويّة الذّاتيّة في الإنسان؛ ليتعوّد على النِّظام الدقيق

ويبصِّرنا بذلك قوله جل مجده: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 35]، فلم يقل: ولا تأكلا، بل نهى عن مجرد القرب فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾.

مدهشٌ جدًا أن ترى أن أوّل الأهداف المرسومة من التّنظيم الشّرعي للحياة الإنسانيّة، هو منعه من الظلم.. وللمنع من الظُّلم لا بد من إقامة منطقة عازلة للمشتبهات بين الظُّلم والعدل.

بصيرة 3

يبصّرنا قوله تعالى مجده: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: 36] بالبداية المبكّرة لاختراق الشّيطان للمناعة الإنسانيّة، حيث أوقعه في الزّلل، فانتصر الشّيطان في المعركة الأولى، حيث وضع دراسة تجريبيّة مبكّرة حول الطّبيعة الإنسانيّة،

إذ يقول ﷺ: « لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ عليه السلام فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لاَ يَتَمَالَكُ». "مسلم (6742)"

فإن قلت: فما القراءات الواردة في ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾، وما المشاهد التي تصوِّرها؟

الجواب:

قرأ حمزة رحمه الله ﴿فَأَزَالَهُمَا﴾، أي: أزالهما الشّيطان عنها، أنه نحّاهما تنحية صادرة عن التّشويق للشّجرة، أي: زيّنها لهما، فأزالهما عن المنطقة الواسعة المباحة، فدخلا في المنطقة المحظورة ولمّا دخلا المنطقة المحظورة تصوّر قراءة الجمهور ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أنه أوقعهما في الزّلة وهي الخطيئة، وكان ذلك مؤشِّرًا على إخراجهما مما كانا فيه من النّعيم، فربح الشّيطان هذه الجولة.

بصيرة 4

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: 36]، **تبصّرنا بوجوب الحذر الشّديد من ارتخاء الدِّفاع البشريِّ أمام الشّيطان، وضرورة تنمية خواطر الخير مقابل خواطر السوء، فربح الشّيطان الجولة الأولى من المعركة مع الإنسانيّة**

فنسب الله عز وجل الإزلال والإخراج إلى إبليس.. إلا أننا ينبغي أن نستذكر أنه لم يكن ليوقعهما في الزّلة لولا قابليتهما لذلك، وارتخاء جدارهما الدِّفاعيِّ، كما أن في ذلك تلطُّفًا بهما، ليستعينا بربِّهما عز وجل على ضعفهما وعدوِّهما.

بصيرة 5

الوقوع في الزّلل كان مسؤولية مشتركة بين الرّجل والمرأة.. ويبصّرنا بذلك الضّمير في: ﴿فَأَزَلَّهُمَا - فَأَخۡرَجَهُمَا﴾، وليس كما يزعم المحرِّفون أن سببه المرأة

ورواية التّوراة الحاليّة تناقض ذلك، فتَلُقي باللّائمة على المرأة، وتجعلها السّبب في إغواء آدم عليه السلام، حيث جاء في الإصحاح الثالث من سفر التّكوين أن سبب زلل آدم عليه السلام هو حواء عليها السلام، وسبب زلل حواء عليها السلام هو الحيّة.

بصيرة 6

اقتضت تهيئة آدم عليه السلام لطبيعة العيش في الأرض أن يُختبر في الجنّة بموقف من جنس مواقف العيش الأرضي المستقبليِّ، بنوازعه، وتجاذباته الخَيِّرة والشّرِّيرة.

القِسم الثالث

عوامل النّجاح في اختبار الاستخلاف في الحياة الدنيا [البقرة: 36-39]

وقد تسأل: ما عوامل النّجاح التي تساعد على الاستخلاف في الأرض، كما تضمّنتها آيات هذا القِسم؟

الجواب: تضمّن هذا القِسم (6) عوامل للنّجاح في اختبار الاستخلاف، وهي:

عامل [1] استيعاب أن الاستخلاف الأرضيّ تشريف، وتكليف

وليس بسبب نظرية الخطيئة الأصليّة، التي انتقلت من آدم عليه السلام إلى بنيه بغير ذنب منهم، كما زعم المحرّفون، ويبصّرنا بذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30]، مع قوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة:36]؛ وبذا تتّضح طبيعة الوجود الإنسانيّ في الأرض، فخروج آدم وزوجه عليه السلام إلى الأرض، جزء مقرّر مسبقًا ضمن الخطّة الكونيّة في الخلق البشريِّ، ووقوعهما في الزّلل علامة على الخروج، وإن كان في لمحة منه تأديبًا لهما على ما وقع من الزّلل، لكنه محى السيئة المترتّبة عنه بالتّوبة، ويظهر هذا عند الجمع بين هذا الموضع وبين الآية (30) التي أخبر الله عز وجل فيها أنه سيجعل في الأرض خليفة، وليس في الجنة.

عامل [2] الاستعداد لمواجهة العداوات المستقبليّة

والفشل نصيبُ مَنْ جعل عدوّه صديقاً له؛ إذ العداوة هنا أبديّة، ويبصّرنا بذلك قوله: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة:36].

و ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾

معناه: الانتقال غالبًا من أعلى إلى أسفل عَلَى سَبِيلِ الْقَهْرِ، أو الاختيار، وضمير الجمع هنا يعود لآدم وحواء عليهما السلام، وإبليس لعنه الله.

عامل [3] الاستفادة من البيئة المهيأة مكانيًا، وزمانيًا

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة:36]، فالمستقرُ مكان الاستقرار الذي يدلُّ على التمكُّن، والاطمئنان، والمتاع: كلُّ شيء ينتفع به في مدّة، وتصحبه لَذّةٌ، من معاش، أو شهوة نفسيّة، أو جسديّة، أو عقليّة، والمستقرُ والمتاع ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾، فطبيعتهما الأرضيّة تأبى الدّوام، بل هما مؤقّتان.

عامل [4] التوبة تظل مفتوحة عند أيِّ فشلٍ مؤقّت في المعركة مع الشّيطان باقتراف المعصية

فيلجأ العبد إلى الله عز وجل منيبًا فيتقبّله ربُه عز وجل ويزكّيه بما يُعينُه على قلب الهزيمة إلى انتصار، ويبصّرنا بهذا قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:37].

بصيرة 1 مدى التّوبة مفتوح، وكلمة: ﴿حِينٍ﴾ التي جاءت في الآية السّابقة، تدلُّ على بقاء التّمتع إلى خروج الإنسان من الأرض؛ إمّا بالموت، وإمّا بقيام السّاعة.

بصيرة 2 ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ﴾، تبصّرنا بمدى رحمة الله عز وجل بالإنسانيّة؛ إذ علّمها ما به ترجع إليه، وتكسب رضاه، فالمعنى: فلقّى الله عز وجل آدم عليه السلام كلماتٍ، بأنْ علّمه إيّاهن ليقولهنّ فيتوب، وهنا قرأ ابن كثير رحمه الله ﴿فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ﴾

فالكلمات تلقّت آدم عليه السلام في حمأة سقوطه المدوّي في تلك المعصية فأنقذته، وتكمل التّصويرَ قراءةُ الجمهور؛ إذ تلقّاها آدم عليه السلام تلقّي إقبال، وأخذ، ومسرّة، ولم يردّها كما ردّ إبليس أمر ربّه عز وجل، ولمّا قال تلك الكلمات فرحًا بها نادمًا على زلّته ﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾: فتاب آدم عليه السلام أي: رجع عن الذّنب على أجمل الوجوه، فتاب الله عز وجل عليه، أي: رجع عليه بمحبّته وإحسانه كأنْ لم يذنب.

بصيرة 3 ﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾ تبصّرنا هذه الكلمة من خلال لفظها بكيفية قطف ثمرتها، فكلمة (تاب) توبًا وتوبة، تعني رجع رجوعًا، فإن رجعت إلى الله عز وجل رجع الله عز وجل إليك، وذهب الخليل رحمه الله إلى أن معنى التوبة: "الاستِحياءُ"

وذهب الرّاغب رحمه الله إلى تعريف التوبة على أساس أثر الاستحياء، والنّدم، والرُجوع فقال: "التّوب: ترك الذّنب على أجمل الوجوه". "العين (138/8)، المفردات للراغب (ص169)"

بصيرة 4

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:37]، تبصّرنا صيغ المبالغة هنا بمدى الرحمة الإلهيّة بالحياة الإنسانيّة؛ فـ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ تبصّرك بكثرة مَنْ يذنب، وكثرة ما يصدر من الذّنب عن الواحد منهم، ولكن الله عز وجل ﴿تَوَّاب﴾ كثير التوبة على الجميع

والنّبيُّ ﷺ يقول: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي» "الترمذي (3540)، وقال حسن غريب، وقال ابن رجب: إسناده لا بأس به" وقَرَن اسم الرّحيم بالتّواب؛ لأنّ الرّحمة أساس التوبة، ولأن الله –تعالى مجده– لا يغفر لهم السّيّئات، بل يغدق عليهم بالخيرات.

عامل [5] اتّباع المنهاج الإلهيّ الدُّستوريّ الهادي لكيفية بناء الحياة الأرضيّة

لضمان عدم الخوف من المستقبل، وعدم الحزن على الماضي، وإلا واجهنا المصير الخطير للكافر الذي يغطّي أعظم حقائق الكون، ويبصّرنا بذلك قوله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: 38].

بصيرة 1

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ تبصّرنا بأن ذِكْر الهبوط مرة أخرى لمصلحة عظيمة للبشريّة؛ إذ ذلك ليتمّ التّنبه إلى التّخطيط الجيد والواعي للحياة المستقبليّة، فذَكَرَه في الأوّل؛ لبيان تحقُّق علامة الهبوط وهو الأكل من الشّجرة

وذكره هنا؛ لبيان أنه مقصودٌ من خلق البشريّة حتى تتحقّق المصالح المتعلّقة بالاستخلاف، فهو مقصودٌ عند خلق آدم عليه السلام وقبل أن يُذنِب.

بصيرة 2

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾، تبصّرنا بأن الهدى منهج يجب اتّباعه، يضمن القيادة للبشريّة إلى الحياة الممتعة؛ إذ هذه الجملة شرط، وجوابه هو الشّرط الثاني مع جوابه ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

بصيرة 3

بمجيء المنهاج الذي يحوي الهدى الإلهيّ، يعطي الله عز وجل البشريّة الإرادة الحرّة للاختيار، ويحذِّرهم بصرامة ليتعاملوا مع الحياة بجدّيّة؛ لأنه سيترتب على اختيارهم نتائج خطرة، وهنا تبيِّنُ لك الآيتان أهمِّيّة الاختيار؛ لأنهم سينقسمون إلى صنفين:

صنف [1]

الصِّنف المتّبع للهدى الإلهيِّ

وقال الله عز وجل فيه: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾[البقرة:38]، وكلمة ﴿تَبِعَ﴾: "بِالْإِقْدَامِ عَلَى مَا يَلْزَمُ، وَالِاحْجَامِ عَمَّا يَحْرُمُ" كما يقول الرّازيُّ (تفسير الرازي472/3)، وهي كلمة تدلُّ على أن التّابع يقفو الهدى ويتلوه، ويتتبّع أثره وخطاه وتعاليمه، ويبحث عن نُظُمِه ليلتزمها.. وهي كلمة تتضمّن تحديدًا واضحًا للخطوات، التي ينبغي أن يتحرّك خلفها الفائزون، فهؤلاء ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في المستقبل الدُّنيويّ والأخرويّ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على الماضي، فالأمان المستقبليُّ من المخافات القادمة، وإزالة الأحزان على الآلام الماضية يعطي الشُّعور الحقيقيّ بمتعة الحياة.

صنف [2]

الصِّنف المعرض عن الهدى

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:39]، ﴿كَفَرُواْ﴾ فغطوا الحقائق، ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ أي: نسبوا الكذب للآيات، مع أن الآيات جمع آية، وهي العلامة، والحجّة، والبرهان؛ لِأَنَّهَا تُظْهِرُ الْحَقَّ الْخَفِيّ.

وعند الجمع بين الآيتين يكون المعنى: فمن آمن، وصدّق بآياتي، وتبع هداي فلا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، وهم أصحاب الجنّة هم فيها خالدون، والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا فاتّبعوا ضلالات الخلق بدلاً من هداي، لحقهم الخوف والحزن، وصاروا من أصحاب النار هم فيها خالدون.

عامل [6] استلهام تجربة الإخفاق الأولى التي خاضها الأبوان

وتوظيفها في التقرير المستمرِّ للعداوة الأبديّة مع إبليس وأتباعه.

المحور الثالث

(المحور الإسرائيليُّ) دعوة بني إسرائيل إلى الوفاء بالعهد والإيمان بالنَّبيِّ الخاتم، والأنموذج الإسرائيليُّ بين النَّجاح والفشل في إقامة مبادئ الاستخلاف

[البقرة: 40-123]

قد تسأل: إذا كان المحور الأوّل قد تحدّث عن الإعلان الإلهيّ للنِّظام الحقيقيّ للحياة (نظام العبادة)، وتكلّم المحور الثّاني عن قصّة بدء التّاريخ البشريّ، والتّكريم الإلهيّ للإنسانيّة بالاستخلاف في الأرض، فما المحور الثّالث؟ وعن ماذا تحدّث؟

الجواب:

المحور الثالث

[المحور الإسرائيليُّ] دعوة بني إسرائيل إلى الوفاء بالعهد والإيمان بالنَّبيِّ الخاتم، والأنموذج الإسرائيليُّ بين النَّجاح والفشل في إقامة مبادئ الاستخلاف

[البقرة: 40-123]

أقسام هذا المحور

قِسم [1] أسباب الاهتمام بالنموذج الإسرائيليّ (المكانة الإسرائيليّة ضمن القوى الفاعلة في الأرض)، ويتضمّن أصول التّكليفَ الإلهيّ لبني إسرائيل [البقرة: 40- 48].

قِسم [2] أعظم النِّعم على بني إسرائيل في تكوينهم أمّة متمدِّنة مستخلفة [البقرة: 49-60].

قِسم [3] القصّة الحقيقيّة لتاريخ بني إسرائيل: مجمل مظاهر ظلمهم لأنفسهم وللعالم، وردود أفعالهم على التّكليفات والمعجزات [البقرة: 51-61].

قِسم [4] تصحيح معيار التّفضيل، فليست الأفضليّة لبني إسرائيل ولا لغيرهم بسبب جنسهم [البقرة: 62].

قِسم [5] الميثاق الإسرائيليُ الأوّل الذي شكّل ملامح الحضارة الإسرائيليّة: ميثاق الكتاب العظيم [البقرة: 63-73].

قِسم [6] قساة القلوب يغيِّرون الآيات، ويدمِّرون المجتمعات [البقرة: 74-82].

قِسم [7] الشُّبَهُ الإسرائيليّة في عدم اتباع النُبوّة الخاتمة [البقرة: 80-123].

قِسم [8] الدِّين الباطل الذي صنعوه لأنفسهم، واستبدلوا به الوحي [البقرة: 99-105].

القِسم الأول

أسباب الاهتمام بالنموذج الإسرائيليِّ (المكانة الإسرائيليّة ضمن القوى الفاعلة في الأرض)، ويتضمّن أصول التّكليف الإلهيِّ لبني إسرائيل [البقرة: 40- 48]

وقد تضمّن هذا القِسم (8) أسباب، وهي:

سبب [1]

إنشاء قنوات التّواصل اللّفظي المباشر معهم بأن نخصّصهم بالخطاب والحوار، ومزج الخطاب السّياسي بالخطاب الدّعويّ الإنسانيّ، ويبصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة:40]، كما تبصّرنا بأن يتخذ خطابُنا لهم الأساليبَ المختلفة المناسبة مع حالهم، ومن ذلك خطابهم بأرقِّ الألفاظ في الموضع المناسب لذلك، فقد ناداهم الله عز وجل هنا بأحبِّ الأسماء إليهم، وفي ذلك البصائر الآتية:

بصيرة 1

لا بد أن يعمّ خطابُنا الفئاتِ الإسرائيليّةَ المختلفةَ: الرأيَ العامّ، والقياداتِ السّياسيّةَ والدّينية، وإنشاء علم فنون هذا التّواصل.

بصيرة 2

التّذكير الدّعويُّ السّياسيُّ لبني إسرائيل بالتّكليف الأوّل الذي كلفه بنو إسرائيل، وكل الأمم: تذكُّر نعمة الله عز وجل: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة:40]

فإن قلت: ما المراد بالتّذكر والنِّعمة التي أمر الله عز وجل بني إسرائيل بتذكُّرها؟

الجواب:

التّذكُّر: من الذِّكْر، وهو حفظ الشّيء، واستحضاره؛ ليخطر على العقل، فلا ينسى، أو يُغفَل عنه، والنِّعمة: كلمة تدلُّ على ما يرزقه المخلوق من شيء يجعله في تَرَفُّه، وَطِيبِ عَيْشٍ، وعرفها الرّازيُّ رحمه الله بأنها "المَنْفَعَةُ المَفْعُولَةُ على جِهَةِ الإحْسَانِ إِلَى الغَيْر" (تفسير الرازي3/474)، وذكرها يتمُّ إعلاميًا، وتعليميًا، وتربويًا.

وقد تسأل: ما السِّرُّ البلاغيُّ في مجيء كلمة ﴿نِعْمَتِيَ﴾ بالإفراد والإضافة؟

الجواب:

﴿نِعْمَتِيَ﴾: مفرد مضاف، يظهر العموم الشَّامل للنِّعم، والعموم التَّجزيئي للنعمة الواحدة، فهي تحوي ملايين النِّعم في ذاتها.

بصيرة 3

وجود النَّفسيّة الإسرائيليّة القاسية المعاندة لا يعني اليأس من دعوتها إلى الخير الذي يكتنزه النِّظام الإسلاميُّ.

وقد تسأل متعجِّبًا: ما الحكمة من خطاب الله عزوجل اليهود بأحبِّ الأسماء إليهم (بني إسرائيل)؟

الجواب:

يتخذ خطابُنا لهم الأساليب المختلفة المناسبة مع حالهم، ومن ذلك خطابهم بأرقِّ الألفاظ في الموضع المناسب لذلك، وهنا ترى أن الله عز وجل خاطبهم بأحبِّ الأسماء إليهم (إسرائيل)، فإسرائيل هو النَّبيُّ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصَّلاة والسلام.

سبب [2]

التَّذكير بالعهد المأخوذ على الأمَّة الإسرائيليّة، كالعهد المأخوذ على أمَّتنا، وسائر الأمم، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:40]، بأن تحقُّق آيات الوعد يعتمد على تنفيذ شروط العهد، والعهد: هو الوصية التي يجب الاحتفاظ بها.

وانبثق من هذا السَّبب البصائر الآتية:

بصيرة 1

العهد الإلهيُّ الموثق ينجي من الخسارة في إقامة مبادئ الاستخلاف في الواقع الفرديِّ، والحضاريِّ، وقد أُكِّد على بني إسرائيل كما لم يؤكَّد على غيرهم.

بصيرة 2

إقامة عهد الله عزوجل المطلوب من بني إسرائيل أساسه الرَّهبة الموحِّدة من الله عز وجل لا من غيره، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى ﴿وَإِيَّيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: 40].

فإن قلت: ما المراد بالرّهب؟ وما الحكمة من أمر الله تعالى أن يُوَحّد في الرّهب؟

الجواب:

الرّهب: خوفٌ شديد مفاجئ، يورث الاضطراب والانزعاج، ثم يستمرُّ، فأمرهم بأن يوحِّدوه في الرّهب، ويصدِّق ذلك في سفر التّثنية:

7: 21 لاَ تَرْهَبُوهُمْ، لأَنَّ الرَّبَّ إِلَهَكُمُ الحَال بَيْنَكُمْ إِلَهٌ عَظِيمٌ وَمَرْهُوبٌ.

سبب [3]

الإسرائيليون إمّا أن يكونوا قدوة للهداية العالمية، بإعلان الإيمان بالوحي الإلهيّ الخاتم المصدِّق لما جاءهم من الأنبياء عليهم السلام، وإمّا أن يكونوا أئمّة للإضلال العالمي، بالإعلان الكفر بالكتاب الخاتم، ويبصِّرنا بذلك أمرهم بالإيمان بما أنزل الله عز وجل مصدقاً لما معهم، ونهيهم عن أن يكونوا الأوائل في الكفر به في قوله تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: 41]، ويشرح هذا السّبب البصائر الآتية:

بصيرة 1

المناسبة والاتصال بين هذا السبب وما سبقه ظاهرة في أن الآية السّابقة ذكرتهم بالوفاء بالعهد بصفة عامّة، وهنا يذكرهم بنوع خاصّ منه، وهو الإيمان بما أنزل الله عز وجل مصدِّقًا لما معهم من كتب، وإرث علميّ؛ وذلكَ لأهمِّيّته، ولتعلُّقه بصلاح الإيمان الذي يزعمه بنو إسرائيلَ، ولتعلُّقه بالصّلاح العالميِّ.

بصيرة 2

بنو إسرائيل هم الأوائل في الكفر والإيمان؛ لضخامة تأثيرهم العالميِّ، ويبصِّرنا بذلك قوله ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ﴾ [البقرة: 41]، وبناء على ذلك فكلُّ ما خوطب به الإسرائيليون فهو خطاب لنا إلا ما وضح فيه التّخصيص

فنهيهم عن أن يكونوا أوّل كافرٍ به يعني أنهم سيكونون أئمّة في الكفر أو في الإيمان لمعرفتهم بالكتاب، وكذلك الأمر بالنسبة للمسلمين.

فالأوّليّة هنا حقيقيّة، معنويّة، إضافيّة؛ لضخامة تأثيرهم، وليست أوّليّة تاريخيّة استدعى مخاطبتهم بها معرفة أحبارهم بالنّبيِّ ﷺ، فيصيرون للكافرين الآخرين كالقادة الأوائل.

بصيرة 3

يبصّرنا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ [البقرة: 41]، بأنّ أهمّ سبب لعدم الإيمان الحقيقيِّ بآيات الله عز وجل التي أنزلها في الوحي السّابق والخاتم، الشّهوات الدُّنيويّة العاجلة، فيبيع المرء آيات الله عز وجل، ويشتري شيئاً من الدُّنيا

مع أن الدُّنيا كلّها ثمن قليل أمام أرباح الآخرة. وسمّى الله عز وجل الوحي القرآنيّ آياتٍ بمعنى علامات معجزة تدلُّ على صدق النّبيِّ ﷺ.

بصيرة 4

يبصّرنا قوله تعالى: ﴿وَإِيَّيَ فَٱتَّقُونِ﴾، بأن بناء الإسرائيليين للحياة ينبغي أن يقوم على التّقوى، وهو الذي أقام الله عز وجل عليه الحضارة الإسلاميّة الخاتمة في سورة البقرة، والتّقوى مصباح الرؤية، ومطفأة الفتن، والحماية من المخاطر والاختراقات الشّيطانيّة.

ومصداق ذلك في سفر التثنية: 10: 12 "فالآن يا إسرائيل ماذا يطلب منك الرّبُّ إلهك إلا أن تتقي الرّبّ إلهك، لتسلك في كلِّ طرقه، وتحبّه، وتعبد الرّبّ إلهك من كلِّ قلبك، ومن كلِّ نفسك".

وقد تتساءل: ما الحكمة في البدء بالأمر أولًا بالرّهبة قبل التّقوى؟

الجواب:

هنا تلاحظ التّرتيب متناسبًا؛ إذ جاء الأمر بالرّهبة أولًا (آية:40)، ثم بالتّقوى ثانيًا (آية:41)، فبدأ بالخاصِّ: (الرّهبة)، ثم بالعامِّ: (التّقوى)؛ وذلك لأن التّربية على الرّهبة يناسب مقترفي الجرائم.

سبب [4]

خطورة الأسلوب الذي تتبعه القيادات الدِّينية والسِّياسيّة الإسرائيليّة الفاسدة في إضلال الأمم.. إنه أسلوب لبس الحقِّ بالباطل، ويبصّرنا به قوله تعالى جدُّه: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 42].

بصيرة 1

قوله: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ﴾: من لَبَستُ عليه الأمر ألبِسه بكسرها، أَي: خَلَطت بعْضَه ببعْضٍ، فاللّبْس: إبداء الشّيء في غير صورته، بإلباسه شيئاً يتزخرف به، فيُلبس الحقّ لباس الباطل والعكس، فيختلطان ولا يتّضحان.

بصيرة 3

فالآية قسّمت صانعي الرأي العامّ إلى صنفين:

1 **الأول**

من يعرفون بعض الحقِّ في قضية معينة، فيضلُّهم المَكَرَة بخلط الحق بالباطل، ويبصّرنا بهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾.

2 **الثاني**

من لا يعرف الحقّ أصلًا، فهو جاهل به: فيتمُّ إضلاله بكتمان الحقِّ عنه، ويبصّرنا الله تعالى بهم في قوله: ﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 42].

سبب [5]

القرب بين بقايا الشّريعة اليهوديّة الموجودة وبين الشّريعة الإسلاميّة في العبادات الأساسيّة، التي لا تتغير في أصلها، ويبصّرنا بهذا السبب قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة:43].

فذكر الله عز وجل أهمّ العبادات: وهي العبادة التي تكوِّن الصِّلة القوية مع الخالق: (الصّلاة)، والعبادة التي تكوِّن الصِّلة مع المخلوق: (الزّكاة)، والعبادة التي تكوِّن مفهوم الأمّة، والدّولة: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

بصيرة 1

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، والصّلاة عبادة فرديّة ذاتيّة، تمثِّل الصِّلة بين الخالق والمخلوق، وللشُّعور بأثرها العظيم لا بدّ من إقامتها، وليس مجرّد تأديتها فقط، ولذا قال: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾.

بصيرة 2

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، والزّكاة عبادة متعدِّية، تمثِّل الصِّلة المجتمعيّة بين المخلوقين، وتمثِّل العطاء المتدفِّق الذي يزكّي النّفس الإنسانيّة، ويسمو بها بعيدًا عن الأنانيّة، والأثرة.

بصيرة 3

﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، فهذه العبادة التي تكوِّن مفهوم الأمّة، والدّولة؛ إذ تدلُّ على أهمِّيّة الجماعة، فهي اصطفاف واحد في صلاة الجماعة، يدلُّ على الخضوع المطمئن، والانتظام المخبت.

سبب [6]

إخفاق كثيرٍ من الإسرائيليين في الجمع بين النّظريّة والتّطبيق، والضّعف في اقتران الأقوال بالأفعال، وعدم ضمّ الممارسة إلى التّنظير؛ مما يجعل تصدُّرَهم للقيادة العالميّة مصدرًا للفتنة، بدلاً من نشر الخير، ويبصّرنا بها قوله -جلّ مجده-: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:44]، ولحقهم المسلمون في عهود الانحطاط، فصارت الغلبة للأذكى من الفريقين، لا للأصلح، وفي هذا البصائر الآتية:

بصيرة 1

الأمر بالبرِّ مع تركه من أسوأ أنواع الفتنة العقليّة، والقلبيّة، وقد تدفع بالنّاظر إلى الكفر بالحقِّ المبين.

قد تسأل: ما سرُّ التّعبير بهمزة الاستفهام ﴿أَتَأۡمُرُونَ﴾؟ وما المراد بالبرِّ؟

الجواب:

الاستفهام هنا يقتضي الإنكار التّوبيخيّ الذي يتضمّن التّقريع والتّأنيب والتّعجيب من حالهم، فيقتضي أنّ ما بعد الهمزة واقع، وأنّ فاعلَه ملومٌ، و(البِرُّ) مشتقٌّ من البَر، فيشمل إيفاء الحقوق على الصِّدق، وأن يتمّ التّوسُّع في إيفائها حتى تشمل الفضل والإحسان والزِّيادة، أي: أتأمرون النّاس بالعدل والإحسان وتتركون أنفسكم من إقامتهما؟!

بصيرة 2

عدم الجمع بين النّظرية والتّطبيق يعني إهمال أهمِّ مصالح النّفس الإنسانيّة، فمعنى ﴿وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾: تهملونها من القيام بمصالحها، فالنِّسْيَانُ: تركٌ عَنْ عَمْدٍ، أَوْ عَنِ تَّهَاوُنٍ واستهتار وعدم مبالاة.

بصيرة 3
كلُّ ما خوطب به الإسرائيليون فهو خطاب لنا، إلا ما وضح فيه التخصيص.

بصيرة 4
فعل المنكر لا يعني عدم النَّهي عنه، وترك البِّر لا يعني عدم الأمر به، فالله عز وجل أنكر عليهم ترك البِّر مع أمرهم به، ولم يُنْكِر أن يأمروا بالمعروف من حيث هو، ولا أن ينهوا عن المنكر من حيث هو.

بصيرة 5
أن عين العقل الائتمار بما أَمَرَ الإنسان غيرَه، والانتهاء عمّا نهى النّاس عنه، وهذا ما أفاده ختام الآية: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:44].

سبب [7]

تحقُق الاستخلاف الإسرائيليِّ بسبب استعانتهم بالصّبر والصّلاة مع شِدّة حرص كليم الله موسى عليه الصّلاة والسلام على تربيتهم على ذلك، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 45]، فهما أهمُ وسيلتين تعينان على القيام بواجب الاستخلاف، وترى أنّ الله عز وجل أمر بهما الأمّة الخاتمة أيضاً، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 153]؛ ليعطي درسًا بالغاً في الاستفادة من التّجربة الإسرائيليّة، وفي هذا السّبب البصائر الآتية:

بصيرة 1
الصّلاة وسيلة للنّجاح في الحياة، كما هي غاية للتُقاة الهداة.

﴿وَٱسۡتَعِينُواْ﴾

الأمر بالاستعانة على أداء المهمّات يدلُّ على مشقّاتٍ قادمةٍ متوقّعة، سواء أكانت مشقّات نفسيّة أم خارجيّة، ولا تُدفع إلا بالصّبر الذي يعني: حبس النّفس على ما لا يلائمها، والصّلاة التي تعني: التّلذُذ بمناجاة الله عز وجل؛ إذ لا ينفع الرُجوع إلى البشر.

بصيرة 2

الاستعانة بالصّبر والصّلاة وسيلة ثقيلة إلا على الخاشعين، وهم ذوو الهِمَم العالية، والأهداف العظيمة، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: 45].

والخشوع: جسديٌ وقلبيٌ

1 فالجسديُ

ترى فيه التّطامنَ وطأطأةَ الرّأس، ورَمْيَ البصر إلى الأرض، وهو السكون.

2 والقلبيُ

تجد فيه التّواضع، والتّذلُّل، والاستكانة لله عز وجل.

بصيرة 3

ذِكْرُ الخاشعين بصيغة الاسم: (جمع المذكّر السّالم)، يدلُّ على أنهم درّبوا أنفسهم على الخشوع؛ حتى صاروا متمرِّسين فيه، ووصفهم بصفتين:

1 ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 46]

فعبّر عن يقينهم بالظنِّ؛ لأنهم لم يعاينوا، فكان ظنُّهم يقينًا، والملاقاة قد تكون في الدُنيا في الصّلاة مثلاً.

2 ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: 46]

فيجدون عنده الثواب، أو العقاب، فتخشع قلوبهم.

سبب [8]

التّحذير من الاستغلال الضّالِّ للتّفضيل الإلهيِّ لبني إسرائيل، حيث تلاعب به فساقهم، فخدعوا عامّة الإسرائيليين، وغيرهم، بأنّ لهم مزيّةً تفضيليّة إلهيّة، فالتّفضيل الخاصُّ يعني جسامة المسؤوليّة، وليس استحقاق التّمييز العنصريِّ، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (البقرة: 47، 48).

ولذا ذكر الله عزوجل لهم مُحَفِّزَينِ على الاستقامة:

محفز [1]

التَّرغيب من خلال التَّلطُّف بالتَّذكير بالنِّعمة

والتَّفضيل الإلهيّ لهم على العالم في وقتٍ محددٍ بشرطه: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾، فتبيّنْ لهم بذلك إنصافك، ومعرفتك، وتدفعهم إلى أن يفكّروا في مقالتك، والقرآن ينبئك بالكيفية اللّائقة بمخاطبتهم معايشة ومخاصمة، وتجعل بين الأسلوبين برزخًا واضحًا، فلا يبغيان.

محفز [2]

التَّرهيب من خلال التَّحذير من حساب يوم القيامة

التَّرهيب من خلال التَّحذير من حساب يوم القيامة، فالتَّفضيل الإلهيُّ يعني جسامة المسؤولية، فالحساب قادم، ويبصِّرنا الله عزوجل بأن الأمور الأربعة المنجية في الدُّنيا لن تكون مؤثِّرة في الآخرة:

الأول

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾

أي: لا تكفيها أدنى شيءٍ ممّا لزمها من الحقوق، ولا تغني عنها شيئاً، ولا تقضي لها شيئاً، وفي الكتاب المقدّس في سفر الأيام الثاني، ممّا هو في معنى هذه الآية: 25: 4 "لا تموت الآباء لأجل البنين، ولا البنون يموتون لأجل الآباء، بل كلُّ واحد يموت لأجل خطيّته".

الثاني

﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾

أي: لا يقبل من النَّفس العاصية شفاعة نفس طائعة إلا بإذن الله عزوجل، فالمقام هنا كما ترى مقام تحميل كلِّ نفسٍ أوزراها، وتحذيرها من الاتكال على التَّفضيل الإلهيّ لتفعل ما يحلو لها، كما ترى فِعْلَ بعض بني إسرائيل والنَّصارى والمسلمين هذه الأيام.

الثالث

﴿وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾

أي: شيئاً مماثلاً يعادل جرمه، ليصبح فدية له.

الرابع

﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾

فالنَّصر يأتي بمعنى العون فيكون وسيلة، وبمعنى الظفر بالمطلوب فيكون غاية، فلا يجدهما العاصي يوم القيامة؛ فقد ذهبت القوّات الماديّة والبشريّة التي تنصره.

وقد تسأل: ما سرُ هذا التَّرتيب المدهش في ترتيب الأمور الأربعة التي يبحث عنها من حُكِمَ عليه بعقوبة ما؟

الجواب:

انظر جمال الترتيب، فمن حكم عليه بعقوبةٍ يبحث عن نفسٍ تغني عنه شيئاً ليخرج من هذه الورطة، وإلا فعن شفاعة ممّن هو أفضل منه عند صاحب الأمر، وإلا فيبحث عما يعادل ذنبه يفتدي به، وإلا يبحث عن ناصرٍ يعينه على إيقاف تنفيذ العقوبة.

بصيرة

ترى التّذكير بالتّكليفات الأساسيّة التي كُلِّف بها الإسرائيليون [البقرة:40-45].

التكليف الأول

﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: 40].

التكليف الثاني

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: 40].

التكليف الثالث

﴿وَإِيَّيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: 40].

التكليف الرابع

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ [البقرة: 41].

التكليف الخامس

﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ﴾ [البقرة: 41].

التكليف السادس

﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ [البقرة: 41].

التكليف السابع

﴿وَإِيَّيَ فَٱتَّقُونِۖ﴾ [البقرة: 41].

التكليف الثامن: النهي عن إجرام اللِّعب بالعقول بالإضلال:

﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 42].

التكليف التاسع أُمروا بأهمّ العبادات:

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: 43].

التكليف العاشر العمل بمقتضيات العلم:

﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: 44].

التكليف الحادي عشر: أُمروا بأهمِّ المعينات والمقرِّبات:

﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 45].

التكليف الثاني عشر: الحثُّ على الوصول إلى مرتبة الخاشعين:

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: 45].

القِسم الثاني

القصة التّاريخية الحقيقيّة لبني إسرائيل: أعظم النِّعم على بني إسرائيل في تكوينهم أمّة مستخلفة متمدِّنة [البقرة: 49-60]

وقد تسأل: ما النِّعم الكبرى التي أنعمها الله عز وجل على بني إسرائيل؛ ليكونوا أمّة مستخلفة في الأرض؟

الجواب: تضمّن هذا القِسم 12 إنعامًا على بني إسرائيل، وهي:

إنعام [1]

التّنجية من مؤسّسة الظُّلم، والبطش، والإفساد الفرعونيّة: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [البقرة: 49]

وأشار إلى مؤسّسيّة الظُّلم بقوله ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، والآل: أهل الرّجل وأنصاره ممّن هم في نظامه، فلا يدخل فيهم قرابته الذين يخالفون دينه ومنهاجه.

فإن قلت: ما الجمال المعنوي الذي تكتنزه كلمة ﴿نَجَّيۡنَٰكُم﴾؟

الجواب:

التّنجية كلمة لها جمالها، فهي الخَلاصُ من مصدر الخطر خلاصًا لطيفًا دقيقًا، حيث يبعده إبعادًا فيه سترٌ وخفاء حال، فخلّصهم الله عز وجل من مؤسّسة الظُّلم، والبطش، والإفساد الفرعونيّة، وأكبر ثلاث مآسٍ إسرائيليّة حدثت هي:

الأولى

﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [البقرة: 49]

أي: يتلذّذون، ويتفنّنون بإيقاع أسوأ العذاب عليكم، حتى أصبح سِيما لهم.

الثّانية

﴿يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ [البقرة: 49]

فيكثرون التّذبيح لهم عددًا، وكيفيّة.

الثّالثة

﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 49]

أي: يبقونهن على قيد الحياة للاستخدام والعبث، ولاحظ كيف قابل بين قتل الأبناء وإبقاء النِّساء؛ ليبيِّنَ عبثهم بالنِّساء حال بلوغهن، ومسارعتهم لقتل الأطفال حال ولادتهم.

إنعام [2]

فَرْقُ البحر بهم، وإغراق آل فرعون، ويبصِّرنا به قوله تعالى جدُّه: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾

بصيرة 1

﴿بِكُمُ﴾، أي: جعلناكم كالأداة التي يكون بها فَرْقُ البحر، (بهم) لا (لهم)، إنه التَّوظيف الفائق للطَّاقات في الفتح والتحوُّل الكبير، والانعتاق من الأَسْرِ المُمِضّ (المُحْرِق)، والاضطهاد المُميت.

بصيرة 2

حدث الإنجاء للإسرائيليين والإهلاك للفراعنة بسببٍ واحدٍ ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: 50]، فنظروا بعد خروجهم إلى الظَّالمين وجبال الماء تنطبق عليهم، وكان ذلك يوم عاشوراء، الذي صامه بنو إسرائيل شكرًا لله عز وجل

وصامه النَّبيُّ ﷺ شكرًا لله عز وجل، ولإظهار عدم مخالفة الإسرائيليين في الأمور الصَّحيحة، وشكر موسى عليه السلام ربه عز وجل، فقال في سفر الخروج: "2 الرَّبُّ قُوَّتِي وَنَشِيدِي، وَقَدْ صَارَ خَلاَصِي. هذَا إِلهِي فَأُمَجِّدُهُ، إِلهُ أَبِي فَأُرَفِّعُهُ".

إنعام [3]

مشاهدة هلاك عدوِّهم أمام أعينهم: ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: 50]، وهذه من أعظم النِّعم على الإنسان المظلوم المقهور في الدنيا

إنعام [4]

العفو في أكبر جرائم الظُّلم البشريّة، وهي الشِّرك: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 51 - 52].

بصيرة 1

ذكر أنهم ظالمون؛ ليبيِّنَ أنهم لم يكونوا مكرهين على ما باتوا عليه عاكفين، بل كانوا لأنفسهم ظالمين، ففشلوا فشلًا ذريعًا في الثَّبات على النِّظام الرَّبانيِّ، وحَمْلِ الأمانة التي تمكِّنهم أن يكونوا فيها قدوات لسائر الخلق.

بصيرة 2

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، والعفو: محو الفعل السّابق، والشُّكر: عرفان الإحسان، وحَمْدُ مُوْلِيه بالقلب واللّسان والأعمال، كما قال نحميا: "9: 18مَعَ أَنَّهُمْ سَبَكُوا لأَنْفُسِهِمْ عِجْلًا وَقَالُوا:

«هَذَا هُوَ إِلَهُكُمْ الذِي أَخْرَجَكُمْ مِنْ مِصْرَ!» فَاقْتَرَفُوا بِذَلِكَ إِثْمًا عَظِيمًا.

19فَأَنْتَ بِفَائِقِ رَحْمَتِكَ لَمْ تَنْبِذْهُمْ فِي الصَّحْرَاءِ".

إنعام [5]

أعطاهم الدُستور الذي ينظِّم حياتهم: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 53]

ووصف هذا الدستور بثلاث خصائص:

1. أنه مكتوب.
2. وأنه فرقان، أي: فارق بين الحقِّ والباطل.
3. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

فهو بذلك يعينهم على أن يهتدوا لأجمل نُظُم عبودية ربِّهم عز وجل، التي بها يحقِّقون الحياة الطَّيِّبة.

إنعام [6]

التَّوبة عليهم بعد الشِّرك الصَّريح، والعصيان العنيد في وجود الأنبياء عليهم السلام:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 54].

بصيرة

تبصّرنا كلمة ﴿البارى﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ بأنّ أعظم أنواع الظّلم الإنسانيّ جحودُ الباري، وهو الخالق الذي برأ وبرى: يعني سوّى بريئته وبريّته

أي: خليقته المُسَوّاة من البَرَى وهو التُراب، فبرّأها من الآفات والعيوب، وتاب الإسرائيليون فقتلوا أنفسهم، أي: قتل بعضهم بعضًا، وهذا تنفيذ مدهش لأمر الله عز وجل لهم.

إنعام [7]

الإحياء بعد الإماتة التي كانت عقوبة على شدّة العناد:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: 55]

فالفخر بعدم الإيمان حتى تتمّ رؤية الله عز وجل ليس طلباً جديداً من الملحدين، بل هو طلب قديم سببه اجتماع الثُنائي القاتل: الغرور، والجهل.

بصيرة 1

وقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾، ولم يقولوا: (نؤمن بك)، وهذا تناقض مثير، فَهُمْ بذلك يثبتون الإيمان برسالته؛ ولشِدّة ماديّتهم طلبوا أن يكون ذلك جهرة، والجهر: الظُهور الشَّديد صوتًا، أو صورةً.

بصيرة 2

﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، والبعث الإثارة في الواقع الميت ليتحرّك، وكلمة ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تفيد بأن هذا الإنعام تدريبٌ للاهتداء والشُكر مرّةً بعد مرّة.

إنعام [8]

معجزات الحياة الرّغيدة التي تعلّم التّعامل معها بتنظيم إداريّ متميّز في الطّريق إلى بيت المقدس

وتمثّلت مظاهر هذه الحياة في المُسْتَظَلّ (المسكن)، والمأكل، والمشرب، فبصرنا الله عز وجل بأربعة أسس تعبّر عن الحياة الرّغيدة:

1 الظّلّ

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ [البقرة: 57]

فهيّأ الله عز وجل لهم السّقف الجميل المتنقّل، وهو الغمام: جمع غمامة، وهي السّحابة الدّاكنة السّوداء، أو البيضاء الكثيفة التي تغم السماء أي تخفي رؤية ما خلفها

2 هيّأ لهم أفضل الطّعام

﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾ [البقرة: 57]

فالمنُ: اسم جامع لكلِّ رزق حسن يَمُنُّ بِهِ اللَّهُ عز وجل، ومنه الخبز الرّقيق، والحلوى التي تُشبه صَمْغَة بطعم العسل، والسّلوى: ما يسلى الإنسان، ويطيب نفسه من ألذِّ أنواع اللّحم، كطائر السماني.

3 بعد هذا العيش الرّغد يقول الله عز وجل لهم:

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ [البقرة: 57].

4 الحريّة في اختيار الفعل أمام هذه النِّعم، شكرًا أو كفرًا، فاختاروا أن يظلموا أنفسهم

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [البقرة: 57]، وردّة فعلهم مفاجئة للبشريّة أمام هذه النِّعم المعجزة المتتالية، فقد ظلموا أنفسهم بالكفر والإفساد، بدل الشُكر والعمل الصالح.

إنعام [9]

تكوين عاصمة إسلاميّة إسرائيليّة مقدّسة، وتسهيل دخولهم عليها

ويبصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا﴾ [البقرة:58].

إنعام [10]

التّمتُّع عند دخول العاصمة المقدّسة بالأكل والسّكن والعبادة

﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ [البقرة:58]، ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ أي: احطط عنّا ذنوبنا.

إنعام [11]

غفران الخطايا، وزيادة العطايا للمحسن: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة:58]

وهما مكافأتان يدلّان على الارتقاء بكم تخلية من الرّذائل، فالمغفرة: السّتر والحماية، وتحلية بالفضائل، حيث يزيد المحسنين من فضله في الدُنيا والآخرة

إنعام [12]

الماء وَفْقَ هيئة معجزة: ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾ [البقرة: 60]

ويبين ذلك البصائر الآتية:

بصيرة 1

﴿ٱسۡتَسۡقَىٰ﴾ أي: طلب من الله عز وجل السُقيا، حيث استحال أو عَسُر وجود الماء، فالاستسقاء مثال عظيم على استعمال سُنَن التّغيير المتغيِّرة، وذلك يقود إلى التّذلُّل الدّائم بين يدي الله عز وجل، ولذا لم يذكر الله عزو جل المستسقى منه؛ لأنه لا يقدر على ذلك غيره

ولكن ذلك لا يعني إهمال السُنَن الثابتة، ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾ [البقرة: 60]، أي: أوقع عصاك على الحجر إيقاعًا رفيقًا؛ ليمسّه بسرعة مسًا ضاغطًا.

بصيرة 2

يبصِّرنا قوله جل ذكره: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ﴾ [البقرة: 60] بجوانب من الإعجاز والتّدريب التّنظيمي لبني إسرائيل في الحياة المدنيّة مع أنهم في البادية

فالحجر يتكوّن من أربع جهات على هيئة المكعب، وكلُّ جهة ينبجس منها ثلاثة أعينٍ من الماء؛ لتناسب عدد أسباط بني إسرائيل.

بصيرة 3

التّعود على التّنظيم القانونيّ مع التّعود على التّنظيم الإداريّ، ويبصِّرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 60]، فهذا أمرٌ في جانب البناء لحفظ حياتهم، وتلذُّذهم بمتعة الحياة أكلاً وشرباً،

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [البقرة: 60]، وهذا أمرٌ لاجتناب الهدم، أي: لا تفسدوا في الأرض قاصدين للإفساد.

القِسم الثالث

القصّة الحقيقيّة لتاريخ بني إسرائيل: مجمل مظاهر ظلمهم لأنفسهم وللعالم، وردود أفعالهم على التّكليفات والمعجزات [البقرة: 51-61]

وربما تسأل: فماذا كان موقف بني إسرائيل من النِّعم التي أنعمها الله عز وجل عليهم؟ هل قابلوها بالشُكر أو بالكفر والجحود؟ وما مظاهر ذلك؟

الجواب: قابل بنو إسرائيل تلك النِّعم بالجحود، وتعدّدت مظاهر ظلمهم، فذكرت آيات هذا القِسم 9 مظاهر، وهي:

مظهر [1]

الإشراك بالله عز وجل

فقد قابلوا نعمة الله عز وجل بإنجائهم من آل فرعون وفَرْقِ البحر لهم باتخاذهم العجل إلهًا يعبدونه، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: 51]، وهذا شيءٌ موحش في الجحود وفحش النفس.

مظهر [2]

الاستكبار حتى طلبوا رؤية الجبّار جل جلاله

ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: 55]، والاستكبار: تعظيمٌ للنّفس فوق منزلتها، فهذه نزعة إبليسيّة.

مظهر [3]

ظلم النّفس بكفران النِّعم ومخالفة الأوامر

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: 51].

مظهر [4]

تبديل القول الذي قيل لهم

ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: 59]، أي: فبدّل الذين ظلموا، فقالوا قولًا غير الذي قيل لهم.

مثل: التّبديل التّطبيقيّ،

أي: الرّفض لتطبيق أوامر الله عز وجل، فالله عز وجل قال: ﴿ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: 58]، وهم قالوا: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا﴾ [المائدة: 24]، ولما قيل لهم ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: 58] دخلوا متزحّفين على أوراكهم، وقالوا: حبّة في شعرة، كما بيّنَ النّبيُّ ﷺ.

ونتيجة التّبديل:

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: 59]، والرّجز: هو العذاب إمّا الماديُّ المهلك، وإما المعنويُّ المخزي كتسليط الأمم.

مظهر [5]

التّضجُّر، والتّململ، والتّأفُّف، والسّأم، وعدم مقابلة النِّعمة بالشُّكر

ويبصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة: 61]، والفوم، قيل: الحِنطة والخبز، وقيل: الشّعير، وقيل: الثُّوم.

بصيرة 1

ليس اللّوم عليهم أنهم ملُّوا من الطّعام الواحد، فهذا طبع بشريٌّ، ولكنك تلمس من الآية شِدّة نزقهم، وسوء أخلاقهم؛ فنادوا موسى عليه السلام باسمه دون وصفه عليه الصّلاة والسلام، وقالوا: ﴿لَن﴾ الدّالّة على نفي المستقبل، فعبّروا عن تضجُّرٍ نُزِع منه الصّبر والشُّكر، وطلبوا خمسة أصناف.

بصيرة 2

تعجّب نبيُّهم موسى -عليه وعلى نبينا أفضل الصّلاة والسلام- من ظلمهم لأنفسهم وتضجُّرهم، فقال لهم موبّخًا: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أي: ما طلبتموه ﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 61]؟! أي: بالمنِّ والسّلوى.

بصيرة 3

يبصّرنا الله عز وجل بعاقبة التّبديل والتّضجُّر: حيث ضربت عليهم ثلاثة أنواع من العقوبات: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 61].

﴿وَضُرِبَتْ﴾

يعني: أُوقِعت العقوبة عليهم على سبيل اللُّزوم، والملامسة

﴿ٱلذِّلَّةُ﴾

خضوع جسديٌّ على سبيل المهانة

﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾

خضوع قلبيٌّ بإظهار الفقر، والعجز، والخوف

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾

أي: رجعوا بغضبٍ مساوٍ لِعَبَثهم، وتلاعبهم، بدل أن يرجعوا بأجرٍ، ورحمة.

مظهر [6]

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 61]

وهذا يمثِّل الظلم الأكبر في حقِّ الخالق الملك الحقِّ.

فالكفر: تغطية الشّيء وستره، و"آيات الله": حججه، وأعلامه، وأدلّته على توحيده، وصدق رسله عليهم السلام.

مظهر [7]

قتل أعظم القيادات البشريّة

ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ [البقرة: 61]، وهذا يمثِّل الظلم الأكبر في حقِّ المخلوق، حيث قتلوا أعظم الخلق رحمة بالخلق، مثل: زكريّا، ويحيى، وأرميا عليهم السلام.

1 **والنَّبيئون**

جمع نبيء بالهمز على قراءة نافع رحمه الله من النّبأ، وهو الخبر العظيم.

2 **والنَّبيُّون**

جمع نبيٍّ على قراءة الجمهور من النَّبْوَة، وهي ما ارتفع من الأرض، فاتّصفوا برفعة المكانة في الإنسانيّة ورفعة التّصور والتّنظيم للحياة، والنُّبُوَّةُ: سِفارَةٌ بَين اللّهِ عز وجل وَبَين ذَوِي العُقولِ الزَّكِيّة؛ لإِزَاحَةِ عللهم في أمر معادهم ومعاشهم.

مظهر [8]

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ [البقرة: 61]

أي: العصيان الذي دون الكفر، مما يكون بينهم وبين الله عز وجل، والعصيان وسيلة إيقاع البشريّة لارتكاب الظّلم الأكبر في حق الخالق.

مظهر [9]

﴿وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [البقرة: 61]

فانظر كيف أجمل معنيين هنا في قوله: ﴿يَعۡتَدُونَ﴾؛ إذ المراد بالاعتداء هنا معنيان:

1 العدوان على غير الأنبياء عليهم السلام

بعد أن ذكر قتل الأنبياء عليهم السلام فيما سبق.

2 والاعتداء بتجاوز الحقِّ إلى الباطل

إمّا بالبعد عن الدِّين، أو الغلوِّ فيه.

والاعتداء وسيلة إيقاع البشريّة لارتكاب الظُّلم الأكبر في حقِّ المخلوق.

القِسم الرابع

تصحيح معيار التَّفضيل، فليست الأفضليّة لبني إسرائيل ولا لغيرهم بسبب جنسهم [البقرة: 62]

ويبصِّرنا بذلك قوله جل ذكره:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [البقرة: 62].

بصيرة 1

المناسبة والاتصال

لما ذكر الله -تعالى جدُّه- إنعامه العظيم على بني إسرائيل، وأنه فضّلهم على العالمين، ثم ذكر تاريخهم الحقيقيّ المليء بظلم أنفسهم والعالم، صحّح مفهوم التفضيل، فبيّن هنا أنّ الثّواب بالاكتساب لا بالانتساب؛ لئلا يغترُّوا أو يغترّ غيرهم، فالإنعام العظيم الذي أغدقه عليهم جعلهم يظنُّون أنهم قد فُضِّلوا لجنسهم فقط، وأن جنسهم لا عملهم هو العهد الذي بينهم وبين ربِّهم عز وجل، وذلك يظهر في تصرُّفاتهم حسب أوصاف كتابهم المقدّس، فأراد الله عز وجل أن يبيِّنَ أنّ الجنس لا يغني من الحقِّ شيئًا، سواء تعلّق بالإسرائيليين، أم بالمؤمنين، أم بغيرهم.

بصيرة 2 المعنى الإجماليُّ للآية ينبئك أنّ الإسرائيليين ظلموا أنفسهم

والعالم معهم عندما حرّفوا معنى العهد الإلهيِّ، فجعلوا التّفضيل للجنس لا للعمل على غرار النّزعة الإبليسيّة التي جعلت فضيلة الجنس النّاريّ مقدمًا على الجنس التُّرابيِّ، واستبعدت العمل، ويصحِّح الله عز وجل هذا التّحريف، فيجعل الاصطفاء والثواب بالعمل والاكتساب، لا بالادعاء والانتساب.

بصيرة 3 يبصِّرنا حرف التّأكيد في قوله ﴿إِنَّ﴾

قبل ذكر الطّوائف الأربع بضرورة الاعتدال في العقليّة المسلمة عند النّظر إلى الطّوائف الأخرى، وذلك لأنه يستعمل مع المُنْكِر، والخطاب للمؤمنين، وهم غير منكرين لحكم ربِّ العالمين، لكنّه لتأكيد الأمر عليهم ليستوعبوه، كما أنّ الخطاب لغيرهم، وغيرهم ينكرون هذه الحقيقة التي تتضمّنها الآية.

بصيرة 4 ذكر الله -تعالى مجده- أهمّ الطّوائف الدِّينيّة

التي لها بقايا من وحيٍ إلهيٍّ في العالم، وأرجع الله عز وجل الطّوائف الدِّينيّة إلى أربع طوائف تشكِّل العالم تقريبًا، وذكر أنها لو حقّقت ثلاثة شروط استحقّت الثّواب الذي يبحث عنه الخلق؛ شرطان منهما اعتقاديّان نظريّان، وشرط عمليٌّ، وذكر لها ثلاثة أنواع من الثواب:

فالطوائف الأربع التي تشكل العالم هي:

طائفة [1]

بصّرنا الله عز وجل بها في قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي صاروا ذا أمنٍ نفسيٍّ وخارجيٍّ بالتّصديق بالله عز وجل وجميع أنبيائه عليهم السلام، ومنهم الرّسول الخاتم ﷺ.

طائفة [2]

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾: من (الهَوادة)، وهي السُّكون، والمودعة، التي تقتضي التّوبة إلى الله عز وجل، والمودة لبعضهم، وهم أتباع موسى عليه السلام، وسمُّوا بذلك؛ إمّا لتوبتهم من أرجاسهم الكثيرة، فـ(هُدْنا) معناه: سكنّا وتبنا، وإمّا لنسبتهم إلى يهوذا سبطهم الأعظم الباقي بعد السّبيِّ البابليِّ.

طائفة [3]

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾، وهم أتباع عيسى عليه السلام، سمُّوا كذلك؛ لأنه جمع نُصْري، حيث نصروا المسيح عليه السلام، أَوْ نَاصِرِيٍّ نسبة إلى النّاصرة موطن أمِّ المسيح.

طائفة [4]

﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾: إمّا من صبأ، أي: ظهر، وطلع، وخرج من دين إلى دين، وإمّا من صبا يصبو، أي: مال إلى دين آخر، والجمع هنا على قراءة نافع وأبي جعفر رحمهما الله: ﴿الصَّابين﴾، فَهُم الذين لم يسيروا على ملّة اليهود، ولا النّصارى، ولا المسلمين

من أبرز أمثلتهم الصَّابئة المندائيّة العراقيّة، وقد يدخل فيهم بقية الديانات كالمجوسيّة، وهذا يبرز لنا السَّبب في تفاوت تقدُّمهم في سورة المائدة والحج، وتأخُّرهم في سورة البقرة.

بصيرة 5 التَّرتيب بين هذه الطَّوائف في سورة البقرة يبعث رسائل تاريخيّة عقديّة

فالمؤمنون مقدّمون؛ لأنهم الآخرون السّابقون يوم القيامة، واليهود بعدهم؛ لأنّهم أصل في وجود المِلّتين اللّتين بعدهم غالباً، والنّصارى؛ لأنهم الأكثر، ودينهم مرتبط بكتاب اليهود، ثم الصّابئين؛ لأنهم الذي خرجوا عن المِلَلِ الثّلاث إلى دين آخر ارتضوه وأقاموه مقام الدِّين الإلهيِّ.

بصيرة 6 ذكر الله عز وجل للسُّعداء من الطَّوائف الأربع ثلاثة شروط:

شرط [1] الإيمان بالله عز وجل

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾، ويمثِّل القوّة النّظريّة الأولى: إنه إيجاد الأمن بالإيمان بالله عز وجل، وذلك يقتضي الإِيمَان بِمَا أَوْجَبَ الإيمان به كالإِيمَانَ بملائكته، وكتبه، ورُسُلِه.

شرط [2] الإيمان باليوم الآخر

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾، ويمثِّل القوّة النّظريّة الثّانية المؤذنة بالحياة الحقيقيّة، وذلك يقتضي الإيمان بأحوال الآخرة.

شرط [3] العمل الصالح

وليس الإيمان القلبي فقط ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، ويمثِّل القوّة العمليّة المترتِّبة على القوّتين النّظريّتين، والعمل الصالح يشمل كلّ خيرٍ يمكن للإنسان عمله في الدُّنيا.

بصيرة 7 إن تحقّقت هذه الشُّروط الثّلاثة ترتّب على ذلك ثلاثة أنواع من الثّواب

نوع [1]	نوع [2]	نوع [3]
﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾	﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِم﴾	﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾
الأجر: هو الثّواب، وهو ما أعدّه الله عز وجل لعباده من التّكريم العظيم برحمته، ولكنه سمّاه أجرًا؛ لحثِّ عباده على العمل كأنّ الأجر مكافأة مقابلة، ولم يبيِّنْ نوعه؛ ليدخل فيه ما يليق، بما يصدر عن ملك الملوك.	من المخافات التي ستقابلهم في المستقبل الدُّنيويِّ والأخرويِّ.	على ما فات في الماضي من ذنوبٍ أو تقصير، أو أهلٍ وأولاد خلفوهم في الدنيا بعد انتقالهم إلى الآخرة

بصيرة 8 هذه الآية (62) أصلٌ في كيفية الحوار مع الطّوائف الدِّينيّة الأخرى

فتصلح أن تكون دستورًا يرسم ما ينبغي أن يفعله المسلمون في مؤتمرات الحوار، فهي تحدِّثك عن مختلف الفرق الدِّينيّة، كما تبيِّن لك ضرورة الانطلاق معها من المبادئ الثّلاثة إلى مناقشة التّفصيلات المترتِّبة عليها.

القِسم الخامس

الميثاق الإسرائيليُ الأوّل الذي شكّل ملامح الحضارة الإسرائيليّة: ميثاق الكتاب العظيم [البقرة: 63-73]

المواثيق المأخوذة عليهم ذكرت أربع مرات في سورة البقرة:

ميثاق [1]

ميثاق الكتاب العظيم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ [البقرة:63].

ميثاق [2]

الميثاق العباديُ الاجتماعيُ: ويختصُ بأسس العلاقات العامّة في الدِّين: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ..﴾ [البقرة:83].

ميثاق [3]

الميثاق السِّياسيُ: ويتحدّث عن أهمّ الأسس السِّياسيّة في الكتلة المؤمنة الواحدة مقابل المعتدين: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ..﴾ [البقرة:84].

ميثاق [4]

ميثاق السّمع والطّاعة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ..﴾ [البقرة:93].

المناسبة والاتِّصال

جاء هذا القِسم في إطار الكشف عن النَّفسية الإسرائيليّة في جوانبها الإيجابيّة والسّلبيّة، فبعد أن ذكر الله عز وجل أبرز المحطّات التّاريخيّة في الحياة الإسرائيليّة في الأقسام الثّلاثة السّابقة، ومنها النِّعم الكبرى التي أرسلها لهم على هيئة معجزات، وردود الفعل السّلبيّة مِنْ قِبَل كثيرٍ منهم، وبعد أن بيّنَ كذلك أنّ الثّواب والعقاب يظهران في الواقع بالاكتساب لا بالانتساب، أراد أن يبصِّرنا بتلاعبهم بالميثاق المأخوذ عليهم، وكيف ترتّب على ذلك قسوة في القلوب أثمرت ظلمًا عالميًا هائلًا.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾ [البقرة:63]: ﴿إِذۡ﴾: متعلِّقة بمحذوف، والتقدير: واذكروا يا بني إسرائيل، واذكروا أيها المسلمون أن الله عز وجل أخذ الميثاق على بني إسرائيل؛ لينفِّذوا عهد الله عز وجل، وجعل من قرائن تغليظ الإيفاء به رفع الطُّور ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ والطور: الجبل الذي يُنبت، وما لا يُنبت فليس بطور، كما يقول ابن عباس رضي الله عنه. (تفسير الطبري 159/2)

بصيرة

الفصل الأول: المثياق في ذكره 2 للمرّة الأولى 3

الرّكائز الميثاقيّة المطلوبة ركيزتان:

بصيرة

تأكيد الميثاق: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة:63]

أي: رفعنا فوقكم جبلًا للإعجاز، والتّخويف من التّراخي في التزام الميثاق. رفع الطور ليس لاضطرارهم للإيمان، وإنما لإظهار آيةٍ تخوِّفهم، وتدفعهم إلى اتخاذ القرارات المستقيمة الصّائبة.

بصيرة

الركيزة الأولى:

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾، وصيّةٌ بنوع التّلقّي، والتّطبيق، أي: تلقّوه وطبّقوه بجدّ، واجتهاد من غير كلل، ولا ملل، ولا ضجر، ولا تأفُّف، والقوّة تدلُّ على الاستيعاب الجادِّ، والإتقان للمُتَلَقّى، والعزم المصمِّم، والعمل الصّادق، والاتّباع المخلص.

الركيزة الثانية:

﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾، وصيّةٌ بالإشاعة الإعلاميّة العالميّة لتعليمات الميثاق التّذكيريّة للمُتَلقَى، وذِكْرُ ما فيه يقتضي سبعة أعمال: التّعلم، والتّلاوة، والمدارسة الجماعيّة، والتّدبُر، والتّعليم، والتّطبيق العمليّ، والإشاعة الإعلاميّة

﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾،
الإشاعة الإعلاميّة العالميّة
لتعليمات الميثاق، ولهذه
الجملة خمسة معان:

معنى [1]
اتلوه وتذاكروه، وتدارسوه.

معنى [2]
تدبّروه، وتفهّموه.

معنى [3]
تعلّموه، وعلِّموه.

معنى [4]
امتثلوه، واعملوا بما فيه

معنى [5]
أي: اجعلوا أعمالكم موافقة لما فيه، فلا تخترعوا لكم دينًا.

بصيرة 4 الهدف الذي ينبغي أن يتحقّق بعد التّنفيذ

الوصول إلى مرتبة التّقوى، وقد ذكر الله تعالى هذا الهدف في قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 63]، فكان رفع الطُّور من الرّحمة بهم؛ لحملهم على الصّالح الإنسانيِّ العامِّ، لا على العبث والإفساد.

بصيرة 5 يبصِّرنا الله عز وجل بمدى التزامهم بالميثاق

لقد قابلوه بالتّرك الغادر المستخفّ، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ﴾ [البقرة: 64]، التّولّي: (تفعُّل) يدلُّ على شِدّة تكلُّفهم ليعرضوا عن الاستقامة المركوزة في فِطَرهم، والخطاب يدلُّ على مسؤولية الأحفاد عن أفعال الأجداد عند عدم إنكارها، وقال ﷺ: «إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الأَرْضِ، كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا - وَقَالَ مَرَّةً : أَنْكَرَهَا - كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا ، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا، كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا». "أبو داود (4345) وحسّنه الأرناؤوط، والألباني في صحيح الترغيب (2323)"

بصيرة 6

يبصِّرنا الله عز وجل بنتيجة هذا النّقض للميثاق

فيقول: ﴿فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [البقرة: 64]، فكادوا أن يخسروا الاختبار الدُّنيويّ، لولا فضل الله عز وجل عليكم ورحمته.

فالفضل:

الزِّيادة على النِّعمة الأصليّة.

والرّحمة:

والرّحمة: صفة إلهيّة ذاتيّة تقتضي الإنعام على المَرْحُوم في ظَاهره وبَاطنه، أَدْناها كَشْفُ الضُّرّ، وكَفُّ الأَذَى، وَأَعْلاها الاخْتِصَاص برَفْع الحِجاب.

الهدف المرجو أن يتحقق بعد التنفيذ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 63].

ردة الفعل:

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾.

النتيجة:

﴿فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [البقرة: 64].

الفصل الثاني

أبرز نماذج نقضت هذا الميثاق

الأنموذج الأوّل للنّقض

أنموذج أصحاب السّبت

[البقرة:65-66].

الأنموذج الثّاني للنّقض

أنموذج أصحاب البقرة

[البقرة:67-73].

الأنموذج الأوّل للنَّقض — أنموذج أصحاب السبت [البقرة:65-64]

تذكر الآيات لهم أربع قضايا:

الأولى

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ [البقرة:65]، المعرفة الإسرائيليّة بقصة أصحاب السّبت وعواقبها، وإن حاولوا كتمانها.

الثانية

﴿ٱعۡتَدَوۡاْ﴾: قاموا بارتكاب جريمة العدوان على الميثاق المأخوذ عليهم، ولم يلتزموه؛ من خلال تفتيت دينهم بالحِيَل الدِّينيّة.

الثالثة

العقوبة التي نزلت بهم: ﴿فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:65]، عقوبة فريدة، هي عقوبة المسخ من الصُّورة الآدميّة إلى صورة حيوان مُسْتَكْرَه، والخاسئ: هو المطرود، المُبْعَد، الذّميم، الصّاغر، الذّليل، المقموع، المطرود من أن يكون له مكانة، أو كرامة.

الرابعة

آثار العقوبة في الأحاسيس البشريّة العالميّة: ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٦٦﴾ [البقرة:66]، فالبشريَّة صنفان:

فالبشرية صنفان:

صنف [1]

العصاة:

جعلها الله عزوجل لهم ﴿نَكَٰلٗا﴾، مأخوذ من النّكل، وهو المنع، والحبس؛ ولذلك يقال للقيود الشّديدة: أنكال، يعني قيودًا تحبس العصاة. ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا﴾، أي: ما أمامها وما خلفها من القرى، أو ما تقدّم من ذنوبها، وما تأخّر.

صنف [2]

المتقون:

فجعلها لهم موعظة، أي: نصحًا مقترنًا بالتّرقيق القلبيِّ؛ خوفًا من المآلات المستقبليّة.

الأنموذج الثَّاني: أصحاب البقرة: أنموذج التَّلاعب الإسرائيليِّ بالدِّين [البقرة:67-73]

فإن قلت: ما المشاهد التي تكوّن منها هذا الأنموذج؟ وما أشكال هذا التَّلاعب الإسرائيليِّ؟

الجواب: تكوّن هذا الأنموذج من 6 مشاهد، وهي:

1 مشهد [1]: مرحلة الرَّدِّ الكامل للتَّكليف الإلهيِّ، واتخاذ الدِّين هزؤًا ولعبًا

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: 67]

بصيرة 1: قدّم الله عز وجل الحدث المتأخّر زمانًا، وهو ما دار بينهم وبين موسى عليه السلام في الآية: (67)، بينما أشار إلى سبب ذبح البقرة في الآية: (72)؛ لبيان نموذجٍ عمليٍّ للنّقض الإسرائيليِّ للميثاق، فلم يأخذوا الكتاب بقوّة، ولم يذكروا ما فيه.

بصيرة 2: سمّى الله عز وجل النَّبيّ، وهو موسى -عليه وعلى نبينا أفضل الصّلاة والسّلام-؛ لبيان عظمته، وجلالة منزلته عند الله عز وجل، وعند الناس، ثم تراه يُقابَل بمثل ذلك الرّدّ، وبيّنَ أن خطابه كان (لقومه)، أي: ليس لغرباء ليردُّوا كلامه، أو يتعجّبوا منه، وكلُّ ذلك إشارات لما ينبغي أن تتعامل به الأمّة الناشئة.

2 مشهد [2]: مرحلة القبول الإجماليِّ للتَّكليف الإلهيِّ، مع التّعنُّت، والتّثاقل في تنفيذه

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ﴾ [البقرة:68]، فسألوه عن عمرها، فبيّنَ أنها لا فارض مُسِنّة، ولا بكر شابّة، وطلب منهم التّنفيذ الفوريّ: ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة:68].

3 مشهد [3]: مرحلة القبول مع البحث عن أعذارٍ لعدم التّنفيذ

فسألوا عن لونها دون تكليفٍ سابقٍ لهم بلونٍ معيّن: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ [البقرة: 69].

4 مشهد [4]

مرحلة القبول بإظهار رغبةٍ مصطنعةٍ للتّنفيذ دون التّسليم الحقيقيِّ

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ [البقرة:70]

5 مشهد [5]

تنفيذ المُكْرَه

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة:71] فبيّن الله تعالى أنّهم نفذوا، ولكنه ذكر أنهم ما كادوا يفعلون، ومعنى ذلك: أن التّنفيذ شابه الكثير من التّلاعب، والتّثاقل، والبطء، والحرج، بدلًا من أن يصحبه الاستسلام، والإذعان، والانقياد.

بصيرة

القاتل كان واحدًا، ولكنه أسند القتل إلى مجموعهم، فقال: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا﴾ [البقرة:72]؛ لبيان المسؤوليّة الجماعيّة الواجبة على المجتمع في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وردع الظّالم عن ظلمه، والقيام بنصرة المظلوم.

6 مشهد [6]

إحياء الميِّت بميِّت؛ بيانًا لقدرة الله عز وجل، وعظمته

﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:71]

القِسم السادس

قساة القلوب يغيِّرون الآيات، ويدمِّرون المجتمعات [البقرة:74-82]

وقد تسأل: إلى كم انقسم هذا القِسم؟

الجواب: انقسم هذا القِسم إلى فصلين:

الفصل الأوّل:

أسوأ نتائج عدم أخذ الكتاب بقوّة أن تقسو القلوب [البقرة:74].

الفصل الثّاني:

سبب إصرار فسّاق الإسرائيليين على عدم الوفاء بعهد الله عز وجل قسوة قلوبهم، وهنا يبيِّن الله عز وجل لنا أصناف قساة القلوب الذي يغيِّرون الشَّريعة، ويدمِّرون المجتمعات [البقرة:75-79].

الفصل الأول

أسوأ نتائج عدم أخذ الكتاب بقوّة أن تقسو القلوب: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ [البقرة:74] لسببين:

سبب [1]: نقض العهد والميثاق بالتلاعب بالتكليفات، والأوامر، والنواهي: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة:13].

سبب [2]: مرور زمن التّغير الإنسانيِّ: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد:16]، فيحتاج القلب إلى تعاهدٍ، ومراجعة.

﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾ [البقرة:74]

و﴿أَوۡ﴾ تقدِّم لنا صورتين:

1 صورة [1]

أو لِلْإِضْرَابِ؛ للتَّبشيع، والتَّشنيع، أي: قلوب كالحجارة، بل أشد قسوة.

2 صورة [2]

بيان أنواع القساة، فأقلُّهم سوءًا مَنْ قلبه كالحجارة، ومنهم من هو أسوأ من ذلك.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة:74]

هذا الختام يعبِّر عن الإحاطة الإلهيّة بالقساة من جميع الأمم، بما فيهم من انتسب للإسلام، فقوله:

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة:74]

1 [1]

بقراءة التاء في ﴿تَعۡمَلُونَ﴾، وهي قراءة الجمهور: خطاب لبني إسرائيل، ولنا، ولكلِّ سامع.

2 [2]

وبقراءة الياء، وهي قراءة ابن كثير: كلام عن المتآمرين، والعاملين في الخفاء منهم.

الفصل الثاني

سبب إصرار فسّاق الإسرائيليين على عدم الوفاء بعهد الله عز وجل، قسوة قلوبهم، وهنا يبيِّن الله عز وجل لنا أصناف قساة القلوب الذي يغيِّرون الشَّريعة، ويدمِّرون المجتمعات، وهم خمسة أصناف :

أصناف قساة القلوب الذي يغيرون الشريعة، ويدمرون المجتمعات خمسة أصناف

صنف [1]

المحرِّفون (للمعنى بعد نقل اللَّفظ): ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:75].

صنف [2]

الكاذبون المتردِّدون المنافقون: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [البقرة:76].

صنف [3]

المتآمرون المحرِّضون على الكفر، المتلاعبون بالأديان، والأبدان: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:76]

صنف [4]

الأمِّيُّون الذين لا يعلمون الكتاب، وهم الجماهير، والغوغاء، والرأي العامُّ المضلّل المتلاعب به: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:78].

صنف [5]

المبدِّلون المجرمون الذين يغيرون الألفاظ ذاتها، وهم أسوأ من المحرِّفين: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة:79].

القِسم السابع

الشُّبَهُ الإسرائيليّة في عدم اتباع النُّبوّة الخاتمة [البقرة:80-123]

ملمح [1]

طول هذا القِسم ضمن المحور (43 آية)، ودخل القِسم الثّامن أثناء ذكر هذه الشُّبَه.

ملمح [2]

عدد الشُّبَه إحدى عشرة شبهة صريحة، أو مضمّنة.

ملمح [3]

ترجع هذه الشُّبَه إلى التّلاعب بالكلام الإلهيّ، والضّحك على الرأي العامّ.

ملمح [4]

الرُّدود على الشُّبَه متنوعة الأسلوب.

ملمح [5]

دخل معهم في بعضها غيرهم من النّصارى، والمشركين.

ملمح [6]

ليسوا جميعًا قالوا كلّ واحدةٍ منها، بل كلٌّ منها يعكس قول فئة.

تمسّك الإسرائيليون الذين امتنعوا عن الإيمان بالنّبيِّ الخاتم ﷺ بمجموعة من الشُّبَه مع أنّهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وتبصّرنا الآيات بها وبالرّدِّ عليها، وأهمُّ ملامح هذه الشُّبَه:

وقد تسأل: ما الحكمة من ذكر هذه الشُّبَه في البصائر القرآنيّة؟ الجواب:

هدف [1]: تثبيت عقيدة الإيمان الحقِّ في نفوس المسلمين

هدف [2]: تدريب المسلمين على طريقة إدارة الحوار المثمر، الذي لا يستغلُ الطّرَف الآخر فيه طبيعتهم الرّحيمة، وأخلاقهم الكريمة، فيستفيد المسلم من التّعليم القرآنيّ فنّ التّعامل مع الشُّبَه.

هدف [3]: بيان الحقائق للعالمين، ومنهم الرأي العامُّ الإسرائيليُّ خاصّة، والكتابيُّ عامّة.

هدف [4]: تنوير العقليّة الإسلاميّة بمعرفة أنواع الشُّبَه، والدّعايات، والتّضليل الإعلاميِّ المتنوع الذي لا يخلو منه زمان.

وربما تسأل: فما الشُّبَه الإسرائيليّة التي أثاروها بغرض عدم اتِّباع النَّبيِّ الخاتم ﷺ؟

الجواب: بلغت الشُّبَه الإسرائيليّة في هذا الصَّدد 11 شبهة، وهي كما يأتي:

شبهة [1]

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ [البقرة:80]، **فيزعمون أنه لا حاجة لهم إلى الإيمان؛ فَهُمْ لن يطيلوا المكث في النّار، وينشرون بين العالمين الاستهانة بوعيد الله تعالى وعقابه للمجرمين في الآخرة.**

شبهة [2]

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ﴾ [البقرة: 88]، **أي: هي خُلِقت مغلفة، فلا يمكن أن يصل إليها الهدى.**

شبهة [3]

هم مؤمنون بما عندهم وهذا يكفيهم، فإيمانهم وَفْقَ شروطهم الخاصّة:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ [البقرة:91].

شبهة [4]

لهم الدار الآخرة عند الله خالصة، فلماذا يؤمنون؟

﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:94].

شبهة [5]

كرههم لجبريل عليه السلام (فلو كان أمين الوحي غيره من الملائكة لآمنوا):

﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:97].

القِسم الثّامن

الدِّين الباطل الذي صنعوه لأنفسهم، واستبدلوا به الوحي [البقرة: 99-105]

شبهة [6]

زعموا عدم جواز نسخ شريعة موسى عليه السلام، وأنكروا مبدأ النّسْخ:

﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾ [البقرة:106].

شبهة [7]

زعموا أنّ الجنّة حكرٌ عليهم، ومنعوا دخولها لغيرهم:

﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة:111].

شبهة [8]

زعمت فِرَقٌ أن الله عز وجل اتخذ ولدًا: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ [البقرة:116].

شبهة [9]

زعمت فِرَقٌ أنهم لن يؤمنوا حتى يكلمهم الله عز وجل، أو تأتيهم آية تجبرهم على الإيمان:
﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾ [البقرة:118].

شبهة [10]

زعموا أن الهداية الحقيقيّة تكمن في اتباع اليهوديّة، أو النّصرانيّة:
﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾ [البقرة:135].

شبهة [11]

أثاروا الشُبَه حول تغيّر الأحكام الإسلاميّة، وخاصّة القبلة التي يتمُّ الصّلاة إليها:
﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾ [البقرة:142].

الشبهة الاولى:

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة:80]

كأنهم يقولون: ما الداعي للإيمان بنبيِّ الأمّيّين، والعصاة منّا لن تمسّهم النّار إلا أيّامًا معدودة، فمنهم من قال: 12شهرًا، ومنهم من قال: 49يومًا، ومنهم من قال: 40 يومًا ؟!

الرد القرآني على هذه الشبهة:

رد [1]

﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:80]،

قولكم يحتمل أمرين منطقيًا: إمّا عندكم كتاب فيه عهد بما تقولون، وإمّا أنكم تكذبون على ربّكم عز وجل، والأوّل باطل، فلم يبق إلا الثاني، وهذا ناتجٌ عن التّحريف، والتّبديل، واتباع الأهواء.

رد [2]

﴿بَلَىٰۚ﴾، أي: اذكروا المبدأ الإلهيّ العادل: الثّواب بالعمل، والاكتساب، لا بالادعاء، والأماني، والانتساب، فالناس صنفان:

صنف [1]

﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:81].

صنف [2]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:82].

رد [3]

تلاعبهم بالميثاق العَقديِّ الاجتماعيِّ العباديِّ: [البقرة:83]:

1. **العلاقة مع الله عز وجل (العبادة، ونفي الشِّرك):** ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة:83].
2. **العلاقة مع أقرب الناس، وهما الوالدان، (الإحسان):** ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة:83].
3. **العلاقة مع بقية الأقارب (الإحسان):** ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة:83]، **أي: وأحسنوا إلى ذي القربى.**
4. **العلاقة مع الضُعفاء في المجتمع:** ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [البقرة:83]، **أي: وأحسنوا إلى اليتامى والمساكين.**
5. **العلاقة مع بقيّة الناس:** ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:83].
6. **أهمُّ العبادات:** ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة:83] **(ذاتيّة)،** ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:83] **(متعدّية)**
7. **رِدّة فعلهم:** ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة:83]، **التّولّي بالجسد، والإعراض بالقلب، والتّحذير للأمّة الإسلاميّة أن تسير سير بني إسرائيل في الإعراض والمخالفة.**

رد [4]

تلاعبهم بالميثاق السِّياسي الذي يكوّن الأمّة المؤمنة الواحدة؛ لتأخذ دورها العالميّ متكاتفة [البقرة: 84]:

1. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ [البقرة:84]، **من سفك دم أخيه، فكأنما سفك دم نفسه.**
   - **لكنهم نقضوا:** ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:85]، **عدّ الآخرين بمثابة نفوسهم.**
2. ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ [البقرة: 84]، **تحريم المعاقبة بالإخراج من الدِّيار، مهما كان الخطأ.**
   - **لكنهم لم يفعلوا:** ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [البقرة:85].
3. **وجوب افتداء الأسير: فُهِمَ من قوله تعالى جدُّه:** ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ﴾ [البقرة: 85]، **أو يكون المعنى: أنكم تأخذون الفدية مقابل إخوانكم، فهذه جريمة ثالثة.**

رد [5]

بيّن أصل الخلل في إجرامهم:

وهو التّلاعب بالكتاب بفعل بعض أوامره، وترك بعضها:

﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾ [البقرة: 85].

رد [6]

ردٌ تحذيريٌ ببيان العقوبة التي لا محاباة فيها لمن يتلاعب بالكتاب

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٨٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [البقرة: 85-86].

رد [7]

ردّ عليهم ببيان وضوح بيِّنات الرُّسل عليهم السلام الذين جاؤوهم

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ [البقرة: 87]. **فكيف قابلوهم؟**

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ [البقرة:87].

قابلوا رسلهم عليهم السلام بالتّكذيب، أو القتل، فكيف لن تمسّهم النّار إلا أيامًا معدودة؟! وفي الآية حثٌ شديد للنّصارى الذين يستمعون هذه المحاورة على التّفكير المنطقيّ، واتخاذ القرار المناسب؛ فإن عيسى عليه السلام ممّن كذّبته عصاة المتلاعبين، وحاولوا قتله، والأمر ذاته يحدث مع النّبيِّ ﷺ.

الشبهة الثانية:

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ [البقرة:88]

يزعمون أنها خُلِقت مغلفة، محمية من أن يصل إليها الهدى.

رد [1]

﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾ [البقرة:88]، **فسبب عدم وصول الهدى إلى قلوبهم: استحقاقهم اللّعن؛ لتعمُّدِهم الكفر، وتغطية الحقائق.**

رد [2]

﴿فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة:88]، **لا يؤمنون إلا بشيء قليل من الدِّين. ولها معنىً ثانٍ: لا تجد فيهم مؤمنين إلا قليلًا.**

رد [3]

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:89]، **كأنه يقول: انتظرتم النّبيّ ﷺ، وإلا فلماذا جئتم إلى صحراء الحجاز، ورمضائها.. حتى إذا جاء كفرتم به، وغطّيتم الحقائق على العالم!؟ولها معنىً ثانٍ: لا تجد فيهم مؤمنين إلا قليلًا.**

رد [4]

الهوى أفضى بهم إلى اختيار الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض، ثم انتقلوا إلى مرحلة البغي على الصّادقين: ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [البقرة:90].

الشبهة الثالثة:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ [البقرة:91]

يزعمون أنهم مؤمنون بما عندهم وهذا يكفيهم، فإيمانهم وَفْقَ شروطهم الخاصّة.

ردّ الله عليهم شبهتهم؛ لأجل توعية عامتهم، وإقامة الحجة عليهم:

رد [1]

﴿قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ﴾ [البقرة:91]، **فلم ينكروا أن القرآن من عند الله عز وجل، لكنهم زعموا أنه يكفيهم إيمانهم بما أنزل عليهم، فكيف يفرِّقون بين ما نزل من الله عز وجل، فيؤمنون بالسّابق، ويكفرون باللّاحق؟**

رد [2]

﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ﴾ [البقرة:91]، **الذي وراء التوراة هو الحقُّ يصدِّق ما معهم، وهو القرآن، فكيف يكفرون به؟! كأنهم بذلك يكفرون بما معهم.**

رد [3]

﴿قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة:91]، **وفي سفر الملوك الأول: 19: 10: فقال: "قد غِرْتُ غَيرةً للرّبِّ إلهِ الجنود؛ لأنّ بني إسرائيل قد تركوا عهدَك، ونقضوا مَذابِحَك، وقَتلوا أنبياءك بالسّيف".**

رد [4]

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة:92]، **فهل اتخاذكم العجل يعدُّ إيمانًا بما معكم؟ ونقلتم في سفر الخروج:32: 7: فقال الرّبُّ لموسى: "اذهب انزل؛ لأنه قد فسد شعبُك الذي أصعدتَه من أرض مصر". 32: 8 زاغوا سريعًا عن الطّريق الذي أوصيتُهم به، صنعوا لهم عجلًا مَسْبُوكًا، وسجدوا له، وذبحوا له، وقالوا: هذه آلهتُك يا إسرائيل، التي أَصْعَدَتْكَ من أرض مصر".**

رد [5]

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: 93]: فكأنه قال: كيف تقولون نؤمن بما أنزل علينا، وأنتم أُخِذَ عليكم الميثاق، مع تخويفكم برفع الطُّور فوقكم؛ لتلتزموا القيام بمقتضيات الإيمان، فتأخذوه بجدٍّ، واجتهاد، وعدم تلاعب، وتسمعوا سماع إجابة وقبول، فقلتم: سمعنا وعصينا؟

رد [6]

﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ﴾ [البقرة: 93]: كيف تقولون: ﴿نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ [البقرة: 91]، وما زال حبُّ العجل باقيًا في قلوبكم؛ إذ جعلتموه علامة على تطهير بني إسرائيل.

رد [7]

﴿قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: 93]: أي: هل هذه صفات المؤمنين: كفرٌ بما اقتضاه كتابكم، وقتلٌ للأنبياء عليهم السلام، واتخاذٌ للعجل، وعصيان عند الأمر بالسَّمع والطَّاعة؟!

الشبهة الرابعة:

زعموا أنهم يتحكَّمون بالدَّار الآخرة [البقرة:94-96]

فحوى الشُّبهَة؛ لضعفها، وسفهها، ردّ عليهم مباشرة مشيرًا إلى الشُّبهَة، فقال: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:94]، فشبهة فئة منهم: أنهم لا يحتاجون إلى الإيمان بمحمد ﷺ؛ لأنَّ لهم الدارَ الآخرة خالصة من الشَّوائب، والأكدار من دون الناس، يتحكَّمون بها كيفما شاؤوا، فَهُمْ شعب الله المختار!

الرَّدُّ عليهم:

رد [1]

﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:94]، **بالتَّحدِّي أن يتمنّوا الموت الذي يحول بينهم وبين الوصول إلى تلك الدار الكاملة (النعيم)، أو بالدُّعاء بالموت على الفريق الكاذب منهم، أو من المسلمين.**

رد [2]

- **فشلهم في التَّحدِّي فقال:** ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ﴾[البقرة:95]، **فهو تحدٍّ مضاعف.**
- **وسبب عدم تمنِّيهم: سوء إدارتهم لأحوالهم، وإجرامهم في حقِّ أنفسهم، والعالم.**

رد [3]

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:95]، **كشف حقيقة نفسيّاتهم؛ فهو عليم بأدقِّ أسرارهم، وبمن يظلمون أنفسهم، والعالم، فليس بغافل عن أفعالهم، التي سيجدون جزاءها في الآخرة.**

رد [4]

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [البقرة:96]، **كشف حقيقة نفسيّاتهم، وحبِّهم للدُّنيا، فَهُمْ أحرص من المشركين على الدُّنيا، مع أن المشركين لا يؤمنون بالآخرة، فكيف يزعمون أنّ لهم الدارَ الآخرة؟! وهذا واضح تشهد عليه بيوت الرِّبا العالميّة.**

رد [5]

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة:96]، **طول العمر لا يمنع من الحساب، والعذاب، ولا من مراقبة أعمال الدنيا، وإحصائها.**

الشبهة الخامسة: كرههم لجبريل عليه السلام (فلو كان أمين الوحي غيره من الملائكة لآمنوا):

﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ...﴾ [البقرة:97-98]. **فردّ عليهم بالآتي:**

رد [1]

﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[البقرة:97]، جبريل -عليه السلام- نزل القرآن على قلبك بإذن الله، أي: بأمره، وعلمه، ولم ينزل من تلقاء نفسه، فلم يعادون؟ أليس سفهاً في العقل!؟

رد [2]

﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:97]، نزول جبريل عليه السلام كان إلى القلب؛ ليبيِّنَ شِدّة الحفظ، والوعي، الذي اتّسم به النّازل (جبريل عليه السلام)، والمُنْزَل عليه (النّبيُّ ﷺ)، وأنه لا اختيار لك، ولا لجبريل عليه السلام في النُّزول.

رد [3]

جبريل عليه السلام هو الذي نزل على موسى، والأنبياء عليهم السلام من قبل أمينًا للوحي: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [البقرة:97]، أي: مخبِرًا في القرآن بصدق الوحي من قبله، فمعاداته تعني معاداة ما نزل به قبل ذلك.

رد [4]

﴿وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة:97]، ما نزل به جبريل عليه السلام من الوحي هدى للصّواب، وبشرى بإظهار جمال المآلات، وسعادة النِّهايات للمؤمنين، لا للمتلاعبين، فمن يتلاعب فيؤمن ببعض، ويكفر ببعض، لم يكن القرآن وما قبله له هدى، ولا بشرى.

رد [5]

﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:98]، حقيقة عداوة جبريل عليه السلام عداوة لله عز وجل الذي أرسله، وهي عداوة لكلِّ من يرسلهم الله عز وجل من الملائكة، والرسل عليهم السلام.

رد [6]

بالثناء العظيم على ما نزل به جبريل عليه السلام وهو القرآن، فأثنى عليه بستّ صفات: مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْد اللّه بإذنه، وبِأَنَّهُ مُنَزَّلٌ عَلَى قَلْبِ الرَّسُولِ ﷺ، وَأَنَّهُ مُصَدِّقٌ لِمَا سَبَقَهُ مِنَ الْكُتُب، وَأَنَّهُ هَادٍ للصّواب في الحياة، وَأَنَّهُ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ، وأنّ النّازل به نزل بالوحي على من قبله، فأثنى عَلَى الْقُرْآنِ بِكَرَمِ الْأَصْلِ، وَكَرَمِ الْمَقَرِّ، وَكَرَمِ الْفِئَةِ، وَمَفِيضِ الْخَيْرِ عَلَى أَتْبَاعِهِ الْأَخْيَارِ خَيْرًا عَاجِلًا، وَوَاعِدٌ لَهُمْ بِعَاقِبَةِ الْخَيْرِ

القِسم الثامن

الدِّين الباطل الذي صنعوه لأنفسهم، واستبدلوا به الوحي [البقرة: 99-105]

المناسبة والاتِّصال

لما ذكر الله عز وجل الشُّبهَة الغريبة التي أوردها بعض بني إسرائيل حول كرههم لجبريل عليه السلام، أراد الله عز وجل أن يبصِّر العقليّة المسلمة المتفاجئة من هذا الاعوجاج العقليِّ، بسبب لجوئهم إلى مثل هذه الأقاويل، التي لا تكاد تعقل، وأن يبيّنَ أن حقيقة عداوتهم لجبريل عليه السلام هي عداوة للوحي الإلهيِّ، وإصرار على صنع دِين استحلته شهواتهم، معرضين عن الآيات البيِّنات.

ريما تسأل: فما أركان الدِّين الباطل الذي استبدلوا به الدِّين الحقّ؟

الجواب: يتكوّن هذا الدِّين من 7 أركان:

ركن [1]

الفسق بالخروج عن طاعة الله عز وجل، مهما استبانت الآيات: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [البقرة:99]، والفسق بريد الكفر الأكبر.

ركن [2]

النّقض الدائم للعهود والمواثيق من قِبَل نخبة مؤثِّرة مستكبرة: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾ [البقرة:100].

ركن [3]

ميل الكثير من العامّة إلى عدم الإيمان، ويؤثِّر عليهم الفريق النّاقض: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة:100].

ركن [4]

نبذ الكتاب وراء ظهورهم فيما لا يهوونه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:101]، وخاصّة ما تعلّق بنبوّة النَّبيِّ ﷺ؛ لأنه يترتب على إيمانهم به عودتهم الحقيقيّة لدينهم غير المحرّف.

ركن [5]

بدلاً من اتِّباع الكتاب اتبعوا أمرين كفريين:

أمر [1]

الخرافات الكفريّة التي وضعها شياطين الإنس والجنِّ، وتقوّلوها على مُلْك سليمان عليه السلام، والحيل السِّحريّة التي علّمتها الشّياطينُ النّاسَ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة:102]، والفعل المضارع يدلُّ على الاستمرار.

أمر [2]

السِّحر الذي أنزل على الملكين هاروت وماروت، ممّا كان تعلُّمه فتنة كفريّة: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ...﴾ [البقرة:102].

مفاسد السِّحر الدُّنيويّة

المفاسد الخاصّة في التّدمير الأُسَريّ:

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ﴾ [البقرة:102]، مع ما جعل الله عز وجل بينهما من المودّة، والرّحمة، ولكن الضّرر لا يقع إلا بالإذن الكونيّ؛ ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة:102].

المفاسد العامّة في بقيّة الأمور:

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ﴾ [البقرة:102]، فهو ضرر خالصٌ، لا منفعة فيه.

العقوبة الأخرويّة لمن يتعامل بالسِّحر:

الخسارة الماحقة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ﴾ [البقرة:102]، ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أي: رغب في السِّحر رغبة المشتري في السِّلعة، وهنا يبيّن إصرارهم على هذه الجريمة الكبيرة، مع علمهم بسوء المصير في الآخرة، كما يعلم إبليس سوء مصيره. ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:102] أي: لبئس بيعهم لأنفسهم مقابل السِّحر الكفريّ الذي أخذوه.

أبقى حبل الدّعوة لهم مفتوحًا بألطف أسلوب:

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 103]، **أي: لو آمَنُوا بالكتاب بدلًا من نبذه، وَاتَّقَوْا بالعَمَلِ بِهِ؛ لَكَانَ ثَوَابُ اللهِ عز وجل لَهُمْ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ جَمِيعِ مَا تَوَهَّمُوهُ من المنافع فِي اتباع السِّحر، ونبذ الكتاب.**

ركن [6] التّلاعب الإعلاميُ اللّفظيُ السّاخر من العالم، وخاصّة المؤمنين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ [البقرة:104] و﴿رَٰعِنَا﴾ **عندهم من الرعونة، أي: أنت سفيهنا.**

1. **هذا أوّل نداء للمؤمنين في القرآن حسب التّرتيب المصحفيِّ، فجاءت الآية تظهر الهُويّة المستقلّة للمؤمنين، وجمعت بين التّأصيل والتّكميل معًا.**
2. **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: نداء يظهر تميُّز هؤلاء السعداء، وتعيير فسّاق بني إسرائيل الذين أصرُّوا على الكفر والاعتداء.**
3. **﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾: فلا تتشبّهوا بفسّاق بني إسرائيل في ليِّ ألسنتهم، والعبث بدينهم، فتردِّدون بعدهم ما لا تفهمونه.**
4. **﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ فتميّزوا بأقوالكم، فإذا أردتم أن ينتظركم الرّسول، فقولوا: ﴿ٱنظُرۡنَا﴾.**
5. **﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ أظهروا السّمع والطّاعة واستقيموا عليهما؛ فقد أهلك فسّاق بني إسرائيل قولهم: سمعنا وعصينا.**
6. **أظهروا حقيقة الإيمان بالأقوال والأفعال، ولا تصنعوا ما صنعه محرّفو الدِّين الذين ستروا بكفرهم الإيمان الحقّ، فلهم عذاب يسلبهم عذوبة الحياة، أليم يجعلهم يتوجعون من ألمه ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [البقرة: 104].**

ركن [7] عدم ودِّهم لنزول أيِّ خير دينيّ، أو دنيويّ على المؤمنين الصَّادقين:

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البقرة: 105].

رجع القِسم السّابع:

الشُّبَه الإسرائيليّة في عدم اتِّباع النبوّة الخاتمة [البقرة: 80-123]

الشُّبهَة السادسة:

إنكار مبدأ النَّسْخ [البقرة: 106-110]

وذلك في جهتين:

جهة [1]

أنكروا مبدأ النَّسْخ داخل الشَّريعة الواحدة:

جعلوا ذلك مما يُتَنَدَّرُ به كنوع من العبث الإعلاميّ بالجماهير، فَقَالُوا: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مُحَمَّدٍ يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِأَمْرٍ، ثُمَّ يَنْهَاهُمْ عَنْهُ، وَيَأْمُرُهُمْ بِخِلَافِهِ، وَيَقُولُ الْيَوْمَ قَوْلًا، وَغَدًا يَرْجِعُ عَنْهُ، فيغيّر أحكام شريعته.

جهة [2]

عدم جواز نسخ شريعة موسى عليه السلام:

ادّعوا أَنَّ شَرِيعَتَهُمْ لَا تُنْسَخُ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا وَصَفَ التَّوْرَاةَ بِأَنَّهَا حَقٌّ، وَأَنَّهُ جَاءَ مُصَدِّقًا لَهَا، فَكَيْفَ يَكُونُ شَرْعُهُ مُبْطِلًا لِلتَّوْرَاةِ؟!

الرُّدود على هذه الشُّبهَة:

جاء الرُّد عليهم مباشرًا، وأشير للشبهة أثناء ذلك:

رد [1]

التَّذكير بالعاطفة التي يخفيها كثيرٌ من الكفّار

الذين يخفون الحقائق من أهل الكتاب والمشركين، وهو أنهم يرغبون بشِدّة ألا ينزل على المسلمين من خير من ربّهم عز وجل:

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم﴾ [البقرة:105].

رد [2]

﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾ [البقرة:106]

ردٌّ مباشر مقترن بالنون الدّالة على التّعظيم (مَا نَنسَخۡ - نُنسِهَا)، فلم يورد هذه الشُّبهَة كقولٍ من أقوالهم ثم يردُّ عليها؛ لأنها سفهٌ عقليٌّ، مثل ادِّعاء التّحكُّم بالآخرة، ومثل كرههم لجبريل عليه السلام؛ إذ كيف يعترضون على حكم الله عز وجل، مع أنه معقول المعنى، فالله عز وجل يربِّي عباده بما يناسب أحوالهم.

رد [3]

كلمة: (ءَايَةٍ) تؤدِّي دورًا عظيمًا في الرّدِّ؛

إذ لم يذكر الله سبحانه بدلاً منها كلمة: (شريعة) أو كلمة: (حكم)؛ لأنه أراد تعليم مبدأ: (النّسْخ)، وهو مقصد كليٌّ شامل للشّرائع الكلّيّة، والأحكام الجزئيّة، وجعل الشّريعة والحكم آية؛ لمراعاة المعنى اللُّغويّ الأوّل لها، وهو أنها علامة على أنها من الله عز وجل، الذي يرسل رسولًا، ثم يرسل رسولًا ثانيًا، فتكون الطاعة له، ولمراعاة المعنى اللُّغويّ الثّاني، وهو أنها معجزة بذاتها من نواحٍ متعدِّدة، ومن ذلك: أن تكون معجزة تشريعيّة.

رد [4]

لم يخاطب أصحاب الشُّبهَة، وجعل الخطاب عالميًّا؛ لهوان ما اعترضوا به

فقال: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: مِنْ شَرِيعَةٍ؛ لبيان أن الآيات، والشّرائع كأنها وحدةٌ واحدة.

رد [5]

﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾ [البقرة:106]

تبصِّرنا بأن الشَّريعة الإلهيّة منزّلة لمصلحة العالم، والنّسْخ دليل على ذلك، فكلُّ شريعة جاءت مع نبيٍّ، فهي لحراسة المصلحة البشريّة، ونفع الإنسانيّة؛ وذلك ليوافق تربية الله عز وجل للعالم، وتدرُّج السّير بالبشريّة نحو الخَتْم في الكتب، والرُّسل، فيكون معنى الآية:

معنى [1]

قراءة الجمهور: ﴿نُنسِهَا﴾، من النِّسيان بمعنى: التّرك، فترك الآية كنسخها؛ إمّا أن تماثلها، وإمّا أن تكون أعلى في الخيريّة، أي: ما نستبدل من آية، أو نتركها دون نسخٍ (استبدال)، فلا نبدلها، كما يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (تفسير الطبري 476/2)

معنى [2]

﴿نُنسِهَا﴾: نتركها كما هي، فلا نفصّلها لك؛ وذلك ممّا نزل من قبل، وهذا يبيّنه قول رسول الله ﷺ: «وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ، فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا». "الدارقطني (4396)، وقال ابن حجر في الفتح (13/ 266): "رجاله ثقات إلّا أنه منقطع".

معنى [3]

قراءة ابن كثير، وأبي عمرو: ﴿نَنْسَأْهَا﴾، من النّسء بمعنى: التّأخير، أي: ما نَنْسَخْ مِن اللَّوْحِ المَحْفُوظ من آية (شريعة، أو حكم)، فننزلها على نبيّ للبشريّة، أَو نُؤَخِّرْها فلا نُنْزِلْها، نأت بخير منها أو مثلها، فلا يقال: لماذا لم يأت محمّد بدلاً من موسى -عليهما الصّلاة والسّلام- لو كانت شريعته هي النّاسخة؟ ولا يقال: لماذا يتأخّر نزول عيسى الثّاني؟ ولماذا لا يكون محمّد بدلاً من عيسى -عليهم الصّلاة والسّلام-؟

معنى [4]

ما (نُنسِخْ) من آية لكم في قراءة ابن عامر، أي: نجعلكم ناسخين لها، أو نجعلكم ناسين لها فتغفلونها، فلا تذكرونها إلا كان غيرها خيرًا منها أو مثلها ... مثل نسيان تحديد ليلة القدر.

معنى [5]

مَا نزيل (نَنسَخْ) مِنْ آيَةٍ كانت دَلِيلًا عَلَى نُبُوَّةِ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، أَوْ نُنْسِهَا النَّاسَ؛ لِطُولِ الْعَهْدِ بِمَنْ جَاءَ بِهَا، أو نؤخرها فلا نأتي بها، نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا فِي قُوَّةِ الْإِقْنَاعِ، وَإِثْبَاتِ النُّبُوَّةِ، أَوْ مِثْلِهَا فِي ذَلِكَ، كنسخ شريعة موسى أو عيسى -عليهما السلام- بالقرآن. (تفسير المنار 344/1)

رد [6]

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة:106]

النَّسْخ من مظاهر قدرته سبحانه، ومن قدرته: حكمه في كلِّ شيء، ومن أجلى مظاهر القدرة الإلهيّة: نَسْخ معجزات إبراهيم بمعجزات موسى، التي نُسِخَت بمعجزات داود، التي نُسِخَت بمعجزات سليمان، التي نُسِخَت بمعجزات عيسى، التي نُسِخَت بمعجزات محمّد -صلّى الله عليهم وسلم أجمعين-.. أليس الله القدير على كلِ شيء هو الذي أرسلهم؟

رد [7]

النَّسْخ من مظاهر ملكه وإحاطته: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة:107]

وبما أن له ملك السّمَوات والأرض فهو يملك أموركم، ويدبّرها، وهو أعلم بما يتعبدكم به من ناسخ أو منسوخ، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [البقرة:107]، وهذا الرّدُ والذي قبله، يتعلّق بجميع الشُبَه السّابقة، وخاصّة موضوع جبريل عليه السلام، والنَّسْخ.

رد [8]

استنكار الاعتراض على الأوامر الإلهيّة، التي يبلغها المقام النّبويُ قديمًا وحديثًا

﴿أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ﴾ [البقرة:108]، أي: كما حدث مع البقريّين، وهو خطاب للمؤمنين، والكفّار؛ تذكيرًا، وتهديدًا، وزجرًا.

رد [9]

﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة:108]

النَّسْخ حكم الله عزوجل، والتّشكيك في حكم الله عزوجل كفر، وترك الإيمان وتبديله بالكفر تيهٌ عن السّبيل الحقيقيِ للعيش في هذه الحياة.

رد [10]

﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ [البقرة:109]

كشف حقيقةً نفسيّةً جديدة وراء كلِّ الشُبَه: إنها حقيقة الحسد، الذي عند كثيرٍ من أهل الكتاب حِقدًا، أفضى بهم إلى تمنّي أن يكفر المسلمون، وليس أن يدخلوا في دِين أهل الكتاب.

رد [11]

بيان وجوب التَّعامل بأرقى الأساليب مع تشويش المحرِّفين، ومؤامراتهم:

1 ﴿فَٱعۡفُواْ﴾، العفو: محو، وذلك يقتضي نسيان الأخطاء الفعليّة مقابل دعوة أصحابها إلى الله عز وجل، لا نسيان الأخطاء الفكريّة؛ ليستعان بها على تقويم مسيرة أصحابها.

2 ﴿وَٱصۡفَحُواْ﴾، الصفح: إعطاء الرجل صفحته، أي: جانبه، وهذا يقتضي الإعراض، وعدم الاستجابة للاستفزاز.

3 التَّعبُّد بانتظار التَّغيير بعد بذل الأسباب الشَّرعية: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾

4 الثِّقة بقدرة الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة:109].

5 القيام بأسس العبادات الذّاتيّة، والمتعدّية (الصّلاة، والزّكاة): ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ [البقرة:110]، وذكرها هنا كأنه يقول: لا يلهيكم حواركم، أو عداوتهم لكم عنها.

6 انشغلوا بنشر الخير على المستوى المحلي، والعالمي أكثر من انشغالكم بهم: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾.

7 الثِّقة بعلم الله عز وجل المحيط بكم وبهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [البقرة:110].

الشُبهَة السَّابعة:

زعموا أنّ الجنّة حكرٌ عليهم، ومنعوا دخولها لغيرهم:

﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ...﴾ [البقرة:111-115].

رد [1]

﴿تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:111]

هذه أمانٍ، ودعاوى، أين الدليل عليها؟ إنه الدِّين الباطل، الذي يصنعه لهم الدَّجّالون، ومدَّعو النُبوّة، وفي سفر إرمياء14 : 14 فَقَالَ الرَّبُّ لِي: «بِالْكَذِبِ يَتَنَبَّأُ الأَنْبِيَاءُ بِاسْمِي. لَمْ أُرْسِلْهُمْ، وَلاَ أَمَرْتُهُمْ، وَلاَ كَلَّمْتُهُمْ بِرُؤْيَا كَاذِبَةٍ وَعِرَافَةٍ، وَبَاطِلٍ وَمَكْرِ قُلُوبِهِمْ هُمْ يَتَنَبَّأُونَ لَكُمْ».

رد [2]

﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ [البقرة:112]

الدُّخول إلى الجنة بالاكتساب، لا بالادِّعاء والانتساب، فيكتسب أمرين:

1. أن يُسْلِم وجهه لله عز وجل باطنًا وظاهرًا، ويقتضي الإخلاص.
2. وأن يُحْسِن، ويقتضي الإتقان والصّواب بأن يكون الفعل موافقًا لما بلّغه الأنبياء عليهم السلام.

فمن فعل ذلك: ﴿فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة:112].

رد [3]

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [البقرة:113]

إن كانت الجنّة لكم، فَلِمَ يكفِّر بعضكم بعضًا، مع تلاوة كلٍّ منكم للكتاب الذي نزل من ربِّكم عز وجل؟!

رد [4]

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾ [البقرة:113]

شابه أهلَ الكتاب في هذه الدّعوى (التّكفير)، وهم علماء مَنْ لا علم عنده من المشركين.

رد [5]

﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [البقرة:113]

الحكم بدخول الجنّة والنّار حقٌ إلهيٌ، يتحقّق في الآخرة، والخلاف بين أصحاب العقائد، يُحْكَم فيه يوم القيامة، ولا يترتّب عليه الإكراه على تركها.

رد [6]

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾ [البقرة:114]

إن كنتم أصحاب الجنّة فَلِمَ تحاربون مساجد الله التي بُنيت لذكره؟ ولماذا تسعون في خرابها؟، فالسّعي في خراب المساجد، علامة الدِّين الباطل.

رد [7]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ﴾ [البقرة:114]

تبصِّرنا بردٍّ جديد: كيف تزعمون أنّ لكم الجنّة، ومن أكبر العُقَد التي تجدونها: خوفكم من مساجد الله عز وجل، مع أنها بُنيت لصناعة السّلام في الأرض؟ إن الذي يفعل ذلك بالأماكن التي يسجد فيها لله عز وجل، له عقوبة دنيويّة: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾ [البقرة:114]، وله عقوبة أخرويّة: ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة:114].

رد [8]

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة:115]

منع العِباد من العبادة في المساجد، لن يوقف دِين الله عز وجل، فكلُّ الكون مسجد، فالعبادة لله عز وجل، لا للجهات.

الشُّبهَة الثامنة:

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا...﴾ [البقرة:116-117]

فزعموا أنهم يعبدون ولده، وهذه الشُّبهَة قالها مجموعات من النّصارى، والمشركين، واليهود

مجمل الردود على هذه الشبهة

[1] يظهر في كلمة: ﴿ٱتَّخَذَ﴾، أنّ البُنُوّة تثبت بالنَّسَب، لا بالاتخاذ.

[2] ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ [البقرة:116]، والتَّسبيح يقتضي التَّنزيه، والتَّعظيم، كيف يَعْرِف قدر ربِّه عز وجل من يزعم أنه يحتاج إلى ولد؟!

[3] ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة:116]، فكلُّ من في الوجود ملكه، فكيف يكون واحد منهم ولدَه؟

[4] ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة:116]، كلُّ من في الوجود قانتٌ، أي: خاضعٌ له، فكيف يكون واحد منهم ولدًا له؟

[5] هو ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة:117]، أي: كانت عدمًا، فأنشأها على غير مثال، والولد يقتضي التَّماثل في الجنس، فأين من يماثله سبحانه؟!

[6] ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:117]، قضاؤه يكن دون عناء، فيتمُّ بمجرد الأمر، فكيف يحتاج إلى ولد؟!

الشُبهَة التاسعة:

زعمت فِرَقٌ أنهم لن يؤمنوا حتى يكلمهم الله عزوجل، أو تأتيهم آية تجبرهم على الإيمان:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ...﴾ [البقرة:118- 123]، وحقيقة هذه الشُبهَة أنها ستار للعناد، والإصرار على الحسد وشهوات الجسد، أو التّرؤس

القائل:

الجهلة المعاندون من كلِّ طائفة دينيّة، أو ملحدة، ولأن الشُبهَة ستار للنّفسية المعاندة، فقد ذكر الله عزوجل عددًا من القوانين في كيفية الرّدِّ عليهم، والتّعامل معهم:

قانون [1]

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ﴾ [البقرة:118]، طلبهم شنشنة معتادة من المعاندين، لا من طالبي الحقائق، فهي سُنّة من سبقهم ممن يماثلهم في العناد.. لماذا لا يتغيّرون نحو الأحسن؟

قانون [2]

﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:118]، الآيات تظهر للموقنين، لا للمعاندين، فالموقن من يزيح الشّك لا من يعاند.

قانون [3]

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾ [البقرة:119]، يبصّرنا هذا القانون بتطمين الرّسول ﷺ، والعالم، بأنّ الله سبحانه أرسل الرّسول ﷺ بالحقِّ، مهما شوّش المشوِّشون، ورسالته تتضمّن التّبشير للمؤمنين، والإنذار للمعاندين، فالمعاند لا ينفع معه الإقناع العقليُ؛ ولذا يطلب أن يكلم الله عزوجل، أو تأتيه المعجزة معرضًا عن معجزات الله عزوجل في خلق الجسد البشريِّ مثلًا.. لا ينفع معه إلا التّبشير، والإنذار.

قانون [4]

﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [البقرة:119]، ينير هذا القانون القرآنيُ العقول ببصيرتين حسب القراءتين الواردتين في الآية:

بصيرة 1

﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [البقرة:119]، قراءة الجمهور بالنّفي، ورفع: ﴿تُسۡـَٔلُ﴾، والمعنى: لا تُسال أيها الرّسول ﷺ.. أيها المؤمن عن سبب بقاء المعاندين في ظلمات الكفر، ودخولهم النار بعد أن بَشّرْتهم، وأنذرتهم، فالتّغيير من العناد إلى السّداد والرّشاد، مسؤوليّة شخصيّة.

بصيرة 2

﴿وَلَا تَسۡـَٔلۡ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [البقرة:119]، قراءة نافع ويعقوب بالنّهي، أي: بعد أن شعرت بأنك على الحقِّ، فلا تسألْ نفسك، ولا تسأل ربّك عزوجل عن سبب إصرار المعاندين على البقاء على عنادهم، مع أنّ مصيرهم إلى الجحيم.. لا تقتل نفسك تحسُرًا وسؤالًا، بعد أن قمت بالتّبشير، والإنذار، ما داموا قد اختاروا الإصرار على العناد.

خاتمة المحور:

بصائر في التعامل مع بني إسرائيل [البقرة:120-123]

بعد هذا التّجوال في استكشاف النّفسيّة الإسرائيليّة، ذكر الله عزوجل 7 بصائر للتّعامل معهم:

بصيرة 1

﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ﴾ [البقرة:120]، لا بد من الحوار مع بني إسرائيل وَفْقَ المبادئ الإسلاميّة، لا وَفْقَ ما يريدون، ولكن كثيرًا ما تكون دعوات الحوار التي يطلقها المعاندون خادعة، فلن ترضى عنك جملة اليهود، ولا جملة النّصارى، مهما عملت معهم؛ حتى تتبع ملّتهم.

بصيرة 2

﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة:120]، في اللِّقاء مع الآخرين لا بدّ من إعلان البحث عن هدى الله عز وجل، فهو الهدى، أي: الإرشاد الحقيقيُ للعيش في هذه الحياة، وليس الهدى ما صنعه البشر بأهوائهم، وهذه البصيرة تثير المجتمعين من أهل الأديان؛ للبحث عن مدى صحّة الكلام الموجود في كتبهم.

بصيرة 3

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [البقرة:120]،

يجب عليك الحذر من اتِّباع الملّة الكلّيّة، أو الأهواء الجزئيّة..

فقد يغلب عليك الحذر من اتّباع ملّتهم، لكنك ربّما تساهلت في اتّباع بعض أهوائهم، ورغباتهم الصّغيرة والكبيرة، وتركت الرُجوع إلى العلم الإلهيّ (القرآنيّ، والنّبويّ)، فعند ذلك تنال الخسارة الدُنيويّة، والدّينيّة؛ لأنك تفقد النُصرة، والولاية الإلهيّة، أو لا تجد أحدًا منهم ينصرك، أو يواليك أمام غضب الله عز وجل عليك.

بصيرة 4

﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [البقرة:120]، تبصّرنا الآية أنّك -أيُها المؤمن-، قد تقع في خديعة المعاندين منهم باتّباع بعض أهوائهم، وأنّك باتّباع الشّريعة، والحذر من الوقوع في الخديعة، تنال الولاية، والنُصرة الإلهيّة، وإلا حُرِمت منها، ولم يوجد لك منهم وليٌ ولا نصير، يحميك من غضب الله عز وجل.

فنفى الأمرين، فالوليُ يقتضي المحبة، وقد لا يستطيع النُصرة، والنّصير يقتضي النُصرة، ولو لم يحب، فإن اتبع القرآن، اجتمع له الأمران، وإن ابتدع، انتفى عنه الأمران.

بصيرة 5

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة:121] تلاوة الكتاب المنزل من الله عز وجل، تقتضي الالتصاق الدّائم به: ترتيلًا، واتباعًا في حالتي الحرب، والسِّلم، وهو الموجّه الإداريُ الحقيقيُ في التّعامل معهم، فيتلونه تشمل القراءة المرتّلة، والاتِّباع التّطبيقيّ.

بصيرة 6

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة:121]، القرآن مصدر الهدى، وتحقيق الأرباح، والإنجازات، والمكاسب عند جعله الحاكم في التّعامل مع بني إسرائيل، ومن يكفر به بأن يستره، ويخفيه من حياته، وتعامله، إمّا بالجحود، وإمّا بالإبعاد، فهو الخاسر عمومًا، وخاصّة في التّعامل مع بني إسرائيل.

بصيرة 7

الجمع بين أسلوبي التّرغيب، والتّلطُّف في الخطاب، والتّرهيب من لقاء ربِّ الأرباب:

فالترغيب: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾ [البقرة:122]، فالفساد العريض الذي تتّسم به كثير من قياداتهم العلميّة، والسّياسيّة، لا يجعلنا ننسى التّخاطب الإسلاميّ الرّاقيّ بمناداتهم بأحبِّ الأسماء إليهم، والهدف الأسمى من هذا التّخاطب بذكر التّفضيل الإلهيّ السّابق لهم؛ ليكونوا أداة شكر، ونشر للنُّور في العالم، لا ليفسدوا في الأرض

والتّرهيب بالتّحذير من يوم القيامة، حيث لا تنفع فيه الأركان الأربعة، التي جعل الله عز وجل لها شيئًا من النّفع في الدُّنيا: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾

1 ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾: أي: لا تغني، ولو والد عن ولده، فلا ينفع النَّسب الإسرائيليُّ، ولا غيره.

2 ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾: أي: فداء.

3 ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ﴾.

4 ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:123].

شِدّة
الإجرام السِّياسيِّ، والثَّقافيِّ
لفرد، أو لمجموعة، لا تعني نسيان الخطاب
التَّذكيريّ المشفق، الذي يُظهر محبّة الخير؛ حتى
لمن يصدُّ عن الخير.

أولاً:

النَّواحي التَّربويّة التي
يثيرها الختم بهاتين
الآيتين

ثانياً:
وجود قسوة القلوب، لا
تعني عدم التَّحبُّب
إلى أهلها
بالتَّرغيب، وإظهار
القوّة والشَّفقة معًا
بالتَّرهيب.

ثالثاً:
فساد النُّخَب
القائدة للمسيرة
الإسرائيليّة في فترة
من الفترات، ممّا
هو مثبت في
القرآن، والتوراة
(التَّناخ بصفة عامّة)،
لا يعني الإعراض عن المخاطبة
المشفقة للرأي العامِّ الإسرائيليِّ.

خلاصة الأسباب الباطنة لتولِّيهم عن إقامة الميثاق المأخوذ عليهم

سبب [1] — **الأمانيُ:** ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:78]، ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة:111].

سبب [2] — **الأخذ ببعض الكتاب، وترك بعضه:** ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة:85].

سبب [3] — **اتباع الأهواء الباطلة، والرّغبات الفاسدة:** ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ﴾ [البقرة:87].

سبب [4] — **الاستكبار، وهو نزعة إبليسيّة:** ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:87]، **وهذا من أسباب تقديم ذكر قِصّة إبليس على بني إسرائيل.**

سبب [5] — **البغي:** ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [البقرة:90].

سبب [6] — **معارضة أمر الله عز وجل، والهوى في اتِّباع شرعه وأمره، بلا تسليم، وهي نزعة إبليسية حيث شرطوا تغيير جبريل عليه السلام بمَلَك آخر ليؤمنوا، وهو شرط لا علاقة له بالحقِّ، فإنّ الحقّ لا يُعرف بمن نزل به، وإنما بأدلّته وبراهينه، فدلّ ذلك على اتِّباع الهوى:** ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ...﴾ [البقرة:97].

سبب [7] — **الفسق:** ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة:99].

سبب [8] — **عدم تمنّي الخير للآخرين:** ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:105].

سبب [9] — **الحسد الشّخصيُ:** ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:109].

بعد أن عرفنا في المحور الأوّل أن نظام الحياة الحقيقيّ يتمثّل في نظام العبادة لله تعالى، وعرفنا في المحور الثّاني التّكريم الإلهيّ للبشريّة بالاستخلاف في الأرض، ثم عرفنا في المحور الثّالث تجربة الأنموذج الإسرائيليِّ في الاستخلاف في الأرض، وكيف نقضوا العهود والمواثيق، قد تسأل: فما الأنموذجَ الحقيقيُّ الذي نجح في اختبار الاستخلاف بعد فشل بني إسرائيل في ذلك؟

الجواب: هنا يأتي

المحور الرابع

إرث الأمَّة الإسلاميَّة للمِلَّة الإبراهيميَّة

[البقرة: 124-158]

المناسبة والاتصال:

أنارت المعرفة القرآنيّة العقل المسلم والعقل العالميّ بقصة بداية التاريخ البشري المقترن بالاستخلاف في الأرض.. وذكر الله عز وجل أنموذج الاستخلاف الإسرائيلي في إيجابياته وسلبياته، وكان له العلوُّ الكبير، والتّأثير الخطير في حياة البشريّة، إلا أنهم فشلوا عدة مرّات في اختبار الاستخلاف، ونقضوا الميثاق الإلهيّ، و﴿كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [البقرة: 61]، وكان من أهمِّ ما اتكأوا عليه في سياستهم العنصريّة تجاه البشريّة نسبتهم إلى إبراهيم عليه السلام، فأراد الله تعالى أن يبيِّنَ أنموذج النّجاح الحقيقيّ في الاستخلاف المتمثِّل في التّطبيق الإسلاميِّ الإبراهيميِّ؛ الذي أهّل الأمّة المسلمة تمامًا للوراثة الحقيقيّة لإبراهيم عليه السلام، لتكون أداة الخير والنُّور في البشريّة.. فالتّرتيب منطقيٌّ، رفيعٌ، شديدُ الجمال والجذب، كما ترى.

ربما تسأل: فما الهدف الرئيس لهذا المحور؟

الجواب:

الهدف الأساسيُّ من المحور:

بيان أنّ الإسلام دين كلِّ نبيٍّ، والاستسلام نظام كونيٌّ

أقسام هذا المحور:

قسم [1]: فضائل إبراهيم عليه السلام ، وتجديده للإسلام [البقرة: 124-134].

قسم [2]: الأصل الإبراهيميُّ المشترك يردُّ على الشُّبهَة العاشرة: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ...﴾ [البقرة:135-141].

قسم [3]: وسطيّة الأمّة الإسلاميّة، والشُّبهَة الحادية عشرة حول تغيير القبلة [البقرة: 142-143].

قسم [4]: إعادة القبلة إلى موضعها الأصليِّ من براهين النُّبوّة، وبداية إتمام المجد الحضاريِّ الإسلاميِّ [البقرة: 144-148].

قسم [5]: إعادة القبلة بداية إتمام المجد الحضاريِّ الإسلاميِّ [البقرة:149-150].

قسم [6]: الوسائل المعينة على تحقيق إتمام النِّعمة بعد إعادة القبلة [البقرة: 151-158].

القِسم الأول

فضائل إبراهيم عليه السلام، وتجديده للإسلام [البقرة: 124-134]

المناسبة والاتصال:

بدأ المحور بذكر فضائل إبراهيم عليه السلام، ونجاحه في اختبار الاستخلاف الأرضي، وذكر التزامه بالدِّين الذي ارتضاه الله عز وجل للإنسانيّة، وهو الإسلام، وذلك في بيانٍ لمناقضة ما استقرّ عليه الأمر في المنهج الإسرائيليِّ بعد ذلك.

فذكر الله عز وجل لإبراهيم عليه السلام أربع فضائل:

فضيلة [1]

نجاح إبراهيم عليه السلام في اختبار الاستخلاف

﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: 124]

بصيرة 1

﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: 124]: **الاستخلاف اختبارٌ حقيقيٌ بشتّى أنواع التّفاعلات الحياتيّة من الصّبر على دعوة النّاس إلى الخير، والثّبات على المبادئ أمام التّهديد، ومغادرة الأوطان، وبناء البلدان، ومفارقة الأهل والولدان، وكلُّ ذلك حدث لإبراهيم** عليه السلام.

بصيرة 2

كلمة ﴿ٱبۡتَلَىٰ﴾: تدلُّ في ذاتها على أمرين معًا: الاختبار، والثِّقَل المصاحب لهذا الاختبار، كأن من ابتُلِيَ قد وقع عليه البلاء؛ وذلك لتظهر جودة أدائه، ويستبين صدقه، وثباته في بلائه.

بصيرة 3

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾: تدلُّ على أنه أحرز الدّرجة التّامة في الاختبار، فلم يكن اصطفاؤه لجنسه، أو نسبه، بل لنجاحه الباهر، وإتقانه الظاهر.

فضيلة [2]

اختياره ليكون إمامًا تقتدي به البشريّة ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124]

يقتدون بك، وتدلُّهم على سعادتهم الأبديّة باتِّباع ملّتك

بصيرة 1

يشكر الله عز وجل الناجحين في ابتلاء الاستخلاف: فلنجاح إبراهيم عليه السلام؛ كافأه الله عز وجل ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ يقتدون بك، فتدلهم على سعادتهم الأبديّة باتِّباع ملّتك العظيمة.

بصيرة 2

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: 124]: من النّجاح أن يحبّ الإنسان الخير للعالم، ويبدأ بالأقربين، فهذا إبراهيم عليه السلام أحبّ أن يشاركه في المكافأة أقرب النّاس إليه.

بصيرة 3

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ [البقرة: 124]: بيّن الله عز وجل له قانونًا من أعظم قوانين النّجاح في الاستخلاف وهو: (الفلاح، والتّشرُّف بحيازة عهد الله عز وجل يكون بالاكتساب، لا بالانتساب).

فضيلة [3]

تعظيم مكانته بربطه بأوّل بيت وضع للناس، وربط ذلك بخصائص البيت العتيق [البقرة 125-126]، فذكر له (7) خصائص، هي:

خاصية [1]

﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: 125]، **أي: مرجعًا يثوبون إليه، أي: يتردّدون عليه؛ لمنافعهم الدِّينيّة والدُّنيويّة.**

خاصية [2]

﴿أَمۡنٗا﴾ [البقرة: 125]، **أي: مركزًا لأمنهم الحقيقيّ على مستوى العالم تدار منه شؤونهم، وتُعالج فيه مشكلاتهم.**

خاصية [3]

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗى﴾ [البقرة: 125]، **والمقام: قيل موضع قدمه، وقيل: كلُّ الحرم، حيث قام وحدّده.**

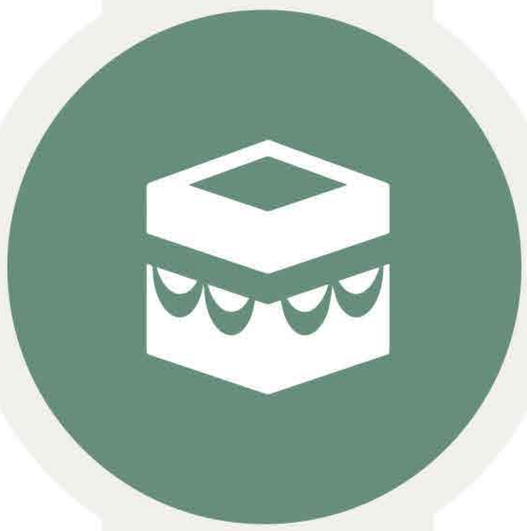

خاصية [4]

﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ [البقرة: 125]: **يطهّر من الأرجاس الحسّيّة والمعنويّة؛ ليكون أعظم مكانٍ تسكن فيه النّفس، وتؤدّى فيه العبادات المتنوّعة لراحة الجسد والعقل، والاتصال بالله عز وجل من طوافٍ، واعتكافٍ، وصلاةٍ.**

خاصية [5]

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ [البقرة: 126]: **أن يتوفّر فيه المدنيّة، والأمن العامُّ، بأن يكون بلدًا آمنًا، صالحًا للاجتماع، مهما كانت المشاكل العالميّة، فزاد على كونه بيتًا ذا أمنٍ أن يتوسّع فيكون بلدًا آمنًا.**

خاصية [6]

﴿وَٱرۡزُقۡ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة: 126]: **أن يتوفّر فيه للمؤمنين الأمن الغذائيُّ بكثرة الأرزاق؛ ليكون توفُّرها معجزًا مع أنه وادٍ غير ذي زرع.**

خاصية [7]

﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة: 126]، **الأرزاق الدُّنيويّة تعمُّ الكافر والمؤمن، لكنّ النّعيم الأخرويّ لا يكون إلا للمؤمن، فكأنه جاء السؤال بعد ذكر هذه البركات: هل معنى ذلك التّزكية المطلقة لأهله؟ فكان الجواب: البيت لا يقدِّس أحدًا، ولذا يَتمتّع بأرزاقه المسلم، كما يتمتّع الكافر الذي يلقى أسوأ عقوبة في الآخرة.**

فضيلة [4]

بناء إبراهيم عليه السلام لقبلة التّوحيد في الأرض [البقرة 127]

بصيرة 1

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: 127]: البيت وضع لمصالح البشريّة، فحُقّ لأعظم الخلق أن يتشرّفوا بمباشرة بنائه، وقد جعل الله عز وجل هذا الشّرف لإبراهيم عليه السلام، فرفع قواعده بيده، واختصّ إسماعيل عليه السلام من ذرّيّته ليعينَه.

بصيرة 2

من الإنصاف دِقّة الأوصاف عند تفاوت العمل بين المتشاركين ولو كانوا على ائتلاف، فهنا فصّل بين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بقوله: ﴿ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾؛ للإشارة إلى التّفاوت بين عمل إبراهيم وعمل إسماعيل عليهما السلام، وللإشارة إلى خاصّيّة القيادة والإمامة في الخير.

بصيرة 3

بيّن الله عز وجل أهداف رفع القواعد من البيت، وقد ظهر ذلك في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

هدف [1]

قبول الله عز وجل للصِّلة البشريّة والجهد البشريّ

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة: 127].

هدف [2]

الثّبات على الإسلام، وإعلان التوحيد ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾ [البقرة: 128]: والإسلام يتضمّن الاستسلام، والانقياد، والخضوع، وطلب السّلام في الدنيا والآخرة

هدف [3]

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ [البقرة:128] صلاح الذُرّية، وهدايتها إلى الإسلام لتنير البشريّة.

هدف [4]

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: 128] الاتّباع لا الابتداع، حيث يُري الله عز وجل عباده المناسك، وهي مواضع العبادة التي يرضاها لا التي يخترعونها.

هدف [5]

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ البقرة: 128، **التوبة: هي العودة إلى الله عز وجل، والعودة من الله عز وجل لعباده عندما تسحبهم أهواؤهم بعيدًا عن سبيله، وأجمل ما يعين على ذلك زيارة البيت العتيق.**

هدف [6]

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، **بناء البيت تهيئة لبعث رسولٍ يكون من ذرّيّة إسماعيل عليه السلام؛ لينير البشريّة كلّها بالعدل والإحسان، ويكون الامتداد الخاتم للمِلّة الإبراهيميّة.**

هدف [7]

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: 129]، **يقوم هذا الرُسول بثلاث وظائف فيها سعادة الأفراد، وتقدُم المجتمعات:**

1. **تلاوة آيات الله عز وجل التي هي كلماته المنزلة.**
2. **وتعليم معاني الكتاب والحكمة، وهي "السُنّة النّبويّة"، التي تعني تطبيقه في الواقع.**
3. **والتّزكية، التي تعني التّطهير من الرّذائل والأخطاء، وتنميتهم بالفضائل وحملهم على لزوم مسالك النُهوض والرُقيّ الحضاريّ.**

فضيلة [5]

مبادرته للإسلام، وإعلانه أنّ الإسلام هو الدِّين الحقيقيُّ، وتوصية ذرِّيّتِه بالتزامه [130-140]

بصيرة 1

دعا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام بأن يكونا مُسْلِمَين، وأن تكون ذرِّيّتهما أمّة مسلمة، وذكر اسم الإسلام في هذا الْقِسْم ستّ مرات.

بصيرة 2

تارك ملّة إبراهيم عليهما السلام سفيهٌ لئيمٌ ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: 130]، ففيه تسفيه الأمم الثّلاث المُدّعين لِملّة إبراهيم؛ لأنهم لم يرتضوا الإسلام مع أنه ملّة إبراهيم عليه السلام، والسَّفَهُ: خِفّةٌ في العقل، واضطرابٌ في التّفكير.

بصيرة 3

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: 130]: تعظيم إبراهيم عليه السلام، وتأكيد اصطفائه في الدّارين؛ بسبب إسلامه ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:131]،

فقال: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دون أن يقول أسلمت لك؛ ليكون قد أتى بالإسلام وبدليله، كما قال ابن عرفة رحمه الله. (تفسير ابن عرفة 1/421)

بصيرة 4

الإسلام وصيّة إبراهيم عليه السلام لأبنائه، ووصيّة يعقوب عليه السلام لأبنائه، وهو الذي اصطفاه الله عزوجل دينًا للخلق، وأساسه التوحيد

وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

بصيرة 5

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: 134]، هذا هو التّاريخ الحقيقيُّ الذي يبيّن بعض قصص إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ويذكر وصيّة يعقوب عليه السلام، وذلك يوضّح أن الإسلام يعني الاستسلام العمليّ، وكلُّ فرد سيحاسب على عمله، لا نسبه.

القِسم الثّاني

الإسلام دين إبراهيم عليه السلام: حوار مع الأمم الثّلاث (اليهود والنّصارى والمشركين) ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ...﴾ [البقرة135-141]

المناسبة والاتصال:

دار المحور الثالث حول التّجربة الإسرائيليّة في الاستخلاف في الجانب الإيجابيِّ والسّلبيِّ، وفي هذا المحور أعادهم الله تعالى إلى الأصل الإبراهيميِّ، فبيّنَ حقيقة اصطفاء إبراهيم عليه السلام، وحدّد المكان المركزيّ المقدّس الذي وضعه الله عزوجل للنّاس؛ ليكون مركز تحقيق المصالح البشريّة وهو البيت العتيق، ثم أوضح طبيعة الملّة الإبراهيميّة المجدِّدة للإسلام دين الأنبياء جميعًا.. هنا كان من المناسب أن يورد ما يتعصّب له اليهود والنّصارى من أنّ اليهوديّة أو النّصرانيّة هما طريق الهداية الحقيقيّة، ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾ [البقرة: 135]، فردّ عليهم بصورة حاسمة لا تبقي لهم قولًا، ولا تذر لهم تفكيرًا مضادًا، إلا أن يعاندوا ويتعصّبوا.

وقد تسأل: فما الرُّدود على دعوى اليهود والنّصارى أنهم أصحاب الهداية الحقيقيّة؟

الجواب: ردّ الله عز وجل على هذه الدعوى بـ(8) ردود، وهي كالآتي:

رد [1]

قل يا محمد: كلُّكم تدّعون أنكم تعظِّمون إبراهيم عليه السلام، فأنا على مِلّته مستقيمًا ﴿قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ﴾، وأنتم تعرفون مكان القبلة الحقيقيّ في الحجاز.. فإن زعم أهل الكتاب أن المشركين يزعمون أنهم حنفاء عندها علّمنا الله عز وجل

الجواب الواضح: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [البقرة: 135].

رد [2]

في الآية [136] الملّة الإبراهيميّة هي الجامعة المعظمة لجميع الأنبياء عليهم السلام، وتجمع ستّة أسس:

أساس [1]:

الإعلام والإعلان عن الإيمان ﴿قُولُوٓاْ﴾" بألسنتكم متواطئة عليها قلوبكم، وهذا البدء يدلُّ على أنه لا انفكاك بين الدّعوة والسّياسيّة في خطاب غير المسلمين، والسّياسيُّ المسلم يتخذ من الخطاب الدّعويّ أحد الأدوات في التّعامل مع غير المسلم.

أساس [2]:

تحقيق الإيمان بالله عز وجل ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وجعل الفعل دالًا على الجماعة؛ حثًّا على الائتلاف.

أساس [3]:

الإيمان بالمُنْزَل الأخير ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾، يشمل القرآن والسُّنّة، ودخل فيه جميع أحكام الدّين.

أساس [4]:

الإيمان بكلّ ما أنزل من قبل ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾، والأسباط: هم أبناء يعقوب عليه السلام، أو في العبارة حذف، والمعنى: أنبياء الأسباط الذين هم قبائل بني إسرائيل التي ترجع إلى أبنائه، كما قال تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾ [الأعراف: 160].

أساس [5]:

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾: إنها علامة التّميُّز الإسلامي، التي تدلُّ على أنّه الحقُّ الكامل.. لماذا نفرّق بينهم، وكلّهم مرسل من ربّه عز وجل؟ فالأنبياء مبلِّغون عن الله عز وجل، ليس لهم من الأمر شيء.

أساس [6]:

﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: 136]: المسلمون اسم أتباع كلّ الأنبياء عليهم السلام، وجعل القول مقترنًا بالعمل؛ لأن المسلم خاضع، وقدّم ﴿لَهُۥ﴾؛ ليدلّ على الإخلاص.

رد [3]

أنتم أصل الحقيقة، ومركز الصواب، فيُحاكم إليكم، ويُقارن بكم غيركم ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 137] خطاب الاعتزاز الواثق بصحّة المنهج المتبع، والقِيَم المسلوكة. والمُشاقُّ: هو الذي يكون في شقٍّ، والله ورسوله في شقٍّ، ويلزم من ذلك المخالفة والعداوة البليغة، وبيّنَ الله عز وجل للحكّام ولعامّة المسلمين أنه سيكفيهم قوى الشّرّ وهو ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لكلامهم، ومؤامراتهم، ومكرهم، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بخططهم، واجتماعاتهم، وترسانتهم الإعلاميّة، والعسكريّة، والفكريّة.

رد [4]

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾: الإسلام صبغة الله عز وجل لصلاح الكون، فلا يجمل الكون إلا بهذا اللّون، أي: الزموا صبغة الله عز وجل؛ لتحرزوا مجد الدُّنيا والآخرة، ، و(الصِّبغة): الصِّبْغُ الْمُعَيَّنُ الْمُحَضَر لِأَنْ يُصْبَغَ بِهِ، وهذا يقتضي الاعتزاز بهذه الصِّبغة الإلهيّة المميّزة، وردِّدوا بقلوبكم وألسنتكم وأفعالكم: نعتزُّ بعبادته لا بعبادة غيره، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة:138]، والآية ردٌّ على تعميد اليهود والنّصارى اتباعهم بصبغهم وغسلهم في أوقات محدّدة.

رد [5]

فإن أنكروا الاسم العظيم ﴿الله﴾، وزعموا أن ملّتهم اليهوديّة أو النّصرانيّة لا تعرفانه، فأجبهم وقل لهم: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ إله الكون الذي تزعمون له من الصِّفات مالا يليق ثم تدّعون الاختِصَاصَ بالقرب منه، وأَنّكُم أبناؤه وَأَحِبّاؤُهُ.. وبنيتم على هذا أنّ الملّة الهادية هي ملّة كلٍّ منكم، فمن أين جاءكم هذا القرب والاختصاص بِاللهِ عز وجل دُونَنَا ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ وَرَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَنِسبَةُ الْجَمِيعِ إليه واحدة: هُوَ الْخَالِقُ وَهُمُ الْمَخْلُوقُونَ، والتّفاضل بالأعمال والاكتساب لا بالانتساب، ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: 139]، فالله ربُّ العالمين مهما سمّيتموه، فهو ربُّنا وربُّكم، ولكلٍّ منّا عمله حسب ديانته التي يظنُّها حقًّا، ونحن له مخلصون.

رد [6]

الرّدُ التاريخي، عليهم ببيان كذبهم أمام الرأي العامّ على إبراهيم عليه السلام وبنيه بنسبتهم إلى المِلّتَين ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ ففضحهم بسؤالهم متهكّمًا بهم، مبيّنًا غباءهم: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 140] أي: مَنْ أخبركم بذلك؟ لا يمكن أن تعلموا ذلك إلا بالوحي من الله عز وجل، فهو الذي أوحى إلى إبراهيم عليه السلام وبنيه قبل اليهوديّة والنّصرانيّة فكيف تتّبعون ما ابتدعتم؟!

رد [7]

لماذا كتمتم الشّهادة على الناس بحقيقة ملّة إبراهيم، وبالبشارة بمحمّد ﷺ! ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 140]، والمعنى: لا يوجد أظلم عند الله ممّن كتم شهادة عنده بَلَغَتْهُ من جانب الله عز وجل على لسان رسله عليهم السلام.

رد [8]

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 141]، فالانتساب لا يغني عن الاكتساب، فأكّد على قاعدة بناء السّعَادَةِ عَلَى الْعَمَلِ، لا على النّسب، وفيه ردٌ على الأمم الثلاث (اليهود، والنّصارى، والمشركين) ومن تبعهم من أمّة محمّد ﷺ في تقديس النّاس بأنسابهم.

القِسم الثّالث

وسطيّة الأمّة الإسلاميّة والشُّبهَة الحادية عشرة حول تغيير القبلة [البقرة: 142-143]

المناسبة والاتصال:

فنّد الله عز وجل الادّعاء الكاذب لليهود والنّصارى بأن الهداية لا تتمُّ إلا باتّباع اليهوديّة والنّصرانيّة، ووجدوا أنفسهم في موقفٍ محرج للوضوح التّامّ في طبيعة الملّة الإبراهيميّة الإسلاميّة، وهنا يخبر الله عز وجل نبيّه ﷺ بمعجزةٍ غيبيّة جديدة هي: عدم استسلام القوى المتعصّبة من الطّوائف الثّلاث للإقناع العقليّ السّابق؛ ولذا سيلجؤون إلى محاولة الطّعن في تحوُّلٍ من أهمّ التّحوُّلات في التّاريخ الإسلاميّ، وهو القبلة بعد وصول النّبيّ ﷺ المدينة، فقال: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾ [البقرة: 142]، فالقائلون هم المتعصّبون من الأمم الثّلاث (اليهود، والنّصارى، والمشركين).

رد [1]

الإخبار المستقبليُّ عن خَلَجات نفوسهم، وخفايا قلوبهم، فقال الله عز وجل عنهم ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، فلم يقل كما في الشُّبهَة العاشرة أو ما سبقها: وقالوا، بل قال: سيقول، والأصل حمل الكلام على ظاهره، وذلك أقوى في إلجامهم، وفضح نزواتهم، وإن قال كثيرٌ من المفسرين بأن المراد الماضي، ولكن صيغة الآية وترتيبها في آيات القبلة يدلُّ على أن المراد الإخبار المستقبليُّ.

رد [2]

تسمية المعترض بالسّفيه، وهو الضّعيف العقل، فهل يَعْقِلُ مَنْ يَرُدُّ ما يحكم به ربُّه عز وجل؟ ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وهو الذي حدّد لإبراهيم عليه السلام أن يرفع البيت في هذا المكان مجدِّدًا بناءه، والقائل هم كلُّ من سيصدر عنه هذا القول من اليهود، والنّصارى، والمشركين.

رد [3]

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ فالعبادة لربِّ الجهات لا للجهات، فهو الذي يحدِّد الأماكن التي تُعَظَّمُ فيها شعائره.

رد [4]

﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [البقرة: 142] يهدي الله عز وجل مَنْ لا يعترض على حكمه إلى صراط مستقيم لا عوج فيه، فهدى الله عز وجل المسلمين إلى قبلة إبراهيم عليه السلام.

رد [5]

القبلة تبيِّن وسطيّة الأمّة الإسلاميّة التّكليفيّة التّشريفيّة المكانيّة [البقرة: 143]:

1

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: 143] فكما أنّ الكعبة وسط الأرض فهديناكم لها تجديدًا لقبلة الأنبياء عليهم السلام، فكذلك فضّلناكم بجعلكم أمّة وسطًا بالتّوجه إلى الكعبة، جعل الله عز وجل أمّة الإسلام أمّة وسطًا: مكانًا وفعلًا، فهم عدولٌ أخيارٌ، ومن أسباب اختيار لفظ (الوسط) على لفظ (الخيار)؛ أنّ المسلمين وَسَطٌ بين الغُلاة والجُفاة.

2

سبب الوسطيّة ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، فالشّاهد يكون عَارِفًا، وَمَنْ كَانَ مُتَوَسِّطًا بَيْنَ شَيْئَيْنِ فَإِنَّهُ يَرَى أَحَدَهُمَا مِنْ جَانِبٍ وَثَانِيَهُمَا مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ، وهذا يقتضي القيام بتحمُّل تبعات الوسطيّة، والرّسول الخاتم أعظم الخلق مقامًا، وأكملهم وسطيّة فهو الشّهيد على الشُّهود: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة:143].

رد [6]

من أسباب تغيير القبلة التحقُّق بالوسطيّة، والنّجاح في اختبار الاتِّباع والعبوديّة (وليس لاستمالة أهل الكتاب، ومشركي العرب)

بعد تغيُّر الحكم:

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾ [البقرة:143]، **أي: ما جعلنا القبلة التي كنت عليها وهي بيت المقدس، أو التي صرت إليها وهي الكعبة، إلّا لنعلم علمَ إظهارٍ واقعيّ يوجب الجزاء: مَنْ يتبع الرُّسول، ومن يتردّد في اتِّباعه فيكون ممّن انقلب على عقبيه، فالتّغيير الإلهيُّ للحكم كالتّغيير في الأنبياء عليهم السلام، يجعله السُّفهاء اضطرابًا وتناقضًا وشبهة، وليس التّغيير الإلهيُّ في الحكم مسألة كبيرة عند المهتدين** ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة:143]؛ **لأنّهم يسلِّمون لله عز وجل في أحكامه، ومثال ذلك تحريم إسرائيل عليه السلام على نفسه بعض الأطعمة بعد أن كانت حلالًا.**

قبل تغيُّر الحكم:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ [البقرة:143]، **فتغيُّر الحكم لا يعني إهدار الجهود التي بذلها المهتدون في اتِّباع أمر الله عزوجل، فالله عزوجل لن يضيع إيمانهم، حيث نزلت هذه الآية فيمن صلّى إلى القبلة الأولى، وهي بلفظها تشمل المتّبعين بعد تغيُّر الحكم، وعظم أجرهم.**

رد [7]

أحكام الشّريعة تحقِّق الرّأفة التّامّة، والرّحمة العامّة بالبشريّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:143]، **فالرّأفة هي أعظم الرّحمة في دفع الألم، والرّحمة أعمُّ، فتشمل الإحسان وجلب النِّعم، ومن هذه الأحكام الشّرعية: تغيُّر القبلة، واتِّصاف الأمّة بالوسطيّة التي لا تظهر علامتها إلا في التّبعية للأحكام الشّرعيّة، وبذل الجهود، وتحقيق المنجزات، من خلال الأعمال الصّالحة التي يقوم بها النّاس.**

القِسم الرّابع

إعادة القبلة إلى موضعها الأصليّ من براهين النُبوّة

[البقرة: 144-148]

المناسبة والاتصال:

بيّن الله عز وجل في القِسم الثالث وراثة الأمّة الإسلاميّة للملّة الإبراهيميّة، وتجديدها للدّين الذي دعا إليه إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، وإسرائيل، والأسباط عليهم السلام، وهو الإسلام، وأنها الأمّة الوسط مكانًا وحالًا بين الغلاة والجفاة، وهنا بيّن هذه الوسطيّة من النّاحية الحسّيّة بتوجيه المسلمين إلى القبلة الأصليّة التي جعلها الله عز وجل قيامًا للنّاس؛ لتكون بداية إتمام المجد الحضاريّ للأمّة المسلمة.

ويندرج تحت هذا القِسم (13) بصيرة:

بصيرة 1

﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ [البقرة: 144]: نظرُ النبيّ ﷺ في السماء يدلُّ على تفكيره في أصل القبلة في الملّة الإبراهيميّة، وأُمِرَ النّبيُّ ﷺ بالتّوجُه إلى بيت المقدس من قبل بصورةٍ مؤقّتة للاختبار.

بصيرة 2

إجابة الشّوق المحمديّ بالغيث الإلهيّ ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ﴾ [البقرة: 144]، لقد أعيدت القبلة إلى موضعها الأصليّ، ومحبّة النّبيّ ﷺ لذلك الموضع من التّوفيق الإلهيّ له مع طاعته ربّه عز وجل في التّوجُه إلى بيت المقدس من قبل دون تردُّد أو مراجعة، كما وُجِد عند أصحاب البقرة.

بصيرة 3

توجد معرفةٌ كتابيّةٌ سابقةٌ بالقبلة الأصليّة، فرجوع القبلة إلى الكعبة قضيّةٌ يعرفها أهل الكتاب، وتدلُّ على صدق نبوّة الرّسول ﷺ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ﴾ [البقرة: 144].

بصيرة 4

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: 144]: تظلُّ الأمم الثّلاث (أهل الكتاب والمشركون) تحت الرّقابة الإلهيّة على الأعمال التي يقومون بها، والقراءة بالياء ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وعاصم ورويس وخلف العاشر. إشارة إلى أهل الكتاب، وقرأ الباقون بالتاء ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ أي: هو رقيب على أعمالكم أيضًا، فانظروا ولا تزكُّوا أنفسكم كما فعل أهل الكتاب.

بصيرة 5

﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ﴾ [البقرة: 145]: تحوُّل القبلة آية جديدة لأهل الكتاب على نبوّتك، لكن المتعصبين منهم سيبقون على الجحود لكلِّ آيةٍ تُظهر صدق نبوّتك، مهما ظننت أنك يمكن أن تقنعهم، فإنهم لن يتّبعوك ولو أتيتهم بجميع الآيات.

بصيرة 6

﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾ [البقرة: 145] ستظلون أممًا ثلاثًا يصرُّ كلٌّ منكم على ما يعتقده حقًّا، وتظلُّ تلك الأمم الثّلاث (اليهود والنّصارى والمسلمون) متفاعلة فيما بينها.

بصيرة 7

﴿وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ﴾ على الرّغم من اجتماع أهل الكتاب عليكم فإنهم سيظلُّون متربِّصين ببعضهم.

بصيرة 8

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 145]، لا تضيِّع وقتك، وتفني طاقتك في إقناعهم، واحذر من اتِّباع شيء من الأهواء الكتابيّة المنافية للمبادئ التي جاء بها العِلم القرآنيُّ؛

فإنه يترتَّب على اتِّباع أهوائهم أن تكون مشاركًا في إيقاع الظُّلم المحليِّ والعالميِّ، وهذا يعني الاعتزاز بالعلم الحقيقيِّ، والمعلومات التّاريخيّة، والعقيديّة الصّادقة، ممّا تميّز به المسلمون، مع التّحذير من الاختراق في العلاقات السِّياسية والثّقافية مع أهل الكتاب، وجعل التّحذير موجّهًا إلى القيادة النّبويّة؛ لرفع مستوى الحذر عند المسلمين.

بصيرة 9

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 146] **المعرفة الكتابيّة بالحقِّ الإسلامي مؤكّدة، فيعرف الحقائقَ المذكورة ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أي: علماؤهم الرّاسخون، ولكن الفريق المسيطر هو الفريق الكاتم المعاند.**

بصيرة 10

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [البقرة: 147] **هذه حقيقة عامّة، فترك العلماء للحقِّ لا يعني الشّك والتّردُّد فيه، أو الخوض فيه بكثرة الجدال الذي لا ينتج شيئًا.. فأعظم مصادر الحقِّ هو المصدر الإلهيُّ، ثِقْ بالحقِّ الذي جاءك.**

بصيرة 11

ترشيد التّعامل مع الخلاف ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾ [البقرة: 148]: الاختلاف باقٍ بين الأمم الثّلاث (اليهود، والنّصارى، والمسلمين)، فليبق كلُّ واحد على اختياره -إن شاء- في القبلة التي ولّى وجهه إليها، وهذا على قراءة الجمهور ﴿مُوَلِّيهَا﴾، وتبصّرنا قراءة ابن عامر رحمه الله ﴿مُوَلَّاهَا﴾ بمعنيين:

الأوّل: قدريٌّ	والثّاني: شرعيٌّ
أي: الله عزوجل قدّر وجود هذا الاختلاف.	أي: لكلِّ أمّة وِجْهَة يرشدها إليها علماؤها، وهم مأجورون على إرشاد العامّة إلى الحقِّ، وآثمون مدانون على إبعادهم عنه.

بصيرة 12

اجعلوا الخلاف سببًا للتّنافس الشّريف، لا للتخريب، والقتل، والتّخويف، ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾: وجودُ الاختلاف بينكم لا يعني الانشغالَ بإقناع المخالف، أو قتاله، بل يعني استباق الخيرات التي تنمي الحياة، وتصلح المجتمعات حتى يتمّ الحكم في يوم الفصل.

بصيرة 13

مبدأ التّهديد بالحشر يوم الوعيد ﴿أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: 148]، أيُّها المسلمون والكتابيُّون: عدم إفشاء الحقائق الكبرى للعالم عن الدِّين الحقِّ تلاعبٌ بمصائر الأمم، فلا تظنُّوا أنّ الله عاجز -حاشاه جلّ في علاه- عن جمعكم يوم الجزاء الأكبر، فقدرته مطلقة.

القِسم الخامس

إعادة القبلة بداية إتمام المجد الحضاريِّ الإسلاميِّ

[البقرة: 149-150]

أُمِر النّبيُّ ﷺ مجدّدًا بالتّوجُه إلى القبلة؛ لأن ذلك التّوجُه علامة على تحقيق خمسة إنجازات على المستوى العالميّ:

إنجاز [1]

اقتران الحضارة الإسلاميّة بالحقِّ

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة:149]، **والآية تدلُّ على وجوب الثّبات على قبلة الإسلام ولو في السّفر.**

إنجاز [2]

إقامة الحجّة على الناس

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: 150]، **فالتّوجُه إلى القبلة؛ لأنها إرث إبراهيم عليه السلام، وليعلم المتأخّرون أن الكعبة مركز للمعمورة.**

إنجاز [3]

كشفُ الظالمين الذين يفسدون في الأرض

والاستعداد للتّعامل معهم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ [البقرة: 150]، **فالمنصف منهم يوافقكم دينًا أو رأيًا، وأمّا الظالمون فيكابرون ويحاربونكم، ولا يتبعون الحجج العلميّة، بل يعمدون إلى إرهاب النّاس بالقوّة، فلا تخشوهم واخشوا الله عز وجل.**

إنجاز [4]

﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: 150]

بدء مرحلة إتمام النِّعمة ببناء مجدكم الحضاريّ الدُّنيويّ، فاستقبال الكعبة خطوة متقدّمة لتحرير مكّة من الاحتلال الوثنيّ، ومن تمام النِّعمة المجد الأخرويُّ بدخول الجنّة، والنّجاة من النار.

إنجاز [5]

﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: 150]

الاتجاه الحسّيُّ في القبلة من أسباب الهداية القلبيّة والعقليّة.

القِسم السادس

الوسائل المعينة على تحقيق إتمام النِّعمة بعد إعادة القبلة

[البقرة151-158]

تضمّن هذا القِسم (10) وسائل، وهي:

وسيلة [1] القيام الفعّال بالوظائف الرِّساليّة الأربع

فإتمام النِّعمة مرتبطٌ بها؛ إذ هي أصل النِّعمة، وينبثق عن التّركيز عليها إعلاءُ المجد الإسلاميّ الدِّينيّ والحضاريّ، والوظائف الأربع هي:

وظيفة [1]

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾

الوظيفة اللّفظيّة التّلقينيّة، فيتمُّ المحافظة على الهُويّة الإسلاميّة بتلاوة القرآن، وتستجلب خيرات الدُّنيا والآخرة، ولا يتعرّض للتّحريف بسبب التّلاوة الدّائمة.

وظيفة [2]

﴿وَيُزَكِّيكُمۡ﴾

الوظيفة النّفسيّة العقلية القلبيّة بالتّطهير من الأدران، والتّنمية بالصّالحات، والإحسان.

وظيفة [4]

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾

الوظيفة العقليّة التّعليميّة، والحكمة: السُّنّة، و"التّعاليم المانعة من الوقوع في الخطأ والفساد".

وظيفة [4]

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة: 151]

من الشُّؤون المحليّة والعالميّة، المرتبطة بالاستكشافات التّطويريّة للحياة.

وسيلة [2] الذِّكْر ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: 152]

إنه إعلان اللِّسان بالمحبّة المنغرسة لله عز وجل في نواحي الجَنان (القلب).

وسيلة [3] الشُكر ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: 152]

والشُكر يقيِّد من النِّعمة الموجود، ويجلب من النُصرة المفقود.

وسيلة [4] الصّبر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾

فهو معيار الدّيمومة والبناء في الأعمال؛ ولذا ذكره في سبعين آية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 153].

وسيلة [5] الصّلاة ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 153]

تتضاءل الدُنيا وأهوالها بالصّلاة، ويكبر بالمناجاة الأنس باللهِ عز وجل، وقرن الصّبر بالصّلاة؛ لأن الصّلاة سعادة الدُنيا، وأساس نجاح الآخرة، ولأنّ أوّل التّدرُّب على الصّبر يكون في الصّلاة، فلا يجد حلاوتها إلا الصّابر على إقامتها.

وسيلة [6] ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ﴾ [البقرة: 154]

حماية اللغة الإعلاميّة من التّلاعب المدمِّر للمعاني والنُفوس، فنهى عن وصف الحقائق بخطاب إعلاميٍّ خاطئ.

وسيلة [7] الثّبات والتّضحية في سبيل المبادئ

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: 154]، **فذكر أعظم العبادات مشقّة، ممّا يستحقُّ الصّبر في بدايته، وأثنائه، وعند ظهور نتائجه، وهو الجهاد في سبيل الله عز وجل.**

وسيلة [8] الإدراك الواعي لاقتضاء طريق إتمام النِّعمة أنواعًا من الشّدائد واللّأْواء(ضيق المعيشة)

فلمّا ذكر إتمام النِّعمة بيّن بعدها أنها لا تأتي على فرش من حرير، بل لا بدّ من الابتلاء ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: 155]، وهذه الأنواع العامة هي:

- نوع [1]: الخوف (فقدان الأمن العامِّ).
- نوع [2]: الجوع (فقدان الأمن الغذائيِّ).
- نوع [3]: ذهاب المكتسبات والمنجزات والقوّة العدديّة (نقص الأموال، والأنفس، والثّمرات).

وسيلة [9] إدراك طبيعة الطّريق يقتضي الصّبر عليه

وتحمُّل تبعاته، وتواطؤ لسان الحال والمقال عليه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: 156]:

بالصّبر: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

أي: الصّابرين صبرًا إيجابيًا، يطبّق صاحبه أمر الله عز وجل، ويتحمّل التّبعات، فيكون صابرًا، ثم تَرْسَخُ مَلَكة الصّبر عنده حتى يكون صبّارًا، وصبورًا، ولا تواجه الشّدائد بالصّبر السّلبيِّ الذي يخضع لضغوط المعتدين، ويتهرّب من تطبيق أمر الله عز وجل، فالصّابرون يستحقُّون التّبشير على لسان الرّسول ﷺ؛ تكريمًا لشأنه، وزيادة في تعلُّق المؤمنين به، ولأنه المثل الأعلى في الصّبر.

بتوافق لسان الحال والمقال على الصّبر:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: 156].

فختم هذه الوسيلة بتعريف الصّابرين، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: 156]

بصيرة 1

المصيبة مأخوذة من الصّواب والإصابة، فهي تنزل على المؤمن ابتلاء وتكفيرًا ورفعة، وتنزل على الكافر تنبيهًا وعقوبة معجّلة لا تمنع العقوبة المؤجلة.

بصيرة 2

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ معناها كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله: أنت لله عبدٌ وإليه راجع، فمن علم أنه لله عبدٌ، وأنه إليه راجع، فليعلم أنه موقوفٌ، ومن علم أنه موقوف، فليعلم أنه مسؤول، ومن علم أنه مسؤولٌ، فليُعِدّ للسُّؤال جواباً. (ينظر: لطائف المعارف ص: 102)، ويضاف له: إنا لله عبيدٌ، وإنا إليه راجعون، فمجازون على صبرنا أمام البلاء إن صبرنا.

وقد تسأل: فما جزاء الصّابرين الذين صبروا صبرًا إيجابيًا، فما جزعوا ولا سخطوا؟

الجواب: للصّابرين ثلاث مكافآت:

[1]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة: 157]

وصلوات الله يعني: ثناؤه الحَسَن عليهم، ثناء يجعل المخلوقات تستغفر لهم، وتدعو لهم.

[2]

﴿وَرَحۡمَةٞۖ﴾

والرّحمة تعني جلب الخيرات لهم، ودفع المضرّات عنهم بناء على صبرهم.

[3]

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: 157]

والمهتدون أي: الذين رسخوا في طريق الصّواب، وساروا عليه، والاهتداء يقتضي الفلاح كما في الآية الخامسة من هذه السُّورة المباركة، فالاهتداء يعني تحقُّقَ التّمكين لهم في الدُّنيا، والسّعادة في الأخرى.

وسيلة [10] استمداد الثّبات والصّبر على شدائد البلاء من ذكرى هاجر عليها السلام:

بصيرة 1

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 158] من شعائر الله: أي أنّ الله عز وجل جعلهما علامتين على عبادة عظيمة، تذكّركم بأنموذج هاجر عليها السلام، التي قالت عن الله عز وجل: "إذن لا يضيعنا"، وبيّن معه معنى الصّبر الإيجابيّ، الذي يقترن بفعل الخير الشرعيّ حسب الاستطاعة.

بصيرة 2

التعبير بِنَفْيِ الْجُنَاحِ الّذي يَصْدُقُ بِالْمُبَاحِ ﴿فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ [البقرة: 158]، وهنا إِشَارَةٌ إِلَى تَخْطِئَةِ المُشرِكين الذين كانوا ينكرون كَوْنَ الصّفَا والمروة مِنَ الشّعَائِرِ، ولرفع الحرج عن المسلمين من الأنصار الذين كانوا يهلّون عندهما لمناة الطّاغية، وقيّد السّعي بالحج والعمرة، فلا يجوز مُفردًا.

بصيرة 3

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: 158] مَنْ فعل خيرًا لنفسه أو للإنسانيّة مِنْ حجٍ وعمرة، وفعلٍ للخيرات، فإنّ الله عز وجل ﴿شَاكِرٌ﴾ يعطي الكثير الجزيل على اليسير القليل، وهو ﴿عَلِيمٌ﴾ بالطّاعة، وما فيها من إخلاص ومتابعة وإتقان، وقيّد التطوع بالخير؛ ليخرج من تطوّع بالبدع: أصلًا أو صفة.

بصيرة 4

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: 158]: جعل هذه الجملة بعد الكلام على السّعي؛ إعلاماً للنّاس بإعلاء شأن هاجر عليها السلام، بتذكُّرها في السّعي؛ لأنها فعلت ذلك الخير، وكذلك يشكر الله عز وجل من يقوم بأيِّ خير.

المحور الخامس

أعظم الحقائق الكونيَّة التي يجب تبيينها للعالم، وامتنع أهل الكتاب عن تبيينها بالصُّورَة المطلوبة: حقيقة التوحيد المقترنة بالرَّحمة، وموانع اعتناقها

[البقرة 159-171]

بعد أن عرفنا في المحور الأوّل أن نظام الحياة الحقيقيّ يتمثّل في نظام العبادة لله تعالى، وعرفنا في المحور الثّاني التّكريم الإلهيّ للبشريّة بالاستخلاف في الأرض، ثم عرفنا في المحور الثّالث تجربة الأنموذج الإسرائيليّ في الاستخلاف في الأرض، وكيف نقضوا العهود والمواثيق، وعرفنا في المحور الرّابع إرث الأمّة الإسلاميّة للمِلّة الإبراهيميّة، وكيف نجحوا في اختبار الاستخلاف، قد تسأل: ما أعظم الحقائق التي امتنع أهل الكتاب عن تبيينها بالصُورَة المطلوبة، ووجب على الأمّة الوارثة للملّة الإبراهيميّة بيانها؟

الجواب: هنا يأتي

المحور الخامس

أعظم الحقائق الكونيَّة التي يجب تبيينها للعالم، وامتنع أهل الكتاب عن تبيينها بالصُّورَة المطلوبة: حقيقة التوحيد المقترنة بالرَّحمة، وموانع اعتناقها

[البقرة 159-171]

المناسبة والاتصال:

الصِّلة بين المحور الرّابع والخامس واضحة، فقد ذكر الله عز وجل في المحور الخامس أعظم الحقائق التي يجب بيانها على الأمّة الوارثة للملّة الإبراهيميّة؛ لأن الأمّتين السّابقتين أخفقتا في توضيحها للعالم، وبيّنَ الله عز وجل أنّ أهل الكتاب يعرفون ذلك حقّ المعرفة ولكنهم يكتمونه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: 159]، فأعاد التّذكير بأعظم الحقائق الكونيّة التي يجب على الأمّة الخاتمة أن تبيّنَها على المستوى العالميّ، وهي حقيقة وحدانية الألوهيّة لله عز وجل المقترنة بالرّحمة للبشريّة، ويجيب عن السُؤال الذي يضع نفسه: لماذا لا يتّبع أهل الكتاب الحقّ الذين يعرفونه؟ هنا يكشف الله عز وجل الموانع التي يمكن أن تحول بين الإنسان وبين اتّباع الحقائق لتعلم البشريّة كيفية التّعامل معها

هناك خمسة موانع تمنع النّاس من اعتناق حقيقة التّوحيد وإظهارها:

مانع [1]

كتمان القيادات العلميّة الفاسدة للبيِّنات والهدى [البقرة: 159-162]، وبعد أن بيّن هذا المانع الخطير شرع في التّذكير بأعظم حقائق الكون، وهي حقيقة التّوحيد والرّحمة وبعض براهينهما الواضحة [البقرة: 163-164]، وذلك لأنّها الحقيقة التي يجب أن يجتمع على بيانها أهل الكتب الثّلاثة.

مانع [2]

اتِّباع القيادات الإداريّة الفاسدة وسيطرة المصالح الزّائفة [البقرة: 165-167].

مانع [3]

الخوف المعيشيُ، مما يجعل المرء يأكل الحرام الخبيث، ويضحِّي بالمبادئ [البقرة: 168].

مانع [4]

اتباع الخطوات الشّيطانيّة [البقرة: 168-169].

مانع [5]

التّبعيّة المتعصِّبة للتّقاليد والآباء [البقرة: 170-171].

مانع [1]

كتمان القيادات العلميّة الفاسدة للبيِّنات والهدى [البقرة: 159-162]، وبعد أن بيّن هذا المانع الخطير شرع في التّذكير بأعظم حقائق الكون، وهي حقيقة التّوحيد والرّحمة وبعض براهينهما الواضحة [البقرة: 163-164]، وذلك لأنّها الحقيقة التي يجب أن يجتمع على بيانها أهل الكتب الثّلاثة.

بصيرة 1

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [البقرة: 159]،

ارتكبت هذه القيادات العلميّة الفاسدة جريمة الكتمان للبيِّنات والهدى:

فالبينات هي الآيات الواضحات المنصوص عليها، كحقيقة التّوحيد، والمعرفة بالنّبيِّ ﷺ.

والهدى هو المستنبط من المنصوص من كلِّ ما يدلُّ العباد إلى الأرشد في حياتهم، كالحدود الاقتصاديّة، والقضائيّة والإداريّة.

ويفيد العطف أنّ البيِّنات يجب أن تكون هدى، فيخرج من ذلك ما يمنع من ذكره للبعض، كتحديث الظّالم بمسائل يستغلُّها في غير موضعها.

بصيرة 2

النّاس محور الخطاب، ومركز الاهتمام، فيجب الوصول إليهم قبل التّضليل عليهم ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [البقرة: 159]، فـ ﴿لِلنَّاسِ﴾ اللام للتّعليل، أي: بيّنّاه في الكتاب لأجل النّاس، أي: أردنا إعلانه وإشاعته، وفي هذا زيادة تشنيع عليهم فكتموا الحقّ، واعتدوا على مستحقِّه، ففعلهم هذا تضليل وظلم.

بصيرة 3

قسّم الله عز وجل النّاس بالنسبة لجريمة كتمان الحقائق إلى ثلاثة أقسام:

قسم [1]

الكاتمون من القيادات العلميّة والإداريّة الفاسدة، فذكر عقوبتهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾، فتقع عليهم اللّعنة من جميع الخليقة؛ لأنهم غشُّوا العالم كلّه، وأبعدوهم عن رحمة الله عز وجل التي تُصلح لهم الحياتين: الأولى والأخرى.

فهل هذا يعني عدم التوبة عليهم؟ هنا يأتي القِسم الثّاني:

قسم [2]

التّائبون من الكاتمين ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ [البقرة: 160]، فيتوب الله عز وجل عليهم بثلاثة شروط:

شرط [1]

﴿تَابُواْ﴾: التوبة بأن يترك الذّنب على أجمل الوجوه، وهو بأن يقول: أذنبت وأسأت، وقد أقلعت.

شرط [2]

ولا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن؛ لذا قال: ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾، الإصلاح بأن أزالوا الفساد العلميّ والعمليّ الذي سبّبوه.

شرط [3]

﴿وَبَيَّنُواْ﴾ التّبيين لما كتموه، وعندها يجدون النتيجة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [البقرة: 160].

قسم [3]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [البقرة: 161]، ذكر هنا الكافر الذي يغطّي الحقائق، سواء أكان من القيادات العلميّة الكاتمة الفاسدة، أم كان من المقلِّدين لهم.. ويبقى على ذلك حتى موته دون توبة.

بصيرة 4

﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 160]: تشويق الجميع للتّوبة إلى الله عز وجل بتحبُّبه، وتحبيبه إليهم، فعلى الرّغم من جريمة كتمان الحقائق فإنه وصف نفسه بصفتين عظيمتين:

﴿ٱلتَّوَّابُ﴾

أي كثير التّوبة، ممّا يدلُّ على كثرة معاصيهم، وكثرة رجوعهم، وعدم رَدِّه لهم في كلِّ مرّة، فهم يتوبون، أي: يرجعون فيجدونه توّابًا عليهم، رجّاعًا غير معرض عنهم

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾

بهم بعد انصرافهم، ثمّ عودتهم فَيَحْبُوهُم ويعطيهم.

بصيرة 5

هناك أربع عقوبات للكافر الذي مات على تغطيته للحقائق، سواء أكان من القيادات أم كان من المقلّدين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: 161- 162]:

عقوبة [1]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾ لعنة الله تجمع الطّرد من رحمته، والبغض لهم، ولعنة الملائكة والناس قولهم: لعنه الله، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: 18]، ويدخل في اللّاعنين الكفار، فيلعن بعضهم بعضًا، حيث تتقطّع العلاقات، وتزداد الحسرات.

عقوبة [2]

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [البقرة: 162] أي: في اللّعنة، وما تقتضيه من الخلود في جهنم، حيث لا تدركهم رحمة الله عز وجل.

عقوبة [3]

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ [البقرة: 162]، مع كونهم في العذاب جاءت هذه الآية لتؤكّد استمرار العذاب الأليم دون تخفيف.

عقوبة [4]

﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: 162] من الإنظار، أي: الإمهال؛ ليَعْتَذِرُوا، أو يتوبوا، أو من النّظَر، أي: لا يُنظَرُ إليهم نظر رحمة.

بصيرة 6

الكتمان للبيِّنات والهدى يكون بأربعة أمور:

1. بإلغاء التّبليغ العامّ، وهذا يعني الإخفاء ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۚ﴾ [الأنعام: 91].
2. بإلغاء الحفظ والتّعليم ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: 187].
3. بالتبديل ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ [البقرة: 59]
4. بالتحريف؛ ليكون بعيدًا عن المراد الإلهيّ ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النِّساء: 46]، فالتبديل تغيير أصل الكلمة، والتحريف تغيير المراد من معناها.

بصيرة 7

الكفر تغطية للحقائق، وأعظم الإجرام والظُّلم أن يغطّي الإنسان حقيقة وجوده في هذه الحياة، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: 254].

بصيرة 8

سبب تقديم المانع الأول على حقيقة التّوحيد والرّحمة:

1. أنّ الله عز وجل ذكر في الآية (146) وما قبلها معرفة أهل الكتاب بحقيقة التّوحيد والرِّسالة كما يعرفون أبناءهم، فبيّنَ هنا جريمتهم متّصلة بذلك.
2. وأنّ جريمة الكتمان من العلماء والأحبار هي أمُّ الجرائم الأخرى، فالممتنعون من الحقِّ بسببها هم الأكثر عددًا؛ لشِدّة الشُّبهة التي يضعها الأحبار والعلماء أمامهم، مما يمنعهم من اتِّباع الحقِّ المبين.

أعظم الحقائق الكونيّة:

حقيقة توحيد الله عز وجل في ألوهيته واقترانها بالرّحمة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163]

المناسبة والاتّصال

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ [البقرة: 163] **لمّا ذكر الله عقوبة الكاتمين والمقلِّدين لهم ممّن مات على الكفر، ذكّر بأهمِّ الحقائق التي يجب ألا تنساها البشريّة، وهي حقيقة التّوحيد المقترنة بالرّحمة، وهي الحقيقة التي يعمل الكاتمون والكافرون على تغطيتها، ثم بيّن بعض الآيات والبراهين المادِّية المنظورة على ذلك.**

بصيرة 1

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163] تدلُّ على أعظم حقائق الكون، حقيقة الوحدانيّة في الألوهيّة المقترنة بالرّحمة، فوصف نفسه بأربع صفات:

[1] ﴿إِلَٰهُ وَٰحِدٌ﴾

أي: لا نَظِير له، وَلا شَبِيهِ في ذاته وأسمائه، وصفاته وأفعاله.

[2] ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾

تقتضي نفي ألوهية كلِّ ما عداه من البشر، والحجر، والمخلوقات، ويجب النُطق بهذه الشّهادة؛ لبيان كمال واحديّته.

[3] ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾

رحمة عامّة بالخلق، أو المنعم بعظائم النِّعم.

[4] ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾

رحمة خاصّة بالمؤمنين، أو المنعم بدقائق النِّعم.

وقد تسأل: ما الحكمة من ذِكْرِ صفتي الرّحمة ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بعد ذِكْرِ أنه إله واحد؟

الجواب:

بصيرة 2

ذكر صفتي ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾:

1. لأن ذكر الإلهيّة الفردانيّة يفيد القهر والعلوّ، فعقّبهما بذكر الرّحمة ترويحًا للقلوب عن هيبة الإلهيّة، وعزّة الفردانيّة.
2. إشعارًا بأنّ رحمته سبقت غضبه، وأنه ما خلق الخلق إلا للرّحمة والإحسان.

بصيرة 3

من أهمِّ الأدلة المادّية المحسوسة التي تدلُّ على حقيقة التّوحيد المقترنة بالرّحمة، ممّا لا يمكن أن ينازع فيه من يدعو مع الله عزوجل إلهًا آخر [البقرة: 164].

المناسبة والاتّصال

بعد شهادة التّوحيد كأنه قيل فما أهمُّ صفاته سبحانه؟ قال الله عز وجل: الرّحمن الرّحيم، قيل فما أدلّة وحدانيته ورحمته؟ فذكر الله عز وجل لهم سبع آيات معجزات ماديّة محسوسة يدركها العقل لا يمكن لمخلوق أن يدّعي القدرة عليها، تتلخّص في أنّ الله عز وجل: خلق الكون، ونَظَّمَ حركته، وملكه فسخّره بأمره لتحقيق رحمته.

دليل [1] ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: 164]

يعني خلق الكون المعلوم عندنا، فبدأ بالأعظم خلقًا.. حيث بيّنَ أنه خلق ما يعبده الدّهريُّون والملحدون.. فلماذا عن خالقهم يهربون؟

دليل [2] ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البقرة: 164]

حالات الكون في التّعاقب المنتظم بين اللّيل والنّهار.

دليل [3] ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: 164]

ذكرها بعد اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ لأَنَّ المُسَافِرِينَ يحتاجون إلى معرفة الزَّمن الذي يُعَبَّرُ عنه اخْتِلَاف اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ حديثًا وقديمًا، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ [الأنعام: 97].

دليل [4] ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ [البقرة: 164]

الماء مادة الحياة الأرضيّة.

دليل [5] ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ [البقرة: 164]

البثُ: النَّشر، فخصّ ذكر الدّوابِّ بالنَّشر؛ لأنها خلقت من ماء، وهي من أبرز المخلوقات المعقّدة.

دليل [6] ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ [البقرة: 164]

بيانٌ للقوة التي تسوق الماء، وتحرّك الأشياء؟

دليل [7] ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: 164]

ذكرها بعد الرِّياح؛ لأنّ الرياح هي التي تثير السّحاب.

بصيرة 4

﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: 164]: القرآن يخاطب العقلاء، وحقيقة الكفر: ضعفٌ في العقل، وسخفٌ في التّفكير، فالكافرون بشقّيْهم (الملحد، والمنكر) أقرب إلى أن يكونوا متخلِّفين عقليًا، وعندما تفكّر في الفساد الذي يحدثه الفاسدون من قياداتهم تظنُّ أن هذا أقرب وصفٍ لهم: التخلف العقدي المجنون المدمر.

مانع [2]

اتِّباع القيادات الإداريّة الفاسدة وسيطرة المصالح الزّائفة

[البقرة: 165-167]

المناسبة والاتِّصال

بعد أن ذكر الله عز وجل أعظم الحقائق الكونيّة، وأدلّتها، وأشار إلى أنّ غير العقلاء هم الذين لا يعتنقونها.. هنا بيّن سبحانه مانعًا غير عقليٍّ، هو مانع الاستكبار الذي يسبِّبه المنصب أو الجاه، وهو يختلط بمانع التّبعية الرّاهبة، أو الرّاغبة بسبب المصالح الزّائفة.

بصيرة 1

لمّا قال الله عز وجل ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: 164] انقسم النّاس أمام تلك الأدلّة والبراهين إلى صنفين:

صنف [1]

الظّالم الذي يصرُّ على تغييب عقله، فبدلاً من تحكيم العقل، واعتناق أعظم الحقائق، ومحبّة الرّحيم القادر المنعم، الذي هيّأ كلّ تلك المخلوقات للإنسان، يتخذ الأنداد من دون الله عزوجل يحبُّها كحبِّ الله عز وجل ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 165]، وهؤلاء الظَّلَمة قسمان: مَتْبُوعون مُستكبِرون، وأتباع همج خائفون.

صنف [2]

عاقل يرشده عقله إلى الإيمان، ولأن يكون أشدّ حبًا لله عز وجل، الذي بثّ رحمته في الكون ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: 165].

بصيرة 2

الْأَنْدَاد نوعان:

1 نوعٌ يسبِّب شرك العبادة

وفيه يُعْتَمَدُ عَلَى غير الله عز وجل فِي دَفْعِ المَضَارِّ وجَلبِ المَنَافِعِ من طريق السُلطَةِ الغَيبِيَّةِ، لا من طريق الأسباب الشَّرعيّة والوضعيّة.

2 ونوعٌ يسبِّب شرك الطَّاعة

وفيه يلجأ العبدُ إلى غير حكم الله عز وجل في التَّشريعات التي تحلِّل وتحرِّم دون دليل، فالأنداد قد يكونون:

- معبودات حجرية
- معبودات بشرية
- معبودات مادية

كمن يحكم بغير ما أنزل الله عز وجل من علماء وحكّام، أو العامّة والجماهير عندما يُخاف منهم أن يُذْكَرَ لهم شيء تضيع معه الرِّئاسة.

بصيرة 3

﴿يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ الاتِّخاذ يدلُّ على مقدار الجهل والإجرام والظُّلم؛ إذ لا يوجد ندٌّ، لكنهم اتَّخذوه من عند أنفسهم، كما يتَّخذون ويقتنون المتاع.

بصيرة 4

عقوبات الظّلمة الفاسدين من المتبوعين والأتباع

عقوبة [1]

الرُعب عند معاينة العذاب، وذهاب قوّة الأتباع والمتبوعين، ويدلُّ على ذلك قراءة الغيب: وهي قراءة الجمهور ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ [البقرة:165]، أي: لو يرون ما سيحدث لهم إذ يرون العذاب، وعلى قراءة الخطاب ﴿ترى﴾ وهي قراءة نافع وابن عامر ويعقوب وابن وردان بخلف عنه تجد التّطمين للمؤمن الثّابت المظلوم في الدُنْيَا بأن الانتقام له من ظالميه سيشفي صدره.

عقوبة [2]

يزداد فزعهم عندما يتيقّنون بحقيقة أن القوّة لله عز وجل، لا لهم، ولا للأنداد، ولا للمتبوعين، فلا اختيار لهم ولا لغيرهم، كما كان في الدُنْيَا ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:165].

عقوبة [3]

ظهور آثار صفة العدل في الآخرة بالتّعذيب الإلهيّ الذي لا يقارن بالعذاب الدُنيويّ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: 165]، فيظهر للمؤمن المظلوم والتّابع الفاسد ضعف العذاب الدُنَيويّ الذي أرهب به السّادة الفاسدون أهلَ الدُنْيَا، فالمؤمن المظلوم يعلم أنّ ما تعرض له من العذاب الدُنيويّ لم يكن شيئًا، والتّابع الفاسد يعلم أنّ ما خافه من البطش الدُنيويّ لأسياده هو أسوأ قرار اتّخذه.

عقوبة [4]

تقطُّعُ الرّوابطِ بين الفاسدين من الأتباع والمتبوعين ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: 166] شبّه المصالح الّتي بين الرُؤَسَاء والمَرؤوسِينَ، بالأسباب وهي الحبال. - والباء بمعنى (عن)، كقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: 59] أي: عنه، وإنما أتى بالباء؛ ليبيّنَ أنهم هم من يقطعها، فَهُمْ أدوات تقطيعها، لشِدّة لوم بعضهم بعضًا، أو كانوا فوق مركبها فسقطوا بعد تقطُّعها.

عقوبة [5]

انبعاث صيحات النّدم والحسرة، والألم على القرارات المصيريّة الخاطئة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ﴾، والحسرة: أشدُّ النّدم لما تركوا من الصّالحات، وما فعلوا من القبيحات.

عقوبة [6]

الخلود في النّار ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: 167]، وذكر هذه العقوبة جوابًا على تساؤل محتمل، وهو: هل صيحات الألم والنّدم يمكن أن تجعل رحمة الرّحمن الرّحيم تعمُّهم؟ فأجاب عن ذلك بهذا.

مانع [3]

الخوف المعيشيُ ممّا يجعل المرء يأكل الحرام الخبيث، ويضحّي بالمبادئ [البقرة: 168]

المناسبة والاتّصال

قدّم الله عزوجل العقوبة للظّلمة تابعين ومتبوعين تخويفًا من المستقبل الحقيقيّ بدلاً من المستقبل المتوهّم، الذي لأجله ضحُّوا بحبّ الله عزوجل مقابل محبّة الأنداد، وهنا ذكر الرّزق والإحسان كأنه يَتَأَلَّفُهم، وليحذّرَ من شرك الطّاعة هنا بسبب الرِّزق، كما حذّر من شرك العبادة في المانع السّابق، بسبب الجاه، أو التّبعية.

بصيرة 1

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: 167]: شرع الله عز وجل للنّاس أن يأكلوا مما في الأرض بشرطين:

شرط [1]

أن يكون ﴿حَلَٰلٗا﴾ فهذا الشّرط لحماية الأديان، وضدُّه نوعان:

- الأول: (المحرّم لذاته) كالسمّ، والنّجَس كالميتة والخنزير.
- الثاني: (المحرّم لغيره) كالذي يُهَلُّ به لغير الله عز وجل، والغصب، أو السّرِقة، أو ما يعطيه الأسياد مقابل الضّلال.

شرط [2]

أن يكون ﴿طَيِّبٗا﴾ فهذا الشّرط لحماية الأبدان، وللتّلذذ والتّنعم والتّفكُّه، ويقابله (الخبيث): وهو ما لا يُستطاب، أو فيه ضرر على البدن كالمُلَوّث بالمكروبات أو غيره، ممّا يمنع منه لمصلحة طبِّيّة، أو يُستقذر بسبب الرّائحة، أو اللّون، أو الطّعم.

بصيرة 2

شرع الله عز وجل للنّاس أن يأكلوا الجيّد المُستلذّ المُستملح في طبيعته، ولا يحملهم حبُّ الزُّهد على أن يأكلوا الرّديء طبيعة، ويبصِّرنا بذلك قوله ﴿طَيِّبٗا﴾ فإن له معنى آخر، وهو مقابل الرّديء، فالنّجس حرام، والرّديء مكروه، أو ممنوع حسب رداءته.

بصيرة 3

إنّ في واسع ما بثّه الله عز وجل من الرِّزق الحلال الطّيِّب في الأرض غُنيةً لكم، ومقنعًا عن أن ترتهنوا للقيادات الفاسدة خوفًا على رزقكم، وقوام عيشكم.

مانع [4]

اتباع الخطوات الشّيطانيّة

[البقرة: 168-169]

بصيرة 1

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: 168]

1. الشّيطان هو العدوُ المبين الأكبر، حيث يتبعه أسياد الضّلال فيتبعهم العامّة، ويجب بيان عداوته إعلاميًا، وثقافيًا.
2. والخُطُوات بضمتين: جَمْعُ خُطْوَةٍ بالضّمّ، وهي ما بين القَدَمين، وبفتحتين: جَمْعُ خَطْوَةٍ وَهِيَ المَرَّةُ مِنْ خَطَا يَخْطُو فِي مَشْيِهِ، أي: لَا تَتَّبِعُوا آثاره كأنّكم تمشون خلفه في كلّ حركاته، وهو تصويرٌ يستبشع الإنسان أن يقع فيه عند تصوُّره.

بصيرة 2

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [البقرة: 168]: تعبير تصويريٌ رائع، يدلُّ على ضرورة محاربة أهواء النّفس، فهي التي تسير خلف الشّيطان دون وازع، فإن ردع الإنسان نفسه، وكبحها، وصدّها عن ذلك غلبها.

بصيرة 3

الخطوات الشّيطانيّة تؤدّي بأتباع الشّيطان ومتبوعيهم إلى ارتكاب أصول الأوامر الشّيطانيّة الثّلاثة ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 169]، وهذه الأصول الثّلاثة هي:

الأصل الشَّيطانيُّ [1]

السُّوء، وهو ما يسوء الإنسان أن يراه غيره، وقيل: ما لا حَدّ فيه.

الأصل الشَّيطانيُّ [2]

الفحشاء، وهو ما استُفحش ذكرُه، وقَبُح مَسموعه، وقيل: ما فيه حَدٌ.

الأصل الشَّيطانيُّ [3]

القول على الله عز وجل بلا علم، ويبدأ بالكذب والبدعة، ويصل إلى اتِّخاذ الأنداد في العبادة والطاعة والحاكمية.

مانع [5]

التّبعيّة المتعصّبة للتّقاليد والآباء

[البقرة: 170-171]

بصيرة 1

يمنع من اتّباع الحقِّ التّعصبُ للتّقاليد والأعراف، سواء أكانت محليّة أم دوليّة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [البقرة:170]، أي: وإذا قيل لهؤلاء الذين يغطُّون الحقائق: اتّبعوا ما أنزل الله عز وجل من الحقائق استكبروا عن الإذعان للحقِّ

وقالوا: بل نتّبع العاداتِ والتّقاليدَ التي رأينا آباءنا يألفونها، فالعنصرية بتبعيّة الآباء التي هي كتبعيّة الأسياد تمنع من اتّباع الحقِّ.

بصيرة 2

يخاطَب المتعصّبون بالأساليب المتعدّدة التي تقيم الحجّة عليهم، وتنبّه من يتأثّر بهم، ويبصّرنا بذلك قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾، فلَمْ يُخَاطِبهم هنا مباشرة، بل أتى بصيغة ﴿قِيلَ﴾؛ ليُلْهِب المؤمنين ليحشدوا مَنْ ينصحهم مِنَ النّاصحين، ومِنَ المؤثّرين عليهم

وليواسي النّاصحين عندما يعرض المتعصّبون عنهم، فأنْزلَهُمْ مَنْزِلَةَ مَنْ لَا يَفْهَمُ الْخِطَابَ؛ لأن التّعصب يعمي الأبصار، وهكذا حكى للقارئ حالهم البعيد عن معرفة الحقِّ واكتشاف الحقيقية.

بصيرة 3

عالج القرآن هذه العصبيّة بأمرين:

أمر [1]

بحثّهم على إعلاء شأن العقل، والتّفكير الرّاشد باحتمال ضلال الآباء في التّشريع كحالهم في الأمور الدُّنيويّة: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:170]، فهذا حوار منطقيٌّ يفتح العقل، ويهدي للأفضل، أي: ربّما كان آباؤهم لا عقل عندهم يُفهِمهم أفضلَ النُّظُم التي ينبغي أن يحيوا بها، وربما كانوا لا يهتدون برأي الخبراء والعقلاء وفي مقدّمتهم الأنبياء -عليهم السلام-، فهل يظنُّون أن تقاليدهم المحليّة والدّولية وحيٌ نزل على من كتبها؟

أمر [2]

ببيان الصُّورَة المرَضيّة للتّبعية غير العاقلة، فالتّبعية للتّقاليد الباطلة تجعل الإنسان أسوأ من الحيوان الذي يبحث عما ينفعه: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ﴾ [البقرة: 171].

بصيرة 4

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 171]

1 تبصّرنا بأنّ الإسلام دين العقل، ولذا يوجب استكشاف السُّنَن الدُّنيويّة من أجل البحث عن سبل تطوّر البشريّة.

2 فالمتعصّبون: ﴿صُمٌّ﴾ عن الحقِّ فُهَمْ لا يسمعون سماع فَهْمٍ ووعي وانتفاع، ﴿بُكْمٌ﴾ أي: خُرسٌ عن أن يقولوا الحقّ والصّواب، ﴿عُمْيٌ﴾ لَا يَنْظُرُونَ فِي آيَاتِ اللهِ عزوجل فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي الْآفَاقِ، فلا يَتَبَيَّنُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ، فيضلُّون عن الهدى وطريق الحقِّ فلا يبصرونه، فَيَنْقَادُونَ لِغَيْرِهِمْ، كَمَا هُوَ شَأْنُ الْحَيَوَانِ.

3 والعقل الذي تشير له الآية، وله في الإسلام منزلة، هو عقل الرشد أو المكتسب (المسموع) لا المطبوع؛ لأن العقل المطبوع كان حاصلا لهم، فالعقل عقلان: مطبوع ومسموع (مكتسب).

4 وطريق تحصيل العقل المكتسب هو الاستعانة بهذه القوى الثّلاث (السّمع، والكلام، والنّظر، وهي المقابلة لقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾)، فلما أعرضوا عنها فقدوا العقل المكتسب.

بعد أن عرفنا في المحور الأوّل نظام الحياة الحقيقيّ المتمثِّل في نظام العبادة لله تعالى، وعرفنا في المحور الثَّاني التّكريم الإلهيّ للبشريّة بالاستخلاف في الأرض، ووقفنا في المحور الثَّالث على الأنموذج الإسرائيليّ في الاستخلاف في الأرض، وعرفنا في المحور الرّابع إرث الأمّة الإسلاميّة للمِلّة الإبراهيميّة، وكيف نجحوا في اختبار الاستخلاف، ثم تعرّفنا في المحور الخامس على حقيقة التوحيد المقترنة بالرحمة، وهي أعظم الحقائق التي امتنع أهل الكتاب عن تبيينها بالصُورَة المطلوبة، قد تسأل: فما النُظُم والتّشريعات التي نظّمت الحياة في الحضارة الإسلاميّة الجديدة؟

الجواب: هنا يأتي القسط الأول من هذه النُظُم:

المحور السادس

التَّمكين التَّشريعيُّ للحضارة الإسلاميَّة الجديدة التي تشرق على العالم من المدينة (القِسْط الأوَّل)، وذكر الله عز وجل فيه النُّظُم التَّشريعيَّة الفِقهيَّة الحياتيَّة، وآثارها في صناعة حياة الرُّشد، والعدل، والإحسان

[البقرة: 172-207]

المحور السادس

التَّمكين التَّشريعيُّ للحضارة الإسلاميَّة الجديدة التي تشرق على العالم من المدينة (القِسْط الأوَّل) وذكر الله عز وجل فيه النُّظُم التَّشريعيَّة الفِقهيَّة الحياتيَّة، وآثارها في صناعة حياة الرُّشد، والعدل، والإحسان

[البقرة: 172-207]

المناسبة والاتصال:

1 هذا المحور يبيِّن حقائق تشريعيّة تدلُّ على رحمة الله عزوجل بعباده فلماذا لا تتبع؟

وذلك بعد أن بيّنَ الله عز وجل في المحور السّابق تلازم مبدأ الوحدانيّة لمبدأ الرّحمة في صفاته سبحانه.

2 فأنت ترى السُّورة بدأت بتقرير المبادئ الفكريّة النّظريّة التي تحتاجها البشريّة

فذكر الله عز وجل الكتاب الذي يهدي العالم للإدارة الحياتيّة السّليمة، وبيان أهمّ ما يدعو إليه الكتاب، وهو النِّظام العباديُّ القائم على الإيمان بالله عزوجل الموصل إلى التّقوى، التي تعني وضع وقاية وحماية بين الإنسان وبين العواقب السّيِّئة في الدُّنْيَا والآخرة.

3 ثم ذكر الأدلّة البرهانيّة على استحقاق الله عز وجل للعبادة الموحدة

ومنها خلق السّموات وتسخير الأرض لتكون مهيأة لاستقبال البشريّة.

4 ثم ذكر خلق البشريّة، والهدف الاستخلافيّ من الوجود البشريِّ.

5 ثم عرض تجربة الاستخلاف الإسرائيليّة

(أصحاب البقرة) بين الإيجابيّات والسّلبيّات باعتبارهم من أكثر الأمم تأثيرًا على وجه الأرض، وبيّن تحوُّل بعضهم إلى العنصر السّيئ الذي يكمل المهمّة الشّيطانيّة في تدمير البشريّة.

6 ثم فصّل الله عز وجل قصة نجاح إبراهيم عليه السلام في الاستخلاف

ووراثة الأمّة الإسلاميّة له، وتثبيت القبلة المركزيّة للحياة الأرضيّة لإقامة النِّظام العباديِّ لتتمّ النِّعمة.

7 وبعد أن ثَبَّتَ النُّظُم الفكريّة التي تصوِّر علاقة الإنسان بربِّه

وبالكون من حوله، وبأهمّ المكونات البشريّة آن الأوان لتفصيل النُّظُم التّشريعيّة والقانونيّة لإتمام مهمّة الاستخلاف في الأرض على نور ربانيٍّ.

أقسام هذا المحور

- قِسم [1] في المجال الغذائيِّ: الحلال والحرام من الأطعمة [البقرة: 172-173].
- قِسم [2] في المجال العلميِّ: حرمة الفساد العلميِّ [البقرة: 174-176].
- قِسم [3] (آية البرِّ) جامعة أنظمة البرِّ المُصْلِحة للبشريّة [البقرة: 177].
- قِسم [4] القصاص أهمُّ الأنظمة الرّادعة للمحافظة على الحياة [البقرة 178-179].
- قِسم [5] في مجال ترابط الأجيال: الوصايا [البقرة: 180-182].
- قِسم [6] المجال العباديُّ (أركان الإسلام): الرُّكن الرّابع (الصِّيام) [البقرة: 183-187].
- قِسم [7] تحريم الفساد الماليِّ والإداريِّ [البقرة: 188].
- قِسم [8] المقياس الزّمنيُّ لنُظُم الإسلام (اختيار التّقويم القمريِّ) [البقرة: 189].

قِسم [9] في مجال العلاقات الدّوليّة: أساس أنظمة تأمين المجتمع من الأخطار الخارجيّة [البقرة: 190-195].

قِسم [10] في مجال أركان الإسلام: أنظمة الحج [البقرة: 196-207].

القِسم الأول

في المجال الغذائيِّ: الحلال والحرام من الأطعمة [البقرة: 172-173]

المناسبة والاتصال:

1 سبق في المحور السّابق الأمر بأكل ما في الأرض حلالًا طيّبًا، وأن لا يجعلوا أكلهم مصدرًا لتقييدهم بقيد التّبعية أو التّقليد فلا يكون طلب الرّزق مانعًا من اتّباع الحقِّ، وهنا بيّن الله عز وجل ما يحلُّ من الرّزق؛ لئلّا تتحكّم الأهواء بالنُظُم الإنسانيّة، ولتعلم البشريّة أن الله عز وجل لم يحرِّم على المؤمنين التّمتُّع بالطّيّبات، بل حرّم أمورًا محدودةً معدودةً من الأكل.

2 وفي هاتين الآيتين يبيّن الله عز وجل أنّ الشّريعة جاءت من أجل مصلحة الأبدان البشريّة، وما ذكره في آية (168) حيث أمر النّاس بأكل الحلال الطّيّب جاء في سياق موانع اتّباع الحقِّ، لكنه هنا يفصّل المحرّم مقابل الحلال الطّيّب، وليبيّنَ أن كون الإنسان مؤمنًا لا يعني ألا يأكل الطّيّب بمعنى المستلذّ.

بصيرة 1 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: 172]، خاطب المؤمنين لا البشريّة كلّها؛ لأنه خاطب البشريّة كلّها في الآية (168)، وليبيّنَ ضرورة أن يظهر المؤمنون أنهم أنموذج حقيقيٌ لغيرهم ﴿كُلُواْ﴾ أي: انتفعوا بالطّيّب من الرّزق، وأعظم أوجه الانتفاع الأكل؛ لذا خصّه بالذِّكْر، وهذا من المصطلحات القرآنية البارعة: التّعبير بالأكل عن الانتفاع؛ لأنه أعلى درجات الاستلذاذ.

بصيرة 2

﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: 172]: **قدّم الأكل على الشُّكر؛ ليبيّنَ أن الشَّريعة حريصة على نفع البشريّة، فيجب اقتران أكل الرِّزق بشكر الرَّازق؛ فأكل الطَّيّب سببٌ للعمل الصّالح (الشُّكر)، وكلمة ﴿إِيَّاهُ﴾ تدلُّ على أنه وحده هو المستحق للعبادة، وأنه وحده هو المنعم الذي يستحق الشكر على إنعامه، والشُّكر قيدُ الموجود، وجَلْبُ المفقود.**

بصيرة 3

رحم الله عز وجل ضعف البشريّة، فجعل الأصل في الأطعمة الْحِلِّيّة، ولا يَحْرُم إلا ما عَظُمَ ضررُه، وهي أربعة أصول: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 173].

[1] ﴿ٱلۡمَيۡتَةَ﴾

التي ماتت من غير ذكاة شرعيّة، فحرم أكلها والانتفاع بها.

[2] ﴿ٱلدَّمَ﴾

أي: المسفوح، وهو الخارج عند الذّبح، أو من الحيّ.

[3] ﴿وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾

فإنه قذِر؛ لأن أشهى غذائه القاذورات والنجاسات، وهو ضار أيضًا.

[4] ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾

أي: ذُبِحَ لغير الله عز وجل، أو ذُكِرَ غير اسم الله عليه عند الذّبح.

وقدّم ﴿عَلَيۡكُمُ﴾ رحمة بالبشريّة، فالتحريم لمنفعتكم.

والحصر بقوله ﴿إِنَّمَا﴾؛ لبيان سعة الحلال، ومحدوديّة الحرام، وردًّا على المتلاعبين بالتَّحليل والتَّحريم، ولبيان أن النُّظُم التَّشريعيّة إنما تكون للمصالح البشريّة.

بصيرة 4

﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 173]: **الإهلال: رفع الصّوت عند ذبح النّعَم، وله ثلاث صور:**

1. **أن يسمِّيَ غير الله، فالأكل كالذّبح حرام.**
2. **أن يسمِّي الله تعالى عند ذبحه، فهو الأكل الحلال الطّيِّب.**
3. **ألا يُسمِّي غير الله** عزوجل، **ويترك اسم الله** عزوجل، **فمسألة خلافيّة، فهو جائز بمفهوم المخالفة.**

بصيرة 5

لحرص الشّريعة على مراعاة الحالات الطّارئة في الواقع الإنسانيِّ، أجاز أكل هذه المحرّمات عند الاضطرار جوعًا، أو إكراهًا، بشرطين: ألا يكون الإنسان باغيًا، ولا عاديًا

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: 173].

بصيرة 6

الفرق بين ﴿بَاغٍ﴾ و﴿عَادٍ﴾:

[1] ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾

على الناس، أو على مضطر آخر، (من البغي)، أو يكون من الابتغاء، أي: غير مُرِيدٍ وطالب له لذاته.

[2] ﴿وَلَا عَادٖ﴾

بتعدّي الحلال إلى الحرام، وهو يجد عنه بُلْغَة ومندوحة، أو غير معتدٍ الذي أبيحَ له منه، مُتَجَاوِزٍ قَدْرَ الضَّرُورَةِ.

بصيرة 7

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: 173] **﴿غَفُورٌ﴾: لما سلف منكم من خطأ وذنب ومعصية، وما حدث منكم من أكلٍ لأحد هذه الأربع عند الاضطرار، ﴿رَحِيمٌ﴾ بكم، حيث جعل الشّريعة تناسب حالاتكم الحياتيّة المختلفة.**

القِسم الثَّاني

في المجال العلميِّ: حرمة الفساد العلميِّ

[البقرة: 174-176]

المناسبة والاتصال:

1 لمّا ذكر ما يحلُّ من الأطعمة وما يحرم بالصُورَة المباشرة، بيّنَ أن الطَّيِّبات من الرِّزق تصبح خبائث إذا كانت مقابل الفساد العلميِّ، حيث يصبح العلم في خدمة الفاسدين، والمجرمين، والمعتدين.

2 لمّا ذكر أنّ الاضطرار يبيح الأكل من الأطعمة الأربعة المحرّمة، بيّنَ أن الاضطرار والحاجة لا يبيحان أن يأكل العالِم الحرام بعلمه، عندما يكتمه، أو يشتري به ثمنًا قليلًا.

بصيرة 1

العلماء ثلاثة أصناف:

صنف [1]

راسخ

عالم يهدي بعلمه، كما أمر الله عز وجل.

صنف [2]

كاتم العلم

وهو الذي كتم العلم مشتريًا بكتمانه ثمنًا دنيويًا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [البقرة: 174].

صنف [3]

مضلٌ

متلاعب بالعلم، يجعل الحقّ باطلاً، والباطل حقًّا ﴿وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾؛ طلبًا لرضى غيره، جمهورًا كان أو حاكمًا.

بَصِيرَة 2

الصِّنفان الآخران (الكاتمون، والمتلاعبون) لشِدّة إفسادهما للحياة، وتسويغهما الإجرام للمجرمين بالسُكوت أو الإضلال، بيّنَ الله عز وجل أنّ عليهما أربع عقوبات:

عقوبة [1]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: 174]: وعبر بالفعل المضارع ﴿يَأۡكُلُونَ﴾؛ ليدلّ على عدّة معان:

معنى [1]: في الدُّنْيَا، أي: يأكلون في الحال ما يستلزم النّار.

معنى [2]: في الدُّنْيَا يأكلون ما هو كالنّار من ضرره عليهم في أجسادهم، وأرواحهم.

معنى [3]: في الآخرة، أي: يأكلون في المآل عين النار عقوبة لهم.

عقوبة [2]

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: 174] غضبًا عليهم يوم القيامة، وهم أحوج ما يكونون إلى تكليمه.

عقوبة [3]

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ [البقرة: 174]: لا يطهّرهم من دَنس ذنوبهم، وكفرهم، فالعقوبة هنا ليست للتّطهير.

عقوبة [4]

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 174] مؤلم، أي: كثير وعظيم ألمه ووجعه.

بصيرة 3

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [البقرة: 175] **تبصّرنا بعدل الله عز وجل معهم عدلًا مطلقًا، فهم استحقُّوا تلك العقوبات العظيمة؛ لأنهم لم يكتفوا بالضّلالة، بل يسارعون في شرائها، وبيع كلِّ هدى أعطاهم الله عز وجل إيّاه ويشترون أسباب العذاب كأنهم يشترونها بصورة مباشرة، ويبيعون أسباب المغفرة كأنهم يبيعونها بصورة مباشرة.**

بصيرة 4

﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: 175]، **تبصّرنا هذه الجملة بجملة معانٍ تصوِّر الفعل الفظيع لهذه الفئة المفسدة:**

معنى [1]

يحتمل أن تكون (ما) للتعجيب، أي: ما أجرأهم وأعملهم بالباطل الذي مصيره النار.

معنى [2]

للتعجيب وَفْقَ معنى آخر، أي: ما أشدّ صبرهم على النّار، وحقيقة الأمر أن لا صبر لهم، كما قال تعالى: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور: 16].

معنى [3]

للاستفهام، أي: ما الذي سيجعلهم صابرين على النّار؟ والمراد التّخويف من أنهم سَيَرِدُون مقامًا رهيبًا، لا صبر لهم فيه، فلماذا يعملون ما يؤدّي إليه؟

بصيرة 5

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [البقرة: 176] **تبصّرنا بأن هناك حقيقتين تبيّنان سبب هذه النُّظُم والأحكام البنائيّة والعقابيّة:**

حقيقة [1]

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾ [البقرة: 176]، **أي: وضعنا لكم هذه التّشريعات الدّقيقة؛ لأنّ الله عز وجل أنزل الكتاب بالحقِّ النّافع للبشريّة.**

حقيقة [2]

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [البقرة: 176]: **يختلف النّاس في الكتاب هل هو حقٌّ أم لا، ويختلفون في معاني الكتاب هل يُعمل بها أم لا، والذين يختلفون فيخالفون الكتاب في أصله أو في معانيه التي كان عليها النّبيّ ﷺ.. هؤلاء يتّخذون شقًّا بعيدًا عن الحقِّ.**

القِسم الثَّالث

(آية البرِّ) جامعة أنظمة البر المُصْلِحَة للبشريّة

[البقرة: 177]

المناسبة والاتصال:

بعد أن ذكر الله عز وجل الحلال والحرام في المجال الغذائيّ، وبيّنَ حرمة الأكل عبر الفساد العلميّ، وذكر في الآية [176] حقيقتين تتعلّقان بكتاب إصلاح الحياة، فالحقيقة الأولى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: 176]، والثانية: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: 176]، بيّنَ هنا جوامع مختلفة من أنظمة البرِّ المُصْلِحة للواقع البشريّ، وتشمل قواعد التّصوُّر الإيمانيّ (القوّة النّظريّة)، وقواعد السُّلوك الإيماني (القوّة العمليّة).

المجال الأول

مجال التّصوُّر العقدي الفكري: يجب الإيمان بالأركان الخمسة:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: 177]

البر: اسم يتسع باتساع (البَر) لكل خصلة خير أي ليس البر أن تتجهوا للمكان بل لما أقول لكم.

بصيرة 1

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: 177] تبصّرنا الآية بأنّ الوسائل مثل: استقبال القبلة، ينبغي أن تحفظ المقاصد، وهي صلاح القلب، وصلاح العقل، وصلاح العمل، وصلاح الكون وصلاح البشريّة.

بصيرة 2

ترتيب أركان الإيمان مناسب لواقع نزول الوحي، ووصوله إلى البشر.

بصيرة 3

وَحّدَ الكتاب؛ إشارة إلى وحدة هدايات الكتب النّازلة على البشر، ونورها، وهداها، وقد ذكر الله عز وجل ذلك فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾ [المائدة: 44]، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ﴾ [المائدة: 46]، ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: 48].

بصيرة 4

قدّم الله عز وجل الإيمان والتّصوُّرات الفكريّة على ما بعدها؛ للتّنبيه على أنّ أعمال القلوب أشرف عند اللّه من أعمال الجوارح، وهي أساس أعمال الجوارح، ولبيان أن هدف الإيمان وجود التّصوُّر الصّحيح عن الوجود الذي يؤدِّي إلى العمل المتقن.

المجال الثاني

المجال الاجتماعيُّ: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: 177]:

توثيق أواصر المجتمع بإعطاء المال لستّة أصناف من القرابة، وضعفاء المجتمع

بصيرة 1

اكتنز هاء الضمير في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ عددًا من المفاهيم حسب مرجعه، أي: على حبِّ الله عز وجل، أو حبِّ الإعطاء، أو حبِّ ذوي القربى وما عطف عليه، أو حبِّ المال، فيكون المعنى: آتى المال على حبِّ الله عز وجل، وحبِّه للبذل والإعطاء، وحبِّ البشريّة، وحبِّ المال الذي لم يمنعه من مجاهدة نفسه في الإعطاء.

بصيرة 2

التّرتيب في الآية مقصود؛ إذ ترى أنه قدّم الأولى فمن بعده: ﴿ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينَ﴾، ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: وهو المنقطع، والضّيف، ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾، ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾، ويدخل فيهم الأسرى.

بصيرة 3

الرّاجح أنّ المراد بالمال هنا غير الزّكاة، وكلُّ ما يدخل تحته، فدفع الضّرر عن المسلم فرض كفاية بالإجماع، وقوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ يربّي على التّحرُّر من عبادة المال التي تذلُّ النُّفوس، وتنكّس الرؤوس.

المجال الثالث

المجال العباديُّ الإلزاميُّ: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: 177] ذكر ركنين من أركان الإسلام.

بصيرة

الصّلاة والزّكاة عماد العلاقة مع الخالق والمخلوق، فالصّلاة صلة بالخالق، والزّكاة صلة بالمخلوق.

المجال الرابع

المجال الأخلاقيُّ: ذكر صفتين:

بصيرة 1

الصِّفة الأولى: الوفاء ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ﴾ [البقرة: 177]

فالوفاء واجب حتى مع العدوِّ الحربيِّ، "مع أخذ الحيطة من الخديعة"، ولذا قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن محاربي قريش: "فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلاَ نُقَاتِلُ مَعَهُ"، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: «انْصَرِفَا، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ» "مسلم (1787)"، فكيف مع المسلم، أو مع الكافر المسالم؟! فكيف مع من أحسن إليك، واستقبلك في داره؟!

بصيرة 2

الصِّفة الثانية: الصّبر يكون في ثلاثة أحوال أساسية:

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ [البقرة: 177]، فالبأساء: البؤس والفقر، والضّراء: السُّقم والوجع، وحين البأس: في كلِّ ما فيه بأس، ومنها: القتال، وكلمة الحقِّ عند الجائرين، حكّامًا أو غيرهم.

بصيرة 3

ذكر أحوال الصّبر الثّلاثة؛ لإعداد الأمّة للتّفاعل مع أوضاع الحياة المختلفة، والأزمات العاصفة، وذكر البأس؛ لإعداد الأمّة عسكريًا أمام الاعتداءات الهمجيّة الوحشيّة، التي تقوم بها الحضارات الظالمة.

بصيرة 4

مكافآت البَرَرة:

[1]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾

قرنوا الأقوال بالأفعال.

[2]

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177]

طبّقوا تفاصيل الصِّفات الخمس في أوّل السُّورة.

القِسم الرابع

القصاص أهمُ النظم الجنائيّة للمحافظة على الحياة

[البقرة: 178-179]

المناسبة والاتصال:

بعد أن ذكر الله عز وجل جامع أنظمة البرِّ المُصْلِحة للواقع البشريِّ بيَّنَ أنّ النّاس لا يقومون بأنظمة البرِّ حقّ القيام إلا في ظلِّ مجتمع عادل متساوٍ في حقِّ الحياة، ولذا شرع نظام (القصاص)؛ ليضمن العدل والمساواة اللّائقة بالكرامة الإنسانيّة.. ومن خلال هذا النِّظام يتمُّ تأمين المجتمع، فهو صِمام الأمن الدّاخليِّ والقوميِّ بين سائر أفراد المجتمع.

بصيرة 4 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 178] أُعِيد الخطاب لسببين:

[1]

بيان حيثيّة الحكم: اسمعوا التّكليف والتّشريف المترتّب على الإيمان ممّا تفاخرون به بني الإنسان.

[2]

بيان أهمِّية التّشريع المذكور في الحفاظ على المجتمع المدنيِّ، وبيان أنه من أهمِّ الأولويات التّنظيميّة في إصلاح أحوال الأفراد والمجتمعات في أمنهم وكلِّ شؤونهم.

بصيرة 2 ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ﴾ [البقرة: 178]:

القصاص المتكافئ نفسًا، أو دِيَةً واجب مكتوب لإقامة العَدلِ، وَلإبطال العنصريّة التي أعطت امتيازًا للأقوياء على الضُعفاء.

بصيرة 3

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: 178]: يرتقي الإسلام بالمجتمع حتى في النِّظام العقابيّ، فالقصاص أَصْل العدل، إلا أنّ هذا لا يمنع من أن يعفو أولياء المقتول عن القاتل، فذلك مقتضى التّرَاحُمِ والفضل، بأن يقبل الولي الدِّية أو يعفو مطلقًا.

بصيرة 4

﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: 178] الشّريعة الخاتمة رفق بالكون، ورحمة بالإنسانيّة، حيث شرعتِ العفو والدِّية خلاف الشّرائع السّابقة.

بصيرة 5

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 178] رحمة الشّريعة لا تعني أنها تسمح للعابثين بأن يستغلُّوا هذه الرّحمة فيعودون إلى الاعتداء على القاتل بعد العفو عنه، أو يعود القاتل إلى الإجرام، فلهم عذاب أليم بأن يمنع من العفو.

بصيرة 6

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 179] تبصّرنا بأن كلّ تشريع إلهيّ يحقّق الحياة البشريّة على أحسن الوجوه، فحتّى أبرز ما تظهر فيه القسوة وهو القصاص فإنه يحمل حياة للإنسانيّة، وبذلك تتّقي عقوبة ربّها عز وجل، فقد جعل شَرْعَه لصالحها، وتتّقي الإصرار على مخالفة شَرْعِه، فكيف تخالف ما فيه أجمل حياة لها؟!

القِسم الخامس

في مجال ترابط الأجيال: الوصايا

[البقرة: 180-182]

المناسبة والاتصال:

لمّا ذكر الله تعالى أنّ القصاص يحمي الإنسانيّة من الموت، وينمّي الحياة، ذكر نظامًا آخر يسهم في استمرار تنمية الحياة حتى بعد الموت، ويزيد الترابط المجتمعي هو نظام الوصايا، نبّه به الإنسان بأنه قد يطرقه الموت في أيّ لحظة، بأي سببٍ كالقتل، أو الفجأة، أو الْقِصَاص، فينبغي التّنبه إلى ما يبني الحياة بعده بالوصايا.

وقال القرطبي رحمه الله عن ارتباط الآية (180) بما قبلها وما بعدها: " لَمَّا ذُكِرَ أَنَّ لِوَلِي الدَّمِ أَنْ يَقْتَصّ، فَهَذَا الَّذِي أَشْرَفَ عَلَى أن يُقْتَصّ مِنْهُ -وَهُوَ سَبَبُ الْمَوْتِ- فَكَأَنَّمَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ، فَهَذَا أَوَانُ الْوَصِيَّةِ، فَالْآيَةُ مُرْتَبِطَةٌ بِمَا قَبْلَهَا وَمُتَّصِلَةٌ بِهَا فَلِذَلِكَ سَقَطَتْ واو العطف". (تفسير القرطبي 258/2)

المواضع: ذكرت الوصية في ثلاثة مواضع: هنا، وفي النِّساء في خمسة مواضع [النِّساء:11- 12]، وفي [المائدة: 106] في موضع واحد، وذكرت توصية في [يس:50].

بصيرة 1 ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: 180] ينبغي على كلِّ من ترك خيرًا، سواء أكان مالًا، أم متاعًا، أم أم عقارًا، أن يوصي إذا حضره الموت، والوصية هنا تكون للوالدين والأقربين الذين لا يرثون.

بصيرة 2 ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ يراد به المال قلّ أم كَثُر، وفي تسميته (خيرًا) إشادة بأهمّيته في الحياة، فهو عطاء إلهيٌ، ينبغي ألا يَستنكف عن اكتسابه وحيازته المتّقون، كما يقوله غلاة المتواكلة من المتصوّفة.

بصيرة 3 ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾: يراد به حضور أسباب الموت، كتقدُّم المرء في العمر، ومتى حضر السّبب كَنَّتْ به العرب عن المسبِّب.

بصيرة 4 ﴿لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾: الوصية عنوان محبّة للبشريّة، فتكون لأقرب الناس وهما الوالدان، ثمّ للأقربين، فهي لون من ألوان التّكافل العائليّ خارج نظام الوراثة.

بصيرة 5 ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ تبصّرنا بأن مقدار الوصية يُحدّد حسب المتعارف عليه بأنه عدل، لا يثير التّحاسد بين الموصى لهم، أو بينهم وبين الورثة على ألا يزيد على الثُلث.

بصيرة 6 ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ينبغي للمتّقي ألّا يتركها، فهي علامة على تقواه، وبذا تكون تنمية النواحي الاجتماعيّة جزءًا من وظائف المتّقين، والحقُّ هنا الأمر الواجب عليهم، وخُصّ المتّقون بالذِّكر؛ بيانًا لتبعات التّقوى، وتشريفًا للرُتبة ليتبارى الناس في الوصول إليها.

بصيرة 7 ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾ [البقرة: 181]: الضمير في ﴿بَدَّلَهُۥ﴾ يرجع إلى الإيصاء، لأن الوصية في معنى الإيصاء، وكذلك الضمير في ﴿سَمِعَهُۥ﴾، ويمكن حمله على عموم ما أمر الله عز وجل.

بصيرة 8 ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ [البقرة: 181]: تبصّرنا بأن الإثم إنما يقع على المبدِّل عن قصد دون الذي لم يعلم بما حصل من تبديل، ما لم يكن قد أُتيحت له فرصة معرفة الحقيقة فأباها.

بصيرة 9 ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 181]: الجزاء العادل لا يمكن إلا أن يحقّقه الإله الحقُّ الكامل، فهو كامل السّمع لما يقوله عباده، فيميّز بينهم، وهو عليم بأحوالهم، يعلم صغائر أمورهم وكبائرها، ولو لم يتكلّموا بها.

بصيرة 10

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 182]:

الإصلاح في الوصايا أمرٌ أكّده الإسلام، وشجّع عليه، حتى لا يقع الجنف أو الإثم على أحد الأطراف الثلاثة: الموصِي، والموصَى له، والورثة

والجنف: الحيف والظُّلم والجور خطأً، والإثم: الظُّلم عمدًا، ويدخل في هذه الآية الصُوَر الآتية:

1. **من حضر مريضًا وهو يوصي، فخاف أن يخطئ في وصيته، فلا حرج على الحاضر أنْ يصلح بينه وبين وَرَثته، بأن يأمره بالعدل في وصيته، وأن ينهاهم عن مَنعه ممّا أذن الله عز وجل له فيه.**
2. **إن خافَ المسلمون (الوصيُ، أو وليُّ الأمر، أو المجتمع) الجنف في تنفيذ الوصية فأصلح أحدهم بين الورثة وبين الموصى لهم فلا إثم على المصلح، والجنف يحدث إمّا من الموصي أو الورثة، وإمّا من الموصى لهم بسبب واقع الوصية**
3. **إن خاف الوصيُ أو الأمير الاحتيال من الموصي، مثل أن يجعلها لبني ابنه ليكونَ المالُ لأبيهم، أو بأن توصي المرأة لزوج ابنتها ليكون المال لابنتها، فيصلح بين الموصي وبين بقيّة الورثة.**

بصيرة 11

لأنّ المصلح قد قام بطاعةٍ عظيمة، وذلك بقيامه ببعض تبديل لأجل الإصلاح، وصيانة للموصي من الحيف ومظنّة الظُّلم، لأن الأمر كذلك فإن ﴿ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للموصي، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالمصلح بينَ الأطراف كلِّها، فمن رحم الطّرف المظلوم يرحمه الله عز وجل.

القِسم السادس

المجال العباديُّ (أركان الإسلام): الرُّكن الرابع (الصِّيام)

[البقرة: 183-187]

المناسبة والاتصال:

1. ذكر الله عز وجل مجالين من المجالات الحياتيّة العامّة هما مجال حفظ الحياة من خلال نظام القصاص العادل، ومجال التّرابط المجتمعيِّ للأجيال من خلال نظام الوصايا، وتنفيذ هذين النِّظامين وجميع أنظمة العبادة التي تبني الحياة يعتمد على ضبط النّفس وتقواها.

2. هنا ناسب أن يذكر الله تعالى عِبادةً تعين على التّهذيب والتّأديب والتّقوى وضبط النفس، ويعين الله عز وجل فيها عباده بطرق إلهيّة استثنائيّة في حياة البشر، فتقبل عليها البشريّة بصورةٍ لا توجد في غيرها من العبادات.. إنها عبادة الصِّيام.

النِّظام القرآنيُّ للصِّيام

الفصل الأول

الأسس العامّة لنظام الصِّيام

تكون هذا الفصل من ست مواد:

مادة [1]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: 183]

فرض الله عز وجل الصِّيام على المؤمنين في الأمّة الخاتمة ومن قبلهم؛ لأهمِّيّته في تدريب النُّفوس وتربيتها.

مادة [2]

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183] أعظم أهداف نظام الصِّيام تكوين التَّقوى فرديًا وجماعيًا، والتَّقوى: تعني الضَّبط النَّفسيّ التَّامّ ليتّقي الصّائم الشُّرور الذّاتيّة، والصوم عبادة لم يعبد بها غير الله عز وجل، ولعلّه من أجل ذلك قال الله تعالى: «إلا الصّوم فإنه لي». "البخاري (5927)، مسلم (1151)"

مادة [3]

المدى الزمني للصِّيام ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: 184]، فهو مناسب لتكوين التَّقوى، فليس قليلاً مخلًا، ولا كثيرًا مملًا.

مادة [4]

الصِّيام لنفع العباد لا لتعذيبهم، ولذا يُعذر أصحاب الأعذار، وهم أربعة أصناف:

صنف [1]، [2]

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: 184] المرضى مرضًا مؤقّتًا، والمسافرون، -وهم من يقدر على الصِّيام لاحقاً- فهؤلاء يفطرون ويقضون.

صنف [3]، [4]

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: 184] أطاق أن يعمل، أي: استنفذ كلّ طاقته، فتبصّرنا الآية بمن أطاق الصِّيام بمشقةٍ عظيمةٍ: مثل كبار السِّنّ، والمرضى مرضًا لا يرجى برؤه، فهؤلاء يجوز لهم الفطر، ويطعمون عن كلِّ يوم مسكين

مادة [5]

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ [البقرة: 184] تطوع الصِّيام أو تطوع الإطعام خيرٌ للمتطوّعين في الدُّنْيَا والآخرة، أي فمن زاد على الأيام المعدودات صيامًا، أو زاد على طعام المسكين فهو خير له.

مادة [6]

﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 184] **تبصِّرنا بأن نظام الصِّيام ليس للتَّعذيب، بل للتَّدريب، والتَّهذيب، فهو نظامٌ لصالح العباد صحيًّا ونفسيًّا وإيمانيًّا.**

الفصل الثاني

النِّظام التَّفصيليُّ للصِّيام الواجب

تكوَّن هذا الفصل من إحدى عشرة مادة:

مادة [1]

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة: 185] **وقت الصِّيام المفروض تحديدًا هو شهر رمضان، فبعد أن ذكر الله تعالى أنّ الصِّيام ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ [البقرة: 184] تهيئة لهم ببيان محدوديّة أيامه، فصار هذا بيانًا عامًّا ذكر فيه أنه يعذر أصحاب الأعذار، ثم بيّنَ موعد الأيام المعدودات، وهو شهر رمضان.**

مادة [2]

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [البقرة: 185] **سبب تخصيص رمضان بالصِّيام نزول القرآن فيه، ولشِدّة الحفاوة بالقرآن في شهر الصِّيام وصف الله عز وجل القرآن هنا بثلاث صفات:**

[1]
﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾
رَشادًا للناس إلى سبيل الحقِّ والسَّعادة في الحياة.

[2]
﴿وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ﴾
واضحات من البيان الدالِّ على حدود الله، وفرائضه، وحلاله، وحرامه.

[3]
﴿وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾
والفصل بين الحقِّ والباطل، وبين السَّعادة والشَّقاء.

مادة [3]

صوم رمضان فرض لمن شهد الشّهر ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة: 185]
ومعنى شهد أي: حضر الشّهر.

مادة [4]

الاهتمام بذوي الأعذار، وتوفير البدائل المناسبة لهم: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ [البقرة: 185] يقضيه أصحاب الأعذار بأيام أخرى وقت استطاعتهم، وأعاد ذكرهم؛ لأنّ ما سبق كان كلامًا عن الأسس العامّة للصِّيام، وهنا كلام عن رمضان وأهمِّيّته.

مادة [5]

أهمُ أهداف الصِّيام سبعة:

هدف [1]
﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183] تكوين التّقوى في النّفس البشريّة، والمجتمع الإنسانيّ، وقدّم هذا الهدف؛ لأنه هدف الأهداف وغايتها، وما بقي فتفصيلٌ له.

هدف [2]
﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: 185] فالصِّيام يبرز اليسر في الحياة والدِّين.

هدف [3]
﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ [البقرة: 185] اعتياد الانضباط بإكمال العِدّة.

هدف [4]
﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: 185] تعظيم الهادي الموفِّق.

هدف [5]
﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: 185] شكر الله عز وجل الذي يسعد الدُّنْيَا بالدِّين.

هدف [6]
﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: 186] القرب المباشر من ربِّ العالمين، والتّعود على دعائه.

هدف [7]
﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة: 186] الوصول إلى الرُّشد الفرديّ والجماعيّ، ممّا يترتّب عليه صلاح الفرد والجماعة، والصّواب في القرارات الشّخصيّة والعامّة ضمن ميدان الابتلاء في هذه الحياة.

وترى أن الله عز وجل وسّط ذكر الأهداف وبثّها بين مواد الصِّيام وأحكامه؛ لتُذكر وتستحضر، فلا تطغى عليها الأحكام التي هي وسيلة إليها، ولئلّا يهمل النّاس الغاية مشتغلين بالوسيلة.

بصيرة

﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي﴾ [البقرة: 186]: تبصّرنا بأن الاستجابة مقدّمة الإيمان، والإيمان ثمرة الاستجابة التي تعني الحركة، فيتحرّك الإنسان مستجيبًا لنداء الرّحمن، ولا يقول: سأفعل، فيكون قولًا بلا فعل.

مادة [6]

المشروع في الصِّيام: تباح الشّهوتان في مواضعهما: الأولى: إتيان النساء، والثانية: شهوة الطعام.

الشّهوة الأولى: إتيان النِّساء

﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ﴾ [البقرة: 187]، وعدّى "الرّفث" بـ"إلى"؛ ليتضمّن معنى الإفضاء الذي يراد به الملابسة.

وأما سبب التّحليل فصلاحية الشّريعة للفطرة الإنسانيّة، وذكر الله عز وجل ستّة أسباب تبيّنُ المكانة الفطريّة للنِّساء في قلوب الرجال:

سبب [1]

﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ﴾ [البقرة: 187]: بيان منزلة الزّوجيّة وحرص الشّريعة على تنميتها، فسعادة الرِّجال والنِّساء أن يكون كلٌّ منهما لباسًا للآخر بالتّكامل الوظيفيّ، والدِّفء الجسديّ، والتّبادل الأُسَريّ.

سبب [2]

الضّعف البشريُّ يستنزل العطف الإلهيّ ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: 187]، أي: تظلمونها بتعريضها للعقاب وتنقيص حظّها من الثّواب، وعلم أنكم كنتم تَنْتَقِصُونَهَا بَعْضَ مَا أَحَلَّ اللهُ عز وجل لَهَا، أو تَخُونُونَ أَنْفُسَكُمْ فتظلمونها بمنعها مما تشتهي من أمر النِّساء، فالتّفكير المتبادل بين الرِّجال والنِّساء طبيعة فطريّة، والشّريعة لا تضادُّها، بل تنمّيها.

سبب [3]

﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: 187]: قبل توبتكم ممّا حدث من الاختيان، وخفّف بالرُّخصة بقضاء الحلال مع النِّساء، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [المزمل: 20]: يعني خفّف عنكم.

سبب [4]

﴿وَعَفَا عَنكُمۡۖ﴾ [البقرة: 187]: بمحو الذّنب، والتّوسعة والتّسهيل في نظام الصّوم.

سبب [5]

﴿فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: 187]: الحاجة للاتّصال الزّوجي بين الرِّجال والنِّساء، حيث حثّ على قضاء الشّهوة الحلال في ليالي أيام الصِّيام، و"المباشرة": مُلاقاة بَشَرة ببَشرة، وبَشْرة الإنسان: جِلْدته الظّاهرة، والمراد: الجِماع ودواعيه من تقبيل، ومعانقة ونحو ذلك.

سبب [6]

لا العبادة تشغل عن مسايرة الفطرة، ولا الاستجابة للطّبيعة البشريّة تنسي العبادة ﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 187]، فالمباشرة للاتّصال الزّوجي ممّا كتب الله عز وجل لنا، ويدخل في ذلك عدم نسيان الأهداف الأخرى من سكينة النّفس بالسُّكون إلى الأهل مع طلب الولد، وابتغوا ما كتب الله عز وجل لكم من ليلة القدر.

الشَّهوة الثَّانية التي تباح ليلة الصيام: شهوة الطعام:

مادة [7]

الجمع بين عبادة الصِّيام وقضاء شهوة الإنسان يضعف البدن، فأرشد الله عز وجل إلى وسيلة الطَّعام "الأكل والشُرب" ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ وبدأ بذكر النِّساء قبل الطعام؛ لبيان معالجة هذه الشَّهوة الشَّديدة عند البشر، ثم ذكر الطَّعام؛ لبيان التَّلذُذ بالجمع بين الشَّهوتين، وأن الأولى مفتقرة للثَّانية، ولذّة الثَّانية لا تكمل دون الأولى.

مادة [8]

الميقات الزَّمنيُّ للمشروع والممنوع في الصِّيام ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ [البقرة: 187] أي: سَوَادُ اللَّيْلِ، وَبَيَاضُ النَّهَارِ، وأَخَّرَ ذكر حدِّ الميقات الزَّمنيِّ التَّفصيليِّ؛ لِيَكُونَ أَوْقَعَ فِي النَّفْسِ، وَأَظْهَرَ فِي رَحْمَةِ الشَّارِعِ بعد ذكر المباحات.

مادة [9]

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾ [البقرة: 187] يشرع فعل إحدى الشَّهوتين عند الاعتكاف وهي الطَّعام، ويحرم فعل الأخرى، وهي مباشرة النِّساء، وذلك زيادة في التَّرقية والمجاهدة والجمع بين إعطاء الجسد حقّه بالطَّعام، وتلبية مطالب الرُوح بالإنس بالمَلِك القيوم السَّلام.

مادة [10]

﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾ [البقرة: 187] المحرّمات في نهار الصِّيام أو ليله، والمباحات في نهار الصوم وليله كلُّها حدودٌ لا ينبغي القرب منها؛ لأن القرب يفضي إلى المسّ، ثم التَّعدِّي والانتهاك، فحدُّ الشَّيء: منتهاه، مما لا يجوز دخول ما بعده، والمراد: لا تتعرضوا لها بالتَّغيير، والتَّأْوِيلِ، وَالتَّحْرِيفِ، والمخالفة.

مادة [11]

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 187]: أهمُّ غايات نظام الصِّيام وأهدافه إيصال النَّاس إلى التَّقوى، التي تعينهم على نظام السَّعادة الحقيقيِّ في الدُنْيَا.

القِسم السابع

تحريم الفساد الماليِّ والإداريِّ

[البقرة: 188]

المناسبة والاتصال:

بعد أن ذكر الله عز وجل فيما سبق التّشريعات المتعلقة بالنظام الغذائي ثم ربط ذلك بالفساد العلمي، وبين التّشريعات الجامعة لمنظومة البر التي تنتج الإنسان الصادق التقي، ثم ذكر تشريع القصاص الحافظ للحياة، وتشريع الوصية الذي يصل الأجيال ببعضها، وبين حدود ركن الصِّيام أراد الله أن يبين الأثر الحياتي المباشر لدورة شهر رمضان، وظهور ذلك في التعامل اليومي بترك الفساد المالي والإداري.

مظاهر الفساد الإداريِّ

مظهر [1]

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [البقرة: 188] تبصِّرنا بخطورة الفساد الماليِّ، وذلك بأكل الأموال عن طريق الاكتساب المحرّم للمال، مثل: البيوع الباطلة المحرّمة، أو أكل حقوق الآخرين وثرواتهم.

مظهر [2]

﴿وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 188]:

1. تبصِّرنا الآية بأنّ من صور الفساد الإداريِّ والسِّياسيِّ والقضائيِّ بيع الحكم بالرِّشوة، وشراء القضاة والمسؤولين ليحكموا بالظُّلم ويمنعوا الحقوق.
2. تفضح النّفسيّات المريضة التي تستولي على حقوق غيرها بطرق باطلة، وتبصّرنا أن الفساد الإداريّ يتغذّى من الوسط الاجتماعيّ، فـ(الإدلاء): إرسال الرّجل الدّلو في حبل متعلّقًا به في البئر، كأنه جعل المال في حبل ليتوصّل به إلى وظيفة، أو منصب، أو أَخْذ ما ليس له من الحقوق، فيدخل فيه الفساد المالي، والفساد في العمل الوظيفيّ، وتوزيع الثّروة العامّة، وكأنّ الحاكم لما أخذ الرشوة قد وضع نفسه في محلٍّ أسفل من المعطي، فهو المستعلي عليه، دلالة على ضعفه، وعجزه بأنه تدنّى حتى أخذ المال رغم أنه حاكم أوْ قاضٍ.

القِسم الثّامن

المقياس الزّمنيُّ لنُظُم الإسلام وتشريعاته (اختيار التّقويم القمريّ)

[البقرة: 189]

بصيرة 1

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: 189] **بعد أن ذكر عددًا من النُّظُم الإسلاميّة في مختلف المجالات، وكثير منها يتعلّق به تحديد مُدَدٍ زمنيّة كالقصاص، والوصيّة والصِّيام، والنُّظُم الاقتصاديّة والسِّياسيّة، وما سيأتي من نُظُم كالقتال، والحجّ، بيّنَ الله تعالى أن المقياس الزّمنيّ ينبغي أن يُعتمد على أساس الشّهر القمريّ.**

ولهذا التّحديد أهميته البالغة في الحفاظ على الهوية الإسلاميّة، فقد أخبرنا الله عزوجل أنّ عِدّة الشُّهور اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حُرُم، فارتبطت العبادات بالسّنَة القمريّة، إلا في تحديد مواقيت الصّلاة.

بصيرة 2

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾ [البقرة: 189]: **التزام النِّظام علامة صحّة المجتمع، وسَيْره على نهج الأبرار، ودليل صحوة التّقوى في قلوب أبنائه.**

بصيرة 3

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 189] **تبصّرنا بأن الهدف من هذه النُّظُم الوصول إلى التّقوى التي تعني اتّقاء النار، واتّقاء المعصية، واتّقاء المشكلات، والمخاطر الضّخمة التي تنشأ من مخالفة منهج الله عز وجل، وبذلك يتحقّق الفلاح الفرديُّ، والجماعيُّ، الدُّنيويُّ، والأخرويُّ.**

القِسم التّاسع

في مجال العلاقات الدّوليّة: أساس أنظمة تأمين المجتمع من الأخطار الخارجيّة

[البقرة: 190-195]

المناسبة والاتصال:

1. هناك تناسب تاريخيٌ موضوعيٌ واضح، فقد ذكر الله عز وجل أمر الأهلّة وأنها المقياس الزّمني المميّز لتنفيذ النُظُم العباديّة الإسلاميّة، فهي مواقيت للنّاس والحجِّ.

2. إلا أنه كيف يمكن الحجُ وطرقه غير مؤمنة، فكان لا بدّ من وجود نظام أمنيٍ يتعاملون به مع القوى القرشيّة المعتديّة التي تمنعهم من أبسط الحقوق البشريّة، ومنها الحجُ، وهي عبادةٌ مشتركة في الصُورَة مختلفة في الحقيقة والكيفيّة.

3. وهنا جاءت الأنظمة الأخلاقية التي تصاحب الحرب في التّصوُر الإسلاميّ، ومن خلال الأنظمة السّابقة من أوّل السُورة في المجالات الفكريّة والتّاريخيّة والتّشريعيّة ظهرت معالم الحضارة الجديدة التي تشرق على العالم، ومن ذلك منع الفساد الماليِّ والإداريِّ.

4. وهذه الحضارة لا بدّ لها من إقامة علاقات دوليّة متوازنة تمنع اعتداء القويِّ على الضّعيف، فذكر الله عز وجل الرؤية الإسلاميّة المتميِّزة للقتال وَفْقَ الأخلاقيّات التي يقرُها العالم كلُه.

ذكر الله تعالى النُظُم الأمنيّة هنا على هيئة مواد قانونية واضحة:

فذكر هنا (4) مواد، وهي:

مادة [1]

السّبب الأوّل لوجوب القتال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ [البقرة: 190] **فيجب قتال الذين يقاتلون الأمّة لردِّ الاعتداء، وحفظ الأمن.**

مادة [2]

شروط قتال المقاتلين، وهي عوامل الانتصار في الخطّة الحربيّة عند المواجهة:

شرط [1]

الإخلاص: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، **فلا يكون القتال للمجد الشخصي والمطامع التوسعية، بل ينبغي أن يكون لتحرير الديار والأهل، والدفاع عن المستضعفين، ومنع الفتنة والتعذيب.**

شرط [2]

يقاتلونكم: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ [البقرة: 190] **فرق بين القاتل والمقاتِل فالذي يُقاتَل هو المقاتِل بلا تحديدٍ لدينه أو جنسه، فالعبرة بأنه قاتل.**

شرط [3]

﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: 190]: **ومن صور الاعتداء: الابتداء بقتال مَنْ لا يقاتِل واقعًا، وقتال مَنْ لا يقاتِل طبيعة من النِّساء، والمجانين، والأطفال، والرُهبان، ونحوهم، والتّمثيل بالقتلى، وقتل الحيوان، وقطع الأشجار، ونحوها.**

شرط [4]

﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ [البقرة: 191] **تبصّرنا الآية بأنه لا توجد مناطق آمنة للمعتدين، أي اقتلوهم في أي مكان وزمانٍ وجدتموهم على وجه الأخذ والغلبة، ومنه رجل ثقيف: سريع الأخذ لأقرانه، فترك المعتدي ليس من حكمة الحرب، وهو تغرير بالمجتمع، وتجرئ المعتدي على الاستمرار في عدوانه.**

شرط [5]

﴿وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ﴾ [البقرة: 191] تبصّرنا بأنه يجب إعلان أن المعاملة ستكون بالمثل إلا فيما يتنافى مع أخلاقيات الحرب الإسلاميّة، فمن أخرج الناس من ديارهم يتم إخراجه منها، وهذا الإعلان له دوره في كبح جماح المعتدين عن إيذاء الآمنين أي: أخرجوهم من مالكم وبيوتكم التي أخرجوكم منها، أو اعملوا على إخراجهم من مكة التي أخرجوكم منها، ففي هذا إعداد مبكر لفتح مكة.

شرط [6]

﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾ [البقرة: 191]: والفتنة: الامتحان، والابتلاء، والبلاء، واختلال نظام العيش، واختلال الفكر.

وهذا قانونٌ عظيمٌ عامٌ في المجال السِّياسيِّ والحياتيِّ العامِّ، وهو يعني بأن:

1. الفتنة الجسديّة والعقليّة أشدُّ أثرًا، وأسوأ جراحًا من القتل.
2. الفتنة في الدِّين أعظم من ذهاب الجسد.

شرط [7]

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ﴾ [البقرة: 191]، فهذا حكم القتال في الحرم.

فيستثنى هذا من العموم المكاني السابق للقتال ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾ فيقاتلون إن قاتلوا ولو في المسجد الحرام؛ لأنهم يستغلُّون اطمئنان المسلمين في المسجد للقيام بالإجرام، وذكر المسجد الحرام؛ لأن الصحابة تعلّموا أخلاقيّات الحرب عندما خافوا أن تمنعهم قريش من دخول المسجد الحرام بعد صلح الحديبية، أو أن تغدر بهم، فكان نزول الآيات وقتها عاملًا رادعًا لمن سولّت له نفسه أن يغدر.

شرط [8]

﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 191] تبصِّرنا بأنّ الأصل أنّ الاعتداء لا يصدر إلا من كافر، وصدور الاعتداء ممن ينتسب إلى المسلمين على الآمنين من المسلمين والكافرين، يجعله مرتكبًا لجريمة تشكِّك في إسلامه، فاعتداء المسلم على غيره دليلٌ على خسارته وفشله وهزيمته المبكِّرة.

شرط [9]

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: 192]: تبصِّرنا بأن الأصل السّلام في الإسلام، وليس الحرب، فيُغفر لمن يكفّ عن الاعتداء، ويرحم بأن يعان في أحواله المعيشية، ولكنّ الكفّ عنهم مشروطٌ بانتهائهم عن الاعتداء، وليس بمجرّد كلامهم، وهذا عند تفسير الانتهاء بأنه انتهاء عن الاعتداء، وهو المناسب للسِّياق، والتّفسير بأنه انتهاء عن الكفر يكون خاصًا بمن لا يقبل منهم إلا ذلك، مثل كفّار مكة بعد منع سكناها لغير المسلمين.

مادة [3]

السّبب الثّاني للقتال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة: 193]: فإذا وجدت نُظُمٌ مجرمة تفتن النّاس في حياتهم بأن تعذِّبهم، أو تجهِّلهم، وتسلب منهم الحياة الكريمة، فيجب قتالها حتى تكفّ عن الفتنة، فالسّبب الأول بيان لسبب بداية القتال، والسّبب الثّاني بيانٌ لغايته.

مادة [4]

سببا القتال هما: الأول: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ [البقرة: 190]، والثاني: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة: 193].

وهناك ستّة مبادئ أساسيّة متعلِّقة بالسّببين لا بدّ من مراعاتها:

مبدأ [1]

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 193]: تبصّرنا بأن الأصل في الإسلام السِّلم، فإن انتهى المعتدون عن القتال، أو انتهوا عن نقض الصُّلح، أو انتهوا عن فتنة المستضعفين فلا عُدْوَانَ عليهم؛ لِأَنَّ الْعُدْوَانَ إِنَّمَا يكون على الظَّالِمِينَ؛ ليرتدعوا عَنْ ظُلْمِهِمْ، و(العدوان) هنا المراد به ردُّ الاعتداء والظُّلم، وإنما سمَّاه كذلك من باب المشاكلة، ولأنه قد يقتضي حربًا استباقيّة إذا ظهرت قرائن تدلُّ على أهمِّيّتها.

مبدأ [2]

إعلان حاسم، وحازم ورادع، بتطبيق مبدأ المعاملة بالمثل، وكرّره ليفصِّله، ويبيِّن أهمِّيّته في الرّدع وتوازن القوى:

زمانًا، وحُرمة ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾

وفعلًا ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾ [البقرة: 194]، أي: من تجرّأ على ما أمر الشّرع باحترامه فإنه يقتصُّ منه، فمن قاتل في الشّهر الحرام أو البلد الحرام قُوتِل، ومن قتل مكافئًا له قُتِل به، أو اقتُصّ له بقدره.

ضابط المعاملة بالمثل: المماثلة دون تعدٍّ ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: 194]، وسمّى الدِّفاع عدوانًا مع أنه في نفسه حقٌّ وصواب؛ لأمرين:

1. مُشَاكلة؛ لأن ذلك القتل جزاء العدوان، فصحّ إطلاق اسم العدوان عليه، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: 40].
2. لتشجيع قلوب المسلمين ألّا يأخذوا الجانب الدِّفاعي الضّعيف حال الحرب، عندما ينتصرون لحقِّهم أمام عدوان المعتدين، بل يأخذوا جانب المبادرة الرّادعة في الحرب.

مبدأ [3]

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 194]، وهذا المبدأ يعني أن يكون الدِّين هو المهيمن على النُّظُم السِّياسيّة والدِّفاعيّة، ولذا يجب استحضار تقوى الله عزوجل أثناء الحرب، فهو جلّ مجده وتعالى جدُّه ﴿مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: بالعون، والنّصر، والتّأييد، والتّوفيق.

مبدأ [4]

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 195]: **القوّة الاقتصاديّة هي قوام الانتصار لأيِّ برنامج، أو عملٍ في الأمّة المسلمة.**

مبدأ [5]

﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:195]، **ولا يدخل في الإلقاء باليد إلى التّهلكة الشّجاعة في الحرب، بل يدخل فيها المفاهيم الأساسيّة الآتية:**

مفهوم [1]

ترك تعاليم الإسلام إلقاءٌ باليد إلى التّهلكة؛ فاتّباع الشّرع حياة للمجتمع، وحماية له.

مفهوم [2]

ترك القتال مع وجود أحد السّببين إلقاءٌ باليد إلى التّهلكة؛ لأنه يفضي إلى تآكل المشروع الإسلاميّ الحقّ، وتحوُّل حملته إلى أقلّيّة مضطَهدة مع مرور الزّمان.

مفهوم [3]

الإقامة على المعاصي، واليأس من التّوبة إلقاءٌ باليد إلى التّهلكة.

مفهوم [4]

إهمال الاقتصاد إلقاءٌ باليد إلى التّهلكة؛ لأنه يفضي إلى ارتهان قرارات المسلمين، وتحكُّم غيرهم فيها

مفهوم [5]

فِعْل ما هو سبب موصل إلى التّلف كتغرير الإنسان بنفسه في مقاتلة، أو سفر مَخُوف، أو محلِّ مَسْبَعَة، أو حَيّات.

مبدأ [6]

﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 195]، **ويدخل في ذلك:**

1. الإحسان في التّعامل العامِّ حتى في القتال.
2. الإحسان في الإنفاق في سبيل الله عز وجل، وعدم البخل به.
3. الإحسان في القيام بالأعمال بإيصالها إلى أعلى درجات الإجادة والإتقان.

القِسم العاشر

في مجال أركان الإسلام: نظام الحجِّ

[البقرة: 196-207]

المناسبة والاتصال:

ذكر الله عز وجل فيما سبق الأنظمة العباديّة المختلفة، وبذا أسس النَّبيُ ﷺ مجتمعًا متميّزًا في المدينة، وبيّن الله عز وجل في الآيات السَّابقة مباشرةً كيفية إدارة العلاقات الدّولية في حالة الحرب، للحفاظ على أمن الأمّة في ظلِّ الوسط المعادي حولهم، وإقامة توازن القوى مع كفّار قريش، وبذلك يمكن للمسلمين أن يقوموا بإتمام الحجِّ والعمرة في جوٍّ آمن.

وقد تسأل: إلى كم تنقسم هذه الأحكام التي تحدثت عن نظام الحجِّ في الإسلام؟

الجواب: يرجع تفصيل هذه الآيات لأحكام الحج إلى أربعة فصول:

فصل [1]

أحكام الإحرام [البقرة: 196].

فصل [2]

ميقات الحجِّ، ومحرّماته، وواجباته، ومباحاته [البقرة197-198].

فصل [3]

أهمُّ أعمال الحج [البقرة: 198-203].

فصل [4]

أهمُّ أهداف الحجّ تنمية التَّقوى، وانقسام النّاس بعد الحجّ والعبادات بناء على وجود آثارها في نفوسهم [البقرة: 204-207].

فصل [1]

أحكام الإحرام [البقرة: 196].

ويندرج تحته سبع مواد:

مادة [1]

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة: 196]، **والإتمام الواجب يعني أنه إن شَرَعَ في الإحرام للحجِّ أو العمرة فيجب عليه إتمام نُسُكِه، ولا يجوز له تركه إلا لعذرٍ وَفْقَ كيفيّة معيّنة.**

مادة [2]

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة: 196]، **كلمة ﴿لِلَّهِۚ﴾ تشمل الوسيلة للحجِّ والعمرة، والغاية منهما، فينبغي أن يكون كلٌّ منهما لله عز وجل، لا بوسيلةٍ حرام، ولا لغرض التّرف، أو الذِّكْر، بل يكون كلٌّ منهما خالصاً لله عز وجل.**

مادة [3]

﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾ [البقرة: 196]، **يبيّن الله عز وجل هنا أحكام الإحصار، وهي:**

1 تعريف الإحصار: هو عدم القدرة على إتمام الحج والعمرة لعذرٍ كالإحصار بمرض أو عدوّ، والبدء بهذا الحكم عقب ذكر فرضية إتمام الحج والعمرة مناسبٌ؛ إذ ذكرَ الحكم، ثم ذكر حُكْمَ مَا يَحُولُ دُونَ إكماله.

2 حكم المُحْصَر: ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾ [البقرة: 196] **الذي حبس عن إتمام الحجِّ والعمرة لعذر يقدِّم هدياً، وهو سُبْع بدنة، أو سُبْع بقرة، أو شاة يذبحها حيث أُحصر.**

3 ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ﴾ [البقرة: 196] **يتمُّ التّحلُّل للمُحْصَر، ويخرج من الإحرام بحلق الرأس بعد أن يبلغ الهدي مَحِلّه: ومحلُّ الهدي المكاني فِي حَالِ الْإِحْصَارِ حيث أُحصر عند أكثر أهل العلم، وقيل: الْكَعْبَة؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ [المائدة: 95]، وَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ [الحج: 33]، وإلا حَيْثُ يُحصَرُ الْحَاجُّ والمعتمر.**

ومحلُّ الهدي الزّمانيّ للحاجِّ يوم النّحر، وللمعتمر حين يُحصر.

مادة [4]

حكم ارتكاب محظورات الإحرام:

1 الإسلام يراعي ما يعرض للإنسان بتشريع إزالة الضّرر في الأحكام

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ﴾ [البقرة: 196] **الإحرام يقتضي الامتناع عن محظوراته، ويمكن أن يرتكب المرء شيئاً من محظورات الإحرام لعذرٍ، والعذر مرضٌ، أو أذى في الرّأس، فربّما احتاج إلى تقليم الأظفار، أو تغطية الرّأس، أو لبس المخيط، أو الطِّيب.**

2 تنويع الفدية مراعاة للفروق الفرديّة

﴿فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ﴾ [البقرة: 196] **تجب الفدية عند ارتكاب محظورات الإحرام، وتكون بأحد ثلاثة أشياء:**

1. أن يصوم ثلاثة أيام.
2. أو يتصدّق على ستة مساكين.
3. أو يذبح نسكاً يجزئ في أضحية.

والنُّسك في الأصل:

سبائك الفضّة، كلُّ سبيكة منها نسيكة، ثم قيل للمتعبد: ناسك؛ لأنه خلّص نفسه من دنس الآثام وصفاها، كالسّبيكة المخلّصة من الخَبَث، وقيل للذّبيحة: نُسك؛ لأنها أشرف العبادات التي يتقرّب بها إلى الله عز وجل.

مادة [5]

حكم الجمع بين الحجِّ والعمرة:

1 ما كان أكثر عملًا كان أكثر أجرًا

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ﴾ [البقرة: 196] **يجب الهدي بدم نسك عند الجمع بين الحجِّ والعمرة تمتُّعًا أو قِرانًا لحصول النُّسكين في سفرة واحدة.**

2 ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ﴾ [البقرة: 196]

البديل عن الهدي إذا لم يقدر عليه: صيام ثلاثة أيام في الحجِّ، ويبدأ وقته من الإحرام بالعمرة، وينتهي بانتهاء آخر أيام التشريق ما عدا يوم النحر، فذكر عددين في حالتين مختلفتين، وجعل أقلّ العددين لأشقِّ الحالتين، وذلك عندما يكون في الحجِّ، وأكثرهما لأخفِّهما، وذلك عندما يكون في أهله.

3 ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ [البقرة: 196]: أتى به:

1. **ليزيل توهُّم أنّ المراد بالعدد الكثرة لا حقيقة العدد.**
2. **ولئلّا يظنّ أحدٌ أنه أراد التّخيير بالواو.**
3. **ولينبِّه بذلك على الرّحمة الإلهيّة في التّشريع.**

واختيار العددين ثلاثة وسبعة؛ لأن كليهما عدد ضبطت بمثله الأعمال سواء أكانت دينيّة أم قضائيّة.

مادة [6]

﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ [البقرة: 196]: **فالحكم السّابق للآفَاقِيّ، وهو من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام، فأما من كان من حاضري المسجد الحرام، وهم من كان في مكة وما قرب منها، فإذا تمتّع فلا هدي عليه ولا صوم.**

فاسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾

يعود إلى الهدي والصّوم عند مالك والشّافعيّ - رحمهما الله- وقال أبوحنيفة رحمه الله: اسم الإشارة راجع إلى التّمتُّع ووجوب الهدي، فعنده المكّيُ لا يتمتّع بالحجِّ ولا يقرنه بالعمرة، ومن ثَمّ لا يجب عليه الهدي أصلًا.

مادة [7]

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [البقرة: 196]، **تبصّرنا بهذين المفهومين:**

مفهوم [1]

هدف الإحرام -كسائر الأحكام- التّدرُّب على التّقوى التي تعني الوصول إلى مرتبة الوقاية من المكروهات والمخافات والعواقب المستقبليّة السّيِّئة في الدُّنْيَا والآخرة.

مفهوم [2]

الانضباط والشُّعور بالتّلذُّذ في تطبيق الأحكام السّابقة، فقد خفّف الله عز وجل عن أصحاب الأعذار، أمّا المتلاعبون فليعلموا أنّ الله شديد العقاب.

فصل [2]

ميقات الحج ومحرماته وواجباته ومباحاته [البقرة: 197-198].

ويندرج تحته خمس مواد:

مادة [1]

﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞ﴾ [البقرة: 197] أي: مشهورات عند المخاطبين، وهي: شوّال، وذو القعدة، وذو الحجّة، فهذا هو الميقات الزّمانيُّ للحجّ، فيبدأ الإحرام بالحجِّ فيهنّ، وينتهي الإحرام بالحجِّ بنهاية وقوف عرفة بالنِّسبة لصحّة الابتداء.

مادة [2]

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ﴾ كلمة ﴿فَرَضَ﴾ تعني أحرم به؛ لأن الشُّروع فيه يُصَيِّرُه فرضًا، ولو كان نفلًا؛ إذ يجب إتمامه.

مادة [3]

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: 197] هنا محظورات الإحرام، فيحرم على من أنشأ الحجّ فيهنّ فعل ثلاثة أمور:

1. **الرَّفث:** وهو الجِماع ومقدماته الفعليّة والقوليّة، خصوصًا بحضرة النِّساء.
2. **الفسوق:** وهو جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام.
3. **الجدال:** وهو النِّقاش الحادُّ الذي قد يفضي إلى المماراة والمنازعة والمخاصمة؛ لكونها تثير الشَّرّ، ولما كان الحجُّ تَدَرُّبًا على التَّقوى، كان الجدال ينافيها.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بالرّفع بضمّتين في قوله (فلا رفثٌ ولا فسوقٌ) وقرؤوا مع بقية القرّاء كلمة ﴿جِدَالَ﴾ بالنصب إلا أبا جعفر فبالرفع بضمّتين.

ويظهر أن مزيّة قراءة الجمهور لكلمة ﴿جِدَالَ﴾ بالنّصب: الاهتمام به، وذلك لعدم تورُّع الناس منه؛ إذ يظنُّون جوازه، ولأنه يتعلق بضبط النفس في التعامل مع الآخرين، والتدرب على كيفية إدارة العمل الجماعي والتعايش الفكري، والاختلاف المنهجي فيما بينهم.

مادة [4]

﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: 197]، يجب على المُحْرِم فعل ثلاثة أشياء:

الخير

﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ وفيه الحث على أفعال الخير، وخصوصًا في تلك البقاع الشَّريفة والحرمات المنيفة.

﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾

التّزوُّد نوعان:

- النوع الأول: حسيٌّ بالزاد المناسب من الطّعام، والشّراب، والراحلة.
- النوع الثاني: معنويٌّ بالتّقوى والإيمان ومحبة الرّحمن والإحسان إلى بني الإنسان.

التّزوُّد المعنويُّ من خصال التّقوى

من خصال التّقوى التي توصل إلى طمأنينة الحياة الدُّنْيَا، وسعادة الآخرة ولذائذها ﴿فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، والألباب جمع لُبّ، ولُباب الشّيء ولُبُّه: الخالص منه، وهو اسم للعقل؛ لأنه أشرف ما في الإنسان.

مادة [5]

﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 198] الفضل هو التِّجارة، فتجوز في الحج، وذكرها الله -جلّ جلاله- حتى لا يتوهّم أن التّقوى تنافي التِّجارة، ولأنه تعالى منع عن الجدال، والتِّجارة تسبِّب المنازعة في قلّة القيمة وكثرتها، فربّما ظنّ السّامعون المتلهّفون لتطبيق الكلام الإلهيّ أن التِّجارة محرّمة وقت الحجّ، ولأنّ الله عزوجل لمّا حرّم على المسلمين كثيرًا من المباحات وقت الحجّ كاللُّبس والطِّيب والاصطياد ربّما ظنُّوا حرمة التِّجارة، ولتعويدهم على إقامة السُّوق المشتركة في هذا الموسم الجامع الذي لا يسهل إقامته بغير التِّجارة.

فصل [3]

أهمُّ أعمال الحج [البقرة: 199-203].

ويندرج تحته تسع مواد:

مادة [1]

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: 198] **بعد وقفة عرفات يجب الوقوف في المشعر الحرام وهو المزدلفة، ويدخل في ذكر الله عز وجل هناك إيقاع الفرائض والنّوافل فيه.**

ومعنى أفضتم:

دفعتم بكثرة، فأمر بالذِّكر لا بالوقوف، فعلم أنّ الوقوف عند المشعر الحرام تبع للذِّكر، وليس بأصل، وأما الوقوف بعرفة فهو أصل؛ لأنه قال: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾، ولم يقل من الذِّكر بعرفات.

مادة [2]

ينبغي اصطحاب ذكر الله عز وجل في كلِّ ما سبق حيث اختصّنا بالهداية:

﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: 198]

الكاف في ﴿كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾

للتعليل، وضمير ﴿قَبْلِهِۦ﴾ يعود إلى الله عز وجل، أو إلى الْهُدَى، أو إلى الْقُرْآن.

والقَبْليّة هنا قَبْليّة المعرفة

أي: وإن كنتم قبل أن تعرفوا الله عز وجل، أو الهدى، أو القرآن، وليس قبيلة الوجود.

مادة [3]

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: 199]:

(ثم) للترتيب

فتجب الإفاضة (الدَّفع) من عرفات ومزدلفة من حيث أفاض الناس من لدن إبراهيم عليه السلام إلى مِنًى، وذلك إِبْطَالاً للعادة العنصريّة التي جعلتها قريش لنفسها، حيث يسمُّون أنفسهم (الحُمْس -سمُّوا بذلك لتحمسهم في دينهم، أو لشجاعتهم-)، ويتمتَّعون بمزيّة عدم الذّهاب إلى عرفة، وإنما جمع بين المزدلفة وعرفات؛ لأن يوم عرفات مستمرٌ إلى صباح ليلة المزدلفة.

والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفًا عندهم

وهو رمي الجِمار، وتقديم الهدي، والطّواف، والسّعي، والمبيت بـ "منى" ليالي التَّشريق وتكميل باقي المناسك.

مادة [4]

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: 199]: ينبغي للمتَّقي الذي يريد القبول الاستغفار مطلقاً من جميع الذنوب، ويتأكّد الاستغفار عقب إكمال العبادات؛ إذ التقصير طبيعة بشرية.

وفي الآية تبشير بقبول المستغفرين حيث وصف نفسه –جلّ مجده- بأنه غفورٌ للزّلات، رحيم بخلقه بكثرة ما يغدقه من العطايا والهبات.

مادة [5]

﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَاسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ [البقرة: 200]:

- الإكثار من ذكر الله عز وجل، والدُّعاء في أيام منى، ومعنى ﴿قَضَيۡتُم﴾ أي: أتممتم وفرغتم فاذكروا الله كما تذكرون آباءكم أو أشدّ ذكرًا.
- وكانوا يفاخرون بأمجاد أجدادهم، فأراد الله عز وجل منهم أن يذكروا ربّهم عز وجل أشدّ مِنْ ذِكْرِهم لأمجادٍ هو سبحانه وفّقهم لها خلقًا وفعلاً.

مادة [6]

يتضمّن الذِّكرُ المطلوبُ الدُّعاء المظنونَ استجابتُه؛ إذ هو في مكان مقدّس، وزمان معظّم، وينقسم الناس في أهدافهم من الدُّعاء إلى صنفين:

صنف [1]

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: 200]: فيطلب أمور الدُّنْيَا، ولا يكون له في الآخرة حظٌّ ولا نصيبٌ، وهذا دليلٌ على أن الله عز وجل يجيب دعوة كلِّ داعٍ، مسلمًا كان أم كافرًا، وليست إجابته دعاء من دعاه دليلًا على محبّته له وقربه منه، إلا أن تكون دليلًا على العقل الرّاجح بدعائه، والاستعداد لإمداده، فـ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: 20].

صنف [2]

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: 201]، يعلّمنا الله عزوجل أعظم الدُّعاء، فيدخل في حسنة الدُّنْيَا كلُّ ما يحسن وقعه عند العبد:

من رزق هنيء واسعٍ، وزوجة صالحة، وولد تقرُّ به العين، وراحة، وعلم نافع، وعمل صالح، ونحو ذلك من المطالب المحبوبة والمباحة.

ويدخل في حسنة الآخرة:

السَّلامة من العقوبات في القبر، والموقف، والنار، وحصول رضا الله عز وجل، والفوز بالنَّعيم المقيم، والقرب من الرَّبِّ الرّحيم.

بصيرة 1

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾ [البقرة: 202] **تبصِّرنا بأنّ الموفّقين الذين يستغلُّون أيام منى في الدُّعاء سيتحقّق لهم نصيب عظيمٌ ناتجٌ عمّا كسبوا.**

بصيرة 2

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [البقرة: 202] **تحقُّقُ المكافأة لهؤلاء الموفّقين فوريٌّ، حيث يكتب الله عز وجل في قلوبهم الإيمان، ويؤيِّدُهم برُوحٍ منه، ولعلّ هذا التّعبير العجيب يرسم لنا صورة كثرة الدّاعين، وأنّ كثرتهم لا يجعل تقسيمَ مكافآتهم جميعًا يتأخّر، فالله عز وجل سريع الحساب.**

مادة [7]

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ **ينبغي الحرص على ذكر الله عز وجل في أيام مِنًى، فأمر بذكر الله عز وجل أولًا، ثم أكّد عليه مع بيان زمنه هنا، وبذا يكون أمر بِذِكْرِهِ في ثلاثة مواطن في الحج:**

1. عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَكَانُوا لَا يَذْكُرُونَهُ هُنَاكَ.
2. وعِنْدَ تَمَامِ قَضَاءِ الْمَنَاسِكِ بَعْدَ أَيَّامِ مِنًى، حَيْثُ كَانُوا يَذْكُرُونَ مَفَاخِرَ آبَائِهِمْ.
3. وفي أيام مِنًى، حيث كانوا يغفلون.

مادة [8]

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة: 203] **يختار الحُجّاج للمبيت في مِنًى إمّا يومين، وإمّا ثلاثة.**

وقد تسأل: ما الحكمة من نفي الإثم عن المتأخِّر مع أن حقّه أن يُمدَح؟

الجواب:

نفى الإثم عن المتأخِّر مع أن حقّه المدح؛ ليبين أنّه لمّا أذن في التّعجُل على سبيل الرُخصة احتمل أن يخطر ببال قوم أن من لم يَجْرِ على موجب هذه الرُخصة فإنه يأثم، فبيّن الله عز وجل أنه لا إثم عليه؛ دفعًا لذلك التّوهُم.

مادة [9]

﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [البقرة: 203]: يجب تذكُّرُ أهمّ غايات الحجِّ وهي التّقوى، ومحاسبة الإنسان في الآخرة بناء على ذلك.

أي: لا إثم على المستعجل والمتأخِّر إن اتقى الله عز وجل كلٌ منهما.

والفرق بين ذكر التّقوى في الموضع الأول والموضع الثاني في هذه الآية أن قوله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أمر للمستقبل، وهو مخالف لقوله: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ الذي أريد به الماضي، فليس ذلك مجرّدَ تَكْرَار لفظيّ لا معنى له، بل له جمال سَبْك وبديع حَبْك.

وقد كرّر ذكر التّقوى خمس مرّات في آيات الحجِّ مع أنه ترك ذكر عددٍ من مهمّات أحكامه للسُنّة؛ لأن الهدف الأعظم من الحجِّ بناء التّقوى في النّفس الإنسانيّة.

فصل [4]

أهمُ أهداف الحجِّ تنمية التّقوى، وانقسام الناس بعد الحجِّ والعبادات بناء على وجود آثارها في نفوسهم [البقرة: 204-207].

المناسبة والاتصال:

ترى أن (التّقوى) هي القاسم المشترك فيما ذُكِرَ من أنظمة العبادة في جامعة تشريعات البِرّ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177]، ثم في القصاص، والوصايا، والصِّيام وصولاً إلى الحجِّ، فناسب أن يتمّ ذكر أقسام الناس في الحياة الواقعيّة؛ ليتمّ بيان أيُهم حوّل التّقوى إلى برنامجٍ عمليٍّ، وحوّل ذِكْرَ الله عز وجل من كلامٍ إلى أفعال، وحوّل صور العبادات إلى حقائق في واقع الحياة، وروح تصوّب سلوك البشر، فكانت هذه الآيات.

قسّم الله عز وجل الناس إلى صنفين بناء على أثر أنظمة العبادة فيهم:

صنف [1]

مَنْ كانت العبادات عنده مجرّدَ صور وحركات لا أثر عمليًا لها في بناء التّقوى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦﴾ [البقرة: 204 - 206]، فوصف الله عز وجل هذا الصِّنف؛ حتى نحذره، ونحذر أن نتّصف بصفاته التي يمكن أن تلخِّصها بأن إيمانه في اللِّسان وحقيقته كالشّيطان:

صفة [1]

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فيشتغل بنشر الكلام الحسن للخداع وطلب الدُّنْيَا، أي: يعجبك قوله في شأن الحياة الدُّنْيَا، أو يعجبك قوله في زمن الحياة الدُّنْيَا حيث لا يظهر الكذب من الصِّدق.

صفة [2]

﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾ يستشهد بالله كذبًا وبهتانًا فيقول: الله عز وجل يعلم أو يشهد أنني كذا وكذا.

صفة [3]

﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤] معنى ﴿أَلَدُّ﴾ من لدّ يَلَدُّ إذا كان خصمًا، ولَدَدْتُ الرجل أُلُدُّه إذا غلبته بالخصومة، واشتقاقه من لَدِيدَيِ العُنُق وهما صفحتاه، ففي أيِّ وجه أخذه خصمُه من يمين وشمال غلب من خاصمه، والخِصام: جمع خصم، والمعنى: وهو أشدُّ الخصوم خصومة في محاولة إبطال الحقِّ وإثبات الباطل، فيحارب الصّلاة، ويفسد في الأرض، ثم يزعم أنه خير من أهل الدِّين.

صفة [4]

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَ﴾ [البقرة: 205]:

1. ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾: أي: مضى مدبرًا بعد كلامه المعسول يتآمر؛ ليفسد.
2. وكذلك تعني إذا صار واليًا أو أميرًا، سعى أي: مضى بسرعة ليفسد في الأرض.
﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَ﴾:
3. في الجوانب المادِّية بالإحراق وتدمير ثروات البلد.
4. وفي الجوانب المعنويّة بإدخال الشُّبَه، وإيجاد البرامج والمؤسّسات التي تزيِّن الكفر.

صفة [5]

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة: 205]، ونستنبط منها أن من صفات المفسدين محاربة الشَّريعة التي أنزلها الله عز وجل لتحارب الفساد.

صفة [6]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: 206] تبصّرنا بأن من صفاته: الكبر والغطرسة والعناد، فوصفه الله عز وجل بأنه تأخذه العِزّة بالإثم، والأخذ: تناول الشّيء باليد، أي: استولت عليه عِزّة الجاهليّة الملابِسة للإثم والظُّلم، أو الحاصلة بسبب الإثم الذي في قلبه ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: 2] فذكر الإثم للاحتراس من العِزّة المحمودة ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:8].

عاقبته ومآله:

تطاول عمره في الفساد، ونستنبط هذه الصّفة من قول الله تعالى: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: 206] فذكر عاقبته الأخرويّة بأن تصير جهنم مهادًا له أي: فِراشاً يَأْوِي إِلَيْهِ، فبئس المأوى، وبئس الفراش، ولم يذكر عاقبته الدُّنيويّة؛ إشارة لتطاول مُدّتِه.

صنف [2]

من استفاد من العبادات في بناء التّقوى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: 207]، فأبرز صفاته أنه يشري نفسه، أي: يبيعها لربِّه عز وجل، أو يشري بمعنى يشتريها من ربِّه عز وجل ببذلها في مرضاة الله عز وجل التي يقدِّمها على كلِّ أهوائه، فإذا مرّ به موقف حياتيٌّ نظر الأرضى لربِّه جل وعلا، وليس الأقرب لهواه.

بصيرة

ختم الله عز وجل ذلك بذكر رأفته: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: 207]؛ ليزيل الوهم الناشئ من أنّ بيع النّفس لله عز وجل يعني عدم استمتاع البشريّة بمُتَع الحياة، بل إن الله عز وجل من رأفته شرع للعباد ما يرقّيهم، ويجلب لهم السّعادة، ولا تتحقّق بغير النّظر إلى الثِّمار اليانعة التي يقطفونها عندما يبحثون عمّا يرضيه؛ إذ فيه سعادتهم، وذَكَر عموم العباد؛ ليبيّن أنّ شريعته رحمة بالعالمين، وليست تخصُّ المسلمين.

المحور السابع

الدُّخول في السِّلم كافَّة (الإسلام والسَّلام)، فهو شرط تحقُّق الرُّشد، والعدل، والإحسان في الحضارة الجديدة التي تشرق على العالم

[البقرة 208-214]

بعد أن عرفنا في المحور الأوّل نظام الحياة الحقيقيّ المتمثِّل في نظام العبادة لله تعالى، وعرفنا في المحور الثّاني التّكريم الإلهيّ للبشريّة بالاستخلاف في الأرض، ووقفنا في المحور الثّالث على الأنموذج الإسرائيليّ في الاستخلاف في الأرض، وتعرّفنا في المحور الرّابع على إرث الأمّة الإسلاميّة للمِلّة الإبراهيميّة، وكيف نجحوا في اختبار الاستخلاف، ثم تعرّفنا في المحور الخامس على حقيقة التوحيد المقترنة بالرّحمة، وتعرّفنا في المحور السادس على القسط الأول من النُّظُم التّشريعيّة الفِقهيّة الحياتيّة، قد تسأل: هل يجب الالتزام بهذه الشّرائع كلها؟

الجواب: هنا يأتي

المحور السابع

الدُّخول في السِّلم كافَّة (الإسلام والسَّلام)، فهو شرط تحقُّق الرُّشد، والعدل، والإحسان في الحضارة الجديدة التي تشرق على العالم

[البقرة 208-214]

المناسبة والاتصال:

هذا المحور تداخل مع المحور التّشريعيِّ الفقهيِّ الحياتيِّ الذي جاء في التّرتيب السّادس، ثم أكمل في التّرتيب الثّامن من محاور سورة البقرة؛ ليسطِّر إعجازًا تربويًا وسياسيًا، ويُظهر جمالاً قرآنيًا مبهرًا، للسببين الآتيين:

سبب [1]

ليبيِّن الله عز وجل لك الصِّلة الكبرى بين تطبيق شرائع الإسلام كافة، وفكرة بناء التّقوى من خلال العبادات والأحكام السّابقة، فقد قسّم الناس إلى قسمين:

القسم الأول:

من يعجب الناس ظاهره وحلو منطقه، ويشهد الله عزوجل على ما في قلبه، فيلزم صور العبادات ويترك مقاصدها، وهو الفاسد المفسد في حقيقته.

القسم الثاني:

المتّقي الذي يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله.. فأمر الله عز وجل القِسْمين أن يدخلوا في الإسلام كافّة، دون الاقتصار على أخذ بعض وترك بعض.

سبب [2]

إن كان المراد بالسِّلم الصُّلحَ والسّلامَ فتكون المناسبة بيان أن الأصل في الإسلام السّلام إلا على من اعتدى كما سبق في آيات حماية المجتمع، وجاءت هذه الآية بعد ما سبق؛ ليبيّن الله عز وجل أن حماية المجتمع، وذمّ المفسدين، وتشريع نظام الحماية الأمنيّ لا يعني تسويغ الاعتداء على الآخرين؛ إذ الأصل في الإسلام السِّلم لا الحرب، وإنما ذكرها بعد الحجّ؛ لأن إقامة الحجّ دليل على الاستقرار الأمنيّ الذي يشهده المجتمع المسلم، ولأن تشريع القتال جاء ردًا للعدوان القرشيّ الذي منع المسلمين من إتمام الحجّ والعمرة، ولذا استأنف الكلام هنا بأمر المسلمين بالرِّضا بالسِّلم والصُّلح في الحديبية الذي عقده رسول الله ﷺ مع أهل مكّة عام الحديبيّة؛ لأن كثيرًا من المسلمين كانوا آسفين من وقوعه.

ذكر الله عزوجل فريضة "الدُخول في السِّلم كافّة" في أوّل المحور، ثم ذكر موانع الدُخول في السِّلم كافّة:

قسم [1]

فريضة الدُخول في السِّلم كافّة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: 208] **النّداء يدلُّ على التّحضيض الشّديد للمخاطبين ليُثبِتوا إيمانهم بالدُخول في السِّلم كافّة، والمعنى الأول له: الإسلام أي: ادخلوا في شرائع الإسلام كافّة في المجالات الفكريّة والسِّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة.. في الأمور القلبيّة والعقليّة.. في فعل الطّاعات، وترك الخطيئات.. ولا تنتقوا ما تشتهيه الأهواء، وهذا الأمر بالدُخول لتثبيت الفاعلين، ولأمر المتردِّدين، فالدُخول فيه كافّة ضمانة لأمنكم القومي.**

بصيرة 1

بصيرة 2

المعنى الثاني للسِّلم: الصُّلح والسَّلام، أي: ادخلوا أيُّها المؤمنون في جميع أنواع الصُّلح والسَّلام الدَّاخليّة والخارجيّة ما دامت لا تضادُّ الإسلام، ولا تضرُّ بمصلحة المسلمين. وفي كلا المعنيين رَدٌّ على من يفرِّق بين الإسلام كعقيدة، والإسلام كشريعة، ويفرِّق بين الإسلام في العبادات الشَّعائريّة، والإسلام كدولة.

قسم [2]

ذكر الله عز وجل الموانع من الدُّخول في السِّلم كافة مرتَّبة ترتيبًا منطقيًا في الآيات [البقرة: 208-214]، فذكر (10) موانع:

مانع [1] اتِّباع الخطوات الشَّيطانيّة

ويبصِّرنا به قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [البقرة: 208]، حيث تسوِّل هذه الخطوات للنَّفس اتِّباع بعض الشَّرائع والنُّظُم الإسلاميّة، وترك بعضها، مثل استنكاف الميل إلى السَّلام، والاستهتار به بزعم الشَّجاعة، أو العكس بموالاة المعتدين.

مانع [2] نسيان عداوة الشَّيطان

ويبصِّرنا به قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: 208]، فمن الموانع نسيان عداوة الشَّيطان، بل تسخير وسائل الإعلام والثَّقافة للتَّشجيع على اتِّباع خطواته في تطوُّر مذهل للغفلة، وتكريس للعبث.

مانع [3] تقحُّم الزَّلات بدعوى سعة عفو ربِّ البريّات

ويبصِّرنا به قوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [البقرة: 209]، فمن الموانع تقحُّم الزَّلات بدعوى سعة عفو الله عز وجل، والاستهانة بالمخالفة لكلامه بفهم عفوه وغفرانه على وجه الخطأ، فالآية تتضمَّن الوعيد الشَّديد والتَّخويف، حتى يترك الزَّلل، فلم يقل: فإن زللتم فإن الله غفور رحيم، بل قال: فاعلموا أن الله عزيز حكيم، والعزيز الحكيم إذا عصاه العاصي، قهره بقوته، وعاقبه بمقتضى عدله وحكمته.

مانع [4] طول الأمل والغفلة عن يوم الحساب الإلهيّ

ويبصّرنا به قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾ [البقرة: 210]، والمعنى: هل ينتظرون؛ ليدخلوا في الإسلام كافّة إلا أن يأتيهم الله عز وجل في ظُلَل من الغمام، أي: قِطَع السّحَابِ، جَمْعُ ظُلّةٍ؛ لأنها تظلُّ الإنسان، فيكون معنى الآية حسب السِّياق: ألن يتوبوا حتى يحدث ذلك؟ وعندها ماذا سيرون وماذا سينفعهم وقد قضي الأمر؟ ثم عقّب على ذلك فقال: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [البقرة: 210]، فأمور الدُخول في السِّلم كافّة وترك ذلك أو بعضه كلُّها سترجع إلى الله عز وجل الذي سيفصِّل لكلِّ فردٍ حسابه بدقّة.

مانع [5] انتظار المعجزة

ويبصّرنا به قوله تعالى: ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖۗ﴾ [البقرة: 211]، أي: ألن يدخلوا في السِّلم كافة؛ حتى تأتيهم معجزة.. فعند ذلك ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖۗ﴾ [البقرة: 211] فأعطيناهم المعجزات ابتداء أو بناء على طلبهم، فماذا فعلوا؟ بدلوا نعمة الله كفرًا.. ولذا قال الله بعدها: ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [البقرة: 211] انظر كيف اتّضح النّظْم القرآنيُّ المعجز.

مانع [6] علوُ الكفّار

ويبصّرنا به قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 212]، وهذا العلوُ جعل الكافرين يظنُّون الحقّ مرتبطًا بما أوتوا من قوّة، ممّا يجعلهم يسخرون من المؤمنين فينحاز إليهم المتردِّدون والخائفون من المؤمنين، ولا يحتملون الدُخول في شرائع الإسلام كافّة

مانع [7] تعلُّقُ القلبِ بزينة الدُنْيَا وهيامُه بحبِّها

يمنعه من الدُخول في السِّلم كافّة، ويعزِّز في نفسه التّعاظم على الآخرين بتملُّكِها وحيازتها، ويبصّرنا بذلك قوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ [البقرة: 212].

بصيرة

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [البقرة: 212]: تبصّرنا بأنّ المصير الأخير الباقي يكون بالفوز الكبير للمتّقين على المجرمين يوم القيامة، فلا يُغترّ بالوضع القائم الزّائف في الدُنيا.

مانع [8] عدم التَّوفيق الإلهيّ للدُّخول في السِّلم كافَّة

ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [البقرة: 212]، ومن معاني هذه الجملة:

معنى [1]

لا يدخل الحساب في النِّعم المعطاة؛ لأنّ نِعَمَ الله لا تبيد ولا تنتهي، كما قال النّبيُّ ﷺ: ((يَدُ اللهِ مَلأَى لاَ تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)) "البخاري (4684)".

معنى [2]

يرزقهم بغير تقدير مكافئ لأعمالهم، فليس رزقهم حسب أعمالهم، بل يفيض عليهم من عطائه فيضًا، فيرزق من يشاء رزقًا واسعًا من حيث لا يحتسب المرزوق ولا يكتسب.

معنى [3]

يرزقهم بِغَيْرِ حِسَابٍ عَلَيْهِ مِنْ أَحَدٍ، فَهُوَ الَّذِي خَلَقَ وَرَزَقَ، فليس فوقه ربٌّ يُخشى، ولا إله غيره يُدعى.

معنى [4]

﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي: دون أن يحاسبهم على أعمالهم في الدُّنْيَا؛ إذ الحساب على الأعمال في الآخرة.

بصيرة 1

ما أشدّ حرمان من يضع السُّدود المانعة بينه وبين عطاء الله عز وجل وفُيُوض رزقه؛ رغم أنّ فضل الله عز وجل واسع، ورزقه مبذول ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.

بصيرة 2

مساكين أولئك ومحرومون الذي يمنعون عن أنفسهم عطاء الله عز وجل وفضله وواسع رزقه بما يجترحونه من إقامة السُّدود المانعة الدّافعة لتنزُّل رحمته وتدفُّق رزقه ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.

مانع [9]

البغي

ويبصّرنا به قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: 213].

والمعنى ظاهر من الآية تمامًا:

1 كان الناس أمّة واحدة في الارتباط ببعضهم أو في الضّلال إلا بقايا صالحة لا يذكرون، فبعث الله النّبيّين مبشرين ومنذرين لإنقاذ البشريّة، فاختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وأنزل الله عز وجل مع النّبيّين الكتاب بالحقِّ تأييدًا لهم ليقودهم إلى تحقيق المصالح البشريّة بأيسر طريق.

2 ومن المصالح البشريّة أن يُحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، إلا أنّهم بدلًا من أن يجمعوا عليه لظهور بيّناته اختلفوا فِيه وفي تأويله، والذي اختلف فيه، فخالف هو الباغي من الذين أوتوه بعد ظهور﴿البينات﴾، ويلحق بهم من بغى من المسلمين مع ظهور الحق، فقد قال الله عز وجل: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ [الحجرات:9].

[3]

و ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ هي الدلائل:

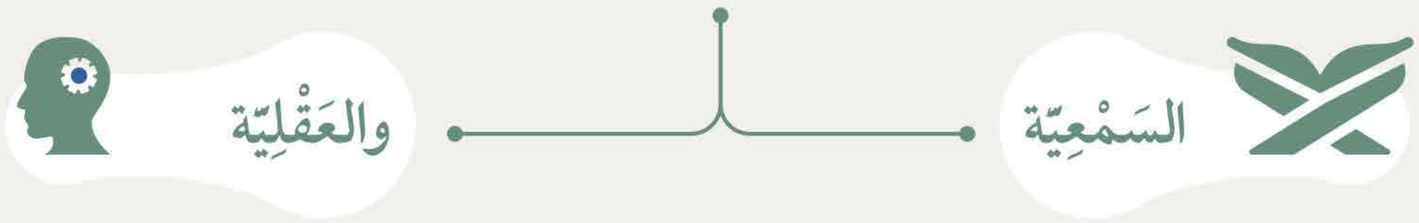

فعادت الْمَصْلَحَةُ مَفْسَدَةً، فبغى المخالفون على المؤمنين، فهدى الله عز وجل المؤمنين المتيقّنين الذين يبحثون عن مراد الله عز وجل لا عن أهوائهم إلى الحقِّ بإذنه بيسرٍ وتوفيقٍ.

مانع [10] الابتلاء الشَّديد، وتأخُر النَّصر

ممّا يحدث الزِّلزال العقليّ في نفوس من يصيبهم البلاء، فربّما تردّدوا في الدُّخول في السِّلم كافّة، ويبصّرنا بهذا المانع قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: 214]، فذكر الله عز وجل ثلاث ابتلاءات تحلُّ بأصحاب الدعوة إلى الحقِّ:

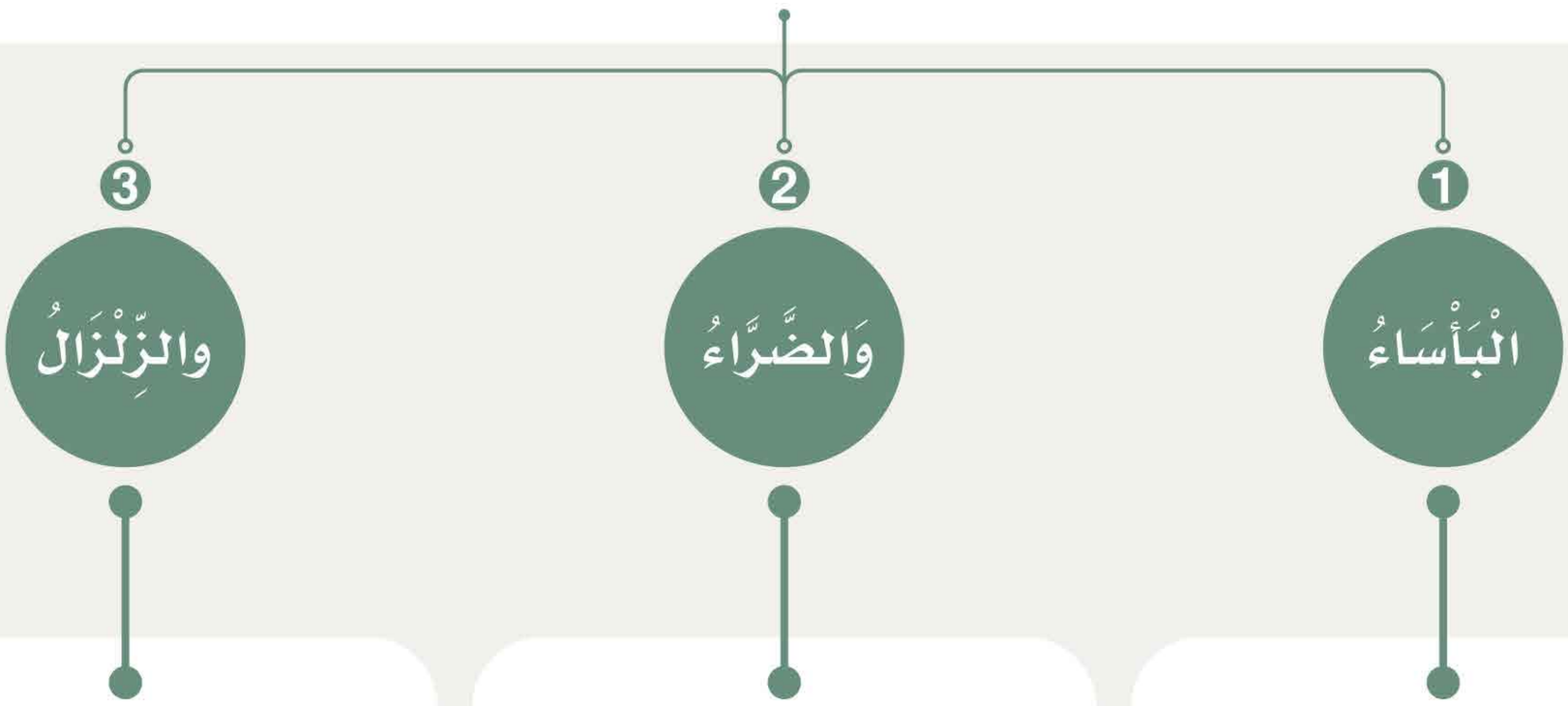

المحور الثامن

التَّمكين التَّشريعيُّ للحضارة الإسلاميَّة الجديدة التي تشرق على العالم من المدينة (القِسْط الثَّاني): وذكر الله عز وجل فيه النُّظُم التَّشريعيَّة الفِقهيَّة الحياتيَّة، وآثارها في صناعة حياة الرُّشد، والعدل، والإحسان

[البقرة: 215-242]

بعد أن عرفنا في المحور الأوّل نظام الحياة الحقيقيّ المتمثّل في نظام العبادة لله تعالى، وعرفنا في المحور الثَّاني التَّكريم الإلهيّ للبشريّة بالاستخلاف في الأرض، ووقفنا في المحور الثَّالث على الأنموذج الإسرائيليّ في الاستخلاف في الأرض، وتعرّفنا في المحور الرّابع على إرث الأمّة الإسلاميّة للمِلّة الإبراهيميّة، وكيف نجحوا في اختبار الاستخلاف، ثم تعرّفنا في المحور الخامس على حقيقة التوحيد المقترنة بالرّحمة، وتعرّفنا في المحور السادس على القسط الأول من النُظُم التّشريعيّة الفِقهيّة الحياتيّة، وتعرّفنا في المحور السابع على وجوب الدُخول في السِّلم كافّة (الإسلام والسّلام)، قد تسأل: أين القسط الثاني من النُظُم التّشريعيّة الفِقهيّة الحياتيّة؟

الجواب: هنا يأتي

المحور الثامن

التَّمكين التَّشريعيُّ للحضارة الإسلاميَّة الجديدة التي تشرق على العالم من المدينة (القِسْط الثَّاني): وذكر الله ﷻ فيه النُّظُم التَّشريعيَّة الفِقهيَّة الحياتيَّة، وآثارها في صناعة حياة الرُّشد، والعدل، والإحسان

[البقرة: 215-242]

المناسبة والاتصال:

لمّا ذكر الله النُظُم التّشريعيّة في الآيات السّابقة [البقرة: 172-207]، ثم فصل بينها بالمحور السابع، وهو الذي يبيّن ضرورة الدُخول في السِّلم كافّة الذي يعني اتّباع شرائع الإسلام والدُخول في اتفاقيات السّلام، وذلك في الآيات من [208-214]، أكمل هنا التّشريعات الحياتيّة التي تنظِّم المعايش الدُنيويّة؛ ليغدو المجتمع أكثر سلامًا وسعادة وعدالة.

أقسام هذا المحور:

- قسم [1]: الإنفاق المجتمعيُ لمحاربة الفقر [البقرة: 215].
- قسم [2]: توازن القوى في المجال العسكريِ لحماية المجتمع من الأخطار الخارجيّة [البقرة: 216-218].
- قسم [3]: محرّمات اللّهو المدمِّر: الخمر والميسر [البقرة: 219].
- قسم [4]: الإنفاق يحقِّق الاكتفاء الذّاتيّ (الاستقلال الاقتصادي) [البقرة: 219].
- قسم [5]: الإصلاح الفكريُ والماليُ لليتامى [البقرة: 220].
- قسم [6]: الأحكام الأُسريّة: تكوين الأسرة [البقرة: 221].
- قسم [7]: حدود المتعة في الحياة الزّوجيّة [البقرة: 222-223].
- قسم [8]: الأيمان في الحياة الزّوجيّة وغيرها [البقرة: 224-225].
- قسم [9]: الإيلاء وعلاقته بالسّكِينة في الحياة الزّوجيّة [البقرة: 226-227].
- قسم [10]: الإعجاز التّشريعيُ في الفراق الزّوجيِ بما يقيم العدل والإحسان ويُبقي التّرابط الاجتماعيّ [البقرة: 228-242].
- قسم [11]: المحافظة على الصّلوات في أوقاتها [البقرة: 238-239].
- قسم [12]: أحكام إعطاء المتعة للمتوفى عنهنّ أزواجهنّ وللمُطَلّقات [البقرة: 240-241].

القِسم الأول

الإنفاق المجتمعيُ لمحاربة الفقر

[البقرة: 215]

المناسبة والاتصال:

1 الْآيَات السَّابقة دَلَّتْ عَلَى أَنَّ حُبَّ النَّاسِ لِزِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أساس للسُّخريّة من القوى المؤمنة التي قد تكون الأضعف في الواقع الدُّنيويّ، فذكر الله عز وجل مباشرة سؤال المسلمين عن نوعيّة النَّفقة (المخرَج) ولمن (المخرج له)؛ ليبيِّن ضرورة أن ينافسوا في تحصيل المال ويبرزوا في المنافسات الاستثماريّة؛ حتى يتمكّنوا من الإنفاق، فصحّح بذلك مفهوم الزُّهد في الدُّنْيَا.

2 ذكر في الآية السَّابقة مباشرة الابتلاء باعتباره سببًا من أسباب تردُّد الناس في الدُّخول في السِّلم كافَّة، وذكر النَّفقة هنا باعتبارها من الشَّرائع والنُّظُم الإسلاميّة التي يظهر بها التَّناصر والتَّعاضد والتَّثبيت بين المسلمين زمن الابتلاء، ووضّح مصارفها غير الزَّكوية، كما ذكر الله عز وجل الإنفاق قبل ذكر التَّوازن العسكريِّ للأمّة في الآية [216]؛ ليؤكِّد على ضرورة الاهتمام بالبُعد الاقتصاديِّ المتراحم؛ لينجح البُعد العسكريُ المدافِع.

وتكوّن هذا القِسم من 8 مواد، وهي:

1 مادة [1] ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ [البقرة: 215]

تبصِّرنا بأن السُّؤال يدلُ على أن المسلم الحقيقيّ يتحرّى الحكم الإسلاميّ في الصَّغيرة والكبيرة من شؤون حياته، وضمير المخاطب في ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يوحي بأن المجتمع يحترم التَّخصُصات فيتوجّه بالسُّؤال إلى المُخَوّل علميًا ومعرفيًا بالجواب عنه، والفعل المضارع يدلُ على الاستمرار والتَّجدُّد، وأن المجتمع المسلم النَّاهض قد تأصّلت فيه روح البحث العلميِّ حتى صارت صبغة غالبة على أفراده، بحيث صار في حالة حيويّة واستكشاف للحياة بالسُّؤال الدَّائم عن حكم الشَّرع في أمور الحياة.

2 مادة [2]

﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 215]

تبصّرنا بإيجاز رائع حول قضيتين: مقدار النّفقة، ومصارفها.

3 مادة [3]

﴿قُلْ﴾ [البقرة: 215]

تدل على أمرين:

1. بيان حيثيّة الحكم: اسمعوا التّكليف والتّشريف المترتّب على الإيمان ممّا تفاخرون به بني الإنسان.
2. وتدلُّ على ضرورة الإعلام والتّعليم للتّشريعات الإسلاميّة، فكلمة ﴿قُلْ﴾ تعني الإخبار العالميّ بذلك إعلامًا وتعليمًا؛ لتظهر طبيعة النّظام الإسلاميّ.

4 مادة [4]

﴿مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: 215]

تبصّرنا بطبيعة النّفقة، حيث حوت كلمة ﴿خَيْرٍ﴾ المعاني الآتية:

معنى [1]: الذي يُنفق يكون خيرًا للجميع، فهو خيرٌ للمعطي، وخيرٌ للآخذ، وخيرٌ للجماعة، وخيرٌ في ذاته.

معنى [2]: كلمة ﴿خَيْرٍ﴾ تشمل كلّ خيرٍ صغر أو كبر، ولو كان ابتسامة، أو شقّ تمرة، وهذا يدلُّ على استنفار طاقات الأمّة مهما تضاءلت للتّعاون ولينفق كلُّ إنسان حسب إمكاناته. وذلك ليواجهوا معًا الابتلاء، أو ليتعاونوا في متطلبات البناء والإعمار في الحياة.

معنى [3]: ﴿خَيْرٍ﴾ تدلُّ على الطّيب من جهة أخرى، فيتحرّى المنفق الخير ممّا عنده فينفق منه، فيشارك الآخرين فيه، والمعنى: ما أنفقتم فليكن من الخيّر وليس الرّديء.

معنى [4]: المال هو أوّل وأولى ما ينفق، وإضفاء صفة الخيرية عليه ﴿مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: 215] يقرّر فلسفة الإسلام الواقعيّة في النّظر للمال وتنميته؛ إذ هو قوام الحياة وعنوان الثراء الحضاري.

5 مادة [5]

﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: 215]

تبصِّرنا بأهمِّ مصارف النَّفقة العامّة غير الزَّكويّة، وهم أصناف خمسة من المجتمع مسلمين كانوا أو كفارًا، وبذلك لا يمكن أن تطرق فتنة الجوع أحدًا من أفراد المجتمع.

6 مادة [6]

﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ [البقرة: 215]

تبصِّرنا بعظيم منزلتهما، وعلوِّ مكانتهما، وعظيم قدرهما في الإسلام، كما دلّت على ذلك كثير من الآيات الكريمة، والأحاديث العظيمة، فقد قُدِّما وأُكرما؛ لأنهما الأَوْلَى بالإنفاق والمواساة قبل الآخرين.

7 مادة [7]

﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 215]

تبصِّرنا هذه الجملة بضرورة الجمع بين النَّفقة ومطلق فعل الخير مهما قلّ أو تضاءل، كما تلفت قلوب المنفقين إلى الإخلاص لله عز وجل في الإنفاق، وانتظار حسن ثوابه، وعدم انتظار شكر شاكر.

8 مادة [8]

المراد في الآية الإنفاق خارج الوعاء الزَّكويِّ

فإنه واجب محتوم، وكذلك الإنفاق خارج الواجبات الشَّخصيّة المعروفة، مثل الإنفاق على الزَّوجة والأولاد.. فسياقها يرسم لنا صورة المجتمع المتراحم المتآزر الذي يتلمّس أفراده حاجات بعضهم فتُسَدُّ خَلّة المحتاج ويُجبر المكسور ويُعان.

القِسم الثاني

توازن القوى في المجال العسكريِّ لحماية المجتمع من الأخطار الخارجيّة

[البقرة: 216-218]

المناسبة والاتصال:

لمّا بين وجوب الدُخول في السلم كافة في الآيات [208-214]، وأشاع التّكافل المدهش الذي يُعدِم الفقر من خلال آية النّفقة [البقرة: 215]، أوجب الإعداد العسكريّ لإيجاد توازن للقوى حتى تتمّ حماية المجتمع، وتُزال الفتنة عن المستضعفين والمظلومين، ويتحقّق تأمين الرّفاه الاقتصاديِّ التّكافليِّ؛ إذ من أسوأ جرائم المعتدين منع التّكافل في المجتمع، وردّ الله عز وجل على المشوِّشين على الإعداد العسكريِّ من خلال بيان فظاعة الجرائم التي يرتكبها المعتدون، فيوغلون في إيقاع الفتنة في العالم، وبذلك يُردُّ على المشوِّهين لمبدأ الجهاد كما يُردُّ على مصّاصي دماء العالم الذين يخترعون أفتك الأسلحة ويستعملونها، ثم يركِّزون على أخطاء محدودة يقترفها غيرهم، وقد جاء القِسم الأول بمثابة تأمين للجبهة الدّاخليّة، وحفاظ على تماسكها وتكافلها؛ لتنجح في الوقوف صامدة في الجبهة الخارجيّة الآتي ذكرها في القِسم التالي.

وتكوّن هذا القِسم من 9 مواد، وهي:

1 مادة [1] ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ [البقرة: 215]

تبصّرنا بأنّ الأصل في الإسلام السِّلم، فالقتال مكروه طبيعة، وتزداد كراهته عند من يحملون شريعة الرّحمة للعالمين، لكنّه قد يجب عند الضّرورة والحاجة؛ لأنه أساس الحماية من الاعتداءات القُرَشيّة والقوى المجرمة الأخرى، وهو يعني تفوُّق القوّة التي تخضع في دينكم العظيم لشريعة الرّحمة، بعكس الجهات الأخرى.

2 مادة [2]

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾

فهذا قانون حياتيٌ نفسيٌ يدلُ على أنك يجب أن تنظر إلى المصالح العليا لك وللمجتمع، وعند ذلك تحب المكروهات، وتبغض المحبّبات إذا ترتّب على ذلك تحقيق المصالح العليا، ولذا وجب القتال ردًا على الإجرام القُرَشيِّ زمن نزول الآية، والإجرام عمومًا في أيِّ زمن كان، فالأساس في حماية حضارة العدل التي تشرق على العالم تفوقُ القوّة وَفْقَ شريعة العدل والرّحمة

3 مادة [3]

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 216]

تبصِّرنا بأن نزرع الثقة والطمأنينة بعَظَمة نُظُم الشّريعة المستمدة من عالم الغيب والشّهادة الذي يعلم ما ينفعنا، ومن ذلك تشريع الجانب الوقائيِّ، والأنظمة الأمنيّة والعسكريّة التي تحمي الأمّة، وهذه البصيرة ينبغي أن نردِّدها في حياتنا في كلِّ أحداثنا.

4 مادة [4]

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ﴾ [البقرة: 217]

تبصِّرنا باستمرار التّشويش واللّغط الإعلاميِّ الفظيع الذي يردِّده المتطرِّفون حول فرضيّة القتال في الإسلام، ويقرِّر دلالة الاستمرار ومعناه الفعل المضارع ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ عن الشّهر الحرام هل يجوز فيه القتال؟

5 مادة [5]

﴿قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ﴾ [البقرة: 217]

تبصِّرنا بضرورة صنع المحاور الإعلاميِّ المتمكِّن الذي ينطلق من الحقائق المتفق عليها، وهنا يقول: أجبهم وحاورهم ولا تتهرّب من مواجهتهم إعلاميًا، وليكن جوابك عند التّشويش واضحًا وصادقًا، وقل لهم الحقيقة، ولا تخف منها: نعترف بأن القتال في الشّهر الحرام كبيرة من الكبائر.

6 مادة [6]

﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾

أكمِل الجواب وأنت تحاورهم، وبيِّن لهم أنّ الفظائع الأربع التي يرتكبونها أكبر من الخطأ الذي وقع فيه بعض المسلمين، فالصدُّ عن سبيل الله، والكفر به، والصدُّ عن المسجد الحرام والكفر العمليُّ به، وإخراج أهله منه.. كلُّ واحدة من هذه الجرائم الأربع أبشع من القتال في الشّهر الحرام فَكَيْفَ بِهَا وَقَدِ اجْتَمَعَتْ.

7 مادة [7]

﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ [البقرة: 217]

تبصِّرنا بقانون من أهمّ القواعد السِّياسيّة العالمية، وهي العلة العامة لمشروعية القتال، فالفتنة: عبارة عن الامتحان، فهي اسمٌ شاملٌ لما يَعْظُم من الأذى في الأجساد، والشُّبَه في العقول والقلوب، وهذا الأذى امتحان حقيقيٌّ لمعرفة الصّادق من الكاذب، والله تعالى في هذا القانون يوجِّه الخطاب لثلاث فئات:

فئة [1] المسلمون:

فيحذِّرهم من أنّ الفتنة الشّاملة للأذى والشُّبَه أكبر ممّا يخافون وقوعه من القتل الذي يظنُّونه سيصيبهم عندما يقومون بواجب حماية الأمّة.

فئة [2] المجاهدون:

فيحذِّرهم من أن عدم صبرهم على الجهاد وميلهم إلى القبول بالوقوع في الأَسْر ستترتّب عليه خسائر أكبر من وقوعهم قتلى في سبيل قضيتهم. إنه العذاب الذي يتمنون معه الموت فلا يجدونه.

فئة [3] المجرمون المشوشون على الجهاد

فيقرِّرهم بأن مجموع جرائمهم السِّياسيّة والعسكريّة ضدّ العالم البريء الذي يشمل المؤمنين، لا يمكن أن يقارن بارتكاب مسلم للقتل خطأً، هم يقومون بفتنة العالم بأسره، وتتخيّل عندما تسمع كلمة (فتنة) هؤلاء المجرمين وهم يقومون بوضع العالم كلّه في قدور النّحاس التي تغلي؛ إذ أصل الفتنة من فَتَنْتُ الذّهبَ بالنّار، إذا امتحنتَه.

8 مادة [8] ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: 217]

وهذا قانونٌ سياسيٌّ يرسم الواقع المستقبليّ للأمّة الإسلاميّة، ويوضّح إصرار مجرمي العالم على الصِّبغة الدِّينيّة في خططهم العسكريّة، ويُبَيّن أنه لا يمكن تغيير العقيدة الدِّينيّة القتاليّة لدى المجرمين لكنها تتقاطع مع المصالح، والمصالح لا تلغي الصِّبغة الدِّينيّة.

9 مادة [9] ينقسم المجتمع المسلم أمام فتنة المعتدين الخارجيين إلى صنفين:

صنف [1] المرتدون:

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ [البقرة: 217]، وهم الذين أصابتهم الفتنة فلم يثبتوا على دينهم، ولم يَصْدُقوا في إيمانهم، فَجُوزُوا بثلاث عقوبات:

عقوبة [1]

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: 217]، حبط: من الحَبَط، وهو يدلُّ على بطلانٍ أو ألَمٍ، حيث تأكل الإبل بشهوة للشِّبع فتصاب بالحَبَط وهو انتفاخ بطونها؛ لكثرة الأكل فتموت، فحَبْط الأعمال: زوال الآثار الشَّرعيّة الدُّنيويّة والأخرويّة، فهذه العقوبة جواب لقوله: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾.

عقوبة [2]

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: 217]، وقيل بأن هذه العقوبة جواب لقوله: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾.

عقوبة [3]

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 217]، وذكر هذه العقوبة حثًّا للمرتدِّين للرُجوع إلى الدِّين بدلاً من التَّمادي في العناد؛ إذ الذي ارتدّ إنما ارتدّ بسبب الفتنة ابتغاء حياة زائلة، فماذا تساوي أمام عقوبة خالدة في النار؟

صنف [2] الثّابتون:

عرفهم الله عز وجل بثلاث صفات: الإيمان والهجرة والجهاد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 218]، فذكر الجهاد هنا ليشمل كلّ ميدانٍ يبذل فيه الجهد لإعمار هذه الحياة وفق المبادئ الإلهيّة العظمى: الرّحمة والعدل والإحسان.

جزاؤهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 218]، والرّجاء: ترقُّب الخير مع تغليب ظنِّ حصوله.

بصيرة

وفي إيراد الهجرة بعد الإيمان وإيراد الجهاد بعدها ما يفيد أنّ هجرة أهل الإيمان ليست هروبًا وتنصّلًا عن القيام بمقتضى الإيمان ونصرته، بقدر ما هي إعداد للنفوس، وترتيب للصُفوف للانخراط في جهاد شامل رجاء تحقُّق رحمة الله عز وجل بهم وبالناس في الدُنْيَا قبل الآخرة.

مقدِّمة للأقسام التي تلي القِسم الثاني

المناسبة والاتِّصال بين القِسم السّابق وبقية الأقسام ضمن هذا المحور:

ذكر الله عز وجل فيما سبق التّشريعات الخاصّة بحماية المجتمع ضدّ الاعتداءات والمؤامرات الخارجيّة، وشرع القتال لإزالة الفتنة التي سلّطها المعتدون القُرَشيُون وحلفاؤهم، ولإنقاذ المستضعفين في الأرض، وربط هنا بين هذا الإنقاذ لهم من الأخطار الخارجيّة وبين تحصين الأمن القوميّ من الأخطار الدّاخليّة التي تهدِّد نسيج المجتمع، فذكر هنا خمسة حصون لتماسك الجبهة الدّاخليّة للمجتمع:

حصن [1] الحذر من الوقوع في المحرّمات مهما بدت ذات منفعة ظاهرة محدودة مؤقّتة فإن حقيقتها الضّرر المجتمعيُ العامُ والإثم البالغ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: 219].

حصن [2] المحافظة على سيرورة ودوران متطلبات الحياة المادّية نفعًا وانتفاعًا ورفقًا وارتفاقًا، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ﴾ [البقرة: 219].

حصن [3] تلمُس حاجات الضُعفاء كالأيتام، وتعاهدهم بالإصلاح الدِّينيّ والدُنيويّ، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾ [البقرة: 220].

حصن [4] تمكين البناء الأُسَريّ وتمتين وشائجه والتّعامل الواقعيُ مع حالات عدم التّوافق الزّوجيّ، وهذه امتدّت من الآية [221] إلى الآية [242].

حصن [5] المحافظة على الصّلوات في جميع الظُروف ضمان لمجتمع قائم على الخير والعدل والتّراحم، وسبب لشيوع السّكِينة بين أفراده [البقرة: 238-239].

بصيرة

في توالي وتكرُر ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ إشارة للحال الطّبيعيّة المتأصّلة في المجتمع الناهض الحريص على سلامة مصدر التّلقي لموجهات السّير ومرشدات الطّريق.

القِسم الثالث

محرّمات اللّهو المدمِّر: الخمر والميسر

[البقرة: 219]

المناسبة والاتصال:

1 شيوع محرّمات اللّهو والميسر يدلُ على الرّخاوة الشّديدة للأمّة في مجال الحفاظ على أمنها الدُنيويِّ والأخرويِّ، فكيف يمكن لها التّحصُن من الأخطار الخارجيّة وهي تلهو وتنفق أموالها عبثًا؟!

2 وفي الوقت ذاته لا تجهد نفسها لإنقاذ أبنائها المحتاجين بإنفاق فضول الأموال عليهم، وبدلًا من إنفاقها على ما يحصّن أمنها، ويقوّي مناعتها تنفقها على الخمر والميسر؛ ولذا قدّم الله عزوجل أمام الكلام عن هذين الخطرين الكلام عن الإيمان والهجرة والجهاد في الآية السّابقة، وكلها مهام جسيمة لا يمكن القيام بها مع معاقرة هذه الملهيات المحرّمة. وقد تكوّن هذا القِسم من (11) بصيرة:

بصيرة 1 ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: 219]

تبصّرنا بأنه لا بدّ أن يكون المجتمع يقظًا لا غافلًا، والسُؤال عن الخمر والميسر من علامات يقظة المجتمع في البحث عما ينفعه، إذ يختلط الأمر على الناس في معرفة الصّحيح والباطل؛ نظرًا لانتشار الخمر والميسر، وعدم وضوح المباح والمحرّم من ملاهي الدُنْيَا، والفعل المضارع يدلُ على تكرار السُؤال؛ نُفْرة عنها من قبل المصلحين، ورغبةً فيها من قبل الرّاغبين.

بصيرة 2 ﴿عَنِ ٱلْخَمْرِ﴾ [البقرة: 219]

تبصّرنا بضرورة أن تسمّى الأمور بأسمائها الحقيقيّة لفَهْم الواقع بوضوح، ولذا سمّى الله عز وجل الخمر باسمها ولم يسمِّها المشروبات الرُوحيّة كما يفعل أتباع الشّهوات، والخمر اسمٌ مأخوذ من خَمَرَ يَخمُر فهو خامر، إذا غطّى وستر، ومنه الخِمار، وخمِرَ يَخمَر، فهو خمِر: إذا تَغَيَّرَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ، سمّي به العصير إذا غلى واشتدّ وقَذَفَ بالزَبَد فصار مُسكِرًا ثم سكن؛ فهو يستر العقل عن تصرُّفه الطّبيعيّ الفطريّ، ويغيّرُه فيدفعه إلى تصرُّفٍ غير لائق.

بصيرة 3 ﴿وَٱلْمَيْسِرِ﴾

تسمية الأشياء على غير حقيقتها لا تحلّلها، ﴿وَٱلْمَيْسِرِ﴾ أي القمار، فالميسر تسمية جاهليّة تزيّن المحرّم، مشتقٌ من اليسر والسُهولة ضدّ العسر والشِدّة، وحقيقته: غُرْمٌ مُحَقّق بِغُنْم محتمل، سمّوه بذلك؛ ليُزَيّنوا أضراره المدمّرة.

بصيرة 4 ﴿قُلْ﴾

تبصّرنا هذه الكلمة بوجوب البحث عن الجواب في القضايا الحياتيّة في الوحي الإلهيّ بخلاف البحث في سُنَن الخلق المادّية فإنه يتمُّ الاكتشاف لها من خلال الواقع التّجريبيّ.

بصيرة 5 ﴿قُلْ﴾

تدلُّ على وجوب استخدام وسائل التّبليغ المختلفة لإيصال مفاهيم الوحي الإلهيّ، ومنها التّعليم والإعلام.

بصيرة 6 ﴿قُلْ﴾

جعل الجواب منه سبحانه مباشرة؛ ليبيّنَ قطعيّة الحكم في أمرٍ يصرُّ عليه أتباع الشّهوات، ومدمرو المجتمعات، ولكن الجواب هنا غير قطعي التّحريم، ولذا بقي من يشربها

بصيرة 7 ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: 219]

هذا الجواب عن حكم الخمر والميسر يدلُّ على وجوب النّظر في جميع المسائل بما في ذلك الخمر والميسر بالعدل، فوجود الشُرور الكبيرة في شيء لا يعني ألّا تذكر المنافع الموجودة فيه، ووجود الخير لا يعني ألّا ينتبه للسُوء الموجود.

بَصِيرَة 8 ﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾

الخمر والميسر جمعت الشّرّ الكثير والكبير، فقد قرأ الجمهور ﴿إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ وصفًا للكيفيّة، وقرأ حمزة والكسائي ﴿كَثِيرٞ﴾ بالثاء المُثلّثة وصفًا للكمّيّة، وَمِنْ أهمّ أضرارهما إِفْسَادُ المجتمع بِتَعْوِيدِ النّفْسِ على تغطية العقل، والهرب من مواجهة المشاكل، وطلب الثّراء من الطُّرق الْوَهْمِيّةِ الضّارّة، وتجنُّب طرق الاستثمار الحقيقيّة النّافعة كالتِّجارة والزِّراعة والصِّناعة.

بَصِيرَة 9 ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾

تبصّرنا بأن الأحكام الشّرعيّة قوانين للمنافع البشريّة؛ إذ الشّريعة تقوم على مبدأ المصالح والمفاسد، فالمنافع: جمع منفعة، مصدر ميميٌّ قُصد منه قوّة النّفع، أو اسم مكان يدلُّ على كثرة ما فيه كقولهم مسبعة ومقبرة، فذكر المنافع لبيان حكمة التشريع؛ ليعتاد المسلمون مراعاة عِلَل الأشياء، ولتأنيس المكلّفين عند نزع أكبر اللّذائذ التي يتباهون بها، ولإظهار عذرهم عما سلف منهم كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ﴾ [البقرة:187].

بَصِيرَة 10 ﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ [البقرة: 219]

تبصّرنا بأنه يجب أن توجد الدِّراسة المتّزنة للقضايا المختلفة حتى نُهدَى سبل السّلام فيها، فهنا ذكر الله تعالى أن هناك منافعَ حقيقيّةً من الخمر والميسر من النّاحية الاقتصاديّة وغيرها، ولكنها منافع يحفها الكثير والكبير من الإثم؛ إذ تدمر أفراد المجتمع على المدى البعيد من الناحية الجسديّة والنّفسيّة، وتزرع الأنانيّة وحبّ الأَثَرة.

بَصِيرَة 11

هذه الآية أصل في الموازنة بين المصالح والمفاسد، والعمل بما رَجَحت فيه المصلحة على المفسدة، وتعدُّ من القوانين الكلّيّة العظيمة في الحياة.

القِسم الرابع

الإنفاق يحقّق الاكتفاء الذّاتيّ (الاستقلال الاقتصادي)

[البقرة: 219]

المناسبة والاتصال:

لما ذكر الخمر والميسر وما يترتّب على إهدار المال عليهما من خسارة وتدمير للأمن والحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة بين ما يترتّب على نمو المجتمعات من خلال عملية الإنفاق المتراحم الذي ربّما ينقل الطّبقات الوسطى إلى الغنيّة، وربما ينقل الطّبقات الفقيرة إلى الطّبقات الوسطى.

وتكوّن هذا القِسم من (6) بصائر:

بصيرة 1 ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾ [البقرة: 219]

تبصّرنا بأن السُؤال عن حكم الشرع في كلِّ شيء يدلُّ على الحركة العقليّة التي تطلب الصّلاح، والرُقي، والنُمو، والبحث الجاد عما يريده الله عز وجل لرفعة الناس.

بصيرة 2 ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ [البقرة: 219]

هذه الجملة عند النّظر إلى الصِّلة الوثيقة لها بذكر الخمر والميسر في الآية نفسها بأن مفتاح أمن المجتمع وحماية المصالح والاستثمارات ليس في الإنفاق على محرّمات الخمر والميسر، بل في التّعاون والتّراحم بين طبقات المجتمع، وتوسيع النّفقة على المستضعفين.

بصيرة 3 ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ [البقرة: 219]

تبصّرنا بأنّ العفو ما زاد على حاجة المرء من المال لسَنَةٍ، أو حسب حاله، أي: ما فَضُل بعد نفقته ونفقة عياله بمعتاد أمثاله، فالمرء ليس مطالبًا بارتكاب المآثم لينفق على المحتاجين، وإنما ينفق عليهم ممّا استفضله من ماله، كما أنه من العار والخطر الشّديد أن ينفق على الخمر والميسر في الوقت الذي يموت فيه إخوانه جوعًا.

بَصِيرَة 4 ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ [البقرة: 219]

تبصّرنا بأن الإسلام يحثُّ ضمنيًا هنا على الاستثمار والاستقلال الماليّ، وتحقيق الاكتفاء الذّاتيّ؛ لينفقوا الزّائد ويتنافسوا في تحقيق هذه المنزلة، وكيف ينفقون إن لم يملكوا ما ينفقون، فمبدأ إنفاق العفو أصلٌ اقتصاديٌ عمرانيٌ يؤدّي إلى حِفْظِ مَصَالِحِ الْأُمّةِ وَأَعْمَالِهَا الْخَيْرِيّةِ.

بَصِيرَة 5 ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾

تبصّرنا بأن التّشريعات الإسلاميّة تضمن تحقيق أفضل المصالح في الحياتين، فمعنى هذه الجملة المباركة: بيّن الله جلّ وعلا لكم الموازنة بين منافع الخمر والميسر ومضارّهما، وبيّن لكم البديل لتنفقوا أموالكم عليه لتحقّقوا أفضل النّتائج فيما ترغبون الوصول إليه من النّعيم في الدُّنْيَا والآخرة.

بَصِيرَة 6 ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ [البقرة: 219-220]

ذكر التّفكُّر في الحياتين؛ ليبيّن ضرورة البحث عن أفضل الوسائل لتحقيق السّعادة في الحياتين، وهو بذلك يفتح لنا الباب واسعًا للابتكار والاختراع وفق الثّوابت التي يذكرها لنا جلّ في علاه.

القِسم الخامس

الإصلاح الفِكريُّ والماليُّ لليتامى

[البقرة: 220]

المناسبة والاتصال:

تتميمًا للتَّحصين الدَّاخليّ الذي يبني العدل والإحسان، وقيامًا بإنفاق المال في مواضعه ذكر الله كيفية الإصلاح الفكريّ والماليّ لليتامى باعتبارهم شريحة مستضعفة ربّما أهملت في كثرة ضجيج التَّرف الذي يدلُّ عليه الخمر والميسر، أو ربما ضاعت بسبب الاهتمام بالإنفاق على المساكين المذكورين في آيات سابقة، ولأجل أن يقوم المجتمع بواجبه في رعاية اليتامى رعاية قائمة على التَّأهيل الفكريّ، والإصلاح الاستثماريّ الماليّ، وليس على مجرّد التَّعاطف المجرّد والإحسان السّطحيّ فقط، نرى الآية قد حوت (5) بصائر:

بصيرة 1 ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ [البقرة: 220]

سؤال المسلمين عن مختلف القضايا الحياتيّة في واقعهم يدلُّ على حياة المجتمع، ورغبته في سلوك الطَّريق الصّواب، فمن أهمِّ المهمّات لحياة المجتمع نشر كلِّ ما يتعلّق بالإسلام.

بصيرة 2 ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: 220]

تبصِّرنا بأنّ الإسلام قائم على الموازنة بين المحافظة على الحقوق مثل حقوق اليتامى، وبين إصلاح أوضاع أصحابها من النّاحية الماليّة والفكريّة، ويستبين ذلك من خلال معرفة سبب سؤال هؤلاء الموفقين عن اليتامى؛ إذ أنزل الله آياتٍ في اليتامى تحذر من قربان أموالهم مثل: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: 152]، [الإسراء: 34]، فهل يترك مال اليتيم دونما استثمار خوفًا من قربان أمواله؟، لذا تحرّكت العقليّة الإيجابية المبدعة عند المسلمين فسألوا عن اليتامى من هذه الناحية.

بَصِيرَة 3 التَّعامل مع اليتامى يتمُّ وَفْقَ أصلين:

أصل [1]

﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 220] فيتحمّل المجتمع (ممثّلًا في حكومته وشعبه) إعانة اليتامى على إصلاح أوضاعهم الشّخصيّة والماليّة والفكريّة في ذاتهم بالتّقويم والتّأديب، وفي أموالهم بالاستثمار؛ كي لا تأكلها النّفقة، فكلمة ﴿خَيْرٌ﴾ تتعلّق بأربع جهات: الكفيل، واليتيم، والفعل، والمال.

أصل [2]

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: 220] أي: يجوز لإصلاحهم وترقية أمورهم الشّخصيّة والماليّة مخالطتهم والمشاركة معهم بالمعروف كما لو أنهم إخوة، بما في ذلك النِّكاح.

بَصِيرَة 4 ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: 220]

تبصِّرنا بضرورة تنمية حسِّ المراقبة لله عز وجل؛ إذ هي جملة مزدوجة المعنى تحمل وعدًا، ووعيدًا، وتعني أنّ الله عز وجل يعلم دقائق التّفاصيل في المشاركة والمخالطة هل تريدون بها الإصلاح أم تحتالون بها على الإفساد، وإن لم يستطع القائمون على القانون اكتشافها.

بَصِيرَة 5 ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة: 220]

تبصِّرنا بأن الشّريعة تقوم على إصلاح الحياة البشريّة، وإدخال السُّرور عليها وليس على إعناتها وإدخال المشقّة في حياتها.

و(الإعنات): الحَمْل على مشقّة لا تطاق، يقال: أعنت فلان فلانًا إذا أوقعه فيما لا يستطيع الخروج منه، فهذه الجملة تذكر بضرورة أن يدخل شعور الثِّقة بالأحكام الشّرعيّة في نفوس العالم؛ إذ هي صادرةٌ من الله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 220].

القسم السادس

الأحكام الأُسريّة: تكوين الأسرة

[البقرة: 221]

المناسبة والاتصال:

ذكر الله عز وجل في القِسم السّابق الإصلاح المالي والفكري لليتامى ضمن الأسرة الكبيرة، وقد يكون من الإصلاح لهم الزّواج من اليتيمات أو تزويجهن، فاقتضى هذا ذكر التّشريعات الخاصّة بالزّواج والطّلاق.. كما أن الإصلاح لليتامى مرتبط بإصلاح طرفي الأسرة: الزّوج والزّوجة، فكان لا بدّ من ذكر أهمِّ أسس قيام الآصرة الزّوجيّة، وانفكاكها لتكون عامل بناء في المجتمع لا عامل هدم.

وتضمّن هذا القِسم (7) بصائر:

بصيرة 1 ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ﴾ [البقرة: 221]

تبصّرنا بأن أهمّ شرطٍ في الزّوجة الإيمان، فيحرم نكاح المشركة، فيشمل وصف الشّرك أهل الكتاب؛ إذ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ بَعْضِ عَقَائِدِهِمْ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: 31]، وأخرجت آية المائدة نساء أهل الكتاب من عموم النّهي عن نكاح المشركات ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [المائدة: 5].

بصيرة 2 جمال المظاهر لا يغني عن فساد السّرائر

﴿وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ﴾ [البقرة:221] تبصّرنا بأن العبرة بالإيمان، لا بجمال الأبدان عند التّعارض.

بصيرة 3 ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ﴾ [البقرة: 221]

تبصّرنا بأنّ أهمّ شرط في الزّوج الإيمان، وبأنه يحرم إنكاح المشرك، كما أن الفعل ﴿تُنكِحُواْ﴾ ببنائه لِمَا لم يسمّ فاعله يشير إلى أنه لا يجوز النِّكاح إلا بوليٍّ، سواء أكان قريبًا، أم قاضيًا، أم من يقوم مقام أحدهما بشرطه.

بصيرة 4 جمال المظاهر لا يغني عن فساد السرائر

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة:221] تبصِّرنا بأن التقديم يكون للإيمان لا لجمال الأبدان عند التعارض.

بصيرة 5 ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:221]

تبصِّرنا بأن الفرق عظيم بين ما يدعو الله عز وجل إليه، وما يدعو إليه المستسلمون للشّهوات، فهو يدعو بشريعته ودينه إلى الجنّة، ومغفرة الزّلّات والخطيئات.

ومعنى ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾

أي: بتيسير الله، وتوفيقه للعمل الذي يُستحقُّ به الجنّة والمغفرة، ومن الدّعوة إلى النّار الدّعوةُ لتغيير ما شرعه الله من هذه الأنظمة والتّشريعات الدّقيقة، وبذا فالأسرة باب عظيم للجنّة والمغفرة، وتدميرها باب رهيب للنار.

بصيرة 6 صِلَةُ الزّواج قويّة جدًّا

بل هي الصِّلة الوحيدة في الحياة التي يحصل فيها الامتزاج الجسديُ والعاطفيُ التّام بين الزّوج والزّوجة، فقد تدمّر المظاهرُ الوثنيّة والفسقيّة في الطّرف المشرك زينةَ الإيمان في الطّرف الآخر.

ولذا حرّم الزّواج من مشرك أو مشركة، وتمّ التّسامح مع نساء أهل الكتاب حال كون المؤمنين سيتزوجون بهنّ لإحصانهنّ ووقايتهنّ من الزّنا العلنيّ والسّرّيّ مع المراقبة الدّقيقة لمظاهر الإيمان الحقيقيّ، بحيث لا يؤدّي الزّواج إلى الرّدّة.. تأمّل كلّ ذلك في قوله -جلّ مجده-: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: 5].

بصيرة 7

﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة:221] تبصِّرنا بأن مدار الحياة الفكريّة الحقيقيّة هو آياته، والرُّجوع إليها والتّفكُّر فيها، ولا يمكن للإنسانيّة أن تجد نفسها بغير ذلك.

القِسم السابع

حدود المتعة في الحياة الزَّوجيّة [البقرة: 222-223]

المناسبة والاتصال:

1 ذكر الله جلّ وعلا في الآية السّابقة الصِّفة الأساسيّة للزَّوج والزَّوجة، وهي صفة الإيمان، وكان من المنطقيّ أن يذكر بعد الاختيار لشريك الحياة كيف يكون اللِّقاء بينهما، ولأنه قد وصف في آيات الصِّيام نوعًا من العلاقة الزَّوجيّة الحميمة؛ ليجعلها تابعة لموضوع عباديٍّ أصيل هو الصِّيام تكلّم هنا عن الممنوع من اللِّقاء بين الزَّوجين، وهو ما كان حال الحيض.

2 وبعد أن عرض لطهارة الأزواج الباطنة التّامّة (بوصف الإيمان) والطّهارة النِّسبيّة (نساء أهل الكتاب)، ناسب أن يعرض بعد للطّهارة الظّاهرة المحقِّقة لكمال الاستمتاع، وهي التَّطهُّر من المحيض.

وتكوّن هذا القِسم من (12) بصيرة:

بصيرة 1 ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ﴾

تبصّرنا هذه الجملة بأن الشُّعور بالمتعة الزَّوجيّة سادت بعد مجيء الإسلام في ظلِّ ضوابط يعلمها مَنْ خلق الزَّوجين، ولذا أراد المجتمع الحيُ أن يعلم حدود هذه المتعة حتى لا يؤثِّر ذلك سلبًا على الجنس البشريّ.

بصيرة 2 ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ﴾

تبصّرنا بأن المتعة الزَّوجيّة من حيث الزّمان مفتوحة، ولا توجد لها حدود في اللِّقاء الزَّوجي، ولذا سألوا عن الوقت الممنوع ظنًّا منهم أنه يمكن أن يباح لهم، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ النَّبِيَّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ» "مسلم (302)"

بصيرة 3 ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ﴾ تبصِّرنا بأنه يجب أن لا يُستحى من السُّؤال في الخصوصيّات من تفاصيل الحياة والعلاقة الزَّوجيّة، لغرض التوجُّه بعد ذاك إلى تطهير الحياة وتطويرها.

بصيرة 4 ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾

يُذكِّر هذا السُّؤال بالقوانين الخمسة التي ذكرها في متعة الحياة الزَّوجيّة للطَّرفين في آيات الصِّيام، وهذه القوانين الخمسة هي:

قانون [1]

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: 187] الرّفث: هو الإفضاء إلى النِّساء ومجامعتهن وهو من الأمور المشروعة ليالي الصِّيام.

قانون [2]

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: 187] ليبيّن في هذا القانون أن المشروعية السّابقة لا تعني مجرّد الإباحة، بل قد تصل إلى حيز الضّرورة لطبيعة خلق الزّوجين، فالنِّساء لباس للرِّجال، والرِّجال لباس لهنّ، واللِّباس للسِّتر، والإنسان بدون لباس مكشوف معرّض للبرد والأمراض، مخالف لفطرة الله سبحانه، الذي خلق آدم عليه السلام عليها، وستره، وأنزل عليه وعلى ذرّيّته من السّماء لباسًا يواري سوءاتهم وريشًا، فهناك ضرورة جسديّة تقتضي اللِّقاء بين الطّرفين وَفْقَ عقد الزّوجيّة.

قانون [3]

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ [البقرة: 187] حديث النّفس عن الطّرف الآخر لا مانع منه، بل هو جزء من الحياة الطّبيعيّة، فلا يُستحيا منه ما دام وَفْقَ المشروع.

قانون [4]

﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: 187]، والأمر هنا يحتمل الإباحة ويحتمل النّدب ويحتمل الوجوب حسب حالة كلِّ فردٍ وحاجته.

قانون [5]

﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: 187] إمّا من الولد، أو من اللّذة التي تذهب الانزعاج، وتجلب السّكِينة بعد قضائها.

ومن أسباب ذكرها في الصِّيام: بيان عدم حيلولة التّديُّن العباديِّ المحض بين الإنسان وبين تمتُّعه، ولبيان أن الذي فرض الصِّيام شرع مباشرة النِّساء، فالإسلام يشمل جميع جوانب الحياة.

بصيرة 5 ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ﴾

تتابع السُؤال عن حدود الله عز وجل في مختلف شؤون الحياة علامة على الحياة المجتمعية.

بصيرة 6 ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾

فحقيقة المحيض أنه أذى للرّجل والمرأة.

بصيرة 7 ﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ﴾

يُمنع اللِّقاء الزّوجيُ الخاصُ وقت الحيض، فيجب اعتزال مجامعة النِّساء حتى ينقطع الدّم على قراءة (يَطْهرُنَ) وهي قراءة الجمهور، ويغتسلن على قراءة (يَطَّهَّرْنَ) وهي قراءة شعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر.

و ﴿ٱلْمَحِيضِ﴾

مصدر ميميٌ يصلح للزّمان والمكان، فكأنه قال: فاعتزلوا النِّساء زمن الحيض في مكان الحيض.

بصيرة 8 ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾

يبصِّرنا استخدام هذه الكلمة دون غيرها أنه ينبغي التّرقّي في استخدام اللُغة المستعملة في المخاطبات والمحادثات، فهذه الكلمة كناية عن الجِماع.

بصيرة 9 ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [البقرة: 222]

يشرع التّمتع بالمرأة في الموضع الذي أذن الله عز وجل فيه بعد الطُهر على سبيل الوجوب، أو الاستحباب، أو الإباحة حسب مقتضى حال كلٍ من الطرفين.

بصيرة 10 ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222]

تبصِّرنا بضرورة الجمع بين الطّهارة الباطنة والظّاهرة.

بصيرة 11 ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: 223]

﴿أَنَّىٰ﴾: ظرف، فتبصّرنا بأنه يجوز الاستمتاع بالجماع على أيِّ وجه كان في محلِّ الحرث، حيث ينشأ الولد، وتشبيه النِّساء بالحرث ترقية في التّعبير، والتّعبير القرآنيُّ يربو على بلاغة بلغاء العرب، مثل أبي طالب الذي قال في خطبته خديجة رضي الله عنها للنّبيّ ﷺ: "الحمد لله الذي جعلنا من ذرّيّة إبراهيم وزرع إسماعيل عليه السلام".

والزّارع لا يترك موضعًا من مواضع حرثه (مزرعته) إلا ويعمل فيه مثيرًا ومقلِّبًا، ومتعاهدًا له بالسّقي، وتنقيته من الحشائش الضّارّة، وهذا معنى يوجّه إليه الرُّجل في استمتاعه وإمتاعه لزوجته وتؤيِّده دلالة عموم ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾.

بصيرة 12 ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:

لتتمّ السّعادة الزّوجيّة ينبغي الالتزام بهذه التّوجيهات الإيمانيّة الأربعة، وبدأ بالأمر بالاستعداد ليوم الجزاء، وأعقبه بطلب التّتابع فيه؛ لتتحقّق التّقوى، ثم ذكّرهم بأنهم ملاقو الله عزوجل، فجاء ذلك بمنزلة التّعليل المتضمّن للتّبشير وللتّحذير، وأعقب ذلك بالبشارة لمن استعد جيِّدًا، وعلم أن الإسلام كما يُعلِّم العبادات الشّعائريّة فهو يُعلِّم العادات الحياتيّة.

القِسم الثامن

الأيمان في الحياة الزَّوجيّة وغيرها

[البقرة: 224-225]

المناسبة والاتصال:

بعد ذكر أحكام اللِّقاء الفطريّ بين الزَّوجين ذكر ما قد يكدر الحياة الزَّوجيّة، ومن أهمّ المظاهر المعتادة كثرة الأيمان التي تصاحب الأسرة عند حدوث النزاع بين طرفيها الأساسيين غالبًا، لذا ذكر الله عز وجل أحكام الأيمان عمومًا، ثم خصّ ما يتعلّق بالأيمان بين الزَّوجين (الإيلاء)، وأبرز البصائر التي نستنبطها من ذلك (5)، وهي:

بصيرة 1 الأيمان: جمع يمينٍ، وهو الحَلف، سمِّي الحلف يمينًا أخذًا من اليمين، وهي اليد التي ينجز بها الإنسان معظم أفعاله، اشتقّت من اليُمْن، وهو البركة؛ لأنّ اليد اليمنى يتيسّر بها الفعل أحسن من اليد الأخرى.

بصيرة 2 ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: 224]

تبصّرنا بأن نُعَظِّمَ اسمَ الله عز وجل بأن لا نجعله عُرضة لأيماننا في كلِّ شيء، أي لا تحلفوا دائمًا، فكلما كان الإنسان أكثر تعظيمًا للّه عز وجل كان في العبوديّة أكمل.

ويكون قوله: ﴿أَن تَبَرُّواْ﴾ مفعولًا لأجله، وهو علّة للنّهي؛ أي: إنما نهيتكم لتكونوا أبرارًا أتقياء مصلحين، فالحلّاف يَكُونُ مَهِينًا، غَيْرَ مُعَظِّمٍ لِلّهِ تَعَالَى، غير بارٍّ، يكذب في كلامه، ولا يثق الناس في قوله فلا يستطيع أن يقوم بريادة الإصلاح بينهم.

بصيرة 3

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [البقرة: 224] هناك معنى ثانٍ لكلمة ﴿عُرۡضَةٗ﴾ نبصر منه أن الحياة الزّوجيّة تُبنى على السّكِينة وعدم اللُّجوء إلى اليمين في كلِّ شيء، فإن تمّ اللُّجوء إلى اليمين فلا تجعلوا الأيمان عرضة، أي: مانعة وحائلة عن ثلاثة أمور: البر، التّقوى، الإصلاح بين الناس، بل ينبغي الحنث فيها.

ويكون ﴿أَن تَبَرُّواْ﴾ مفعول الأيمان بتقدير (لا) محذوفة بعد (أن)، والتّقدير: ألّا تبروا، فقد قال رسول الله ﷺ: «لَا نَذْرَ وَلَا يَمِينَ فِيمَا لَا تَمْلِكُ، وَلَا فِي مَعْصِيَةٍ، وَلَا قَطِيعَةِ رَحِمٍ». "أحمد (6990)، النسائي واللفظ له (3792)، وحسّنه الأرناؤوط، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (7542)"

بصيرة 4

تبصّرنا هذه الآية المباركة بقانون واضحٍ: إذا تزاحمت المصالح، قُدِّم أهمُّها، فبرُّ اليمين مصلحة، وامتثال أوامر الله عز وجل في هذه الأشياء مصلحة أكبر من ذلك، فقُدِّمت لذلك، وظنُّ تعظيم الله عز وجل لا ينبغي أن يُجعل وسيلة لتعطيل ما يحبُّه الله عز وجل.

بصيرة 5

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [البقرة: 225] تبصّرنا بأن التّخفيف الشّرعيّ من أهمّ مقاصد الشّريعة الخاتمة، فقد عَلِمَ الله عز وجل وقوع الناس في الأيمان، فقسّم اليمين إلى قسمين:

قِسم [1]

لغو: هو السّاقط الذي لا يعتد به، سواء كان كلامًا أو غيره، فلا يؤاخذ عليه؛ لأنه خرج من غير كسب قلب كقول: "لا والله"، و"بلى والله"، وكحَلْفه على أمر ماضٍ، يظنُّ صدق نفسه.

قِسم [2]

مكتسب: هو المنعقد في القلب الخارج بقصد، فتتمُّ المؤاخذة عليه.

القِسم التاسع

الإيلاء وعلاقته بالسّكِينة في الحياة الزّوجيّة [البقرة: 226-227]

الإيلاء:

هو اليمين على ترك وَطْء الزّوجة مدّةً تزيد عن أربعة أشهر، مثلُ: والله لا أجامعك خمسة أشهر.

بصيرة 1

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة: 226-227]: إن آلى الزّوج من زوجته أبدًا أو مدّة تزيد على أربعة أشهر، وأذهب بهذا الحلف السّكِينة في الحياة بمبرّر أو بدون مبرّر فيُترك أربعة أشهر، ثم يُلزَم بالفيء وهو الرُّجوع إلى اللّقاء الزّوجي، ويُكَفّر كفارة اليمين.

بصيرة 2

ينشد الإسلام للحياة الزّوجيّة الاستقرار والسّكِينة، فإذا طرأ ما يشوّش هذه السّكِينة مثل إيلاء الرجل من زوجته، فإن الإسلام يضع لذلك الحلول والمعالجات الناجعة، ولا يترك الحبل على غاربه للزّوج في حال كهذه.

بصيرة 3

إن امتنع أُجبر على الطّلاق، فإن امتنع طلّق عنه الحاكم، والرُّجوع إلى زوجته أحبُّ إلى الله تعالى، ولهذا قال: ﴿فَإِن فَآءُو﴾ أي: رجعوا إلى ما حلفوا على تركه، وهو الوطء ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يغفر لهم ما حصل منهم من الحلف، بسبب رجوعهم. ﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث جعل لأيمانهم كفّارة وتَحِلّة، ولم يجعلها لازمة لهم غير قابلة للانفكاك.

بصيرة 4

﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾: التَّربُّص: الانتظار والمراقبة، وتحديد أربعة أشهر؛ لأنها هِيَ الْمُدَّةُ الَّتِي لَا يَشُقُّ عَلَى الْمَرْأَةِ الْبُعْدُ فِيهَا عَنِ الرَّجُلِ، وَهِيَ كَافِيَةٌ لِتَرَوِّي الرَّجُلِ فِي أَمْرِهِ، وَرُجُوعِهِ إِلَى رُشْدِهِ.

بصيرة 5

يحرم استغلال الأحكام للمضارّة والمشاقّة؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾، ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم، وما تضمرون: هل تريدون السّمع والطّاعة، أو التّلاعُب.

القِسم العاشر

الإعجاز التّشريعيُّ في الفراق الزّوجيِّ بما يقيم العدل والإحسان ويُبقي التّرابط الاجتماعيّ [البقرة: 228-242]

المناسبة والاتصال:

1. لمّا ذكر الله عز وجل أحكام الحياة الزّوجيّة، وما قد يطرأ عليها من عوارض الغضب وعدم السّكِينة المفضية إلى الإيلاء فصّل هنا أحكام الطّلاق تفصيلاً يجعل الفراق بين الزّوجين آمنًا هادئًا بدلاً من أن يصبح مثارًا للنِّزاع والهجر والبغضاء والاقتتال.
2. وهذا التّفصيل الدّقيق للطّلاق لبيان أنه حكمٌ من أحسن الأحكام الشّرعيّة التي يتمُّ بها التّوسيع على البشريّة؛ إذ قد تبقى الرّابطة العائليّة بين زوجين متنافرين لعدم السّماح بالطّلاق دينيًا كما عند الكاثوليك، أو اجتماعيًا كما عند بعض الشُعوب، وقد يفضي ذلك إلى قتل أحد الطّرفين، أو الوقوع في الفاحشة، أو مصائب أخرى.

طريقة العرض

1. أخذ العرض هنا شكل الحدود والقوانين المنضبطة مع تعزيز قِيَم الوفاء والإثارة العاطفيّة بالتّذكير بالفضل السّابق، والتّهييج الإيمانيِّ بالتّذكير بتقوى الله عز وجل ومراقبته.
2. فترى هذا القِسم يظهر على شكل مواد تشريعيّة (قانونيّة) مُلْزِمة، ومواد خُلُقيّة، ومواد حاكمة معظِّمة تبيِّن توثيق الشّريعة، وجمالها، ومراقبة شارعها للتّطبيقات البشريّة، وذلك حتى لا تصبح الحدود في المسائل الأُسريّة مدعاة للتّلاعب، والقصد من كلِّ هذه التّشريعات المحافظة على الكيان الإنسانيِّ الاجتماعيِّ سعيدًا مطمئنًا حتى بعد الطّلاق.

خريطة تفصيليّة توضِّح الآيات:

ينقسم الفراق الزّوجي إلى نوعين:

- فراق بعد المسِّ
- وفراق قبل المسِّ

وكلاهما يكون من إحدى الجهتين:

- إما من جهة الزّوج
- وإما من جهة الزّوجة (الخلع)

فتمّ ترتيب الكلام وَفْقَ الآتي:

الجزء الأوّل: الفراق بعد المسِّ

الصِّنف الأوّل

صور الفراق بعد المس

- صورة [1]: الطَّلاق الرَّجعيُّ بعد المس من جهة الزَّوج [البقرة: 228]
- صورة [2]: بين الطَّلاق الرَّجعيِّ والطَّلاق البائن بينونة صغرى [البقرة: 229]
- صورة [3]: طلب الطَّلاق من جهة الزَّوجة (الخلع) [البقرة: 229]
- صورة [4]: الطَّلاق البائن بينونة كبرى [البقرة: 230]

الصِّنف الثاني

ضوابط وحقوق:

- الفصل الأول: التَّلاعُب بأحكام الطَّلاق [البقرة: 231-232]
  - أولاً: التَّلاعُب من جهة الزَّوج [البقرة: 231]
  - ثانياً: التَّلاعُب من جهة أولياء الزَّوجة [البقرة: 232]
- الفصل الثاني: حقوق الرَّضيع على الزَّوجين المنفصلين [البقرة: 233]
- الفصل الثالث: أحكام عِدّة المتوفى عنها زوجها [البقرة: 234]
- الفصل الرابع: أحكام خطبة المرأة المعتدّة غير الرَّجعيّة [البقرة: 235]

الجزء الثاني: أحكام المهور عند الطَّلاق قبل المسِّ

- الحالة الأولى: 1 من لم يفرض لهن مهر محدد [البقرة: 236]
- الحالة الثانية: 2 من فُرِض لهن مهر محدد [البقرة: 237]

ثم ذكر القسم الحادي عشر: المحافظة على الصّلوات [البقرة: 238-239]

ثم ذكر القسم الثاني عشر: حقوق النِّساء الباقية في ذمّة الزّوج بعد الفراق [240-242]

الحالة الأولى: حقوق المرأة المفارَقة بوفاة الزوج في السكنى [البقرة: 240]

الحالة الأولى: حقوق المرأة المفارَقة بالطّلاق [البقرة: 241]

خاتمة القِسم: هذا التّرتيب المدهش للأحكام الجامع بين التّشريع الدّقيق المنظّم والوعظ المبجّل يفضي إلى الختام: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: 242]

الجزء الأوّل: الفراق بعد المسِّ

الصورة الأولى: الطلاق الرجعي بعد المس من جهة الزوج [البقرة: 228]

بدأ به؛ لأن الأصل في الحياة الزّوجيّة المسِّ، ثم قد يأتي الطّلاق، وتتلخّص أحكامه في (7) مواد:

1 مادة [1] ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾ [البقرة: 228]

تبصّرنا بأنه يجب على المُطَلّقات التّربُّص (الانتظار أو التّرقُّب) قبل الزّواج الجديد ثلاثة قروء وهي الأطهار عند الشّافعيّة والمالكيّة، والحِيَضُ عند الحنفيّة والحنابلة، ولاحظ جمال التّعبير عن الأمر بالتربص في قوله: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ﴾، حيث قدّم الاسم؛ لإفادة التّأكيد والقوّة والالتزام والثّبات والانضباط بمقتضى الحكم.

2 مادة [2]

﴿يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: 228]

تبصِّرنا بأنه يجب على المُطَلّقات أن ينتظرن فتح باب الزّواج مجدّدا المدّة المحدّدة، والتّربص: الانتظار المترقّب، وبذا فإن العبارة تدلُّ بصورة مدهشة على مشروعية الزّواج مجدّدًا، بل تشير إلى ضرورة التّشوُّف له، وعدم اللّوم على التّفكير به ممّا يؤدّي إلى سعادة المجتمع وصلاحه، وزاد ذلك بيانًا في صورة كنائيّة عجيبة في قوله: ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ لمجاراتهن في رغبتهن بمن يسترهن، ويضفي السّكِينة على حياتهن، فأنفس النِّساء طوامح إلى الرِّجال، فأراد تربيتهن على أن يقمعن أنفسهن ويغلبنها على الطُّموح ويجبرنها على التّربُّص.

3 مادة [3]

﴿يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: 228]

تَكِلُ الآية أمر العدّة والانضباط بها إلى النِّساء المُطَلّقات أنفسهن، وفي هذا استثارة لمعنى مراقبة الله عز وجل لديهن، حيث لا رقيب عليهن سواه، كما أن فيها تشريفًا لهن حيث أوكلهن مسؤوليّة كهذه.

4 مادة [4]

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [البقرة: 228]

تبصِّرنا بأنه لا يحل للمُطَلّقات أن يكتمن ما خلق الله عز وجل في أرحامهنّ مِنْ حَمْل أو حيض؛ ليتمّ العلم ببراءة الرّحم، أو بوجود حمل فيه، والشّرط في قوله: ﴿إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾، ليس المراد منه أن ذلك النّهي مشروط بكونها مؤمنة، بل هذا كما تقول للرّجل الذي يظلِم إن كنت مؤمنًا فلا تظلم، تريد إن كنت مؤمنًا فينبغي أن يمنعك إيمانك من ظلمي.

5 مادة [5]

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ [البقرة: 228]

تبصِّرنا بأنّ للأزواج الحقّ في ردِّ المُطَلّقات رجعيًا إذا كانوا يريدون الإصلاح الأُسَريّ لا التّلاعُب، فإن لم يريدوا الإصلاح فلا حقّ لهم، فقصد الشّارع في إيجاد السّعادة الفرديّة إمّا بجمع شمل الأسرة، وإمّا بالفصل إن لم يوجد الإصلاح، وهذه هي الحكمة الثانية للعدّة بعد تَبَيُّنِ الْحَمْلِ أَوْ بَرَاءَةِ الرَّحِمِ، وَهِيَ إِمْكَانُ الْمُرَاجَعَةِ.

6 مادة [6]

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ﴾ [البقرة: 228]

تبصِّرنا بأهمِّ قانون يحفظ الحقوق الفرديّة، ويضمن السّعادة الأُسريّة، فللزّوجات من الحقوق مثلما عليهن من الواجبات بالمتعارف عليه؛ زمنًا ومكانًا وعادة، كالنّفقة، والكسوة، والسّكن، والمعاشرة، والمماثلة هنا ليس في أعيان الأشياء، بل الكفاءة في الحقوق المتبادلة حسب احتياجات كلٍّ منهما.

7 مادة [7]

مادة حاكمة معظِّمة: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 228].

تبصِّرنا بضرورة الشُّعور بالثِّقة بالتّشريعات الإسلاميّة؛ لأنها صادرة عن الله عز وجل ذي العزّة الغالبة والحكمة المطلقة في التّشريع والتّنويع في الأحكام، فهي تمثِّل أعظم الحلول للواقع الإنسانيِّ.

الصورة الثانية: بين الطَّلاق الرَّجعيِّ والطَّلاق البائن بينونة صغرى [البقرة: 229]

وتضمنت هذه الصورة مادتين:

1 مادة [1] ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾

تبصِّرنا بضابط من ضوابط الطَّلاق لتحقيق حكمته، فقد كان الطَّلاق في الجاهليّة بلا نهاية، فكان الزَّوج إذا أراد الإضرار بامرأته طلقها، فإذا شارفت على انقضاء عدّتها، راجعها، ثم طلّقها، وصنع بها مثل ذلك أبدًا، فحدّد الإسلام الطَّلاق الرَّجعيّ الذي تجوز فيه المراجعة في طلقتين فقط، فقال: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ يجوز للزَّوج المراجعة بعد الأولى، وكذلك بعد الثانية، أما بعد الثالثة فلا.

2 مادة [2] ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [البقرة: 229]

تبصِّرنا بأنه بعد الطَّلقة الأولى والثانية إمّا أن يمسك بالمتعارف على جمال العشرة فيه، وإمّا أن يسرِّح بإحسان، سواء من خلال التّرك لتنقضي العدّة، أو من خلال الطَّلقة الثالثة، فإن لم يراجعها بعد الطَّلقة الأولى أو الثانية حتى انتهت العدّة فقد بانت بينونة صغرى، ولا يملك حقّ مراجعتها، بل يصير خاطبًا من الخُطَّاب، والإحسان منه إذا تركها بأن يؤدِّي إليها حقوقها الماليّة، ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء، ولا ينفِّر الناس عنها، والإحسان منها بأن تتقي الله عز وجل في أسراره التي اطّلعت عليها.

الصورة الثالثة: طلب الطّلاق من جهة الزّوجة (الخلع) [البقرة: 229]

وتتضمن هذه الصورة (4) مواد:

1 مادة [1]

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾

تبصّرنا بأنه لا يجوز أخذ شيءٍ من المهر، أو ممّا أُعطيته المرأة ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النّساء: 20]، إلا أن يأتين بأمر يقتضي مفارقتهن، فيجوز أخذ عوض، أو التّنازل عن حقّها بالمخالعة؛ لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفرقة، ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الطّلاق: 1]

ومن الإتيان بالفاحشة المبيِّنة البذاءة المتكرِّرة، وسوء الخلق على الزّوج، أو على أحمائها، إلا أنه يحقُّ للمرأة أن تطلب الخلع من الرُّجل إن خافا عدم التزام القوانين الشّرعيّة.

فإن قلت: ما الحكمة من تقديم الخلع على الطّلقة الثالثة؟

الجواب:

نلاحظ أنه قدّم الخلع على الطّلقة الثالثة؛ لأن الرّجعة والخلع يَصِحّان قبل وقوع الطّلقة الثالثة، أما بعدها فلا يبقى شيء من ذلك.

2 مادة [2]

الخلع جائز مطلقًا عندما تستوثق المرأة، أو الرجل، أو المجتمع

مِنْ أنّ بقاء رابطة الزّوجيّة سيناقض حدود الله عز وجل في إقامة الحياة الزّوجيّة؛ لأن الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ إما أن يكون استثناء متّصلًا أو منقطعًا.

وعلى العموم ينبغي للمرأة في حال استيثاقها من استحالة استمراريّة الحياة الزّوجيّة أن تتنازل فتقدِّم شيئًا من المهر أو المهر كلَّه فداء لعدم البقاء على رابطة الزّوجيّة، ردًّا لما قدّمه الزّوج لها، أو لبعض ما قدّمه لها، وتخفيفًا لما لحقه من الضّرر.

والخلع جائز ولو في غير حالة الخوف لأن مجرّد الضِّيق بين الزّوجين يبعث نوعًا من الخوف في عدم إقامة الحدود المنظِّمة للحياة الأُسريّة.

فإن قلت: ما الحكمة من تقييد الخلع بمجرّد الخوف من عدم إقامة حدود الله؟

الجواب:

التقييد بالخوف لبيان الواقع عند تزعزع الثِّقة بين الزّوجين في جدوى بقاء الرّابطة الأُسريّة، ولذا قال الله عز وجل في بيان حِلّ ما تعطيه المرأة: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النِّساء: 4].

3 مادة [3]

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة: 229]

تبصِّرنا بأن الخطاب هنا للأزواج والحكّام والأمّة (منظّمات المجتمع المدني) التي تعين الزّوجين على كيفية التّعامل مع مشاكلهما الزّوجيّة ويؤيد ذلك قراءة حمزة وأبي جعفر ويعقوب بضمّ الياء في ﴿إلا أن يخافا﴾، فإن خاف الزّوجان أو خاف المجتمع (كالجهات الحكومية والشعبية المختصة والأقارب والأصدقاء) ألا يقيما حدود الله التي تتم بها السّعادة الزّوجيّة فلا جناح عليها أن تطلب منه الفراق بالمخالعة ولا جناح عليه أن يقبل أو يطلب المهر أو الفدية ونحوها.

4 مادة [4]

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة: 229]

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: 229] تبصّرنا بأن حدود الله عز وجل ضمان للسّلامة الشّخصيّة والعامّة، فمن تعدّاها فقد ارتكب الظُّلم في حقِّ نفسه، وحقِّ المجتمع حوله، فاستحقّ التّعزير الدُّنيويّ والإثم الأخرويّ.

الصورة الرابعة: الطّلاق البائن بينونة كبرى [البقرة: 230]

وتتضمن هذه الصورة (3) مواد:

1 مادة [1] ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾ [البقرة: 230]

أي: طلقها الطّلقة الثالثة، فتصير بائنة عنه بينونة كبرى.

2 مادة [2] ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: 230]

تبصّرنا بأن المرأة تَبِينُ من الرُجل بعد الطّلقة الثالثة بينونة كبرى، فلا يمكنه مراجعتها حتى تتزوج من غيره زواجًا كامل الأركان، فإن طلّقها الآخر وانتهت عدّتها، جاز أن يتزوجها الأول إن غلب على ظنِّهما إقامة حدود الله عز وجل التي بها تكون السّعادة، وتحقيق الأهداف الأُسريّة في الحياة الزّوجيّة.

3 مادة [3] مادة حاكمة معظِّمة: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 230]

تبصّرنا بأنه لا يستفيد من هذه التّشريعات العظيمة، ولا يشعر بعظمتها إلا الذين يتميّزون بالعلم الحقيقيِّ، أما الذين يشكِّكون فيها فَهُمْ أكثر الناس جهلًا وظلمًا.

الجزء الثاني: التَّلاعُب بأحكام الطَّلاق [البقرة: 231-232]

التَّلاعُب قد يكون من جهة الزَّوج، وقد يكون من جهة أولياء الزَّوجة:

أولاً: التَّلاعُب من جهة الزَّوج [البقرة: 231]

وتضمن التلاعب من جهة الزوج (6) مواد، وهي:

1 مادة [1] ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: 231]

تبصِّرنا بأنه إذا طلقتم النِّساء فبلغن أجلهن، أي: قاربن انتهاء العدّة فأمسكوهن بأن تراجعوهن على الهيئة المتعارف على حسنها بينكم، أو تسرِّحوهن على الهيئة التي تدركون حسنها، وتوصفون بها بأنكم أدّيتم المعروف من أخلاقكم، فالأصل بقاء حُسْنِ المعروف من الأخلاق عند التّعامل بين الناس حتى في الفراق.

2 مادة [2] ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ [البقرة: 231]

بأنه إذا كادت العدّة أن تنتهي، وكان يمكنكم مراجعتهن، فلا تراجعوهن قصدًا للاعتداء عليهن بأذيّتِهن، أو إدخال الضِّرار عليهن، أو منعهن مما يسعدهن في الحياة، فإن قصد الضّرر محرم، وهو ينعكس عليكم، ولذا قال ﴿ضِرَارًا﴾ بصيغة المشاركة؛ لإشعار الزّوج أن إرادته أن يضرّ المرأة من خلال المراجعة سيضرُّ به هو أيضًا، فالله عز وجل مطلعٌ عليه، وأنفاسه تعدُّ، وأعماله تحصى في كتاب لا يضلُّ ربي ولا ينسى، والاعتداء يولد الشّقاء للمعتدي ولو بعد حين.

3 مادة [3] ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: 231]

تبصِّرنا بأن الحدود الضّابطة للسّعادة الأُسريّة اجتماعًا وافتراقًا يقصد منها ضمان السّلامة الشّخصيّة والعامّة، وبيّنَ أن تجاوزها ظلمٌ للنّفس وللمجتمع، فمن تعدّاها استحقّ التّعزير الدُّنيويّ والإثم الأخرويّ.

4 مادة [4]

مادة حاكمة معظِّمة أولى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾

تبصّرنا بأن هذه الأحكام التّفصيليّة الرّائعة التي تضبط الحياة شُرِعت لصالحكم، ولإيجاد العدل في البشريّة، فمن تلاعب بها فقد اتخذ آيات الله عز وجل هزوًا.. وتلاحظ هنا أنه سبحانه يَفْصِل بين الأحكام بجُمَل زاجرة، ومواد حاكمة تبيّن اتّصالها بالشّارع الحكيم؛ لتثمر التّسليم والتّعظيم.

5 مادة [5]

مادة حاكمة معظمة ثانية:

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: 231] **تبصّرنا بأنه ينبغي أن تتناقلوا إعلاميًا وتعليميًا تذكُر نعمة الله عز وجل عليكم في الخلق البشريّ، والتّكريم الإنسانيّ.**

1

ينبغي أن تتذاكروا ذلك بالقلب اعترافًا وإقرارًا، وباللِّسان ثناء وحمدًا، وبالأركان باستعمالها فيما يسعدكم من التزام حدود الله -جلّ في علاه- سواء أكان هذا التّذاكر عبر المستوى الفرديّ أم كان عبر المستوى الجماعيّ.

2

كذلك تتذاكروا عبر الوسائل الإعلاميّة والتّعليميّة والثّقافيّة ما أنزل عليكم من الحكمة المذهلة التي بيّنتها السُنّة، حيث وضع كلُّ شيء في موضعه بصورة تباهون بها التّشريعات البشريّة الوضعية الأخرى.

3

وتتذاكروا عبر وسائل الإعلام والتّعليم والتّربية والثّقافة ما أنزل عليكم من الكتاب المتضمِّن لبيان كلِّ شيء ومنها التّفصيلات التّشريعيّة المدهشة في كلِّ جزئية حيويّة.

6 مادة [6]

مادة حاكمة معظِّمة ثالثة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: 231].

مادة حاكمة معظِّمة رابعة: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: 231].

تتكرّر هذه المواد الحاكمة المعظِّمة؛ لتربِّي الإنسان على الاعتزاز بالتَّفوق التَّشريعيِّ الذي تضمّنته البصائر القرآنيّة، ولتجعل هذا التَّفوق المعجز حافزًا لأهل الإسلام؛ ليقدِّموه للعالم؛ ليخرج من شقائه البائس إلى نور السّعادة التي يجدها في البصائر القرآنيّة، ولتحذِّر المسلم المستقيم من التَّلاعُب بالبصائر القرآنيّة، والحدود التَّشريعيّة ليسخرِّها لأهوائه ومصلحته.

ثانياً: التَّلاعُب من جهة أولياء الزَّوجة [البقرة: 232]

وتضمن التلاعب من هذه الجهة (4) مواد:

1 مادة [1]

﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾

تبصِّرنا بأنه إذا طُلِّقت النِّساء فانتهت عدّتهن فلا يجوز عضلهن، فمعنى بلوغ الأجل هنا نهاية العدّة، وفي الآية السّابقة قرب نهاية العدّة.

والعَضْل: منعٌ مع شِدّة، والتواء، واحتيال، فتضمنت هذه الآية أربع صور حسب المقصودين في قوله تعالى: ﴿تَعۡضُلُوهُنَّ﴾:

صورة [1]

تحذير أولياء المرأة أن يمنعوا المرأة المطلّقة دون الثلاث من الرُّجوع إلى زوجها إذا خرجت من العدّة، وأراد زوجها أن ينكحها، ورضيت بذلك.

صورة [2]

تحذير لأولياء المطلّقة ثلاثًا إذا أرادت الرُّجوع إلى زوجها الأول بعد أن نكحت زوجًا غيره نكاحًا صحيحًا، فلا يجوز لوليها من أبٍ وغيره أن يمنعها من التّزوج به حنقًا عليه وغضبًا واشمئزازًا لما كان منه.

صورة [3]

التّحذير للأزواج المطلِّقين؛ لأن بعضهم كان يحتال على منع مطلّقته من الزّواج حميّةً.

صورة [4]

يجوز أن يكون الخِطَاب للأمّة؛ لأنها مخاطبة بإقامة شريعة الله عز وجل كلٌ بحسبه، ومن ذلك أن تسعى في الجمع بين مريدي الزّواج من الجنسين؛ تيسيرًا للمهور، وقيامًا مع المعسرين، وحلًا للمشاكل التي تعترض سبيل ذلك، ولا تكون بسكوت مؤسّساتها الحكوميّة والمدنيّة جزءًا من عملية العضل.

2 مادة [2]

مادة حاكمة معظِّمة أولى:

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾ [البقرة: 232] تبصّرنا بأن الكلام عن الأمر الشّرعيّ التّنظيميّ للواقع الاجتماعيّ ليس قانونيًا فقط، بل هو وعظ يخاطب القلوب المؤمنة قبل أن يخاطب المحاكم التي تمتلئ بالقضايا، التي لولا الاحتيال غالبًا لما وجدت.

فكأن المحتال المتلاعب على الأحكام التّشريعيّة يفعل ما ينافي الإيمان بالله واليوم الآخر.

فقد يظنُ الوليُ أن المصلحة في عدم تزويج وليته بالزّوج الأول أو بغيره مع رغبة كلٍ منهما في الآخر فينبغي أن يخالف هواه، إلا إذا تيقن وقوع المفسدة والضّرر على موليته بالزّواج من الأول أو غيره.

وخصّص بالوعظ المؤمنين دون غيرهم؛ لأن المؤمن هو المنتفع به دون غيره، فحسن تخصيصه به.

3 مادة [3]

مادة حاكمة معظمة ثانية: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ [البقرة: 232].

تبصِّرنا بفائدتين عظيمتين لإقامة الحدود الضَّابطة للواقع الأسريِّ:

فائدة [1] هذه القوانين أزكى للنُّفوس والمجتمعات، أي: تجعلهم أكثر نموًّا وصلاحًا وسعادة.

فائدة [2] هذه القوانين والتَّشريعات أطهر للنُّفوس والمجتمعات، أي: تبعد عنهم الرَّذائل والغلّ والجرائم القلبيّة والنَّفسيّة والواقعيّة، فلا يختلف الزَّوجان والأولياء والأسر اختلافًا يؤدِّي إلى الحرب والإيذاء.

4 مادة [4]

مادة حاكمة معظِّمة ثالثة: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 232].

تبصِّرنا بضرورة امتثال أمر الله عز وجل؛ لأجل تحقيق مصالح الإنسانيّة، فهو المحيط بما ينفعكم، فيستجيب المؤمن للأوامر الشَّرعيّة حتى لو جهل وجه المنفعة فيها؛ لأنه ينطلق من مصدر ثقة مُطْلَقة بعلم الله عز وجل الشَّامل.

الجزء الثالث: حقوق الرّضيع على الزّوجين المنفصلين [البقرة: 233]

المناسبة والاتصال:

ترى التّرتيب منطقيًا رائعًا؛ إذ يترتّب على الطّلاق النّظر في حكم الأولاد بين الزّوجين، ووسّط أحكام الطّلاق بأحكام الرّضاع لإثارة العاطفة الأبويّة عسى أن تكون سببًا في عودة المياه إلى مجاريها بين الزّوجين، وتضمن هذا الجزء من الحقوق (8) مواد قانونية، وهي:

1 مادة [1]

﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ [البقرة: 233]

تبصِّرنا بأنه ينبغي على الوالدات القيام بواجبهن في الإرضاع لمدّة عامين، سواء كن باقيات في كنف الزّوجيّة أو مطلّقات.

وقد تسأل: ما الحكمة من تقييد الكمال بالحولين؟

الجواب:

قيّدَ الحولين هنا بالكمال فقال: ﴿كَامِلَيۡنِ﴾؛ لأن الحول قد يطلق على الحول الكامل، وقد يطلق على معظم الحول.

2 مادة [2]

﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: 233]

تبصِّرنا بأن الأب يجب عليه النّفقة الشّاملة للمأكل والمشرب والمسكن، وكسوتها بالمتوسط المتعارف عليه زمانًا ومكانًا حسب سعته.

فإن قلت: فما سرُّ التعبير بلفظ ﴿ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ﴾ دون لفظ (الوالد)؟

الجواب:

عبّر بالمولود له ولم يعبِّر بالوالد؛ لأن نسبة الولادة هنا حقيقيّة في الأمِّ، أما هو فلم يلد بل وُلِد له، ولتعلم أن الوالدات إنما ولدن الأولاد للآباء، فكأن النّفع الأعظم تمتُّعًا وإعانة يصير للأب، ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمّهات، ولاستدرار عطف الوالد في التّعامل معها بقاء وفراقًا.

3 مادة [3]

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ﴾ [البقرة: 233]

تبصِّرنا كلمة ﴿تُضَآرَّ﴾ بصورٍ متعدِّدة في كلمة واحدة، فلا يجوز الضّرر على الطّرفين:

فمن الضرر على الوالدة أن تُمنع من إرضاع ولدها، أو لا تُعطى ما يجب لها من النّفقة والكسوة أو الأجرة،

ومن الضّرر على المولود له أن تمتنع والدة ولده من إرضاع ابنها على وجه المضارّة له، أو تطلب زيادة نفقة غير مسوَّغة.

4 مادة [4]

﴿وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ﴾ [البقرة: 233]

تبصِّرنا بأنه يجب على وارث الطِّفل إذا عَدِمَ الأب، وكان الطِّفل ليس له مال، مثل ما على الأب من النّفقة والكسوة للمرضع.

5 مادة [5]

﴿فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ﴾ [البقرة: 233]

تبصِّرنا بجواز أن يتّفق الأبوان على فطام الصّبيِّ قبل الحولين بشرطين: رضاهما وتشاورهما فيما هو مصلحة للصّبيِّ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ﴾ في فطامه قبل الحولين.

6 مادة [6]

﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ [البقرة: 233]

والتّشاور في أدنى الأمور، كتشاور الزّوجين في فطام المولود؛ إشارة إلى وجوبه في أعظمها كأمر الأمُّة.

7 مادة [7]

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[البقرة: 233]

تبصِّرنا بأن مصلحة الصّبيِّ مقدّمة؛ لذا يُبحَثُ له عن مرضعٍ حال حاجته لذلك، وظهور صعوبة إرضاع والدته له لمرض أو لظروف عارضة ألمت بها، ولا ينبغي نسيان حقوق المرضع حسب المتعارف عليه في حالها وزمانها.

8 مادة [8]

مادة حاكمة معظِّمة:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 233]

الجزء الرابع: أحكام عدّة المتوفى عنها زوجها [البقرة: 234]

المناسبة والاتصال:

ذكر مدّة العدّة للمطلّقة طلاقًا رجعيًا أو بائنًا فقال: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: 228]، وتفاصيل ما يترتّب على ذلك، وحَسُنَ الانتقال بعد ذلك إلى الكلام عن حقوق الرّضيع على الوالدين بعد أن حرّم كتمان ما في الأرحام، وبقي من أحكام العدّة عدّة من تُوفِي عنها زوجها ولم يطلقها.

ويحتوي هذا الجزء(3) مواد قانونية، وهي:

1 مادة [1] ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾

تبصّرنا بأنه يجب على المُتوفى عنها زوجها أن تعتدّ بأن تتربّص أربعة أشهر وعشرًا بنفسها، وبعدها يمكنها الزّواج من غيره، ويدخل في هذه العدّة الإحداد فتمتنع من أربعة أمور:

1. مسُّ الزِّينة
2. مسُّ الطِّيب
3. النّوم في غير بيت الزّوجيّة
4. الخطبة من الغير تصريحًا

والغرض من العدّة:

1. القيام بواجب الوفاء تجاه الزّوج المتوفى.
2. وإظهار التّوجُع عليه إقرارًا بسابق الفضل، وتلبية لمقتضى المروءة.
3. وأن يتبين الحمل في مدّة الأربعة الأشهر، ويتحرك في ابتدائه في الشّهر الخامس، ولذا خُصِّص هذا الحكم العامّ بالحوامل فعدّتهن بوضع الحمل.

والتّربص: الانتظار المترقّب لحدوث أمر جديد.

2 مادة [2] ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾

تبصِّرنا بأن العدّة تمنع المرأة من الزّواج، ويزاد على ذلك أن المتوفى عنها زوجها تحدُّ عليه فترة العدّة، فإذا انقضت زال عنها هذا الحكم، فلا جناح على الأولياء أن يسمحوا لها أن تتزيّن وتتطيّب. ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: بالمتعارف على جوازه وشرعيّته.

وقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾

خطاب للأولياء؛ لأنهم الذين يتولّون العقد، وخطابٌ للحكّام والمجتمع؛ ليقوموا بواجباتهم في إشاعة المعرفة والعمل بهذه الحدود الضّابطة لحركة المجتمع، كلٌّ بحسبه.

3 مادة [3] مادة حاكمة معظِّمة:

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [البقرة: 234].

الجزء الخامس: أحكام خطبة المرأة المعتدّة غير الرَّجعيّة [البقرة: 235]

وتضمن هذا الجزء (4) مواد قانونية، وهي:

1 مادة [1]

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ [البقرة: 235]

تبصِّرنا بكيفية التّعامل مع المرأة المعتدّة عدّة لا رجعة فيها، أو المتوفّى عنها زوجها، فلا حرج على الرّجال ولا إثم في أمرين:

أمر [1]

التّعريض بخطبتهن دون التّصريح:

﴿فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾، **والتّعريض يطمئن فيه الرّجل إلى أنه قد أوصل رسالة لهذه المرأة برغبته فيها، دون أن ينتهك الأدب الرّفيع خلال العِدّة؛ تعليمًا للرُّقي في الأخلاق المجتمعيّة، والتّعريض لخطبتهن، كأن يقول لها: إنك لجميلة، أو صالحة، أو نافعة، ومن غرضي أن أتزوج ونحو ذلك، ممّا يوهم أنه يريد نكاحها؛ حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه ولا يصرِّح بالنِّكاح.**

أمر [2]

إكنان المحبّة لهن

والرّغبة في الزّواج منهن ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾، فالإكنان: الإخفاء والسّتر ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [النمل: 74].

بصيرة

الشّارع يعطي هامشًا للتّواصل بين الجنسين إذا كان التّواصل ملتزمًا بأهداب الأدب وراقي الأخلاق ومتقصدًا فيه المآلات الخيِّرة المعتبرة شرعًا، كأن يفضي التّواصل (الكلامي المحدود) إلى وصلة تتحقّق بينهما بالنِّكاح في قابل الأيام.

2 مادة [2]

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ [البقرة: 235]

تبصِّرنا بأنّ الله جلّ شأنه أنزل الشّريعة لتناسب الطّبيعة، وتوافق الفطرة البشريّة، ومن الفطرة البشريّة ذكر النِّساء، وحبُّهن، فلا حرج أن يذكر الإنسان امرأة في نفسه أو لغيره مبينًا رغبته فيها، أي: فاذكروهن وامتنعوا من مواعدة المعتدّة بالزّواج منها، وعبّر عن الزّواج بالسِّرّ، أو لا تُعَرِّضوا بالنِّكاح سرًا بل على الملأ؛ لأن "الْمُوَاعَدَة السِّرِّيَّة مَدْرَجَةُ الْفِتْنَةِ، وَمَظِنَّةُ الظِّنَّةِ". (تفسير المنار 338/2)

3 مادة [3]

﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ﴾ [البقرة: 235]

تبصّرنا بأنه يحرم زواج المعتدّة حَتّى يَنْتَهِيَ مَا كُتِبَ وَفُرِضَ مِنَ الْعِدَّةِ.

4 مادة [4]

مادة حاكمة معظِّمة:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [البقرة: 235]، تبصّرنا بأنه يحرم التّلاعُب بهذه الأحكام، كما حَرُمَ التّلاعُب من قبلُ في أحكام الطّلاق.

الجزء السادس: أحكام المهور عند الطَّلاق قبل المسِّ

ويشمل هذا الجزء حالتين:

الحالة الأولى: من لم يفرض لهن مهر محدَّد [البقرة: 236]

وتشتمل هذه الحالة على (4) مواد قانونية، وهي:

1 مادة [1] ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ﴾ [البقرة: 236]

تبصِّرنا بأن الطَّلاق قبل الجماع، وقبل تسمية مهر محدَّد جائز، لأنه مصلحة إنسانيّة؛ فقد يبدو لأحد الطَّرفين عدم وجود مستقبل سعيد في تكوين هذه الأسرة لسبب أو لآخر، فأباح الله عز وجل التَّراجع عن النِّكاح فورًا.

2 مادة [2] المراد بالمسِّ الجماع

ولعله سمّاه به؛ لأنه لا يتصوّر مسٌّ من أجنبيٍّ لأجنبية إلا أن يكون عبر الزَّواج، ولأجل المشاركة الجسديّة الزّوجيّة، ولذا قَرَأَ الْجُمْهُورُ ﴿مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ﴾ من الْفِعْلِ الثُّلَاثِيِّ مسّ، لأنّ الرّجل هو الذي يتقدّم من أجل اللِّقاء الزّوجيِّ، ويقدِّم لذلك المهر، ويجب العدّة من أجل فراقه، فهذه القراءة لبيان مكانة الرجل وإقدامه.

وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وخلف العاشر ﴿تُمَاسُّوهُنَّ﴾ بِالصِّيغَةِ الدَّالَّةِ عَلَى الْمُشَارَكَةِ؛ لِأَنَّ الجماع تفاعل بين الاثنين، فهذه القراءة تصف الواقع من الاثنين، وَأَجْمَعُوا عَلَى قِرَاءَةٍ وَاحِدَةٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ مَرْيَمَ حِكَايَةً عَنْهَا: ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ [مريم: 20]؛ لِأَنَّهُ نَفْيٌ لِسَبَبِ الْوَلَدِ مِنْ قِبَلِ الرِّجَالِ، لَا مَعْنَى لِلْمُشَارَكَةِ فِيهِ. (تفسير المنار 340/2)

مادة [3] 3

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 236]

تبصّرنا بأن الطّلاق قبل المسِّ قد يكسر المرأة؛ لذا عُوِّضت بالمتعة، فعليكم أن تمتّعوهن بأن تعطوهن شيئًا من المال؛ جبرًا لخواطرهن، وبيانًا لكون التّراجع عن الزّواج ليس لعيب شخصيّ، بل لمصلحة السّكينة المفقودة بين الطّرفين إن كوّنا تلك الأسرة، والْمُوسِعُ وَصْفٌ مِنْ: أُوسِعَ الرَّجُلُ: إِذَا صَارَ ذَا سَعَةٍ؛ وَهِيَ: الْبَسْطَةُ وَالْغِنَى، وَالْمُقْتِرُ مِنْ: أَقْتَرَ الرَّجُلُ إِذَا قَلَّ مَالُهُ وَافْتَقَرَ، وضاق حاله.

مادة [4] 4

﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 236]

تبصّرنا بأن المتعة بإعطاء المطلّقة التي لم تُمَسّ ولا مهر لها شيئًا تطيب نفسها به وَاجِبَةٌ، حَاقَّةٌ على المحسنين في العبادة والتّعامل، وذلك لجَبْر الوحشة الحادثة بسبب الطّلاق.

الحالة الثانية: من فُرِض لهن مهر محدّد [البقرة: 237]

وتشتمل هذه الحالة على (3) مواد، هي:

مادة [1] 1

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة: 237]

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: 237] تبصّرنا بأنه يجب نصف المهر المفروض لمن لم تُمَسّ وقد سُمِّيَ لها مهر بعينه، إلا أن تعفو المُطَلّقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر، ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ وهو الزّوج في قول أبي حنيفة رحمه الله بأن يُعطي المهر كاملًا، أو يعفو الوليُّ في قول أصحاب الشافعي رحمه الله بأن لا يُلزِم الزّوج بنصف المهر.

2 مادة [2]

مادة خُلُقيّة: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 237]

تبصِّرنا بأن معاملة الناس على درجتين:

درجة [1]	درجة [2]
إقساط، وعدل.	إكرام، وإحسان، وفضل.

فرغّب الله تعالى في الفضل والإحسان، ومن التّقوى اتقاء مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى الطَّلاق مِنَ التَّبَاغُضِ والعداوات؛ ولذا ذكّر بالفضل الذي يتضمّن الْمَوَدَّة وَالصِّلَة.

بصيرة

﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 237] مبدأ عامٌ في أصول المعاشرة بين الناس عامّة والأزواج خاصّة، بألا يكون الفراق لأيِّ سبب كان مدعاةً لجحود سابقة الفضل وحسن العشرة، وكما قيل: (الحُرُّ لا ينسى وِداد لحظة، وينتمي لمن أفاده لفظة).

3 مادة [3]

مادة حاكمة معظِّمة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [البقرة: 237] تبصّرنا بإِحَاطَةِ الله عز وجل بِمَا يُعَامِلُ بِهِ الْأَزْوَاجُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا تَرْغِيبًا فِي الْمُحَاسَنَةِ وَالْفَضْلِ، وَتَرْهِيبًا لِأَهْلِ الْمُخَاشَنَةِ وَالْجَهْلِ، فمهما احتال المرء على الخلق فإنه لا يمكنه الهرب من علم الله عز وجل بأحواله الظَّاهرة والخفيّة.

المطلّقة المدخول بها بعد فرض مهر لها

حكمها: تستحقُ المهر كاملًا.

المدخول بها ولم يفرض مهر لها

حكمها: قال الله عز وجل عنها ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النِّساء: 24] فلها مهر أمثالها.

تلخيص: أنواع المُطَلّقات حسب المهر والدُخول أربعة:

المطلّقة التي فُرِض مهر لها ولم يدخل بها

وهي المذكورة في الآية (237) حكمها: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: 237].

حكمها: ليس لها مهر، ولها المتعة بالمعروف كما في الآية (236).

المطلّقة التي لم يدخل بها ولم يفرض لها

ولا عِدّة على هذين النّوعين الثالث والرابع، كما بيّن الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: 49].

القسم الحادي عشر

المحافظة على الصّلوات في أوقاتها

[البقرة: 238-239]

المناسبة والاتصال:

1 إنه الانتقال التَّربويُّ البديع، حيث أمر الله عز وجل بالمحافظة على الصّلوات قبل إكمال أحكام الفراق الزَّوجي، وذلك للأسباب الآتية:

1. ليبين أهمِّيّتها في ذاتها: إنها أعظم ملاذ للإنسان في الحياة، ولا تستقيم الحياة وتصلح إلا بها، ولئلّا يلهي ضجيج النِّزاعات الأُسريّة عن الصّلاة.
2. ليبيِّنَ أثرها في غيرها، أي: أثرها في تذكير ذوي الفضل بالفضل والعفو، وتذكير الزَّوجين بأولويات أخرى يستصغرون خلافاتهما بجوارها.
3. ليبين أهمِّيّة الصّلاة في هدوء النَّفس، وسكينة القلب ممّا يحتاجه الزَّوجان قبل الطّلاق وبعد الطّلاق.

تكوّن هذا القِسم من (4) بصائر، هي:

بصيرة 1

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ [البقرة: 238]

تبصّرنا بأن المطلوب المحافظة على الصّلوات، وذلك يقتضي المداومة، وتجييش الأجهزة الإعلاميّة والتّعليميّة والأمنيّة للتّنبيه على أهمِّيّتها، وخاصّة الصّلاة الوسطى التي هي العصر أو الفجر.

وقد ذكر محمد بن سيرين رحمه الله أن رجلاً سأل زيد بن ثابت رضي الله عنه عن الصّلاة الوسطى فقال: "حافظ على الصّلوات كلِّها تُصِبْها، وعن الرّبيع بن خيثم رحمه الله أنه سأله واحد عنها فقال: "يا ابن عم الوسطى، واحدة منهن فحافظ على الكلِّ تكن محافظًا على الوسطى"، ثم قال الرّبيع: لو علمتها بعينها لكنت محافظًا لها ومضيِّعًا لسائرهنّ، قال السّائل: لا! قال الرّبيع: فإن حافظت عليهنّ فقد حافظت على الوسطى". (تفسير الرازي 484/6)

بَصِيرَة 2 ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: 238]

تبصِّرنا بأن نقوم مخلصين لله عزوجل، ذليلين خاشعين، ذوي سكينة وخفض جناح، مع سكون الأطراف، وترك الالتفات، ولتملأ قلوبنا الهيبة والرّهبة، وهذا يتضمّن الأمر بالقيام والنهي عن الكلام.

بَصِيرَة 3 ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ﴾ [البقرة: 239]

تبصِّرنا بأن من لم يستطع القيام قانتًا بسبب الخوف، سواء أكان من ظالم، أم من سبع، أم من غيره فليحافظ عليها على الهيئة المناسبة له، سواء كنتم ﴿رِجَالا﴾ أي: مشاة على أقدامكم، ﴿أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ﴾ على الخيل، والإبل، والطّائرة وغيرها، سواء أكانوا مستقبلي القبلة أم غير مستقبليها، والآية تدلُّ على شدّة التّأكيد على المحافظة على الصّلوات في السِّلم إذا كان مثل هذا التّأكيد واردًا في الحرب.

بَصِيرَة 4 ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 239]

تبصِّرنا بأن الأمن يقتضي مزيد الشُّكر، فإذا تحقّق الأمن فينبغي للإنسان أن يُكثِرَ من العبادة، لا أن يُكثِرَ من عوامل الغفلة، ومن الشُّكر شكر الله عزوجل على أن علّمه الذي كان يجهله من قبل، وثبّته وأعانه بما يَعْلَمُهُ.

القِسم الثاني عشر

أحكام إعطاء المتعة للمُتَوَفّى عنهن أزواجهن وللمُطَلّقات

[البقرة: 240-241]

وتكوّن هذا القِسم من (4) بصائر، هي:

بصيرة 1 ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: 240]

تبصِّرنا بأن الله تعالى يوصي أولياء الأزواج المتوفّين بعدم إخراج زَوْجاتهم من السّكن لمدّة عام باعتبارها نوعًا من المتعة المطلوبة لهن، وهذا قريبٌ من تفسير مجاهد رحمه الله.

بصيرة 2 ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ [البقرة: 240]

تبصِّرنا بأن ما ذكر الله عز وجل في الآية [234] هو مُدّة العِدّة الواجبة على المتوفّى عنها زوجها وهي أربعة أشهر وعشرًا، وأمّا في هذه الآية فقد ذكر الله عز وجل أن الوصية واجبة أو مستحبّة على الأزواج بأن يوصوا ببقاء زوجاتهم في بيوتهم تتمّة السّنَة، إلا أن يخرجن باختيارهنّ، فالإلزام للأزواج لا للزّوجات.

بصيرة 3 **مادة حاكمة معظمة:** ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 240]

تبصِّرنا بضرورة الثِّقة والاطمئنان والتّسليم لشرع الله عز وجل، فهو صادرٌ من عزيزٍ لم يفرض عليه غيره وضع قوانين غير مناسبة، حكيمٍ يضع كلّ شيءٍ في مكانه المناسب.

بَصِيرة 4

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 241]

تبصِّرنا بأنه تجب المتعة لكلِّ مطلّقة أو تستحبُّ ولو كان ذلك بعد المسِّ، والمتعة شيءٌ يتمُّ به استرضاء المرأة ويعبّر عن حسن الأخلاق في الفراق.

ختام هذه التَّفاصيل:

مادة حاكمة معظِّمة ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 242]

تبصِّرنا بأن الله عز وجل يخاطبنا بعد هذه المواد التّفصيليّة القانونيّة المدهشة فيقول: بيّنَ الله لكم الأحكام التّشريعيّة التي تحفظ حياتكم، وتنمي السّعادة في المجتمعات، وتقيمها على العدل والفضل، فجعلها علامات تدلُّ على الإعجاز التّشريعيِّ المستوعب لأمور الحياة، وبيّنَها الله عز وجل بهذه الهيئة؛ لتكمل عقولكم، وتتّسعَ مداركم، فكأنّ من أعرض عنها مجنونٌ معتوهٌ يبغي تدمير المجتمعات مهما زَخْرَفَ قوله، وزَيّنَ آراءه.

بعد أن عرفنا في المحور الأوّل نظام الحياة الحقيقيّ المتمثِّل في نظام العبادة لله تعالى، وعرفنا في المحور الثّاني التّكريم الإلهيّ للبشريّة بالاستخلاف في الأرض، ووقفنا في المحور الثّالث على الأنموذج الإسرائيليّ في الاستخلاف في الأرض، وتعرّفنا في المحور الرّابع على إرث الأمّة الإسلاميّة للمِلّة الإبراهيميّة، وكيف نجحوا في اختبار الاستخلاف، ثم تعرّفنا في المحور الخامس على حقيقة التوحيد المقترنة بالرّحمة، وتعرّفنا في المحور السادس والمحور الثامن على القسط الأول والثاني من النُّظُم التّشريعيّة الفقهيّة الحياتيّة، وتعرّفنا في المحور السابع على وجوب الدُّخول في السِّلم كافّة (الإسلام والسّلام)، قد تسأل هنا: هل يمكن أن تُطَبَقَ هذه النُّظُم في مجتمع غير مستقرّ؟ وكيف يمكن للمستضعفين أن يخرجوا من حالة الاستضعاف؟

الجواب: هنا يأتي المحور التاسع ليبيّن سُنَنَ الخروج من حالة الاستضعاف، ويذكر أنموذجًا واقعيًا للنّجاح في تجربة الاستخلاف، وهو الأنموذج الإسرائيلي في عهد داود عليه السلام:

المحور التاسع

(الخروج من الاستضعاف) سُنَنُ الخروج من حالة الاستضعاف وصناعة التَّوازن والسَّلام العالمِيَّيْن (سُنَّة التَّدافع)؛ لتقوم الحضارة الإسلاميَّة الجديدة في المدينة، وتخرج من استضعاف القوى المجرمة، كما أقام داود عليه السلام حضارته

[البقرة: 243-254]

المحور التاسع

(الخروج من الاستضعاف) سُنَنُ الخروج من حالة الاستضعاف وصناعة التَّوازن والسَّلام العالمِيَّيْن (سُنَّة التَّدافع)؛ لتقوم الحضارة الإسلاميَّة الجديدة في المدينة، وتخرج من استضعاف القوى المجرمة، كما أقام داود عليه السلام حضارته

[البقرة: 243-254]

المناسبة والاتصال:

إذا كان قد ذكر فيما سبق الأحكام التَّشريعيّة الحياتيّة الفِقهيّة، فما وجه إتباع ذلك بقصة طالوت مع بني إسرائيل وما مناسبته؟

والجواب:

أنه لا يمكن لهذه الأحكام أن تطبق دون وجود مجتمعٍ مستقرٍّ آمن، ويصعب تطبيق أنوار هذه الأحكام في حالة الاستضعاف.. فذكر الله عز وجل هنا نماذج سُنَنِيّة من حياة بني إسرائيل تبين كيفية الخروج من أزمة الاستضعاف، وربما كانت هذه الآيات تهيئة لفتح مكة، حيث عاد المسلمون إليها بعد إخراجهم منها، كما أُخْرِجَ بنو إسرائيل في قِصّة طالوت عليه السلام.

الأسلوب القرآنيُّ في هذا الموضع:

هو أسلوبٌ قصصيٌّ يثير استلهام سُنَن معالجة أزْمة الاستضعاف، والخروج منها مع التَّعليق الختاميِّ المناسب، ويغلب على الأسلوب القرآني الأسلوب التَّصويريُّ للمشاهد القصصيّة لتظهر كأنها تُبَثُّ على الهواء، وتقع أمام الأعين، حيث يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

فإن قلت: فما أقسام هذا المحور التي تكوّن منها، والتي نبصر من خلالها البصائر القرآنيّة المدهشة في معالجة حالة الاستضعاف؟

الجواب: انقسمت آيات هذا المحور من سورة البقرة إلى ثلاثة أقسام:

القِسم الأول

القَوْمة وبعث التّحدّي بداية اليقظة بمواجهة الأزمات وعدم الهروب منها: السُنَن الأساسيّة للانطلاق والخروج من التيه [البقرة: 243-245].

فيحبوك هذا القِسم الأول بمجموعة من السُنَن التي تبعث الحياة في الأجساد الميّتة والأفكار الخاملة، وأهمُّها سُنّتان أساسيتان: سُنّة اتخاذ القرار بالمواجهة للأزمات وعدم الهروب منها، وسُنّة إعداد الدّعم الأساسي (اللوجستي) الذي يعني الاستعداد للإمداد بالمال والرجال.

القسم الثاني

(صناعة الفُلْك): السُنَن الإجرائية للخروج من حالة الاستضعاف، والنَّجاح في المعارك الحضارية

[البقرة: 246-250].

وهنا يأتي القِسم الثاني: (صناعة الفلك) ليفصّل لنا السُنَن الإجرائية لصناعة الفُلْك الذي يمكنه الجري في موجٍ كالجبال، ويظهر أثره في الحصار العالمي والاضطهاد المنهج.

القِسم الثالث

حقائق أزلية وسنن ثابتة في الخريطة العالميّة

[البقرة: 251-254].

فإذا تمّ ذلك جاء القِسم الثالث: (التّدافع) ليذكر أهمّ حقائق صنع التوازن والسّلام العالميين، ويحدّثنا الله عز وجل بالحقائق الأزليّة للصِّراع البشريّ، وكيف يمكن كبح جماح الشّرّ فيه.

القِسم الأول

القَوْمة وبعث التّحدّي بداية اليقظة بمواجهة الأزمات وعدم الهروب منها: السُنَن الأساسيّة للانطلاق والخروج من التيه [البقرة: 243-245]

وقد تسأل: ما السُنَن الأساسيّة للانطلاق والخروج من التّيه، ومواجهة الأزمات التي تضمّنتها هذا القِسم؟

الجواب: تضمّن هذا القِسم سبعًا من السُنَن الإلهية، وهي:

سنة [1]

المواجهة المناسبة وعدم الانهزام أمام التّحديات والأخطار أساس صناعة الحياة:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾ [البقرة: 243].

فهذه الآية تبصّرنا بأن الانهزام في المواجهة الضّروريّة ابتغاء الحياة مدعاة للموت غير الشّريف، أو الحياة المُذلّة، فسياق الكلام يبيّن قِصّة قومٍ هُمْ (ملأ) يملأ العينَ جمعُهم وحالُهم، فهم ألوفٌ، فلما هجم عليهم عدوُّهم تركوا ديارهم، وآثروا الهزيمة على المواجهة، فأراد الله عزوجل أن يجعلهم للعالم آية، فأماتهم في طريق هربهم ثم أحياهم ليعتبروا، ويعلموا أنه لا مفرّ من حكم اللّه عزوجل وقضائه.

سنة [2]

استمداد القدرة على مواجهة الأهوال المختلفة من الله جل في علاه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: 243].

ويدخل في فضل الله عزوجل:

1. تشريع الأحكام التي تدفع النّكَبات والنِّقم.
2. سُنَن الإحياء الحضاريّ: «فيدخل في ذلك ما جُعِلَ فِي مَوْتِ الناس مِنَ الْحَيَاةِ.. إذ جعل المصائب والعظائم محيية للهمم والعزائم، كما جعل الهلع والجبن وغيرهما من الأخلاق التي أفسدها التّرف والسّرف من أسباب ضعف الأمم». (تفسير المنار 2/364)
3. بذل الأسباب الشرعية لتكون عونًا على مواجهة الحياة.

سنة [3]

إظهار الشُكر لقيد الموجود من النِّعم، وصيد المفقود من الفُتُوح:

ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: 243].

والشكر ثلاثة أضرب:

1	2	3
شكر القلب	**شكر اللِّسان**	**شكر سائر الجوارح**
وهو تصوُّر النِّعمة.	وهو الثَّناء على المنعم.	وهو مكافأة النِّعمة بقدرها.

سنة [4]

إعلام المعتدين المستكبرين بأن الخيارات مفتوحة لمقاومتهم، ومن ذلك استخدام القوّة الدّافعة في مواجهة القوة الغادرة

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: 244]، **فتبصِّرنا بأن القتال يجب أن يكون (في سبيل الله عز وجل)، وسبيل الله عز وجل يعني الحماية للمستضعفين، وحماية الدِّيار والأبناء، وأن يكون خالصًا له ليبيِّنَ رحمته بالعالمين، وليس لشهوات الانتقام والثأر وإسالة الدماء، ولذا ختم الآية بقوله** ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: 244]؛ **لتحمل الوعد للصّادقين، والوعيد للذين يستخدمون الجهاد مطيّة لنشر الإجرام والفساد.**

سنة [5]

وضوح المنهج يقي عثرات الطّريق، فيجب تحديد مفهوم القتال في سبيل الله عز وجل بصورة دقيقة

فالله عز وجل أمر بالقتال "في سبيله" فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 244]، **وهو حلٌ طارئ يواجَه به الظُلم، فهو ليس حبًا في القتل، بل هو القتال الذي يكون في الطريق الذي شرعه الله عز وجل.**

سنة [6]

الاقتصاد الخدمي التَّعاوني القائم على الاقتصاد الإنتاجيِّ أحد أهمِّ أسس النّجاح للخروج من حالة الاستضعاف

1

فيبصرنا قوله جلّ ذكره:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: 245]

بضرورة الاستثمار والإقراض؛ إذ لا يمكن لأحدٍ أن يُقرِض شيئًا إن لم يعمل على إيجاده من خلال الاستثمار الحقيقيِّ، والآية سيقت بأسلوب استفهاميٍّ للتّشويق وإثارة السِّباق كأن الله عز وجل يقول: من المتفوِّق الذي سيفعل ذلك؟

2

تبصِّرنا

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: 245]

بأن الله عز وجل سمّى الإنفاق قرضًا؛ لأن الذي ينفق سيضمن بأن ما أنفقه إنما هو عارية مؤقّتة يوشك أن ترجع إليه.

3

تبصِّرنا

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾

بصفة القرض ليستحقّ صاحبَه الأجر، حيث وصفه الله عز وجل بالحَسَن، وذلك بأن تتوافر فيه ثلاث صفات:

1. أن يكون حلالاً.
2. ألّا يُتْبِعَ ذلك الإنفاق منًّا ولا أذًى.
3. أن يفعله على نية التقرُّب إلى الله عز وجل؛ لإغاثةِ العالمين، لا رياء وسمعة.

سنة [7]

﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ [البقرة: 245]؛ **فيُجري الله عز وجل أمره وقضاءه مِنْ قَبْضٍ وبسطٍ، ويُظهره في تصرُّفات خلقه وكسب عباده:**

ويبصِّرنا هذا القبس القرآنيُّ بالأساس الإيمانيِّ للقرض الحسن؛ إذ يقوم على الإيمان بالغيب، وأن الله عز وجل الذي بسط الرِّزق لأقوام في حين، قد يقبضه عنهم في حين آخر، فتهدأ النُّفوس القلقة من الفقر.

كما يبصِّرنا قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: 245] بالأساس الإيمانيِّ الثاني للقرض الحسن، وهو الرُّجوع إلى الله عز وجل الذي يعني: الرُّجوع إلى شرعه بترك تجريب سفاهات العقول المخالفة له، والرجوع إليه يوم القيامة؛ لنجد أن الإنفاق غير ضائع، بل سنجده كاملًا موفَّرًا مضاعفًا.

القِسم الثاني

(صناعة الفُلْك): السُّنَنُ الإجرائيّة للخروج من حالة الاستضعاف، والنّجاح في المعارك الحضاريّة [البقرة: 246-250]

المناسبة والاتصال:

أَصْحَابُ الْقِصَّةِ الْأُوْلَى هربوا من المواجهة ففقدوا اسْتِقْلَالهمْ، ثم ماتوا في هربهم، فلم يغن هربهم عنهم شيئًا، وهنا حاز العدو ديار بني إسرائيل، وسيطر على أبنائهم وثرواتهم، فاستعملوا السُّنَن الفعّالة للتّغيير، فالقصّة الأولى تشنّع حال الذين استسلموا وَعَدُّوا أنفسهم من الضُّعفاء، والثّانية تبيّن كيفية الخروج من الضّعف، وتبرز الصِّدق أمام زيف الادِّعاء.

وقد تسأل: ما المشاهد التّصويريّة التي تضمّنها هذا القِسم؟

الجواب: يمكن تقسيم معالم النُّهوض الحضاريّ لهذه السُّنَن العمليّة إلى أربعة مشاهد، تندرج تحت كلِّ مشهد مجموعة من السُّنَن الإجرائية، وذلك كما يأتي:

مشهد [1] 1

(بداية النُّور): بعث الملأ وَفِقْهُ التّغيير [البقرة: 246]

ويتضّمن هذا المشهد (8) سُنَن من السُّنَن الإجرائيّة، وهي:

سنة [1]

لا بدّ من اجتماع (الملأ)، للبحث في الحلول الممكنة الصّادقة للإنقاذ، ويبصّرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [البقرة: 246]

1 إن كلمة (الملأ) لها دلالتها في التّعبير عن هذه النُّخبة؛ لتمثّل بداية التّغيير الحقيقيّ، فالملأُ هم صفوة المجتمع الباحثون عن إنقاذه وحمايته، يملؤون الْعُيُونَ رِوَاءً والقلوبَ هيبةً.

2 هنا نرى "الملأ" يَظهرون باعتبارهم القوّة التّأثيريّة الأولى التي قادت النائمين من المظلومين إلى ساحات التّمكين في قصّة التحرُّر الإسرائيليّة الإسلاميّة، حيث قال الله عزوجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [البقرة: 246]

سنة [2]
استحضار روح المبادرة والمغامرة، فلا بدّ من تقديم المقترحات الأوّليّة للخروج من دائرة الحصار المغلقة

1 أهمُّ مقترح: البحث عن الحاكم العادل، والقائد الجريء الباسل الذي يساوي أمّة، ويقود الجموع لتحقيق الإنجازات وصنع الانتصارات، ويبصّرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿إِذْ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 246].

2 تضمّن المقترح الأوّل أن يرشّح لهم قيادةً سياسيةً عسكريةً بشريةً يمكنها أن تخرجهم مما هم فيه، وربّما حاولوا اختيار القيادة من بينهم، لكنّهم لم يستطيعوا الوصول إلى اتفاق.

3 لاحظ التّعبير عن إيجاد القيادة السّياسيّة العسكريّة: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكٗا﴾، فلم يقل: اختر لنا مع أن هذا كان مرادَهم، لكنك ترى -وعَظَمة ربّك- الإعجاز بيّنًا في كلمة البعث؛ إذ إنها تصوّرهم وقد وصلوا إلى حالةٍ بائسة من الانحطاط حتى احتاجوا إلى مرحلة إحياء حقيقيّة، وذلك يتم بأن يُبعَثَ لهم من بينهم ملكٌ يشعرون معه بعودة الحياة إلى نفوسهم.

سنة [3]
تحديد الهدف الشّريف الذي تُبذل النُفوس والأوقات والجهود لتحقيقه

وهذا التّحديد ينبغي أن يجعله واضحًا لكلِّ ذي عين حتى لا يتمّ تشويهه وإرعاب العالم منه، ويبصرنا بهذه السُنّة الشّريفة قوله عز وجل: ﴿نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 246].

سنة [4]
تعظيم كلام الأنبياء عليهم السلام، والبحث عن السُبُل المختلفة لفهمه وتطبيقه،
ويبصّرنا بهذا إبهام اسم النّبيّ في قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ﴾ [البقرة: 246]

وقد تسأل: ما الحكمة من عدم التّصريح باسم هذا النّبيِّ المكرّم ﷺ؟

الجواب:

لقد شاء الله عز وجل للبشريّة الأنفع الأرفق الأرفع، فأخفى اسم النّبيّ؛ ليتمّ التّركيز على المفاهيم الضّخمة المنبثقة من وصفه بالنُبوّة.

والوصف بالنُبوّة مع طلب الملأ يشيران إلى أن بني إسرائيل كَفُّوا عن تمرُّدهم على أنبيائهم عليهم السلام، فعلى الرّغم من أن هذا النّبيّ عليه السلام ليس من أنبيائهم العظماء المشهورين، فإنّهم أبدوا استعدادًا مبدئيًا ليرضخوا لقوله إن هو أخبرهم عن الله عزّ جارُه بتحديد ملكٍ ليكون قائدًا عسكريًا.

سنة [5] حِسبان النَتائج المتوقّعة من الخطوات التَّغييريّة المصيريّة؛ إذ قد يكون الواقعُ المؤلمُ خيرًا من واقعٍ أكثر إيلامًا

رُبَّ يَوْمٍ بَكَيتُ مِنْهُ فَلَمّا .... صِرتُ فِي غَيْرِهِ بَكَيتُ عَلَيْهِ

وقد تكون المفاسد الواقعة المختلطة بمصالح محدودة خيرًا من تغيير يفضي إلى مفاسد أكثر شمولًا، ومصالح أقل وجودًا، ويبصِّرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ﴾ [البقرة: 246]، ويدخل في ذلك سُنّة أخرى هي: الاستيثاق من صدق العزيمة، والاستعداد للنُهوض بالتَّبِعة الثّقيلة.

سنة [6] تحديد المعنى الصّحيح لمصطلح ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حتى لا يصبح عبئًا، ولا مصدر إرعاب لأصحابه وللعالم، ولا يستغلّ للعبث الشّخصيّ ليصبح مصدر إجرام

وقد حدّد الملأ بصورةٍ واضحة أحد المعالم التي توضّح معنى هذا المصطلح القرآني الرّفيع بأنه القتال إخلاصًا لله عز وجل لا للشّهوات الذّاتيّة، ولا للرّغبة في الانتقام، والتّمتع بالقتل؛ بل لأجل حماية الدِّيار والعيال، فقال الله -جلّ ذكره-: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ [البقرة: 246].

سنة [7] إعداد الخطط البديلة التي تستوعب حدوث انتكاسة متوقّعة ممن يزعمون مناصرة المبادئ

ويبصِّرنا بذلك قوله عزّ جارُه: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ﴾ [البقرة: 246]، وهذا يعني أيضًا الحذر من الأدعياء في الابتداء.

وفي هذا يقول الأستاذ محمد المثيل -وفّقه الله-:

﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ﴾ ... قد طالَ تاريخُ المَهازِلْ
هي قَومَةٌ كَانَتْ لَهُمْ ... بَعْثًا يُبَدِّدُ كلّ بَاطِلْ
أَفَلَا تَكُونُ لأُمّتي ... لِتَسُودَ في كُلّ المَحَافِلْ
فَالحَقُّ يَبْقَى كَامِنًا ... حَتّى يَجِيْ فِعْلٌ وفَاعِلْ

سنة [8] الحذر من الخسارة المبكِّرة في المعارك الحضاريّة بظهور الظلم البيني في الأفكار والأفعال

ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 246]، فالظالمون يضعون الأمور في غير مواضعها ليسهموا في جلب الخسارة المبكرة، وهم نوعان:

1. مَنْ ظلم نفسه والعالم بتشويه الجهاد، بأن حَرّفَه عن أهدافه، فاعتدى وقتل الأبرياء.
2. مَنْ ظلم نفسه والعالم بترك الجهاد، فانساق وراء الأوهام الشّيطانيّة جُبْنًا وهَلَعًا.

مشهد [2] إدراك مداخل الإخفاق في الانطلاق.. الحذر من الشّهوات التي تجتاح قلوب الصّدّيقين [البقرة: 247]

ترى في الآية الثانية أربع إشاراتٍ نورانيّة تحدّد لك سُنَنًا جديدة لحماية القَومة النّاشئة حتى لا تصاب بالإحباط، وتركن إلى اليأس، وهذه السُّنَن تتحدّث عن عقباتٍ حقيقية لا تنشأ عند العوام، بل تغزو أصحاب القلوب السّليمة، والنُّفوس المستقيمة، وتتمثّل في الآتي:

سنة [1] عدم التَّفاعل الإيجابيّ مع القومة الصّادقة، والتَّغلُّب على حالة الإحباط النّاشئة عن السِّلبيّة التي سببها المرض القلبيُّ

ويبصِّرنا بذلك قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾ [البقرة: 247].

سنة [2] التَّنازع على الرِّئاسة والزَّعامة من أهمِّ الصِّفات النَّفسيَّة المرضيَّة المستترة عند أكثر الملأ

ويبصِّرنا بذلك قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا﴾ [البقرة: 247]، فأوّل عقبة في الانطلاق التّنازع على الرِّئاسة والزَّعامة، فذلك يدمّر الحركات التّحرُّريّة الصّادقة.

سنة [3] استخدام المقاييس الجاهلية في تولِّي المناصب الإداريّة، وهذا يوجب البحث عن حلول تنظيميّة مؤسسيّة لإيقاف ذلك في حركات القومة الصّادقة.

فقد حدّد هؤلاء المعترضون مقياسين خطيرين في تدمير المشاريع، وهما:

1 المقياس الجاهليُّ الأول

شرف النَّسَب

فقالوا: ﴿وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ﴾ [البقرة: 247]، وإنما عنوا الأحقيّة بسبب النَّسب؛ إذ ذكروا المال لاحقًا، وذكر لهم النَّبيُّ ﷺ فضلَه في القوّة والعلم، فلم يبق للأحقيّة معنى هنا إلا النَّسب.

2 المقياس الجاهلي الثاني

كثرة المال

فقالوا: ﴿وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾ [البقرة: 247]، «وإنما قالوا هذا لقصورهم في معرفة سياسة الأمم ونظام الملك، فإنهم رأوا الملوك المجاورين لهم في بذخة وسعة، فظنُّوا ذلك من شروط الملك» (التحرير والتنوير 2/491).

والانجرار لاعتماد هذين المقياسين الجاهليين، يؤدِّي إلى إلغاء فكرة العدالة والبحث عن الكفاءات.

سنة [4] التشويش على الحق بعدما تبيّن

وهذا يقتضي الاستعداد لإيراد الشُّبَه على الحقِّ، وكثرة الجدل العقيم، وعدم الشُّعور بالصّدمة؛ فإنهم طلبوا شيئًا أول الأمر، فلبّاهم النَّبيُّ ﷺ، وأخبرهم بأمر ربه عز وجل، فقاموا يجادلون في الحقِّ بعدما تبين كأنّما حدّثهم عن الأوهام، لا عن المَلِكِ العلّام.

مشهد [3] 3

اختيار القيادة المؤهّلة لمرحلة الإعداد والمواجهة [البقرة: 247-248]

لما ظهرت علامات الفشل على الجمع الإسرائيلي، وكاد النور الذي ظهر في البداية أن ينطفئ صبر نبيُّهم عليه السلام على صلف بعضهم، وتشويشه، وأخبرهم بالمقياس الحقيقيِّ الذي ينبغي أن يأرزوا إليه، ويتكئوا عليه في اختيارهم الرّجال؛ إذ المقياس الجاهليُّ الذي اعتمدوه يوشك أن يفسد عليهم وَثْبَتهم، ويزيد حياتهم فسادًا، فأخبرهم نبيُّهم بالصِّفات الحقيقيّة التي ينبغي اعتمادها في اختيار الرِّجال، فذكر (5) صفات، وهي:

صفة [1]

الِاسْتِعْدَادُ الْفِطْرِيُّ

ويبصِّرنا به قوله تعالى ذكره: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 247].

فالاصطفاء لأسبابٍ لا تخرج عن الاستعدادات البشريّة الكَسْبيّة، فلم يقل (لكم)، كما قال ﴿ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [البقرة: 132] الدّال على الاختيار المحض الذي لا مكان فيه لرأي البشر، بل قال: ﴿ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ فدلّ على أن الاختيار الإلهيّ جاء بسبب أمرٍ مشتركٍ فَاقَهم المختار فيه، وهذا الأمر المشترك يدلُّ على إمكانية اختيار غيره إن حصل مانع يمنع من قيامه بمهام القيادة، وبذا ترسخ قواعد الإدارة والقيادة التّداوليّة بمعايير الكفاءة.

صفة [2]

التّفوُّق العلميُّ الّذي يَكُونُ به التّفوُّق في الميدان السّياسيّ، وإحكام التّدْبير، وكمال الرأي، ويبصرنا به قوله: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: 247].

صفة [3]

القوّة البدنيّة اللّازمة؛ ليكون محلّ القدوة في الميدان العسكريّ، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: 247].

ولفظ الزِّيادة يُعبّر بها عن وجود مقاربين له، لكنه كان أكثرهم تأهُّلًا.

صفة [4]

اجتياز الاختبار بين الأقران؛ ليدلّ على التَوْفِيق الإلهيّ: سواء أكان هذا الاختبار حقيقيًا، أو حلّ محله ما يشبهه

وهو الذي وقع هنا؛ إذ لم يُذْكَر لنا أن هناك اختبارًا قد وقع بل اختيارًا إلهيًا، ويبصِّرنا به قوله تعالى ذكره: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 247].

بَصِيرَة ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: 247]

تبصِّرنا بأنه كما ينبغي للناس أن يبحثوا عن مخارج من حال الاستضعاف والانطلاق نحو التحرُّر، فإنّ ممّا يتوجّب إدراكه أيضًا أن الله عز وجل يهيئ أسباب ذلك، ويُسَخِّر من بين عباده من ينهض بعبء المهمّة، ويقود الأقوام بصدق وحقٍّ للانعتاق والخلاص.

صفة [5]

أن يكون اختياره للقيادة بطريق شرعيٍّ:

ولأن الاصطفاء الإلهيّ الآن غير معلوم لانقطاع الوحي، فإنّ أعظم السُّبُل التي تمنح الشَّرعيّة الحقيقيّة للاختيار القياديّ: الشُّورى، فهي السَّبيل الذي يبيِّن قوّة الاختيار بالاصطفاء العامّ، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٤٨﴾ [البقرة: 248].

مشهد [4] 4

المعركة الشّاملة في الوقت المناسب

اصطفاء الجنود، والاستعداد الذّكيُّ للمواجهة الحتميّة [البقرة: 249-250]، وتضمّن هذا المشهد تسع سُنَن، وهي:

سنة [1]

جمع المستعدين للبذل والتّضحية، وتحويل الحماسة الجماهيرية إلى عمل نظاميٍّ (جنديّة) عماده الطّاعة المبصرة

ويبصرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ﴾، فسمّاهم جنودًا، وهذا يدلُّ على بدء العمل المنظّم، والاستعداد للمواجهة القادمة، فلم يقل: فلما فصل طالوت بهم، أو بقومه، بل قال: ﴿بِٱلۡجُنُودِ﴾، والجنود: جمع جُنْد بالضّم، وهو العسكر المجنّد، أي المقسّم فِرَقًا قويّة، وأصله: الأرض الغليظة ذات الحجارة، ثم قيل لكلِّ مجتمع قويٍّ جُنْدٌ.

سنة [2]

التّحشيد الكمّيُّ مقدِّمة للاصطفاء النّوعيّ

فيجب إجراء الاختبارات الميدانيّة لمعرفة مدى صدقيّة المتابعة، والثّبات، والطّاعة، وقوّة الإرادة أمام الإغراءات المختلفة أو التّرهيب المنتظر، ويبصرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ [البقرة: 249].

والاكتفاء بالغرفة فقط لقياس مدى الإيمان بالغيب ولاختبار مدى اليقين ببركة القليل المقترن بالصِّدق، وكذا لقياس قوّة الانضباط والالتزام والطّاعة والثّبات التي تتطلّبها مرحلة الإعداد لمواجهة الظُّلم ومدافعته.

سنة [3]

الثّبات والفشل في الاختبارات الميدانيّة تعزيز لقوّة الجيش وصلابته، وإحكام بنائه وتماسكه

ويبصرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: 249]، فـ«العدد القليل من أهل العزائم يفعل ما لا يفعل الكثير من ذوي المآثم». (تفسير المنار 487/2)

سنة [4]

الحذر الشّديد من الثِّقة العمياء في النّفس أو في سائر المؤمنين ثقةً تؤدّي إلى التّبرؤ من الطّبيعة الإنسانيّة، وتُحْدِثُ عيوبًا قاتلة في المسيرة النّاجحة

ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة: 249].

سنة [5]

التّواصي بالحقِّ وبالصبر ينجي من الخُسْر، ويصحّح مقياس النّظر إلى الأحداث بمقياس النّظر المتوازن الدُّنيويّ الأخرويّ، ويجمع بين الأسباب المادّيّة والأسباب الغيبيّة

ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 249].

سنة [6] الصَّبر في جميع الظُّروف والأحوال عند اتخاذ القرارات، وعند مباشرة تنفيذها بعد الحسم فيها، وعند العمل الميدانيِّ المتعلق بها

ومن ذلك الصَّبر على تحمُّل المخاوف، ومواجهة الأمور الهائلة المؤلمة، وبارقة الأسلحة الموجعة، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 249].

سنة [7] اتخاذ القرار الخطير بالبروز للعدوِّ، والحسم في التَّقَدُّم والتَّأخُّر في هذه الخطوة عبر اجتهاد جماعيٍّ صحيح

وهذه الخطوة حاسمة في تحقيق أهمِّ الانتصارات، أو الوقوع تحت وطأة دورة جديدة من التِّيه والاستضعاف الأكثر وطأة، ويبصِّرنا بذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة: 250].

والبروز خطوة مهمّة لمن رأى المواجهة الحتميّة، ورأى عدوّه يتقدّم عسكريًّا، لكن هذه الخطوة لا تكون عسكريًّا لمن يتقدّم ثقافيًّا وحسب، بل ينبغي أن يكون البروز لمن يتقدّم ثقافيًّا، وسياسيًّا كذلك.

سنة [8] تحريك المؤثِّرات الإعلاميّة التي تحفِّز الرُّوح المعنويّة في الجيش وذلك عبر الدُّعاء الجامع للعاطفة المردّد سرًّا وجهرًا واستحضار الأهداف المرجوّة

ولعل الذي يبصِّرنا بذلك قول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾ [البقرة: 250].

سنة [9] الدعاء بالثلاثية الابتهالية التي تثبت المحارب ساعة (الصِّفر) أي: ساعة التقاء الجيشين

ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾ [البقرة: 250].

القِسم الثالث

حقائق أزليّة وسُنَنٌ ثابتة في الخريطة العالميّة

[البقرة: 251-254]

ويضمُّ هذا القِسم ثماني حقائق، وهي:

حقيقة [1]: أحداث العالم تقوم على التداول والابتلاء

والقوى الخيرة تكسب المعركة باتباع السُّنَن المادّيّة واستمداد المدد الإلهيّ ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 251].

حقيقة [2]: مع بذل الأسباب اللازمة والممكنة ورفع المعنويات وتعزيز الثقة بموعود الله لا بد من توقع جميع الاحتمالات حتى يتم امتصاص الصدمات في الأحداث المفاجئة غير المتوقعة.

ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 251]، فقوله ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ تدلُّ على أمرين:

1. على حتميّة النَّصر من جهة
2. وعلى احتمال عدم النصر في بعض المراحل من جهةٍ أخرى.

حقيقة [3]: العمل الجماعيُّ المتكامل مفتاح النّصر الحقيقيّ:

فلا بد من البحث عن الطّاقات، والقوى، والقدرات، وتطبيع الحياة على توزيع الأدوار، وليس على التّنافس، والبروز الشّخصيّ، ويبصِّرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: 251].

حقيقة [4]

تداول السُّلطة، وتدوير الوظيفة، وتغيير المسؤولين؛ لبثِّ الدِّماء الجديدة وَفْقَ مقاييس الكفاءة والنَّزاهة.

تعدُّ هذه الحقيقة من أهمِّ عوامل الاستمرار في النَّجاح والمحافظة على المنجزات، إلا أنْ يوجد اصطفاء إلهيٌّ، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: 251].

وهذه الحقيقة تعني الاستفادة من الطَّاقات الموجودة ضمن الملأ مهما صغرت إمكانياتهم، وأَلَّا يكون القائد متعاليًا في التَّعامل مع من دونه في المسؤوليات وَفْقَ منطق الحسد والتَّنافس.

صفات القيادة الجديدة التي آلت إليها الأمور بعد طالوت عليه السلام:

باستقرائنا لصفات القيادة الجديدة المتمثِّلة في داود عليه السلام تتجلى أمامنا (9) صفات من الصفات الريادية الآتية:

صفة [1]

الرَّبانيَّة وعمق الصِّلة بالله عز وجل

قال تعالى عن داود عليه السلام: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: 79].

صفة [2]

عمق الصِّلة بكتاب الله عز وجل وإدامة تلاوته وتدبُّره والتَّفقُّه فيه

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لقد أُعطِيَ أبو موسى ﷺ مزامير داود عليه السلام» (أحمد (8646)، وصححه الأرناؤوط)

صفة [3]

العمل الميداني المؤثر

ويبصِّرنا بهذه الصِّفة قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: 251].

صفة [4]

العبادة المتفرِّدة حتى صارت أحبّ أنواع العبادة إلى الله عز وجل

فعن عَبْد اللهِ بْن عَمْرٍو رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ:«أحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحب الصلاة إلى الله عزوجل صلاة داود ،كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه ». "البخاري، (3420)"

صفة [5]

الشّجاعة في المواجهة:

ففي حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النّبيُّ ﷺ في عدّ خصال داود عليه السلام ومناقبه: «وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى».

" البخاري، (1159)، ومسلم (1977)"

صفة [6]

الارتباط بالحقِّ، والرجوع إليه عند خوف الزّلل

ويظهر ذلك في سجوده عليه السلام عند خوف الفتنة، ويبصّرنا بذلك قوله تعالى:

﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

[ص: 24 - 26].

صفة [7]

اتصافه بما يجعله أهلًا للاصطفاء الإلهيّ

فقد قال الله تعالى جده ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: [البقرة: 251]، فالمراد بالحكمة النُبوّة، فترقّى داود عليه السلام إلى المراتب العالية: المُلك، والحكمة.

صفة [8]

الفاعليّة القياديّة الحقيقيّة، خاصّة في المجال الأمنيّ

وابتكار ما يقيم الحضارة، ويحميها:

ويبصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: 251].

صفة [9]

السّعي لإقامة الاكتفاء الاقتصاديّ

فعَنِ المقْدَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قال: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده». "البخاري، (2072)"

حقيقة [5] سنة الدّفع كفيلة بإزالة الفساد واستئصاله

سنة الدّفع والمدافعة من أعظم سُنَن التّغيير التي تزيل الفساد عن الأرض، ويبصِّرنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: 251].

حقيقة [6] التّفصيل التّاريخيُّ والتّنظيميُّ والحضاريُّ الذي جاءت به الشّريعة قائم على الحقِّ، ويقود إلى الحقِّ، وأي دعاوى تنال منه فهي تريد إحلال الباطل، وتزييف الحقائق

ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: 252].

حقيقة [7] التّحدِّي الحيويُّ العالميُّ الدّائم الكبير، والاستجابات المقابلة

نظرًا للبغي سيبقى الصّراع -للأسف- قائمًا بين أتباع ثلاثة من أعظم الرُّسل عليهم السلام وهم الرُّسل الثلاثة: موسى وعيسى ومحمد -عليهم الصلاة والسلام- بسبب إصرار فريقٍ منهم على الكفر ببعض الرُّسل عليهم السلام، والكفر ببعض الرُّسل عليهم السلام كفرٌ بالمرسِل تعالى ذكره.

ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: 253].

حقيقة [8] الإنفاق في سبيل الله عز وجل أساس للفوز في سُنّة التّدافع، وهو دليلٌ حقيقيٌّ على صدق دعوى الإيمان

ويبصِّرنا بذلك الأمر بالإنفاق عقب ما سبق، وذلك قوله تعالى جدُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: 254].

وهذه الآية التي بيّنت هذه الحقيقة حوت ثلاث بصائر، فصّلت أهمّيّة الإنفاق:

بصيرة 1 الإنفاق في سبيل الله عز وجل دليل على صدق الإيمان، خاصّةً في أزمنة الحاجة والاستضعاف: ويبصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ [البقرة: 254].

بصيرة 2 الإنفاق في سبيل الله عز وجل عطيّة ربانيّة، ومنحة إلهيّة للعبد في الحياة الدُّنيويّة: ويبصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ [البقرة: 254].

فالمبايعة لافتداء النفس من العذاب غير ممكن يوم القيامة، والخُلّة وهي المودّة غير نافعة أيضًا، وكذلك الشفاعة سواء أكانت لصديق أو لغير صديق، إلا ما سيستثنيه الله تعالى في الآية القادمة وهي الكرسيّ من قوله ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾.

بصيرة 3 الكفر الأصغر والأكبر ظلم للنّفس وظلم للعالم:

ويبصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ [البقرة: 254].

كيفية صناعة سُنّة الغلبة من خلال عوامل النّصر:

في ختام هذا المحور نشير إلى أهمِّ عوامل النّصر، فقد تضمّنت آيات هذا المحور **10** عوامل، وهي:

عامل [1] عدم الاتكال على النّفس، والاستحضار العقديُّ والإيمانيُّ والفكريُّ، في كلِّ المراحل ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 246]، لكنهم تولّوا بعد ذلك إلا قليلاً منهم.

عامل [2] استحضار نصرة الحق، وإنقاذ الضعفاء ﴿وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ [البقرة: 246]

عامل [3] وضوح عدالة القضيّة ومشروعية القتال في سبيلها لدى القادة والجُنْد.

إعداد الرِّجال على أساس:

1. اجتياز اختبارات القوّة المناسبة للمعركة ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [البقرة: 249].
2. الإيمان بالله عز وجل ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [البقرة: 249].
3. قياس الأحداث بمقياس النّظر الأخرويّ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 249].
4. إهمال الاقتصاد إلقاءٌ باليد إلى التّهلكة؛ لأنه يفضي إلى ارتهان قرارات المسلمين، وتحكُّم غيرهم فيها، فلم يكن جيش طالوت بحاجة ضروريّة إلى الماء والسلاح عند وقوع الاختبار.

عامل [5] الصّبر على مشاهدة المخاوف، ومواجهة الأمور الهائلة المؤلمة ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 249].

عامل [6] الصّبر الإيجابيُّ يقتضي المواجهة عند تحتُّمِها وليس التّهرُّب من تبعاتها ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ [البقرة: 250].

عامل [7] إعداد الوسائل المُثَبِّتة، ومنها الدُّعاء سرًّا وجهرًا ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ [البقرة: 250].

عامل [8] إظهار التّفوُّق المعنويّ بمصاحبة التّعبئة الإيمانيّة لسير المعركة إلى آخر اللّحظات بالاستعانة بالله عز وجل بالدُّعاء والتّضرُّع ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 250]

عند ذلك تكون النّتيجة المتوقّعة:

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 251].

عامل [9]

العمل الجماعي:

فلا بدّ من البحث عن الطّاقات والقدرات، وبناء عليه يتمُّ التّعوُّد على توزيع الأدوار، وليس على التّنافس، والبروز الشّخصيّ ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: 251]، فعلى الرّغم من أنّ الله عز وجل زاد طالوت بسطة في العلم والجسم، لكن الذي تولّى قَتْلَ جالوت هو داود عليه السلام.

عامل [10]

تداول السُّلطة وتغيير المسؤولين

لبثِّ الدِّماء الجديدة إلا أن يوجد اصطفاء إلهيٌّ بسبب إخبار نبيّ، ولا مجال إليه بعد زمن النُّبوّة: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: 251].

بعد أن عرفنا في المحور الأوّل نظام الحياة الحقيقيّ المتمثّل في نظام العبادة لله تعالى، وعرفنا في المحور الثّاني التّكريم الإلهيّ للبشريّة بالاستخلاف في الأرض، ووقفنا في المحور الثّالث على الأنموذج الإسرائيليّ في الاستخلاف في الأرض، وتعرّفنا في المحور الرّابع على إرث الأمّة الإسلاميّة للمِلّة الإبراهيميّة، وكيف نجحوا في اختبار الاستخلاف، ثم تعرّفنا في المحور الخامس على حقيقة التوحيد المقترنة بالرّحمة، وتعرّفنا في المحور السادس والمحور الثامن على القسط الأول والثاني من النُظُم التّشريعيّة الفقهيّة الحياتيّة، وتعرّفنا في المحور السابع على وجوب الدُخول في السِّلم كافّة (الإسلام والسّلام)، وتعرّفنا في المحور التاسع على سُنَن الخروج من حالة الاستضعاف، قد تسأل هنا: فما الذي يجعلنا نثق بنصر الله عز وجل للمستضعفين الذين عملوا بالسُنَن الإلهيّة للخروج من حالة الاستضعاف؟

الجواب: هنا يأتي المحور العاشر للتّعريف بعظمة الله عز وجل ودلائل قدرته حتى تتحقّق الثّقة بنصره وتمكينه:

المحور العاشر

الحضارة الإسلاميَّة الجديدة تشرق على العالم بالتَّعريف بعظمة الله عز وجل، ومزايا دينه، ودلائل قدرته؛ لتتحقَّق الثِّقة به في الخروج من الاستضعاف، ولتكون الرِّسالةعالميَّة

[البقرة: 255-260]

المحور العاشر

الحضارة الإسلاميَّة الجديدة تشرق على العالم بالتَّعريف بعظمة الله عز وجل، ومزايا دينه، ودلائل قدرته؛ لتتحقَّق الثِّقة به في الخروج من الاستضعاف، ولتكون الرِّسالة عالميَّة

[البقرة: 40-123]

المناسبة والاتصال:

1 لتتمّ التّربية المقصودة

ترى الأسلوب القرآنيّ المذهل يتّبع منهجيّة تعاضد المقاصد القرآنيّة الأربعة الكبرى مع بعضها:

1. مقصد التّعريف بالله عز وجل بين التّوحيد والتّمجيد.
2. ومقصد رحلة الإنسان في الدُّنْيَا ووظيفة الاستخلاف.
3. ومقصد الأحكام التّشريعيّة الفكريّة العقديّة والعمليّة.
4. ومقصد الأحوال الحياتيّة الدُّنيويّة والأخرويّة.

2 بدأت محاور هذه السُّورَة المباركة بإشراق الحضارة المسلمة الجديدة

بمقصد التّوحيد والتّمجيد في الآيات [البقرة: 20-29].

3 ثم أشرقت هذه الحضارة المباركة بالكلام في المحاور من الثاني إلى الرابع

إلى المقصد الثاني، فذكر الله عز وجل فيه أهمّ محطّات رحلة الإنسان واستخلافه بين النّجاح والفشل [البقرة: 30-158].

4 ثم عاد الكلام إلى التّوحيد والتّمجيد

مع بيان الموانع التي تمنع الناس من اعتناق هذه الحقيقة العظمى في المحور الخامس [البقرة: 159-171].

5 ثم انتقل الكلام إلى المقصد الثالث

وهو الأحكام التّشريعيّة الفكريّة العقديّة والعمليّة، فرأينا السُّورَة تشرق بالكلام عنه في المحاور السّادس والسّابع والثّامن [البقرة: 172-242].

6 ثم عادت السُّورَة المباركة لتشرق علينا بالكلام عن المقصد الثاني

وهو رحلة الإنسان ووظيفة الاستخلاف، ولكن بأسلوب جديد يجمع بين هذا المقصد وتمكين مقصد التّشريع بإيجاد الدّولة المستقلّة التي تنشر حضارة أنوار سورة البقرة، وذلك لا يكون إلا عن طريق الخروج من الاستضعاف، ورأينا ذلك في المحور التاسع [البقرة: 243-254].

7 وهنا تعود السُّورَة لتثبيت المقصد الأول للقرآن

وهو مقصد التّعريف بالله عز وجل بين التّوحيد والتّمجيد، ولكن بمعلومات عظيمة جديدة تجعل القلوب المؤمنة عظمية الثقة بالله عز وجل، ويظهر فيها مزايا دينه، ودلائل قدرته لتستطيع التّعامل بيقين مع الاستضعاف المذكور في المحور السابق، والتّعامل الماليّ المذكور في المحور اللّاحق، ولتسعى لإظهار النُّور الذي تظهره الحضارة المسلمة الجديدة، وهذا كلُّه نجده في هذا المحور الكبير.. المحور العاشر: محور آية الكُرسيّ: عظمة الله عز وجل، ومزايا دينه، ودلائل قدرته [البقرة: 255-260] يسير في ذلك وَفْقَ الأسلوب الخطابيّ العاطفيّ، أو العلميّ العقليّ، أو القصصي الإثاريّ، فيأنس السّامع بالأسلوب ولا يملُّ، كالانتقال من طعام لذيذ إلى نوع آخر، ليكون ألذّ وأشهى.

8 هنا انتقل إلى بيان التّوحيد والتّمجيد

بعد هذه الجولة العظيمة في التّشريعات الحياتيّة ورسم استراتيجيّة الخروج من حالة الاستضعاف إلى حالة التّمكين، وهي تشتمل على أشقِّ الأمور ببذل الأموال والنُّفوس، حيث يظهر فيها دفع الناس بعضهم ببعض لئلّا تفسد الأرض، وختمها ببيان عظمة الحكمة غير المدركة أحيانًا من قبل البشر فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: 253].

9 فناسب أن يُفَصِّلَ وصف عظمة الله عزوجل ليبيّن لهم كيفية تدبيره للكون، وتدبيره للحياة

في أعظم آية في القرآن الكريم هي آية الكرسيّ، وبعد تعريف نفسه لهم بيّنَ مزايا دينِه، وأنه بهذه العظمة لا حاجة لأن يُكرِهَ البشر على دينه؛ إذ من ابتغى الغيّ فقد جنى على نفسه، ثم بيّنَ بعض مظاهر قدرته من خلال القصص.

محتوى الآيات:

تكوّن هذا المحور من ثلاثة أقسام:

قسم [1]: آية الكرسيِّ تبيِّنُ عظمة الله عز وجل وعُلُوّه [البقرة: 255].

قسم [2]: الدخول في الدِّين وفضائله [البقرة: 256-257].

قسم [3]: ثلاث قصص تدلُّ على عَظَمة الله عز وجل، وحسن تدبيره، وحكمته في الكون وقوانينه [البقرة: 258-260].

القِسم الأول

آية الكرسيِّ تبيِّن عظمة الله عز وجل وعُلُوّه

[البقرة: 255]

المناسبة والاتصال:

بدأ القِسم بذكر عظمة الله -جلّ مجده- ليظهر لكلِّ سامع عدم عقلانيّة من يعبد سواه -جلَّ في علاه- فكيف يمكن المقارنة بين عبادة مالك الكون، وعبادة جزء من الكون بما في ذلك عبادة الإنسان نفسَه، عندما تحكمه أهواؤه.

فضائل آية الكرسيِّ

هناك عدّة فضائل لهذه الآية العظيمة، منها:

فضيلة [1] أعظم آية

فعن أبيِّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((يا أبا المنذر، أتدرى أيّ آية من كتاب الله أعظم؟))، قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: ((يا أبا المنذر، أتدرى أيّ آية من كتاب الله معك أعظم؟)) قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: 255]؟ قال: فضرب بصدري وقال: ((والله لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ)). "مسلم (810)"

فضيلة [2] تكرار قراءتها سبب لدخول الجنّة

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ».

" النسائي في الكبرى (9848)، وحسّنه الوادعي في الجامع الصحيح (998)"

فضيلة [3] الحافظة من العدوِّ الخفيِّ

عن أبي هريرة رضي الله عنه : «... قال الشيطان: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: 255] حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ.. وصدّقه رسول الله ﷺ فقال: ((أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ، وَهُوَ كَذُوبٌ)). "البخاري (2311)"

وصف عامٌ:

1. جاءت آية الكرسيِّ بعد نفي الشّفاعة يوم القيامة؛ لتمثِّل إنْذَارًا لِلْمُسْلِمِينَ؛ لئلا يَكُونُوا كَأَهْلِ الْكِتَابِ الْمُتَّكِلِين عَلَى شَفَاعَةِ خيارهم (كموسى وعيسى عليهما السلام)، والمشركين المُتَّكِلِين على معبوداتهم الباطلة.

2. فوَهْمُ شفاعة الشّافعين أوقعهم في التّهاون بِالدِّينِ، والشّفاعة الحقّة إنما تكون بإذن الله عز وجل ورضاه.

3. تكوّنت الآية من إحدى عشرة جملة، واشتملت على اسم (الله) ظاهرًا ومضمرًا ستّ عشرة مرّة، وعدد كلماتها ستٌّ وخمسون، ففيها تعريفٌ وافٍ بالله عز وجل، وقدرته، وعظمته، وقيامه على الكون، وحفظِه للمخلوقات.

وفي آية الكرسيِّ (14) بصيرة، وهي:

بصيرة 1

- بدأت الآية بكلمة ﴿اللَّهُ﴾ تعريفاً باسمه العلَم الأعظم الأكرم؛ لتتضمن:
- ردًّا على من يسأل: من ربُّكم؟
- وتلذُّذًا من المؤمن عندما يردِّد الاسم المبارك.

بصيرة 2

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تبصِّرنا بتوحيد الله عز وجل وكمال هذا التوحيد، ردًّا على الوثنيِّين الذين يشركون مع الله عز وجل آلهة أخرى، أو يدعون غير الله، وردًّا على الملحدين الذين لا يؤمنون بإله، فالله عزوجل يخبرهم أنه الإله الواحد الأحد الذي لا يمكن أن يماثله شيءٌ من مخلوقاته.

بصيرة 3

﴿ٱلۡحَيُّ﴾ تبصِّرنا بأنه الّذي صَدَرَتْ عَنْ حَيَاتِهِ كُلُّ حَيَاةٍ، فهو الجدير باسم (الحيّ) مطلقاً، وغيره لم يكن حيًّا، فأعطاه الحيُّ سبحانه شيئًا من الحياة، ثم يموت متى أراد الحيُّ -جلّ شأنه- له الموت.

بصيرة 4

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ تبصّرنا بأنه قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، وَكُلُّ شيءٍ قَائِمٌ به يَكلَؤُهُ، ويرزقه، ويحفظه.

بصيرة 5

الاتّصاف بهذين الاسمين العظيمين ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ يستلزم جميع الأسماء الحسنى مطابقةً وتضمُّنًا ولزومًا.

1

فالحيُّ مَنْ له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذّات كالسّمع، والبصر، والعلم، والقدرة، والقيُّوم: هو الذي قام بنفسه، وقام به غيره، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتّصف بها ربُّ العالمين كالكلام، والقول، والخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، والعفو، والمغفرة، والقدرة، والحكم، وسائر أنواع التّدبير.

2

ومن قيُوميّته قيامه بِالْقِسْطِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 18]، وَالْقِسْطُ هُنَا: هُوَ الْعَدْلُ الْعَامُّ فِي أمره وخلقه، وَمِنْهَا الْقِيَامُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، كَمَا قَالَ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: 33].

بصيرة 6

هذه الجُمَل الثلاث هي الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله عز وجل به أجاب، وإذا سئل به أعطى، فعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:

((اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163] وَفَاتِحَةِ آلِ عِمْرَانَ ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: 1-2]))

"أبو داود (1496)، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (980)"

بصيرة 7

﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ تبصّرنا بأنه لا يمكن أن يغفل عن الخلق بالسِّنَةِ ولا بالنّوم، وهذا من كمال حياته وقيُوميّته، ونفى النُعاس أولًا ثم نفى النّوم؛ لأن ذلك حسب التّدرُّج الطّبيعيّ فِي الْوُجُودِ، وترقّيًا من نفي الأضعف إلى نفي الأقوى؛ إذ لا يلزم من نفي الأضعف نفي الأقوى، لأن بعض الخلق يهجم عليهم النّوم دون سِنَة.

بصيرة 8

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ تبصّرنا بأن الله عز وجل له الملك الكامل لما يراه الخلق من المخلوقات أو ما يسمعون عنه.. فمن ذا يمكن أن يدّعي أن إلهه له هذا الملك؟!

بصيرة 9

﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ تبصّرنا بأن الشّفاعة عنده ممنوحة لمن يأذن الله عز وجل له إكرامًا، ولذا جاء التّعبير عن هذا المعنى بالاسْتِفْهَام الذي مَعْنَاهُ الْإِنْكَارُ وَالنَّفْيُ، فلَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِأَمْرِهِ، فالاستفهام أبلغ من الإخبار.

وهذه الصّفة تدلُّ على العَظمة الكاملة؛ لأن الشّفاعة إدلالٌ سببُه أن يكون الشّافع مساويًا أو قريبًا من المشفوع عنده، أو قد يحتاج إليه المشفوع عنده حينًا من الدّهر؟

بصيرة 10

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ تبصّرنا بأن العلم الكامل لله عز وجل، فهو يعلم ماضي الأمور ومستقبلها، ومتقدّمَها ومتأخّرَها، وظاهرها وباطنها، وغيبها وشهادتها.

بصيرة 11

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ تبصّرنا بأن العلم الذي أودعه الله تعالى في عقول الخلق وتفكيرهم إنما أودعه بمشيئته، فكيف يعبدون بعقولهم غيره؟

بصيرة 12

﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ تبصّرنا بهذه العظمة الهائلة للكرسيّ مع أنه ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، فإذا كنا لا نستطيع تحديد قدر الكرسيِّ، فكيف بالعرش؟

فعن أبي ذرٍّ الغفاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخلت المسجد الحرام، فرأيت رسول الله ﷺ وحده فجلست إليه، فقلت: يا رسول الله، أيُّ ما أنزل عليك أفضل؟ قال: «آيَةُ الْكُرْسِيِّ»، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ». "ابن حبان (361)، وضعّفه الأرناؤوط، وصحّح الألباني بعض طرقه في الصحيحة (109)"

بصيرة 13

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾ تبصّرنا بأن الله عز وجل لا يثقله حفظ السّموات والأرض، ولا يؤثّر عليه، فهو المنشئ للمخلوقات، الحافظ لها.

بصيرة 14

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255] تبصّرنا بأنه العليُّ مطلقًا، العظيم مطلقًا، فمهما بلغ عُلُوُّ الأوثان البشريّة والصّنميّة فإنها ناقصة صغيرة تفتقر إلى غيرها.

القِسم الثاني

الدُّخول في الدِّين وفضائله

[البقرة: 256-257]

المناسبة والاتصال:

1 هاتان الآيتان المباركتان في موضعهما المنطقيّ تبيِّنان مزايا الإسلام، وعظمته، وأنه يحرِّم القتال لفرض الدِّين، بل لا يكون إلا في سبيل الله عز وجل، أي: لتحرير المستضعفين، وردع المعتدين.

2 فهما يجيبان عن سؤال نشأ من الآيات السّابقة مثل قول بني إسرائيل ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ [البقرة: 246]، وقول الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 244]، وفي آية الكرسيّ بيان صفات الله عز وجل العظمى.. وهذا كلُّه يوجب سؤالًا: هل معنى ذلك أنه يجب أن نُكْرِه الناس على الدُّخول في الدِّين الحق؟ هنا تأتي هذه الآية؛ لتضع قانونًا من أعظم قوانين الإسلام، وتبيِّن فضائل الإسلام التي أولها ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: 256]، فذكر الله عز وجل في الآيتين مزايا الإسلام العظيمة، وهي:

فضيلة [1] ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: 256]

تبصِّرنا بأن الدُّخول في الدِّين اختياريٌّ، والنَّفي للجنس، فلا يُقبل الإكراه على الإسلام من المكرِه، ولا يُقبل الإسلام من المكرَه، وقد أنزلها الله عز وجل؛ ليمنع الأنصار من إكراه أبنائهم المتهوِّدين على الدُّخول في الإسلام، فهذه الآية محكمةٌ تردُّ على أكذوبة نشر الإسلام بالسَّيف.

فضيلة [2]

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: 256]

تبصِّرنا بأن الرُّشد معرفة استقامة الطَّريق، والمراشد: مقاصد الطُّرق التي بها يسير المرء ناجيًا في الحياة، ولا يتمُّ ذلك إلا باتِّباع الدِّين الحقِّ، وإلا وقع في الغيِّ وهو الجهل، والفساد، والهلاك، يقال: "غوى الفصيل": إذا بالغ في الشُّرب من لبن أمِّه حتى بَشِمَ، فلا يكره المرء على اختيار أحد الأمرين.

فضيلة [3]

﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: 256]

تبصِّرنا بأن الإيمان بالله عز وجل طريق للحرِّيّة الحقيقيّة من الطَّواغيت البشريّة والمادِّية، فحقيقة الإيمان بالطَّاغوت عبودية الإنسانيّة لهم، والطَّاغوت: مَصْدَرُ الطُّغْيَانِ وَمَبْعَثُهُ، صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ كَالْمَلَكُوتِ والرَّغبوت والرَّهبوت، وَهُوَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ فِي الشَّيْءِ، فيدخل فيه:

1. الطُّغيان العالميُّ في عبادة المال واللَّذَّة الطَّاغية
2. والشَّيْطَانُ
3. والْكَاهِنُ
4. والسَّاحِرُ
5. والْأَصْنَامُ
6. ومَرَدَةُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ.

فضيلة [4]

﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ [البقرة: 256]

تبصِّرنا بأن الكفر بالطَّاغوت، والإيمان بالله عز وجل استمساك بالعروة الوثقى التي لا تنكسر كسرًا ظاهرًا ولا خفيًا، وبذلك يتمُّ إنقاذ البشريّة من الأخطار الحقيقيّة، والعروة: ما يستمسك به حتى لا يسقط الدَّلو.

فضيلة [5] ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: 257]

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: 257] **تبصّرنا بأن الدّين يعني استحقاق ولاية الله عز وجل التي تعني القرب الخاصّ والنُصرة؛ ولذا يخرج الله عز وجل أولياءه من ظلمات الأوهام والواقع إلى نور الفكر والسُلوك وصناعة الحياة.**

فضيلة [6] ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 257]

تبصّرنا بأن الكافر الذي يغطّي على أعظم الحقائق يتولّى الطّاغوت الذي يجعله يعيش في عالم الظُّلمات الفكريّة والسُلوكيّة، وتكون النتيجة الخسارة للحياة في الآخرة بالخلود في النار.

القِسم الثالث

ثلاث قصص تدل على عَظَمة الله عز وجل، وحسن تدبيره، وتحكُّمه بالكون وقوانينه [البقرة: 258-260]

المناسبة والاتصال:

1 بعد أن عرّف الله عز وجل بنفسه سبحانه في آية الكرسيّ، وبيّنَ مزايا دينه ذَكَرَ -تعالى ذِكْرُه- ثلاث قصص كلّها تبيِّن أمرين في ملك الله تعالى وعظمته:

- حكم الله عز وجل للكون وتحكُّمه بأسبابه
- وإخراجه أولياءه من الظُّلمات إلى النُّور.

2 ولذا قال في أولها ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، أي: اعجب متدبِّرًا معتبرًا من حال الذي حاجّ إبراهيم عليه السلام، فهو مَثَل لإضلال الطّواغيت أولياءهم، وإخراجهم من نور الحجّة البالغة، كالتي قالها إِبْرَاهِيمُ إلى ظلمات القلوب الزّائغة.

3 وكذلك ثمّة عبرة ومَثَلٌ جليل في الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها فهداه الله عز وجل، وأخرجه من الظُّلمات إلى النُّور.

القصة الأولى: قصّة التحكُّم بأسباب الكون المنتظمة من خلال مناظرة إبراهيم عليه السلام والنّمرود [البقرة: 258]

وتبصّرنا هذه القصّة بـ(10) بصائر، وهي:

بصيرة 1 ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: 258]

تبصِّرنا بأن قبول إبراهيم عليه السلام للمناظرة وقيامه بها بالتي هي أحسن، من أعظم وسائل التّبليغ والتّأثير، وإظهار الطّواغيت وعُبّادهم بعدم العقلانيّة.

بصيرة 2 ﴿حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: 258]

تبصِّرنا هذه الآية بضرورة الولوج في مناقشة الموضوعات الكبرى ومواجهة المسائل الفاصلة، وأن يكون هناك مختصِّين متمكِّنين قادرين على المجابهة، وهذا ما تشير إليه كلمة ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾.

بصيرة 3 ﴿أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ [البقرة: 258]

تبصِّرنا بأن الفشل سيظهر مباشرة فيمن يجادل في الله عز وجل؛ لأنّ اللِّسان الذي به يتكلّم، وكلُّ جزء في جسده، وحتى عقله نعمة من الله تعالى عليه.

بصيرة 4 ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ﴾ [البقرة: 258]

تبصِّرنا هذه الآية بوجوب الاعتزاز بالانتساب إلى المشروع الذي يحمله العبد، فلا يخجل ولا يتردّد في نسبة نفسه إلى ربِّه ومعبوده جلّ مجده، وتعالى جدُّه.

بصيرة 5 ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]

تبصِّرنا بأنه ينبغي في المناظرات أن نورد البراهين الواضحة القاطعة لدحض حُجّة الخصم، فبيّن إبراهيم عليه السلام أنه يدعو إلى من يتحكّم بالإحياء والإماتة.

بصيرة 6 ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: 258]

تبصِّرنا بأن المبطل عندما يظهر ضعف حجّته سيحاول المغالطة والكذب؛ حتى لا يظهر بمظهر المهزوم.

بصيرة 7

﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة: 258]

تبصِّرنا بأنه ينبغي للمُناظِر ألا ينشغل بجزئيّات الرّدِّ على المغالطات، بل ينتقل إلى دليلٍ أكثر وضوحًا، وأشدّ قطعًا للمغالطة؛ لذا احتجّ إبراهيم عليه السلام بأن الله عز وجل أوجد الكون ونظّمَهُ وَفْقَ قوانين مثل الشروق والغروب، فحاوِلْ –إن كنت صادقًا– أن تقلب هذا النِّظام.

بصيرة 8

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ [البقرة: 258]

تبصِّرنا بالنّتيجة المنطقيّة للمناظرة التي يتمُّ التمسُّك فيها بالمنهج القرآنيِّ، وهو أن يُبهَت أي: يحتار الذي يغطِّي الحقائق، فلا يستطيع الجواب.

بصيرة 9

﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾ [البقرة: 258]

يبصرنا تكرار اسم إبراهيم عليه السلام بثلاثة أمور:

1. مكانة إبراهيم عليه السلام عند ربِّه سبحانه.
2. حضور حجّته، وسرعة بديهته.
3. ضرورة الإعداد المسبق والتّحضير للمواجهة قبل الدُّخول فيها؛ ليكون أدعى للتّغلُّب على الخصم وإفحامه.

بصيرة 10

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 258]

تبصِّرنا بأن النِّظام الكونيّ قائم على العدل، والظّالم لنفسه وللعالم لا يستحقُّ العون بالهداية.

القصة الثانية: القدرة على إحياء الموتى وتغيير أسباب الكون [البقرة: 259]

وتبصِّرنا هذه القصّة ب (12) بصيرة، وهي:

بصيرة 1 ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ﴾ [البقرة: 259]

تبصِّرنا بأن العبرة بالواقعة لا بصاحب الواقعة، فهذا الرُّجل لم يُذكر اسمه، فقد يكون عُزيرًا، أو أرميا، أو حزقيال، وربّما كان كافرًا شاكًّا كما قاله بعض المفسِّرين، وذِكْرُ أنه مرّ على قرية يدلُّ وصفها بذلك على اجتماع سابقٍ لأهلها.

بصيرة 2 ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: 259]

تبصّرنا بأن تغيُّر الأحوال جزء من السُّنَن الكونيّة، فهذه العبارة تحتمل ثلاثة معان:

1. أن يبيد أهلها، وتسقط عروشها.
2. أو تبقى شاهدة على عظمتهم التي زالت.
3. أو تكون ديارهم معروشة بالأشجار دون من يعتني بها من أهلها الفانين أو المنتقلين.

بصيرة 3 ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ [البقرة: 259]

تبصِّرنا بأن الحضارات لا بدّ أن تمرّ عليها السُّنَن الإلهيّة في الإعمار والدّمار، وأن طبيعة الإنسان الاشتياق للتّغيير السّريع، كما اشتاق هذا لرؤية القرية الخربة قد دبّت فيها الحياة مجدّدًا

بصيرة 4 ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: 259]

تبصِّرنا بقدرة الله عز وجل الحقيقيّة في التّحكُّم بالموت والحياة، وليس وَفْقَ المفهوم الذي ادّعاه طاغوت العراق أمام إبراهيم عليه السلام.

بصيرة 5 ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ [البقرة: 259]

تبصِّرنا بالضّعف الإنسانيّ في عقله وفكره بالنّظر إلى طول الحياة وتغيُّر سُنَنِها فقد ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا﴾، فَأَبْصَرَ مِنَ الشَّمْسِ بَقِيَّةً، أو فكّر، فَقَالَ: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

بصيرة 6 ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: 259]

تبصّرنا بأن الزّمن لا وزن له في قدرة الله عز وجل وقوّته، وبقي مائة عام؛ ليكون أعظم إدهاشًا حين أحياه الله عز وجل بعد هذا الزّمن الطّويل في عُرْف البشر.

بصيرة 7 ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: 259]

1 تبصِّرنا بالقدرة الإلهيّة في التّحكُّم بالكون وأسبابه، فالطّعام والشّراب يتغيران بعد مدّة يسيرة وَفْقَ السُّنَن الكونيّة، لكن الله عز وجل أوقف سنّة التّغيُّر.

2 ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ بالهاء في قراءة الجمهور وقفًا ووصلاً، أي: لم يتعفّن، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ ويعقوب وخلف العاشر بالهاء وقفًا وبحذفها وصلًا ﴿لَمْ يَتَسَنَّ﴾: أي لم يتغيّر، والتّحكُّم بالكون يفضح حقيقة عجز النّمرود عن خرق تلك السُّنّة الجارية، فقد طلب منه إبراهيم عليه السلام خرق هذا التّحكُّم، فبيّن الله عز وجل أنه لو شاء أن يلغي النِّظام الذي سَنّه لفعل.

بصيرة 8 ﴿وَٱنظُرۡ... وَٱنظُرۡ...﴾ [البقرة: 259]

تكرُّرُ الأمر بالنّظر ثلاث مرّات يبصِّرنا بأن النّظر أداة التفكير المذهلة للبناء العلميِّ، فيجب أن نحرِّك النّظر بالملاحظة المتفكِّرة، وأن نُذْهِب عنها الغفلة.

بصيرة 9 ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾ [البقرة: 259]

تبصِّرنا بمعجزة تدلُّ على حكم الله عز وجل للموت والحياة، فقد نظر إلى حماره عظامًا بالية تدلُّ على مُضِيِّ أعوام كثيرة، ثم نظر لها وهي تُنشز، أي يرتفع بعضها فوق بعض وتركَّب بصورة دقيقة لتأخذ هيئة الحمار، ثم تكسى لحمًا، ثم تُنشر، أي: تبعث فيها الحياة.

بصيرة 10 ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: 259]

تبصِّرنا بالانتقال من المشاهدة إلى الشُّهود (الغيب) فلما شاهد أن الله عز وجل رفع العظام فوق بعضها وكساها لحمًا، ثم نشر الحياة، امتلأ يقينًا، ووصل إلى شهود قدرة الله عز وجل عَلَى أَنْ يُعِيدَ الحركة العمرانيّة للقرية الخاوية.

بصيرة 11 ﴿وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ﴾ [البقرة: 259]

تبصِّرنا بأن من أساليب تربية الله عز وجل لعباده وإرشادهم إلى دينه والإيمان به أن يريهم الآيات الواضحات والمعجزات الباهرات.

بصيرة 12 ﴿قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: 259]

تبصِّرنا القراءتان الواردتان فيها بمشهدين مطلوبين في بناء الإنسان لنفسه:

معنى [1]

قال الذي يكلِّمه (الله -جلّ شأنه-، أو الملَك) لهذا الرجل: ﴿اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ في قراءة حمزة والكسائي، فيحتاج المرء أن يُعْلِمَ نفسه فَهْمَ قدرة الله عز وجل.

معنى [2]

قال الرُجل: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٞ﴾ في قراءة الجمهور؛ ليربِّي المرء نفسه بالتّرديد بلسانه، والشُعور بقلبه بقدرة الله عز وجل وعظمته.

القصة الثالثة: قصّة إبراهيم عليه السلام، وإحياء الموتى المفرّقة الأجزاء: [البقرة: 260]

وتبصِّرنا هذه القصّة ب (5) بصائر، وهي:

بصيرة 1 ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ [البقرة: 260]

تبصِّرنا بأن المؤمن ينبغي أن يربّي في نفسه الإيمان من خلال النّظر في آيات الله عز وجل؛ ليصل إلى عين اليقين، فبدأَ إبراهيم عليه السلام السُؤَالَ بِكَلِمَةِ ﴿رَبِّ﴾ الّتي تُفِيدُ جمال لجوئه إلى مربّيه، ولطيف عنايته به.

بصيرة 2 ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البقرة: 260]

تبصِّرنا بأنه سأله ربّه عزوجل -وهو أعلم سبحانه- ليُعلِمَ السّامعين ألّا حرج في مثل هذا السُؤال؛ ليتلذّذ برؤية آية حاضرة، وليكون دأب الإنسان في كلِّ شيء الإيمانَ بالغيب، فإن جاءت آية معجزة ازداد إيمانًا إلى إيمانه، فأجرى الله عز وجل ذلك على لسان إبراهيم عليه السلام؛ لتكون للعالمين آية باقية، لذا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: ((نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام)) "البخاري (3372)" أَيْ: أَنَّنَا نَقْطَعُ بِعَدَمِ شَكِّه، كَمَا نَقْطَعُ بِعَدَمِ شَكِّنَا.

بصيرة 3

﴿قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ﴾ [البقرة: 260]

تبصِّرنا بأنه يجب أن لا يبقي الإنسان نفسه وقلبه مضطربًا بين رَدَهات الحَيرة، ودهاليز التّردُّد، وفيافي الجهل، بل يجب أن يسأل ليطمئن قلبُه في كلّ القضايا التي تحوك بصدره، وتستجيش بخاطره بأسلوب الأدب وطلب العلم الحقيقيِّ.

بصيرة 4

﴿قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ﴾ [البقرة: 260]

تبصِّرنا القراءتان الواردتان بمشهدين:

[1]

فالجمهور قرأوا بِضَمّ الصّادِ بيانًا لحالة تقريب إبراهيم عليه السلام لهن، أي: أَملْهُنّ وضُمّهن لتعرف أشكالهن، وشفِّقْهُنّ ﴿إليك﴾ لتتأملهنّ وتعرف شِيَاتهنّ مفصّلة على سبيل اليقين، حتى تعلم بعد الإحياء أن جزءًا من أجزائهن لم ينتقل من موضعه.

[2]

وقراءة حمزة وأبي جعفر ورويس وخلف بالكسر ﴿فَصِرۡهُنَّ﴾ بمعنى قطِّعهن -كما قال مجاهد رحمه الله-: «انْتِفْ رِيشَهُنّ وَلُحُومَهُنّ، وَمَزِّقْهُنّ تَمْزِيقًا». (البعث والنشور للبيهقي، ص:60)

بصيرة 5

﴿ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ﴾ [البقرة: 260]

تبصِّرنا بأنه قطّعها، فكلمة جزءًا تدلُّ بوضوح على التّقطيع، ثم دعاهنّ فَعُدْنَ إلى الحياة وأتينه سعيًا.

بعد أن عرفنا في المحور الأوّل نظام الحياة الحقيقيّ المتمثِّل في نظام العبادة لله تعالى، وعرفنا في المحور الثّاني التّكريم الإلهيّ للبشريّة بالاستخلاف في الأرض، ووقفنا في المحور الثّالث على الأنموذج الإسرائيليّ في الاستخلاف في الأرض، وتعرّفنا في المحور الرّابع على إرث الأمّة الإسلاميّة للمِلّة الإبراهيميّة، ثم تعرّفنا في المحور الخامس على حقيقة التوحيد المقترنة بالرّحمة، وتعرّفنا في المحور السادس والمحور الثامن على القسط الأول والثاني من النُّظُم التّشريعيّة الفِقهيّة الحياتيّة، وتعرّفنا في المحور السابع على وجوب الدُّخول في السِّلم كافّة (الإسلام والسّلام)، وتعرّفنا في المحور التاسع على سُنَن الخروج من حالة الاستضعاف، ثم جاء المحور العاشر ليعرِّف بعظمة الله عز وجل، ومزايا دينه، ودلائل قدرته؛ لتتحقّق الثِّقة به في الخروج من الاستضعاف، وقد تسأل هنا: فماذا بعد التمكين والخروج من حالة الاستضعاف؟ وما الذي يحقِّق الاستقرار في المجتمع؟

الجواب: هنا يأتي المحور الحادي عشر والأخير ليتحدّث عن الجانب الماليِّ الاقتصاديِّ وأثره في الاستقرار المجتمعيِّ:

المحور الحادي عشر

(إدارة الأموال)

إشراق الحضارة الإسلاميَّة بالإدارة المتميِّزة للأموال إنفاقًا عادلًا لها في المجتمع، وتنظيمًا لاستثمارها وتنميتها

[البقرة: 261-283]

المحور الحادي عشر

إشراق الحضارة الإسلاميَّة بالإدارة المتميِّزة للأموال إنفاقًا عادلًا لها في المجتمع، وتنظيمًا لاستثمارها وتنميتها

[البقرة: 261-283]

المناسبة والاتصال:

1. مضت هذه السُّورة العظيمة في بناء الحياة الجديدة، وإنشاء الحضارة الراشدة التي تقوم على ملّة إبراهيم عليه السلام، وتستفيد من التّجربة الإسرائيليّة.

2. وهنا يكون المناسب جدًا بيان الجانب الذي يؤدِّي إلى الإعمار الحياتيِّ بصورة مباشرة: إنه المحور الماليُّ الذي يتكلّم عن الثَّروة الاقتصاديّة، وهو الذي يشكِّل المرتكز لاستقلال الأمّة والتّحرُّر من عبوديّة الدُّول المستكبرة، ويعطيها الأمان من أن تكون أسيرة لبيوتات المال المستغلّة.

3. أخذ هذا المحور حيِّزًا عظيمًا من السُّورة، حيث امتدّ على مدى أربع صفحات تبيِّن كيفية إقامة المجتمع المتماسك القائم على العدالة الماليّة الاجتماعيّة، ولذا بيّنت أَهَمّ أُصُولِ حفظ الثّروات الماليّة، وكيف تتحوّل من احتكار لمجموعة مغرورة ثريّة إلى تراحم، وتماسك، وتنمية، وإعمار.

تكوّن هذا المحور من ثلاثة أقسام:

- قسم [1]: الإنفاق سبيل المجتمع المتراصِّ: ضوابطه وآدابه [البقرة: 261-274].
- قسم [2]: الرِّبا أهمُّ نماذج التّعاملات الماليّة المحرّمة، وكشف الفلسفة المدمِّرة التي يقوم عليها [البقرة: 275-281].
- قسم [3]: التّداين وإدارة التِّجارة [البقرة: 281-283].

القِسم الأول

الإنفاق سبيل المجتمع المتراصِّ: ضوابطه وآدابه

[البقرة: 261-274]

المناسبة والاتصال:

بدأ الله عز وجل بهذا القسم في هذا المحور وأفرد له الحيِّز الأكبر لأسباب متعدِّدة أهمُّها:

1. أن الإنفاق يؤسِّس للمجتمع بناء اقتصاديًّا مستقلًّا مذهلًا قائمًا على الكسب، والعمل، والتَّثمير، ومعرفة حقوق المجتمع فَبِهِ تعمر الدِّيار، ويتكاتف أفراد المجتمع، ويقيمون الشَّرائع المختلفة، ويقدِّمون الصُّورَة المتعاونة النموذجيَّة للعالم.
2. بيان أن المال وسيلة للإعمار الأخرويِّ، والتَّنافس في بناء المستقبل القادم، وليس غاية في ذاته.
3. منع الارتهان الخارجيِّ للقروض العالميَّة التي يراد بها إذلال الأمَّة، والحدّ من استقلالها، والسَّيطرة على قراراتها، وذلك بأن تنفق الأمَّة على بعضها.

الفصل الأول: فضيلة الإنفاق في سبيل الله عز وجل، وأثره الدُّنيوي والأخروي [البقرة: 261]

ويحبونا هذا الفصل بخمس بصائر، وهي:

بصيرة 1 ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ [البقرة: 261]

تبصِّرنا بأن المردود الرِّبحيّ الأخرويّ الوفير للإنفاق يذهل العقل عند تصوُّره فالواحد بسبعمائة، فبيّن هنا نوع المضاعفة، التي ذكرها الله عز وجل في قوله ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ [البقرة: 245].

بصيرة 2

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ [البقرة: 261]

تبصِّرنا بالدّلالة التّبعيّة على الأثر التّغييري المذهل للإنفاق في سبيل الله تعالى دنيويًا؛ إذ تنمو المصالح التي تنفق عليها حتى تعطي ثمارًا هائلة، كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كلِّ سنبلة مائة حبّة... فمثلاً: من أنفق على شابٍ يُعَلِّمُ القرآن، فعلّم عشرة تلاميذ، وكلٌ منهم علّم عشرة.. وهكذا، أو بنى مسجدًا فكم من المصلّين سيصلون فيه.

بصيرة 3

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ [البقرة: 261]

يبصِّرنا التّمثيل الحسّيُ لعملية الإنفاق بسنابل الخير بأنّ شاهد الإيمان يقوى مع شاهد العِيان، ويبيّن مقدار الرُّقيّ الحضاريّ الإسلاميّ في التّخاطب والتّربية والحوار.. تقرأ الآية فترى اخضرار الأرض، وبهجة النُّفوس، وتنمية التّعاون.

بصيرة 4

﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: 261]

تبصِّرنا ببشرى المضاعفة فوق السّبعمائة لمن شاء الله عز وجل له ذلك، ممّا يجعل التّنافس يزداد بين المتسابقين.

بصيرة 5

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 261]

هذه بصيرة حاكمة معظِّمة تزيد القلب اطمئنانًا بأن الله عز وجل ﴿وَٰسِعٌ﴾ لا ينقصه نائل، ولا يحفيه سائل، ﴿عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه نيّة المنفق، شكره الناس أو لم يشكروه.

الفصل الثاني: شروط قبول النّفقة [البقرة: 262-263]

ويمنحنا هذا الفصل أربع بصائر، هي:

بصيرة 1: يشترط لقبول النّفقة الشُروط الآتية:

الشرط الأول: أن تكون في مصالح المسلمين ابتداءً بالوالدين والأقربين، ويبصّرنا به قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 262]، فجملة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تدلُّ على أن كلّ أمرٍ إسلاميّ فيه بناءٌ للحياة البشريّة، ورحمة بها، ودفاعٌ عنها.

الشرط الثاني: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تبصّرنا بشرطٍ ثانٍ يدخل في هذا المصطلح القرآنيّ الفريد، وهو أن تكون النّفقة خالصة لله عزوجل بلا رياء، ولا انتظار مكافأة من البشر، وهذا يضمن استمرارها بغضّ النّظر عن موقف البشر منها.

الشرط الثالث: عدم المنّ، ويبصّرنا بذلك قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا﴾ [البقرة: 262]، وهو أَنْ يَذْكُرَ الْمُحْسِنُ إِحْسَانَهُ لِمَنْ أَحْسَنَ هُوَ إِلَيْهِ يُظْهِرُ بِهِ تَفَضُّلَهُ عَلَيْهِ، أو أن يمنّ على ربّه سبحانه أنه أعطى وأنفق، فالمنُّ يؤذي الكرامة البشريّة، وهدف النّفقة هو إعلاء الكرامة البشريّة.

الشرط الرابع: عدم الأذى، ويبصّرنا بذلك قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى﴾ [البقرة: 262]، والْأَذَى أَعَمُّ من المنّ، وهُوَ أَن يُؤْذِي الْمُنفِقِ المنفَقَ عَلَيْهِ بِإِسَاءَةٍ فِي الْقَوْلِ أَو الْفِعْلِ، كأَنْ يَذْكُرَ الْمُعطي إِحْسَانَهُ لِغَيْرِ مَنْ أَحْسَنَ إليه بِمَا يؤدّي إلى إيلام المنفَق عليه لو علم، وأن يعتقد ثبوت الحقِّ له على المنفَق عليه.

الشرط الخامس: تربية النّفس على لذّة العطاء، وترك الإيذاء بعد الإنفاق: وهذا الشرط نفيده من التعبير بـ(ثم) في: ﴿ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى﴾ [البقرة: 262]؛ إذ تفيد أمرين:

- **الأول:** التّرتيب الزّمنيُ فتكون للتّرَاخِي، فالمنُّ والأذى الآجلين يحبطان الأجر السّابق، ونبّه بذلك على ما يحدث في طبائع الناس من السُكوت زمنًا، ثم قد تغالبه نفسه إلى المنّ أو الأذى بعد ذلك لشيء في نفسه، أو لسوء خلق المنفَق عليه، وهذا يدلُّ على أن المنّ والأذى العاجلين أَضَرُّ.
- **الثاني:** التّرتيب الرُتبي لإِظْهَارِ التّفَاوُتِ بَيْنَ معروف القول والتّغافر وبين الْإِنْفَاقِ المشوب بالْمَنِّ وَالْأَذَى، فإنّ الأول خير من الثاني إن كان على هذا الوجه؛ لمجاهدة الميل إِلَى التبجُّح والتّطاول على الْمُنفق عليه.

بَصِيرَة 2 يترتَّب على توفُّر هذه الشُّروط الأجور الثَّلاثة المباشرة للإنفاق دنيويًّا وأخرويًّا:

أولها: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 262] ذكر الأجر دون تحديد، وأضافهم إلى ربِّهم عز وجل تشريفًا وتكريمًا، وبيانًا لعظيم ما سيجدونه من الرَبِّ الغني القَادِر الكَرِيم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 262] فهم أَهْلُ الأرباح الكثيرة الحقيقية والْأَمْنِ وَالطُّمَأْنِينَةِ، وَالسُّرُورِ الدَّائِمِ وَالسَّكِينة في الدُّنْيَا والآخرة، والسَّكِينة المجتمعية تحدث في المجتمع المتراحم.

ثانيها: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: 262] فنفى عنهم الخوف؛ ليثبت كلّ ما ضادّه من الأمن والاستقرار والطُّمأنينة التي بها تستقيم شؤون الدُّنْيَا، وتتحقّق مصالحها، وتقام بها الحضارات، وتصنع بها الإنجازات والنَّجاحات، وينتج فيها المجتمع كلّ ما يحتاجه، ويسود ويقود، وكذلك لا خوف عليهم في قبورهم، ولا يوم يبعثون، ولا حين يعبرون على الصراط، فَهُمْ في أمن وأمان حتى يصلوا إلى جنان الرَّحمن، حيث منتهى الأمن، وغاية السَّعادة والاطمئنان.

ثالثها: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 262] ونفى عنهم الحزن في الدُّنْيَا الذي تسبِّبه طبيعة تقلُّب ظروفها، وتبدُّل أحوالها، وأثبت لهم كلّ ما هو ضدُّ الحزن من السَّعادة والرَّاحة والنَّعيم في دنياهم، حتى وإن اعتراهم طائف الأحزان في بعض الأحيان، لما يغلب عليه طبع الإنسان، ولما قد يقعون فيه من العصيان، كما نفى عنهم حزن حياة البرزخ، والحياة الآخرة، فَهُمْ في النَّعيم إلى زيادة، وفي السَّعادة إلى أعظم وأجمل وأجلِّ وفادة.

بصيرة 3 ﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ﴾ [البقرة: 263]

تبصّرنا بالبديل عن الصّدقة المؤذية:

بديل [1]

قول تعارف الناس على حسنه يدخل السُّرور على القلوب، وتنمو به مصالح المسلمين، سواء أكانوا مستورين، أم كانوا محتاجين، ومن القول المعروف ردُّ السّائل بالقول الجميل، والدُّعاء له.

بديل [2]

مغفرة لمن أساء بالعفو عنه، ويدخل فيه العفو عمّا يصدر من السّائل ممّا لا ينبغي.

بصيرة 4 ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ﴾ [البقرة: 263]

بصيرة حاكمة معظِّمة تبصّرنا بضرورة الثِّقة المطلقة بالعظمة الإلهيّة، فالله عز وجل:

﴿غَنِيٌّ﴾

عن صدقتكم أيها الأغنياء، فمصلحتها تعود لكم، و﴿غَنِيٌّ﴾ يعطيكم من غيرهم أيُّها الفقراء.

﴿حَلِيمٞ﴾

على من عصاه لا يعاجله بعقوبة مع قدرته عليه، ومنهم: المتصدِّق المؤذي، أو البخيل فهو تهديد لهذين الصِّنفين.

الفصل الثالث:

ثلاثة أمثال للنَّفقات المقبولة والمردودة [البقرة: 264-266]

المناسبة والاتِّصال

1- توسيع المشاركة العادلة المتراحمة للثَّروة الماليّة بين الناس من أعظم محاسن الإسلام.

2- وهو في ذلك يجمع بين مراعاة الْمَنْفَعَةِ الْعَامَّةِ ومراعاة الْوِجْدَانِ الْخَاصِّ على نحوٍ عادلٍ متوازن، "وَذَلِكَ بِمُرَاعَاةِ الْعَدْلِ مَعَ الَّذِي كَدَّ لِجَمْعِ الْمَالِ وَكَسْبِهِ وَمُرَاعَاةِ الْإِحْسَانِ لِلَّذِي بَطَّأَ بِهِ قدَره". (التحرير والتنوير 44/3)

3- وذلك لا يتمُّ إلا باستبشاع وجود المنّ والأذى والرِّياء، لذا أَوْسَعَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْمَقَامَ بَيَانًا، وَتَرْغِيبًا، وَزَجْرًا بِأَسَالِيبَ متعدِّدة وَتَفَنُّنَاتٍ بَدِيعَةٍ، فذكر ثلاثة أمثال للنَّفقة المقبولة والمردودة لتترقَّى المشاعر والأحاسيس المخبتة المنيبة في البشريّة، فالْأَمْثَال تُبْهِجُ السَّامِعَ، وتوسِّع مداركه.

وهذه الأمثال الثلاثة هي:

مَثَل [1] مَثَل (الصّفوان) للنَّفقة المردودة بسبب المنِّ، أو الأذى، أو الرِّياء [البقرة: 264]

وينضوي تحت هذا المثل (3) بصائر، هي:

بصيرة 1 ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: 264]

تبصِّرنا بأن الأعمال السَّيِّئة المصاحبة للأعمال الحسنة تبطلها، فالصَّدقة تدلُّ على رقيِّ الخلق الإنسانيِّ، وعظمة إيمانه، وذلك لجمال الفعل والقول الذي يصحبها، وليس بالمنِّ والأذى.

بصيرة 2 ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [البقرة: 264]

تبصِّرنا بأن الذي يمنُّ بصدقته، ويصحب إنفاقَه إيذاءُ المنفَق عليه يماثل المرائي الذي لا يؤمن بالله عز وجل واليوم الآخر؛ إذ إن كلًّا منهم جعل الصّدقة لا لإيمانه بربِّه عز وجل، بل لتكون وسيلة دنيئة للعب بالإنسانيّة.

والرِّئاء

فِعَالٌ مِنْ رَأَى، لأنه لا يعمل إلا ليراه الناس.. لا لإسعاد البشريّة طلبًا لرضا الله عز وجل، ثم ما يلبث حتى يفضح؛ إذ هو لا يريد إلا خداع الإعلام من خلال الخير اليسير الذي يبثُّه.

بصيرة 3 بصرنا الله بعد ذلك بمَثَل هؤلاء الثلاثة:

1 المانُّ والمؤذي والمرائي ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ هو الحجر الأملس ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ يظنه الزّارع أن سيكون تربة خصبة صالحة للزرع، فيزرعه ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾: مطرٌ غزيرٌ، فجرف التُّراب، ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ فترك الحجر أملس يابسًا ليس عليه شيء من التُّراب، وذهب جهد الزّارع هباء، فكذلك عمل المرائي والمؤذي والمانِّ.

2 ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾.. انظر الجمال! يذكر الثلاثة أنهم أنفقوا ليكسبوا، لكن كسبهم ذهب هباء، وبدلًا من أن تكون النّفقة ربحًا لهم صارت وبالًا عليهم وحسرة، فتزيدهم قسوة وبعدًا عن الله عز وجل.

3 ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 264]، فالكافر يغطِّي الحقائق، وكذلك المانُّ والمؤذي والمرائي يغطُّون حقيقة قلوبهم القاسية بنفقتهم الظّاهرة.

مَثَل [2] مَثَل (الرّبوة) للنّفقة المقبولة [البقرة: 265]

ويشتمل هذا المثل على (6) بصائر، هي:

بصيرة 1 ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ﴾ [البقرة: 265]

يبصّرنا الفعل المضارع ﴿يُنفِقُونَ﴾ على أنهم يكرّرون الإنفاق لأموالهم، وأنهم فعلوا ذلك لتحقيق ثلاثة أهداف:

هدف [1]: ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ تبصّرنا بأن الهدف الأول لنفقتهم أنهم ينفقون محبّة لله عز وجل لا للرياء، ولا لإذلال البشر بالمنّ والأذى.

هدف [2]: ﴿وَتَثۡبِيتٗا﴾ تبصّرنا بأن الهدف الثاني لنفقتهم لتثبيت أنفسهم إيمانيًا، ولتثبيت ملكهم، ودولتهم وأمنهم من خلال تكافل المجتمع وتعاونه، ونشر المحبّة بين أفراده، وإعانة كلِّ فئة على أن يكون لها مالٌ تنفق منه، وتستثمره.

هدف [3]: ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ تبصّرنا بأن الهدف الثالث لهم أن يزكُّوا أنفسهم، ويجعلوها ترتقي في مدارج الكمال، ففعلوا ذلك لا بضغطٍ خارجيٍ، أو لشعورهم بالحرج، بل أقدموا على ذلك من تلقاء أنفسهم، حيث جاهدوها لتفعل ما به تزكو وتثبت، لأن (تَكْرِيرَ الْأَفْعَالِ سَبَبٌ لِحُصُولِ الْمَلَكَاتِ).

بصيرة 2 ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ﴾ [البقرة: 265]

تبصّرنا بأن مثل هؤلاء المفلحين كمثل جنّة كثيرة الأشجار، يستر بعضها بعضاً، لأنها مأخوذة من الاجتنان وهو السّتر.

بصيرة 3 ﴿بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ [البقرة: 264]

تبصِّرنا بأن هذه الجنّة برّبوة، أي: محل مرتفع ليكون أثر الشَّمْسِ وَالْهَوَاءِ عليه أَكْمَلَ، فَيَكُونُ أَحْسَنَ مَنْظَرًا، وَأَزْكَى ثَمَرًا، حتى تكون غَلّتُها مضاعفة على خلاف المحلِّ المنخفض، وَقيلَ الرَّبْوَة: هي الْأَرْضُ الْمُسْتَوِيَةُ الْجَيِّدَةُ التُّرْبَةُ، بِحَيْثُ تَرْبُو بِنُزُولِ الْمَطَرِ عَلَيْهَا وَتَنْمُو، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[الحج: 5].

بصيرة 4 ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: 264]

تبصِّرنا بأن هذه الجنّة لا تخلو من نزول الغيث عليها سواء أكان وابلاً، أي: كثيرًا، أم طلًّا، أي: مطرًا قليلًا يكفيها لتنبت؛ لطيب منبتها.

بصيرة 5 يبصِّرنا هذا التَّمثيل

بأن المنفق ابتغاء مرضاة الله عز وجل وتثبيتًا من نفسه، كَالْجَنَّةِ الْجَيِّدَةِ التُّرْبَةِ، الْمُلْتَفَّةِ الشَّجَرِ، الْعَظِيمَةِ الْخِصْبِ فِي كَثْرَةِ بِرِّهِ وَحُسْنِهِ، فَهُوَ يَجُودُ بِقَدْرِ سَعَتِهِ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ أورق وأَغْدَقَ، وَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ قَلِيلٌ أَنْفَقَ مِنْهُ بِقَدْرِهِ، فَخَيْرُهُ دَائِمٌ، وَبِرُّهُ لَا يَنْقَطِعُ. (تفسير المنار 3/58)

بصيرة 6 ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 265]

بصير بقلوبكم وأعمالكم، وبما تنفقون فيكافئ المحسن المقبل عليه مهما قلّت نفقته.

مَثَل [3] مَثَل (الإعصار الناريُّ) للنّفقة المردودة [البقرة: 266]

وينضوي تحت هذا المثل (4) بصائر، هي:

بصيرة 1 ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: 265]

تبصّرنا بعظمة ملك هذا الرّجل، حيث يملك الجنّة الممتلئة بالغابات الزّراعية الملتفّة، يأتيه رِيعُها وفوائدها، ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ فضعف عن الاكتساب، ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ لم يعتمدوا على أنفسهم يحتاجون إلى من يقوم عليهم، ﴿فَأَصَابَهَآ﴾ أي: اجتاح جنّته ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: 266]، فدُمِّر رأس ماله، وصار فقيرًا عاجزًا، تراه هو وذرِّيّته أحوج ما يكون إلى ماله.. فمن يحبُّ أن يكون هذا حاله؟

بصيرة 2 النّفقات الصّالحة مثل الجنّة

يراها العامل في الدُّنْيَا فيظنُّ أنها تبقي له مكانة وتأثيرًا عند من أنفق عليهم، لكن إعصار الرِّياء والمنِّ والأذى يوجد له الكره في قلوبهم، فيهجرونه عندما يحتاجهم، وأما في الآخرة فتأتي هذه الأعمال فيراها، فيفرح بها، فيدمِّرها إعصار الرِّياء والمنِّ والأذى، فتحترق وتبيد أحوج ما يكون إليها.

بصيرة 3 ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 265]

تبصِّرنا بأن الآيات القرآنيّة تمثِّل أهمّ وسائل تنمية التّفكير الإنسانيِّ، وتوسيع المدارك، وانظر كيف تربط الآيات بين تفكيرنا بالأعمال وعواقبها والجمال البيئيِّ.

بصيرة 4 مَثَل (الإعصار) يبصِّرنا بضرورة الحذر من تدمير الجهود

وتقويض البنيان، وإهلاك الجنّات الوارفة التي بنيت بجهود العطاء وكرم السّخاء، فإن المنّ والأذى كالإعصار المشتعل المدمِّر لجمال الإنفاق، وروعة التعاون، والعطاء الدّفّاق.

الفصل الرابع: الضَّوابط المتعلِّقة بالمبذول [البقرة: 267]

ضابط [1]: ينبغي للمؤمنين أن يكونوا الأعلى يدًا في الاستثمارات الماليّة

ويبصِّرنا بذلك قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ﴾ [البقرة: 267]، فأَمْرُ المؤمنين بالإنفاق يعني أن يستثمروا؛ ليتمكّنوا من الإنفاق على الاحتياجات البشريّة.

ضابط [2]: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 267]

تبصِّرنا بأنواع المال المبذول، وأنه يرجع إلى نوعين:

نوع [1] ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ ما كان من طيّب الكسب، والطّيّب: هو الحلال الجيّد من الْأَشْيَاء النَّفِيسَة الَّتِي يُسْتَطَابُ تملكُهَا، وهذا يدل على الحث الشديد على الاكتساب واستثمار الأموال.

نوع [2] ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ الطّيّب ممّا أخرج من الأرض من الزُّروع والمعادن.

ضابط [3]: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 267]

تبصِّرنا بأنه يحرم إنفاق الخبيث من المال، أي: لا تتعمّدوا وتقصدوا إنفاق الخبيث منه، وهو الرديء المكروه تناوله.

ضابط [4]: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: 267]

تبصِّرنا بأنه يجب أن يحبّ الإنسان لبقيّة أفراد الإنسانيّة ما يحبُّ لنفسه، فكما أنه لا يمكن أن يأخذ الخبيث الرّديء من الطّعام إلا أن يغمض عينه عن عيبه عند الاضطرار، فكذلك لا ينبغي له أن يعطيه لغيره.

ضابط [5]: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: 267]

تبصِّرنا بأن نتنبه للرّقابة الإلهيّة التي تعني التّبشير والتّحفيز، فالله ﴿غَنِىٌّ﴾ يعطي المحتاجين إن بخلتم، ويعطيكم عوضًا عما أنفقتم، ﴿حَمِيدٌ﴾ حَامِد لكم المبادرة إلى الأعمال الصّالحة، محمود على ما يعطيكم ابتداء ويعوِّضكم انتهاء، محمود على صفاته وأفعاله.

الفصل الخامس:

شبهة شيطانيّة وتطمينات رحمانيّة [البقرة: 268-270]

أولاً

الشُّبهة الشَّيطانيّة [البقرة: 268]

1

ويبصِّرنا بها قوله ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [البقرة: 268]، هذه الجملة تعالج البعد النّفسي النّافر من الإنفاق، إذ يقوم الشَّيطان بوعدنا بالفقر، وأمرنا بالفحشاء عبر سلسلة من الوسوسة، والْإِغْرَاءِ، والإغواء.

2

ويسلِّط أولياءه من الجنِّ والإنس، فيوهمكم أولًا أن مجرّد الإنفاق إهدار للمال دون فائدة قريبة ظاهرة.. كيف تنفق مالًا أتعبت نفسك في جمعه؟ إنك بذلك تعود إلى الفقر.

3

فإذا عصاه وآمن بالغيب وأصرّ على الإنفاق يغريه الشَّيطان بأن ينفق الرّديء من المال، وبذا يحتال على الإنفاق.

4

فإن أمسك عن النَّفقة، أو أنفق الرّديء أدّى به ذاك إلى قطع الرّحم، وعدم تأمين نفسه ومجتمعه بالإنفاق، والوقوع في الْفَحْشَاء وهي كُلُّ مَا فَحُشَ، أَي: اشْتَدَّ قُبْحُهُ.

ثانياً التّطمينات الإلهيّة بفضائل النّفقة البشريّة [البقرة: 268-270]

تطمين [1]

ارتشاف ملذّات الوعد الإلهيّ: المغفرة لخير الآخرة، والفضل لخير الدُّنْيَا، ويبصّرنا بذلك قوله ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: 268].

1. فوعد الرحمن تُرَجّحُهُ الحِكمَةُ والعقل، ووعد الشّيطانِ تُرَجّحُهُ الشّهوةُ والحِسُّ. فجذب الوعد الإلهيُّ القلوب؛ ليبادروا إلى نفع أنفسهم والخلق بالإنفاق، من خلال الإشارة إلى كَمَالِ مغفرته، وإلى كمال فضله.
2. إذ نكّر المغفرة لتفخيمها، وقال: ﴿مِّنۡهُ﴾؛ لأنه أغنى الأغنياء لا تغيضه النّفقة، ولا ينقصه العطاء، فعِظَمُ الْمُعْطِي يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ الْعَطِيّةِ.

تطمين [2]

الإنفاق حكمة تورث حكمة يختصُّ الله عزوجل بها من عباده من شاء، ويبصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [البقرة: 269].

1. الحكمة فِعْلُ الصّوَابِ عن علم؛ فالحكمة نظريّة وهي العلم، وعمليّة وهي فعل الصّواب العدل، فالإنفاق حكمة عمليّة عن علم.
2. ألا ترى إلى الآثار المدهشة لها؛ إذ بها يُؤَمّن المجتمع، وتُزال الفوارق الطّبقيّة بين أفراده، ويحدث السِّلم المجتمعيُّ بين أهله، والحكمة لا تتمُّ إلا بوجود الفقه والإخبات والعقل بوضع الأمور في مواضعها.

تطمين [3]

يتشرّف المنفقون بأنهم من أولي الألباب، ويبصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: 269].

والألباب: جمع لبٍّ، وهو خلاصة الشّيء، فالمنفقون خلاصة المجتمع المفكّر في كيفية حفظ الأمن القوميّ في الدُّنْيَا، وضمان المستقبل القادم في الآخرة.. أليس البخل بقليل من الأموال جرّ من الأحداث المهولة ما سكبت به الدِّماء وَجَرَتْ معه الأهوال؟

تطمين [4]

الشُعور بعلم الله عز وجل لكلِّ نفقة تخرج، أو التزام يلتزم به، ويبصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: 270].

فالنّفقة: ما أخرجه المرء ابتداء، والنّذر: ما ألزم به نفسه، ويكون قربة عظيمة إذا لم يشترط صاحبه، وفرق بين النّذر والنّفقة؛ لأنّ النّذر فيه إلزام للنُفوس المتردِّدة أو الجامحة عن الإنفاق فيلزمها العبد بنذره لئلّا تتهرّب.

تطمين [5]

ينصر الله عزوجل المنفق؛ أمّا الظّالم فلا يجد له أنصارًا، ويبصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: 270].

وَالظّالِمُونَ يدخل فيهم:

1. من ظلم نفسه والمجتمع بترك النّفقة.
2. ومن ظلم نفسه بأن يكون قدوة سيِّئة في التّباهي والتّفاخر بما ليس فيه إلا السُوء والسّرف والفحشاء.
3. ومن ظلم نفسه والمجتمع بالنّفقة المقترنة بالمن والأذى.
4. ومن ظلم مجتمعه بعدم حمايته في أمنه القوميّ المرتبط بالإنفاق على الأمن والتّعليم والمصالح العامّة.

الفصل السادس:

هيئة تقديم الصّدقات ومن يستحقُّها [البقرة: 271-272]

ويحبونا هذا الفصل ب(5) بصائر، هي:

بصيرة 1 ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 271]

تبصِّرنا بضرورة التّربية على التّنافس بما هو أزكى في الإنفاق، فيصحُّ تقديم الصّدقات جهرًا، وتقديمها سرًا، والأفضل منهما حسب الأثر. فالسِّرُّ أفضل إذا علم أنه قد لا يقتدى به، وأن ذلك أفضل للفقراء، والإظهار أفضل إذا علم أنه سيكون إمامًا يقتدى به، وفعله يوجد التّنافس بين الناس، ولذا فالظّاهر أن كلمة ﴿خَيۡرٞ﴾ اسمٌ، وليس أفعل تفضيل.

بصيرة 2 الإنفاق سرًا وعلنًا يؤدِّي إلى تكفير السّيِّئات

ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [البقرة: 271]، فقد وردت في الفعل ﴿يُكَفِّرُ﴾ ثلاث قراءات:

1 **القراءة الأولى:** بالنُّون والجزم ﴿نُكَفِّرۡ﴾ لنافع، وحمزة، والكسائي، وأبي جعفر، وخلف العاشر، وتدلُّ على رجوع التّكفير للسِّرِّ.

2 **والقراءة الثانية:** بالياء والرّفع ﴿يُكَفِّرُ﴾ لابن عامر وحفص.

3 **والقراءة الثالثة:** بالنون والرّفع ﴿نُكَفِّرُ﴾ للباقين

وكلاهما تدلُّ على رجوع التّكفير للكلِّ، مع ما يمكن لمحه من التّعظيم الذي أفادته قراءة النون.

بصيرة 3 عدم إعلام الفقير خير من إعلامه

ولذا ذكر الله عزوجل ﴿الفقراء﴾ مع الإخفاء في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 271] قالت الْحُكَمَاءُ: إِذَا اصْطَنَعْتَ الْمَعْرُوفَ فَاسْتُرْهُ، وَإِذَا اصْطُنِعَ إِلَيْكَ فَانْشُرْهُ، وقال سهل بن هارون:

يخفي صنائعَهُ واللهُ يُظهِرُها ... إنّ الجميلَ إذا أخفيتَه ظَهرَا

بصيرة 4 تكرُّرُ ذكر الفقراء في الآيات يبصِّرنا بضرورة محاربة الفقر بالتّعاون على إعانة الفقراء

ليصبحوا قادرين على الاكتساب؛ لئلّا يتحوّل المجتمع إلى مجتمع مترهِّل يعيش على الإعانات والضّمانات والصّدقات دون استحقاق، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: ((لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ، وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ)). "أحمد (6798)، وأبو داود (1634)، وقوّى الأرناؤوط إسنادَه، وصحّحه الألباني في إرواء الغليل (877)"

بصيرة 5 المبادئ الإسلاميّة تقتضي إعانة غير المسلمين داخل المجتمع وخارجه بالصّدقات غير الواجبة

ويبصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة: 272] بعد الآيات السّابقة، جاءت هذه الآية العظيمة في موقعها المناسب البديع عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: كانوا يكرهون أن يَرْضَخوا لأنسابهم من المشركين، فنزلت هذه الآية.. ثم إنّ النّبيّ ﷺ قال: ((فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ)). "البخاري (2363) ومسلم (2244)"

الفصل السابع:

أعظم الإنجازات التي يحقِّقها المنفقون [البقرة 272-274]

تضمنت آيات هذا الفصل (7) إنجازات تتحقّق للمنفقين، هي:

إنجاز [1]

تحقيق الهداية، فالنّفقة من أعظم أوجه الهداية التي لا يوفّق لها إلا المصطفون، ويبصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 272].

إنجاز [2]

التّفوُّق في بناء المصالح الشّخصيّة، ويبصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: 272]:

دنيويًا بالبركة في المال، وتأليف الفقراء ونشر المحبّة في المجتمع، فتعود الفائدة لكم.

ودينيًا بالنّجاح في الاختبار المؤدّي إلى الفلاح فيكون الإنفاق تثبيتًا من أنفسكم في مقامات الإيمان والإحسان.

إنجاز [3]

إثبات محبّة الله سبحانه، والإخلاص له، ويبصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 272]، وهذا أمرٌ بالإخلاص، وخبرٌ عن تحقُّقه عند المصطفين من عباده.

إنجاز [4]

الانتفاع بالعوض المضمون بالوعد الإلهيّ الكريم، ويبصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 272]، فبقدر إنفاق الإنسان سيجد ما يُوْدِعُ لمستقبله الشّخصيّ الدُّنيويّ والأخرويّ دون أن يظلم منه شيئًا، بل سيجده وافيًا.

إنجاز [5]

تحرّي الإنفاق على أولى صنفٍ بشريّ، ويبصّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: 273]، والإنفاق على هذا الصِّنف توفيقٌ، وإنجازٌ عظيم؛ إذ هم يمثّلون خيرة من يُنْفَق عليهم من أبناء البشريّة الصّادقين، ووصف الله عز وجل هذا الصِّنف بستِّ صفات:

صفة [1]

وصفهم بأنهم فقراء: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾.

صفة [2]

﴿أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: قصروها على طاعة الله عز وجل، من القيام على الأمور العليا في إغاثة الأمّة من تعليم، وجهاد، وقيام على حاجات الناس، ونشرٍ للقرآن، وهو أفضل العبادات؛ لأنه حفظٌ للدِّين كلِّه.

صفة [3]

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ هذا المعنى الثاني للإحصار، وهو أن يحصروا عن السّفر للتّجارة وطلب الرِّزق فما أشبههم بالذين تَحُولُ إجراءات السّفر المستحدَثة عن أن يهاجروا إلى مكانٍ لهم فيه سَعة.. حبستهم الحروب المجرمة التي يشنُّها المسعورون من جنود إبليس ضدّ الأبرياء.

صفة [4]

﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾، وهذه الصِّفة من أهمِّ أسباب البحث عنهم، وهي تربِّي الموسر الغنيّ على أخذ زمام المبادرة في إيجادهم.

صفة [5]

﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾، السِّيما: العلامة، وليس المراد بها كما قيل التَّخَشُّعُ وَالتَّوَاضُعُ؛ لأنه هذه العلامات تناقض قَوْلُه تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾، بَلِ الْمُرَادُ يظهر عليهم هَمُّ دينِهم، وتعظيمُ ربِّهم عز وجل، والبحث عن معالي الأمور في رفعة أمّتهم، وإصلاح العالم المعوجِّ.

صفة [6]

﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾، أي: إلحاحًا، فهو وصف لواقع، فلا يسألون قليلًا ولا كثيرًا، فربّما سألوا لغيرهم، ثم لم يكرّروا تلك المسألة؛ لعلمهم بأن التّوفيق للإنفاق من الله عز وجل لا من البشر، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ))، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾. "البخاري (4539)"

إنجاز [6]

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 273] الصِّلة المباشرة بالله عز وجل عند كلِّ نفقة، فربما أنفقتَ، ولم تجد شكرًا، بل قد تجد جحودًا، ونكرانًا، وكفرًا.. فما الضَّير؟

إنجاز [7]

أن يعيش حياة الإنفاق الجالبة للسكينة الطاردة للخوف من المستقبل والحزن على الماضي، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: 274].

القِسم الثاني

الرِّبا أهمُّ نماذج التّعاملات الماليّة المحرّمة، وكشف الفلسفة المدمِّرة التي يقوم عليها

[البقرة: 275-281]

المناسبة والاتصال:

1. إنه الترتيب المعجز: الإنفاق أداة التّراحم الحقيقيّة.. يبيّن جمال العبوديّة، وصدق الفهم لحقيقة الاستخلاف في الأرض، والرِّبا عكس ذلك، فالعلاقة بين الإنفاق والرِّبا التّضاد.

2. فلما ذكر عظمة النّفقة وأثرها في تكافل المجتمع وتقويته ذكر ما يقابل النّفقة من الرِّبا الإجراميّ الذي يستغلُّ حاجة الفقراء ويمتصُّ دماءهم، بدلًا من النّفقة عليهم، أو إقراضهم شيئاً يكون أساساً لرأس مالٍ عندهم للبيع والشِّراء، وهو وسيلة الامتصاص الخطيرة التي يلجأ إليها المفسدون من بني إسرائيل عندما يُستخلفون في الأرض استخلافًا جزئيًا أو كلّيًا.

3. وبعد هذا القِسم ذكر الله عز وجل البديل المناسب للرِّبا المدمِّر، وهو التّداين الاستثماريُّ والاستهلاكيُّ.

وتكوّن هذا القِسم من فصلين:

الفصل الأول: كشف العقليّة الفاسدة للمرابين [البقرة: 275]

ويحبونا هذا الفصل ب(5) بصائر، هي:

بصيرة 1 ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: 275]

تبصِّرنا هذه الجملة بمصطلحٍ قرآنيٍّ متميِّزٍ للوحوش البشريّة الاقتصاديّة هو (أَكَلَةُ الرِّبا)، والمصطلح يصوِّر جشع المرابين، فهم يأكلون الرِّبا، أي: يتعَاملُونَ بِهِ، ونَبَّهَ بِالْأَكْلِ عَلَى مَا سِوَاهُ، وخَصّ الْأَكْلَ؛ لأن الآية تصوِّر بشاعة آكل الرِّبا وأنانيته؛ فالزِّيادة الرِّبويّة التي كان يمكن أن يستفيد صاحبها منها في استثمارٍ يقلِّل الفوارق بينه وبين الحياة الكريمة اللّائقة، لكن آكل الرِّبا بادر بأكلها، فالأكل هو الوسيلة الأكيدة لمنع الانتفاع بالمأكول بعد أكله.

بصيرة 2

﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البقرة: 275]

صورةٌ ثانية للواقع المخزي الدُّنيويّ، والعاقبة الأخرويّة المهينة المقزِّزة لهذه الفئة المجرمة، تراهم فيها كالذي يتخبطه الشّيطان، أي: يضربه عَلَى غَيْرِ تنظيمٍ أو ترتيب، فلا هداية، ولا عقل، ولا رشد، كأن الشَّيْطَان مَسَّهُ بِخَبَلٍ أَوْ جُنُونٍ، وتخيّل شخصًا يتخبّطه البعير بأخفافه كيف يحاول التّخلُّص من ذلك المأزق مندهشًا دون حركاتٍ واضحة، والذي يتخبّطه هنا هو الشّيْطَان فيَطَؤُهُ بِرِجْلِهِ فَيُخَبِّلَهُ، ويمسُّه بيده فيصبح فاقدًا عقله.

بصيرة 3

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ [البقرة: 275]

تبصّرنا الجملة بأنهم يتلاعبون بعقول البشريّة في إباحة الرِّبا، فقاسوا البيع على الرِّبا، وجعلوا الرِّبا أصلاً؛ لأنّ الرِّبا عندهم مضمون الفائدة، وكأن البيع مجرّد إلحاق به، فالأصل عندهم هو الفائدة الذّاتيّة التي تعبّر عن الأنانيّة، وليس المشاركة التي تنتج عن البيع.

بصيرة 4

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ [البقرة: 275]

تبصّرنا بأن تشريع ما يُصلح الحياة البشريّة حق إلهيٌ؛ لأنه المحيط بما يحتاجه البشر، وهنا يأتي الرّدُّ عليهم؛ فالفرق بين البيع والرِّبا واضحٌ؛ إذ البيع عملية تبادل سلعة بمال مما يعود على كلا الجهتين بالنفع، أما الربا فعملية تبادل مالٍ بمالٍ أكثر منه دون حركة استثمارٍ حقيقيّة، فالآخذ يؤول أمره إلى زيادة الاستدانة، والمعطي المرابي يزداد غنى بامتصاص دماء الآخذ.

بصيرة 5

تبصّرنا الآية بأن آكل الرِّبا له حالتان:

1

إمّا التّوبة ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 275]، فيعفى عن حياته السّالفة، ولا يلزم بردِّ الرِّبا الذي كسبه سابقًا، ويوكل أمر صدق توبته إلى الله عز وجل.

2

وإمّا الاستمرار في ارتكاب الجريمة، وعندها: ﴿وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 275].

الفصل الثاني:

المجتمع بين تدمير الرِّبا وتنمية الصَّدقات (التَّهديد والبديل) [البقرة: 276- 281]

وتضمن هذا الفصل (9) بصائر، هي:

بصيرة 1

﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة: 276]

تبصّرنا بأن الرِّبا يدمّر المجتمع اقتصاديًا واجتماعيًا، والصّدقة تُنَمّيه:

1

والْمَحْقُ: نُقْصَانُ الشَّيْءِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ، ثم مَحْوُهُ وذهابه، والمحق يكون في الدُّنْيَا بأن يكثر المال عند صاحبه في الظَّاهر لكنه يمحق المجتمع، ويجعل الهُوّة عظيمة بين طبقاته.

2

فالرِّبَا زِيَادَة فِي الصُّورَة، نُقْصَانٌ فِي الْحَقِيقَة، والصَّدَقَة نُقْصَانٌ فِي الصُّورَة، زِيَادَةٌ فِي الحقيقة، فعن ابن مسعود ﷺ أن النَّبيّ ﷺ قال: ((الرِّبَا وَإِنْ كَثُرَ، فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ تَصِيرُ إِلَى قُلٍّ)). "أحمد (3754)، وصحّحه الأرناؤوط، والألباني في صحيح الجامع (3542)"

3

وفي المقابل قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ -وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ- وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا (وفي لفظ مسلم: وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ) كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ)). "البخاري (1410) ومسلم (1014)"

بصيرة 2

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: 276]

تبصّرنا بأن الرِّبا مجلبةٌ للكفر والإثم، فالوصفان يَذْكران نوعين من الناس: فالْكَفَّارُ مُسْتَحِلُّ الرِّبا، وَالْأَثِيمُ مَنْ يَفْعَلُهُ مَعَ اعْتِقَادِ التَّحْرِيمِ. (تفسير الرازي 81/7)

بصيرة 3

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ... ﴾ [البقرة: 271]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة: 277] **تبصّرنا بأن المجتمع الآمن من الخوف المستقبليّ والحزن على الماضي والحاضر، هو الذي جمع بين الإيمان القلبيّ، والعمل الظّاهريّ للصّالحات، وإقامة الصَّلاة التي تدلُّ على الصِّلة الحسنة بالخالق وإيتاء الزَّكاة التي تدلُّ على الصِّلة الحسنة بالخلق، وليس بالرِّبا، فهذه الأعمال قِوام تأمين المجتمع من الخوف والحزن.**

بصيرة 4

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة: 278]

تبصّرنا بأن أخذ بقيّة الرِّبا بعد العلم بالتّحريم ينافي الإيمان، ويضادُّ التّقوى، ولذا كان أوّل مَنْ يتبرأ مِنَ الرِّبا محمد ﷺ ويبرّئ قرابته منه، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رَسُول اللَّه ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ: ((أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ، كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ)). "مسلم (1218)"

بصيرة 5

﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [البقرة: 279]

تبصّرنا بأن المجتمع الرِّبويّ عرضة لحرب الله ورسوله، وهذا ترهيب مزلزل، وفي الآية قراءتان تصوِّران مشهدين:

القراءة الأولى:

﴿فَأۡذَنُواْ﴾ أي: فاعلموا أن حربًا من الله ورسوله ستُشنُّ عليكم.

القراءة الثانية:

﴿فَآذِنُوا﴾ في قراءة حمزة وشعبة، أي: فأعلِموا المُصِرّين على الرِّبا، وأبلغوا المجتمع أجمعين بالحرب من الله عز وجل على المجتمع الذي يشيع فيه الرِّبا، وحسبك أن تعلم أن 15% في الولايات المتحدة دون خط الفقر، وهذا جزءٌ من الجانب المظلم من تلك الحضارة البرّاقة الخادعة.

بصيرة 6 تبصِّرنا هذه الآية بأن حرب الله عز وجل على المرابين تقتضي أن تُعَزِّرهم السُّلطة القضائيّة

وقد يصل إلى التّعزير إلى ما يشبه عقوبة الحرابة حسب مقدار الجُرم الذي يقترفون.

بصيرة 7 ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 279]

تبصِّرنا بأن صدق توبة المرابي تظهر بأن يكتفي بأخذ رأس ماله، ولا يأخذ الزِّيادة الرِّبوية، فـ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ من عاملتموه بأخذ الزِّيادة التي هي الرِّبا، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بنقص رؤوس أموالكم.

بصيرة 8 ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ [البقرة: 280]

تبصِّرنا بأن المجتمع المتراحم يُنظِرُ المَدين المُعْسر أو يضع عنه دَيْنَه:

1 أي: إن وُجِدَ ذُو عُسْرَةٍ لا يجد وفاء لدَيْنِه ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ فيجب على صاحب الدّين أن يُنظِرَه، أي: يؤخِّره حتى يجد ما يوفي به.

2 فالنّبيُّ ﷺ يقول: ((مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِهِ صَدَقَةٌ)) ثم قال: ((مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ)) فسئل عن ذلك، فقال: ((بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ الدَّيْنُ، فَإِذَا حَلَّ الدَّيْنُ فَأَنْظَرَهُ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ)) "أحمد (23046)، وصححه الأرناؤوط، والألباني في الصحيحة (86)"

3 وذكر الله عز وجل بديلًا أجمل يعود بالخير على جميع الأطراف في قوله: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فإن تصدّق صاحب الدّين على المدين بإسقاط دَيْنه كلِّه أو بعضه كان خيرًا لهما وللمجتمع كلِّه؛ إذ هذه المساعدة تؤدِّي إلى نهوض المدين لينشغل بالبحث عن استثمار مناسب بدلًا من التّفكير في سداد الدّين.

بَصِيرَة 9 ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ [البقرة: 281]

تبصِّرنا بأن الكفّ عن حرمات المجتمع مقياس حقيقيٌ لاتِّقاء العقوبة العظيمة يوم اللِّقاء.

فترك الرِّبا، وإنظار المعسر، والصّدقة من أعظم الأرباح عند ذكر المكاسب يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ نَفَّسَ عَنْ غَرِيمِهِ أَوْ مَحَا عَنْهُ كَانَ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)). "أحمد (22559)، وحسّنه البغوي في شرح السُنّة (2143).

القِسم الثالث

التَّداين وإدارة التِّجارة والاستثمار

[البقرة: 282-283]

المناسبة والاتصال:

بعد أن ذكر الله عز وجل أبرز المعاملات الماليّة المحرّمة وهو الرِّبا بيّنَ البديل المناسب عنه لإتمام عملية التّنمية العادلة في المجتمع، وهو التّداين، وذكره في هذا الموضع مباشرة بعد قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 281] حتى لا يظنُّ السّامع أن التِّجارة وجمع الأموال مذمومة في الإسلام في ظلِّ التّرهيب من الحساب في اليوم الآخر.

نظرة عامّة إلى هذا القِسم

بصيرة 1

تكوّن هذا القِسم من آيتين عظيمتين، وفصّل الأمور الماليّة المتعلّقة بالتّداين الاستهلاكيّ والاستثماريّ تفصيلًا تشريعيًا قانونيًا معجزًا، وأخذت آية التّداين الأولى هذا الشّكل المهيب المتميِّز الذي لم يتكرّر في القرآن من حيث الطُّول، فتضمّنت خَمْسَةَ عَشَرَ أَمْرًا وَنَهْيًا، ويظهر من الآيتين الإعجاز العجيب في ناحيتين:

[1]

السّبق التّشريعيُّ الإسلاميُّ بهذه المبادئ للتّشريع المدنيِّ والتِّجاريِّ بحوالي عشرة قرون.

[2]

الصِّياغة للمجالات التّشريعيّة كالإعجاز في الصِّياغة للمجالات التّربويّة التّوجيهيّة أو للمجالات التّعظيميّة مع التّداخل بين هذه المجالات، فنلاحظ أن الصِّياغة هنا بأسلوب قانونيّ فريد معجز؛ ليبيّن أحكام هذه المبايعات مع شمول هذه الصِّيغة للدّين المعتاد.

بصيرة 2

الآيتان تبيّنان أن التّدَايُن مِنْ أَعْظَم أَسْبَاب التّنمية العادلة في المجتمع؛ لِأَنّ الْمُقْتَدِرَ عَلَى تَنْمِيَةِ الْمَالِ قَدْ يَعُوزُهُ الْمَالُ، فَيَضْطَرُّ إِلَى التّدَايُنِ؛ لِيستثمرَ مَوَاهِبَهُ فِي التّجارة، أَوِ الصّنَاعَةِ، أَوِ الزّرَاعَةِ

فحدّدت الآيتان بدقّة مدهشة وسائل التّوَثُّق والتوثيق فى التّداين، وإدارة التّجارة الحاضرة والغائبة لبَثّ الثّقَةِ بَيْنَ الْمُتَعَامِلِينَ؛ لتنمو عُقُود الْمُعَامَلَاتِ، وتنتشر وسائل التّمَوُّيلِ، ولا يكون السُّوق حكرًا على المرابين. (ينظر: التحرير والتنوير 98/3)

بصيرة 3

آيتا التّداين تفصّلان حرص الإسلام على حفظ الأموال، وتوثيق تداولها، وتنميتها، وهما بذلك تشجّعان على الاستثمار:

فالمال أساس الحركة في الحياة ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النِّساء:8]، أَيْ: تَقُومُ وَتَثْبُتُ بِهَا مَنَافِعُكُمْ وَمَصَالِحُكُمْ. (تفسير المنار 99/3).

عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

بعث إليّ النّبيُّ ﷺ فَأَمَرَنِي أَنْ آخُذَ عَلَيّ ثِيَابِي وَسِلَاحِي، ثُمّ آتِيه، فَفَعَلْتُ فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضّأُ، فَصَعّدَ إِلَيّ الْبَصَرَ ثُمّ طَأْطَأَ، ثُمّ قَالَ: «يَا عَمْرُو، إِنّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيُغْنِمُكَ اللّهُ، وَأَرْغَبُ لَكَ رَغْبَةً مِنَ الْمَالِ صَالِحَةً» ، قُلْتُ: إِنّي لَمْ أُسْلِمْ رَغْبَةً فِي الْمَالِ، إِنّمَا أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ فَأَكُونُ مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا عَمْرُو، نِعْمَ الْمَالُ الصّالِحُ لِلْمَرْءِ الصّالِحِ» "أحمد (17763)، والبخاري في الأدب المفرد (299)، واللفظ له، وصحّحه الأرناؤوط والألباني". **والمذموم أن يكون الإنسان عبدًا للدّينار والدّرهم.**

بصيرة 4

تقدِّم الآيتان أحكامًا ثريّة للتّداين الاستثماريّ والاستهلاكيّ بجميع أنواعه صغيرِه وكبيرِه، وإدارة التِّجارة حاضرة وغائبة، وذلك لتفصيل البدائل الثّلاثة عن الرِّبا: البيع، والصّدقات، والقرض (الدّين).

بَصِيرَة 5

إنما نجد هذا التَّفصيل التَّشريعيّ للتَّداين الذي لم نجده في عبادات أخرى مثل الصَّلاة، لتحقيق الأهداف الآتية:

هدف [1]

1 المحافظة على الحقوق الماليّة الإنسانيّة العامّة فتنضبط المعاملات، ولا تكون الثِّقة مدخلًا للكذب، وأكل أموال الناس بالباطل.

هدف [2]

2 حتى يطمئن الدَّائن بدقّةٍ إلى الضّوابط المحتفّة بالدّين، فيشجعه ذلك على تقديمه مطمئنًا أنه سيعود إليه، فيفشو التّعاون والتّعاطف بين المجتمع عن طريق الديّن بالتزام الطّرف المَدِين أداء ما عليه.

هدف [3]

3 لتعليم العالم الدِّقّة التّنظيميّة للحياة العامّة في المعاملات الماليّة كَدِقّته في ضبط حياتهم الشّخصيّة، فيوقنون أن هذا الدِّين هو الحقُّ من عند الله ﴿فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ﴾ [الحج: 54].

بَصِيرَة 6

أنواع البيوع والاستثمارات التي أشارت إليها آيتا الدّين:

1 بَيْعُ الْعَيْنِ بِالْعَيْنِ، وَذَلِكَ لَيْسَ بِمُدَايَنَةٍ الْبَتَّةَ.

2 بَيْعُ الدَّيْنِ بِالدَّيْنِ، وَهُوَ بَاطِلٌ لا معنى له، فَلَا يَكُونُ دَاخِلًا تَحْتَ هَذِهِ الْآيَةِ.

3 بيع الْعَيْنِ بِالدَّيْنِ، وَهُوَ مَا إِذَا بَاعَ شَيْئًا بِثَمَنٍ مُؤَجَّلٍ متأخِّر، أو بثمن مؤجّل يحلُّ بعد الرِّضا بالمبيع.

4 بيع شيء موصوف في الذِّمة إلى أجل معلوم بشرط تسليم رأس المال -الثمن- في مجلس العقد. (ينظر: تفسير الرازي 90/7)

بصيرة 7

بيّن الله عز وجل فيها أنّ المعاملات المتعلِّقة بالتّداين الاستهلاكيِّ والاستثماريِّ أربعة أشكال:

1. تداين أو تجارة بِكِتَابٍ وَشُهُودٍ.
2. تداين أو تجارة بشهود دون كتاب.
3. تداين أو تجارة بِرِهَانٍ مَقْبُوضَةٍ.
4. بيع الأمانة (دون كتابة، ولا شهود، ولا رهن).

وتتضمّن هذه الأنواع الأربعة (33) مادة قانونية، تفصيلها كما يأتي:

النوع الأول: تداين أو تجارة بكتابٍ وشهودٍ

1 مادة [1] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾

يبصِّرنا النِّداء للمؤمنين في أمر يتعلّق بالتّنمية الاستثماريّة الماليّة أن يكون المجتمع المسلم حاضرًا في إعمار الأرض، وتجارتها، ولا يمنعه الزُّهد والتّقوى من ذلك، فيستقل عن تلاعب كبار المستثمرين، والشّركات الاستثماريّة عابرات القارات.

2 مادة [2]

﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾[البقرة: 282]

تبصّرنا بأنه يجوز التّداين (بيعًا أو قرضًا) في حلالٍ على أن يسمّى موعد السّداد، "فَأُدْمِجَ تَشْرِيعُ التَّأْجِيلِ فِي أَثْنَاءِ تَشْرِيعِ التَّسْجِيلِ" (التحرير والتنوير 99/3)، فعَنِ ابْنِ عَبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "أَشْهَدُ أَنَّ السَّلَفَ الْمَضْمُونَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّى أَنّ اللّهَ أَحَلّهُ، وَأَذِنَ فِيهِ"، ثُمّ قَرَأَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [البقرة: 282] (تفسير الطبري 45/6).

3 مادة [3]

﴿فَٱكۡتُبُوهُ﴾[البقرة: 282]

تبصّرنا بأن (الشرط الأول للتّداين: الكتابة التّفصيليّة التي تعمُّ كلّ ما يتعلّق بالتّداين، وظاهر الآية وجوبها؛

1 لتحصل الثِّقة بين المتعاملين

2 ولتظهر الحقوق والواجبات

3 وتحلّ التّنمية في السُّوق

4 ويلجم شيطان الوسواس

وتسمّى الكتابة: عقدًا، وتذكيرًا بالحقِّ، وذهب الطّبريُّ وبعض السّلف والظاهرية إلى وجوبها، وذهب الجمهور إلى عدم الوجوب؛ "لأن المقصود التّوسعة وعدم التّعقيد في المعاملات التِّجاريّة".

4 مادة [4]

﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾[البقرة: 282]

تبصّرنا بأنه يجب أن يكتب كاتب الدّين بالعدل، وهذا يقتضي أن يتولّى الكتابة كاتبٌ ماهرٌ خبيرٌ بالأمور الاقتصاديّة والشّرعيّة ذات الصِّلة، ويُفَصِّلُ ما يتعلّق بطرفي الدّين تفصيلًا لا يبقى معه ثغرة للتّلاعب.

5 مادة [5]

﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ﴾[البقرة: 282]

تبصِّرنا بأنه يحرم امتناع كاتبٍ من كتابة ما علمّه الله عز وجل من كتابة، وعلم بالفقه، والمعاملات، ومثله: إذا دُعِي إلى مصلحة عامّة وجب عليه الإجابة كفاية أو عينًا، وذلك يقتضي أن يُعطى الكاتب ما يعينه على التّفرُّغ للكتابة من مكافأة، أو راتب إذا كان متفرغًا.

6 مادة [6]

﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ﴾[البقرة: 282]

تبصِّرنا بأنه يجب أن يكتب الكاتب وَفْقَ الهيئة التي علمّه الله عز وجل إيّاها، ولا يتلاعب أو يتساهل، فالكاف في (كَمَا) للمشابهة، أي: كتابةً تُماثِل ما علمّه الله عز وجل، ويجوز أن تكون للمكافأة، أَيْ: أَنْ يَكْتُبَ كِتَابَةً تُكَافِئُ تَعْلِيمَ اللَّهِ عز وجل إِيَّاهُ الْكِتَابَةَ، بِأَنْ يَنْفَعَ النَّاسَ بِهَا شُكْرًا لله عز وجل (التحرير والتنوير 102/3)، وهذا يقتضي إنشاء المؤسّسات التّعليميّة الخاصّة بهذا النّوع من التّعليم المتخصّص.

7 مادة [7]

تبصِّرنا الآية

بوجوب الاعتناء بالبناء التّربويّ للعدالة في شخصيّة الخبراء الاقتصاديين قبل البناء العلميّ، ونستنبط ذلك من تقديم صِفَةِ الْعَدَالَةِ عَلَى صِفَةِ الْعِلْمِ، فهذا الترتيب الطبيعي المنطقي لإقامة التوثيق، كما قال رشيد رضا رحمه الله: "فَمَنْ كَانَ عَدْلًا يَسْهُلُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ مَا يَنْبَغِي لِكِتَابَةِ الْوَثَائِقِ؛ لِأَنَّ الْعَدَالَةَ تَهْدِيهِ إِلَى ذَلِكَ، وَمَنْ كَانَ عَالِمًا غَيْرَ عَدْلٍ فَإِنَّ الْعِلْمَ يزيده فجورًا". (تفسير المنار 101/3)

8 مادة [8]

﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾[البقرة: 282]

تبصِّرنا بأن المستدين يجب عليه أن يملي على الكاتب في حضرة الدّائن حتى لا يدّعي أن شيئًا أسقط، وفي هذا المشهد البديع جماله تتجلّى عدالة الإسلام، ودقّة أحكامه، وشِدّة حرصه على حقوق الإنسانيّة.

9 مادة [9]

﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [البقرة: 282]

تبصِّرنا بأن الكاتب والمملي يجب أن يتقيا الله عز وجل، فلا يحاولان وضع كلمات يُتلاعَب من خلالها بالأمر، فالْبَخْسُ: هُوَ النَّقْصُ بِالتَّعْيِيبِ وَالتَّزْهِيدِ، أو التّلاعُب في العبارات دون معرفة صاحب الحقّ، والمراد ألّا يحقر شيئًا طفيفًا من التّفاصيل التي تحفظ الحقوق، وتقيم التّوثيقات، ويؤخذ من ذلك أيضًا: أن إقرار الإنسان على نفسه مقبول.

10 مادة [10]

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾

تبصِّرنا بأن الأصل أن يكتب أو يمل الذي عليه الحقُّ بنفسه، حتى لا يحاول التّنصل، أو الإنكار لشيء مستقبلًا، إلا أنه تجوز النِّيابة عنه في إثبات الحقوق وتوثيقها؛ لئلّا تتعطّل الحياة الاستثماريّة التِّجاريّة، والمعاملات الماليّة بين الناس، والنِّيابة تكون في هذه الحالات الثلاث:

1 حالة [1]

أن يكون سفيهًا، أي: ضَعِيف الرَّأْيِ، نَاقِص الْعَقْلِ؛ لصغره، أو لعدم رشده، أو لجنونه، أو لقلّة وعيه الماليّ، أو لخَرفٍ أصابه بسبب كبر سِنّه.

2 حالة [2]

أن يكون ضعيفًا، أي: يمكن أن يُغلب على رأيه بإكراهٍ أو غيره.

3 حالة [3]

لا يستطيع أن يُمِلّ لضعفه عن الإملاء بسبب خرس، أو جهلٍ بالأمور الماليّة.

وبذا يكون إقرار السَّفيه والضَّعيف والمجنون والمعتوه ونحوهم وتصرُّفُهم غيرَ صحيح؛ لأن الله عز وجل جعل الإملاء لوليِّهم، ولم يجعل لهم منه شيئًا لطفًا بهم ورحمةً، خوفًا من إتلاف أموالهم، وتبديد ثرواتهم.

11 مادة [11]

﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ﴾ [البقرة: 282]

تبصِّرنا بأن (الشرط الثاني للمداينة: استشهاد اثنين من رجال المسلمين)، فشهادة الصِّبيان غير مقبولة للتَّنصيص على الرِّجال، وهم الذُّكور البالغون فلا يشمل الصِّبيان، وسبب طلب أكثر من شاهدٍ دفعُ احتمال أن يتواطأ الشَّاهد الواحد مع أحد الطَّرفين، فكان الشَّاهد الثاني للاحتياط في إثبات الحقِّ، وعدم التَّلاعُب به.

12 مادة [12]

﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ﴾ [البقرة: 282]

وذلك لضعف الاهتمام بأمور التَّنمية الماليّة عند النِّساء غالبًا؛ إذ جعل الله عز وجل ذلك على عاتق الرِّجال شرعًا، وطبعًا:

[1]

وتبصِّرنا بأنه تجزئ شهادة المرأتين ولو وجد رجل ثانٍ؛ لأن المقصود التَّوسعة وعدم التَّعقيد في المعاملات التِّجارية، ولتطبيع الحياة الاجتماعيّة على إدخال المرأة في شؤون الحياة المختلفة بالقدر المناسب لها ردًّا على العبث الجاهليِّ بمكانة المرأة والحطِّ من قدرها.

[2]

واستنبطنا ذلك من أن (كَانَ) هنا ناقِصَة، ولم يأت بها تامّة فلم يقل: (فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَجُلَانِ)؛ إذ لو قال ذلك لكان المعنى: فإن لم يوجد رجلان، وتصير شهادة المرأتين بدلًا من الرَّجل غير مقبولة إلا إذا تعذَّر وجود الرَّجلين، والأمر ليس كذلك.

13 مادة [13]

﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: 282]

تبصّرنا بشروط الشُّهداء؛ إذ قال الله عز وجل: ﴿تَرْضَوْنَ﴾، فتُشترط العدالة في الشّاهد بشروطها المعروفة، وبعض صفات العدالة مرجعها العُرْف والعادة، والإسلام شرطٌ في الشهادة إلا إذا تعذّر وجود مسلم، أو احتيج إلى زيادة بيّنة.

14 مادة [14]

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: 282]

تبصّرنا بأنه يجب أن تشهد كلُّ واحدة منهما بحضور الأخرى؛ إذ إن قوله –جلّ في علاه– ﴿أَن تَضِلَّ﴾ تَعْلِيلٌ لِعَدَمِ الِاكْتِفَاءِ بِالْوَاحِدَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ تَعْلِيلٌ لِإِشْهَادِ امْرَأَةٍ ثَانِيَةٍ؛ حَتَّى لَا تَبْطُلَ شَهَادَةُ الْأُولَى مِنْ أَصْلِهَا. (التحرير والتنوير 112/3)

15 مادة [15]

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: 282]

تدلُّ على الاحتياط لحفظ الحقوق، فالشّاهد إذا خاف نسيان شهادته في الحقوق الواجبة وجب عليه كتابتها؛ لأنّ ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب.

16 مادة [16]

﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة: 282]

تبصّرنا بأنه يَحْرُم على الشُّهداء الامتناع عن الشّهادة تحمُّلًا وأداءً.

مادة [17] هذه الآية تبصّرنا

بأنه يجب على القائمين على الأمور في البلاد الإسلاميّة نصب الكُتّاب والشُهداء لتسهيل الإجراءات التِّجاريّة، وتشجيع الحركة الاستثماريّة، ويلزم من هذا وجوب نشر التّعليم العامّ والمتخصّص لإيجاد الكفاءات المتخصّصة في كلِّ هذه المجالات.

مادة [18] ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ [البقرة: 282]

تبصّرنا بأنه يجب على جميع الأطراف الكتابة لكلِّ جزئية تتعلّق بالتّداين:

[1]

وذلك لتنشيط الحركة التِّجاريّة، وإضفاء الأمان على سوق العمل، ومعنى ﴿لَا تَسْـَٔمُوٓاْ﴾: لَا تَمَلُّوا فَتَتْرُكُوا ثُمّ تَنْدَمُوا، أو لا تتكاسلوا، أو تتهاونوا في كتابة أمرٍ صغُر أم كبُر.

[2]

"وَالنَّهْيُ عَنْ السّآمة نهيٌ عَن أَثَرهَا، وَهُوَ تَرْكُ الْكِتَابَةِ، لأَنّ السّآمَةَ تَحْصُلُ لِلنّفْسِ مِنْ غَيْرِ اخْتِيَارٍ، فَلَا يُنْهَى عَنْهَا فِي ذَاتِهَا" (التحرير والتنوير 114/3)، وذكر الصّغير؛ ليبيّن أنه يجب كتابة الجزئيّات في العقود مهما حقر أمرها، وذكر الكبير؛ لئلا يظنّ أنها لشِدّة وضوحها يمكن إهمال كتابتها.

مادة [19] ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ..﴾ [البقرة: 282]

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ [البقرة: 282] هذه مادة دستوريّة معظِّمة مقاصديّة تعليليّة تبيِّن الفوائد الثلاث الكبرى لالتزام الأنظمة والأحكام السّابقة:

1

فائدة [1]

﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فصارت مرضاة الله عز وجل متعلّقة تعلُّقًا وثيقًا بحفظ حقوق الناس

2

فائدة [2]

﴿وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ وهذه الفائدة تبيّن أن الكتابة سبيلٌ لتحصيل مصلحة الدُّنْيَا، وقطع دابر الشّقاق والنّزاع، وقُدّمَت الفائدة الْأُولَى عَلَى الفائدة الثّانِيَة؛ إِشْعَارًا بِأَنّ الدِّينَ أساس مصلحة الدُّنْيَا، وسعادة العالمين.

3

فائدة [3]

﴿وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾، فالغرض من تلك الأحكام وخاصّة الكتابة والإشهاد رفع الحرج عن كلا الطّرفين، وبيان لهما أن زرع الثّقة الحقيقيّة ليس بعدم الكتابة، بل بالكتابة.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النّبيّ ﷺ قال:

((ثَلاَثَةٌ يَدْعُونَ اللَّهَ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ: رَجُلٌ كَانَتْ تَحْتَهُ امْرَأَةٌ سَيِّئَةُ الْخُلُقِ فَلَمْ يُطَلِّقْهَا، وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ عَلَى رَجُلٍ مَالٌ فَلَمْ يُشْهِدْ عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ آتَى سَفِيهًا مَالَهُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عز وجل: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: 5])). "الحاكم (3181)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه؛ لتوقيف أصحاب شعبة هذا الحديث على أبي موسى رضي الله عنه، والصواب وقفه، قال الذهبي في المهذب (15856): "مع نكارته إسناده نظيف".

النوع الثاني: تداين أو تجارة بشهود دون كتاب

20 مادة [20] ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ﴾ [البقرة: 282]

تبصِّرنا بالنوع الثاني من أنواع التّداين، وهو التّداين بشهودٍ دون كتاب:

[1]

وذلك لتسهيل انتشار إدارة التّجارة في المجتمع، فالتّجارة عِبَارَةٌ عَنِ التَّصَرُّفِ فِي الْمَالِ سَوَاءٌ كَانَ حَاضِرًا، أَوْ فِي الذِّمَّةِ؛ لِطَلَبِ الرِّبْحِ (تفسير الرازي 98/7)، وتشمل البيع والشِّراء والصّرف والسّلَم.

[2]

والمعنى: يعفى عن الكتابة في التِّجارة الحاضرة، فمعنى ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ﴾ أي: لا حرج ولا مضرّة إن قلنا الكتابة غير واجبة فيما سبق، أو لا إثم لو قلنا الكتابة واجبة.

21 مادة [21]

﴿تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا﴾ [البقرة: 282]

تبصِّرنا بهذا المصطلح القرآنيِّ المدهش المُضَيَّع في حياة المسلمين الأخيرة (إدارة التِّجارة):

1. ومن خلاله يستبين أن الأحكام السّابقة تتضمّن بصورةٍ أولويةٍ الكلام عن التِّجارة الغائب فيها أحد نوعي المبادلة وهو الذي يسمّى (السَّلَم).
2. والآن ذكر التِّجارة الحاضرة فبيّن أنه يجوز عدم الكتابة فيها، وذلك حتى لا يشقّ على الناس، ويؤخِّر المعاملات التِّجاريّة المستعملة نظرًا لخضوعها للإجراءات الطّويلة المملّة.
3. إذ ذلك يؤدِّي إلى الشُّعور بالحرج مع احتياج المجتمع إلى انتشار الحركة التِّجاريّة وتكثر فيه المعاملات الماليّة المختلفة؛ ليستمرّ النُّمو المطلوب لرفاهيّة المجتمع واستقراره وكرامته.

22 مادة [22]

﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: 282]

تبصِّرنا بأن الإعفاء من الكتابة في التِّجارة الحاضرة لا يعني الإعفاء من الشّهادة.

23 مادة [23]

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: 282]

تبصِّرنا بأنه يحرم مضارّة الكاتب والشّهيد، والمضارّة: إِدْخَال الضُّرّ، وهذه الكلمة المدهشة ﴿يُضَآرَّ﴾ تُظهِرُ لنا صورتين قرآنيتين على الأقلِّ ينبغي مراعاتهما في الحياة التِّجاريّة، وذلك بِسَبَبِ الْإِدْغَامِ الْوَاقِعِ فِي ﴿يُضَارَّ﴾:

[1]

أَنْ يَكُونَ أَصْلُهُ (لَا يُضَارِرْ)

بِكَسْرِ الرَّاءِ الْأُولَى، ثم أُدغم، فَيَكُونُ الْكَاتِبُ وَالشَّهِيدُ هُمَا الْفَاعِلَانِ لِلضِّرَارِ، أي: (وَلَا يُضَارِرْ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ)، وبذلك تكون الجملة نصًّا قانونيًّا ينهى الشَّاهد والكاتب أن يضارّا صاحب الحقِّ، أو المجتمع بالامتناع، أو بطلب أجرةٍ شاقّةٍ، ونحو ذلك.

[2]

أَنْ يَكُونَ أَصْلُهُ (لَا يُضَارَرْ)

بِفَتْحِ الرَّاءِ الْأُولَى، فيكون المعنى: لا تضرُّوا بالكاتب والشَّهيد كأن يُدْعى أحدهما في وقت اشتغالٍ أو مشقّةٍ، أو أن يطلبوا للمجيء دون توفير بَدَل مواصلات، أو إقامة، أو بَدَل تفرُّغ.

24 مادة [24]

﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ [البقرة: 282]

تبصِّرنا بأن المضارّة لواحد من أفراد المجتمع محرّمة، وهي فسق، سواء أكانت ضدّ الشُّهود والكتّاب، أو كانت من الشُّهود والكتّاب ضدّ أحد الأطراف.. وأكد الله عز وجل ذلك وذكره؛ لاحتمال استغلال بعض الأطراف لسلطاته وصِلاته للضّغط على الآخرين خاصّة في الأمور التِّجاريّة الكبيرة.

25 مادة [25]

﴿فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ [البقرة: 282]

ولم يقل فأنتم فاسقون أو فُسّاق، ويبصِّرنا ذلك بأن الأوصاف الشّرعيّة كالفسق، والإيمان، والنِّفاق، والعداوة، والولاية، ونحو ذلك تتجزّأ في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيمان وكفر.

26 مادة [26]

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ [البقرة: 282]

هذه مادة حاكمة مُعَظِّمة تبصّرنا بأن التّقوى ركيزة الأمان في المعاملات؛ إذ كلُّ القوانين يمكن الاحتيال عليها، ولا يعصم من الاحتيال إلا التّقوى؛ فهي سبب الفرقان الذي يعين على اتخاذ القرارات الصّائبة في كلِّ شيء بحسبه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: 29]، فالتّقوى تعني –ضِمن معانيها الرّائعة- اتِّقَاءَ أَسْبَابِ الضّرَرِ وَالخِذلَانِ على المستوى الفرديّ والجماعيّ.

27 مادة [27]

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: 282]

هذه مادة حاكمة معظِّمة تبيِّن أن القرآن هو المصدر الحقيقيُّ ليعلِّمنا الحقائق الكلِّيّة والتّفصيليّة التي تقيم الحياة البشريّة على أمثل الوجوه:

[1]

سواء كان ذلك في المجالات الاقتصاديّة، أو السّياسيّة، أو الاجتماعيّة، أو الفكريّة، فحقائق القرآن يقولها الله عز وجل الذي هو بكلِّ شيء عليم.

[2]

ويروعك تكرار لَفْظُ (اللهِ) فِي الْجُمَلِ الثّلَاثِ الأخيرة في هذه المادّة والتي قبلها لتحقيق التعظيم، وبيان أن هذه المواد حاكمة، فكلٌّ منها كأنها مستقلّة في ذاتها.

النوع الثالث: تداينٌ أو تجارة بِرِهَانٍ مَقْبُوضَةٍ

28 مادة [28]

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة: 283]

تبصِّرنا بأن الرّهن يقوم مقام الكتابة:

1. وشرط الرِّهان أن تكون مقبوضة؛ لأن المراد توثيق التِّجارة، فالرِّهان غير المقبوضة لا يحصل منها التوثُّق.
2. ولذا لو اختلف الرّاهن (صاحب الرّهن)، والمرتهن (آخذ الرّهن) في قدر ما رهن به، كان القول قول المرتهن.
3. ووجه ذلك أن الله عز وجل جعل الرّهن عِوضًا عن الكتابة في توثُّق صاحب الحقِّ، فلولا أن قول المرتهن مقبول في قدر الذي رهن به لم يحصل المعنى المقصود.

والبيع بالرِّهان يجوز في السّفر والحضر، وسبب التّقييد بالسّفَرِ أنه مظنّة عدم وجود الكاتب مع حرص الشّارع على أمرين متلازمين: تسهيل سُبُل التِّجارة والاستثمار، واستغلال الفرص المختلفة لإنجاز الصّفقات المناسبة مع توثيق ذلك توثيقًا يمنع من التّلاعُب.

29 مادة [29]

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة: 283]

يبصِّرنا بطريق الإشارة إلى أنه يجب على الأمّة الإسلاميّة بمنظماتها الحكوميّة والأهليّة تعميم نشر التّعليم ومحو الأمِّيّة؛ ليوجد الكاتب فهو الأصل في التّوثيق.

النوع الرابع: بيع الأمانة (دون كتابة، ولا شهود، ولا رهن):

30 مادة [30]

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ [البقرة: 283]

تبصّرنا بأنه إذا وَثِقَ أحدٌ بالآخر، ولم يَخَفْ خِيَانَتَهُ وغدره وَجُحُودَهُ، فشعر بالأمن من جهته ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَنَتَهُۥ﴾.

[1]

فكُلُّ طرفٍ يجب أَنْ يُؤَدِّيَ أَمَانَتَهُ، فجمع صورًا متعدّدة، فيدخل في ذلك: البائع والمشتري، والدائن والمدين، وأيضًا الشُّهداء والكُتّاب، والرّاهن والمرتهن بما في ذلك الرّهن، والموثِّقين، وجهات التّوثيق.

[2]

وهذا الشّرط مخصّص لما سبق، فتندب الكتابة والإشهاد حال الائتمان، فإن خشي التّلاعُب والفساد وجبت الكتابة، وتدل على التّخفيف فيما يكون يسيرًا في قيمته وهيئته، أو ما اضطروا إلى التّبايع فيه دون تلك الضّوابط والشُّروط.

31 مادة [31]

﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة: 283]

هذه مادة حاكمةٌ معظِّمةٌ، أي: ليتق كلُّ طرفٍ ربّه عز وجل، فلا يجحد أو يتلاعب بشيءٍ ممّا يعلمه.

32 مادة [32]

﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: 283]

1 تبصّرنا بوجوب أداء الشّهادة وحرمة كتمانها، سواء من قِبَل الشُّهداء أم من غيرهم.

2 وذلك أن الإنسان قد لا يتمُّ استشهاده، ولكنه يسمع بقضيةٍ دَين أو تجارة، ويرى اختلاف أطرافها، فيجب عليه أن يهب لإنقاذ أصحاب الحقِّ من خلال أداء شهادته ولو لم يسألها، وإلا فهو آثمٌ قلبه.

3 فقد قال النّبيُّ ﷺ «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ الَّذِى يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا». "مسلم (1719)"

4 وأسند الإثم إلى القلب؛ ليبيِّن خطورته عليه وصاحبه يظنُّ أنه لم يقصِّر، ولم يقترف إثمًا كأن القضية لا تعنيه "بحسب زعمه الخاطئ"، مع أنها داخلة في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وإعانة المظلوم، وإيصال الحقوق إلى أهلها.

33 مادة [33]

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: 283]

هذه مادةٌ حاكمة معظِّمة كأنّ الله سبحانه يقول: فانتبهوا من الحِيل والاحتيال، فإنكم لا تخرجون عن علم الله عز وجل:

[1]

وأعظم الناس عملاً بهذا النّبيُّ ﷺ فهو لم يشهد ولم يكتب في سفره عندما اشترى من جابر بن عبد الله عز وجل جَمَلَهُ، ولكنه كتب لغيره في الشِّراء.

[2]

قَالَ الْعَدَّاءُ بْنُ خَالِدٍ رضي الله عنه: أَلاَ أُقْرِئُكَ كِتَابًا كَتَبَهُ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلَى. فَأَخْرَجَ لِي كِتَابًا: ((هَذَا مَا اشْتَرَى الْعَدَّاءُ بْنُ خَالِدِ بْنِ هَوْذَةَ مِنْ مُحَمَّدٍ سول الله ﷺ؛ اشْتَرَى مِنْهُ عَبْدًا، أَوْ أُمَّةً، لاَ دَاءَ وَلاَ غَائِلَةَ وَلاَ خِبْثَةَ، بَيْعَ الْمُسْلِمِ الْمُسْلِمَ)).

"ابن ماجة (2251)، وحسّنه الأرناؤوط، والألباني في مشكاة المصابيح (2872)"

الخاتمة

السورة تشرق بالحضارة الجديدة في العالم، فناسب أن تُختم بكنز من تحت العرش

[البقرة: 284-286]

وقد تسأل: إذا كانت سورة البقرة قد افتتحت بذكر خصائص القرآن التي منحته دور الإصلاح العالميّ، وذكرت في محاورها الأحد عشر معالم التّفوُق الرِّياديّ للحضارة الإسلاميّة الجديدة، فبماذا خُتمت هذه السُورة المباركة؟ وهل هناك ارتباط بين هذه الخاتمة وبين ما سبق من آيات هذه السُورة؟

الجواب: هنا تأتي:

الخاتمة

السُّورة تشرق بالحضارة الجديدة في العالم، فناسب أن تُختم بكنز من تحت العرش

[البقرة: 284-286]

المناسبة والاتصال:

1 بَنَتْ هذه السُورَة المجتمع الناشئ، وزودته بكلِّ ما يحتاجه للتّفوق الحضاريّ، وإدراك معالم السّعادة، مثل التّصورات الإيمانيّة العقديّة، وأركان الإيمان والإسلام الأساسيّة، والتّشريعات الدُستوريّة والفِقهيّة الحياتيّة، والأخلاق العَبِقة الزّكيّة، وأصول الحياة الاجتماعيّة المدنيّة، وأصول الاستثمار والاقتصاد القويّة التي تكفل النُمو التِّجاريّ، وإيجاد فرص العمل، والتّوازن بين العدل والرّحمة في الأسواق التِّجاريّة.

2 وختم الله تعالى هذه الرِّحلة المدهشة بختام إيمانيٍّ وجدانيٍّ يساعد على تطبيق تلك المبادئ والتّشريعات، وهو ختامٌ مهيبٌ يمكن أن نجعل له هذا العنوان: (كنز من تحت العرش).

وتنقسم هذه الخاتمة إلى قسمين:

قسم [1]: الإيمان بالله عز وجل يمثّل الطّريق الحقيقيّ للسّعادة الإنسانيّة [البقرة: 284].

قسم [2]: مزايا الإيمان المميّز المميِّز للأمّة الخاتمة المنقذة للعالم [البقرة: 285-286].

القِسم الأول

الإيمان بالله عز وجل يمثِّل الطَّريق الحقيقيّ للسّعادة الإنسانيّة

[البقرة: 284]

ويحتوي هذا القِسم على (3) بصائر:

بصيرة 1

ختم الله عز وجل السُورَة ببيان صفات الإلهيّة الحقّة التي توجب الإيمان بالكتاب كلِّه لتحقيق السّعادة البشريّة:

صفة [1]

المُلك الكامل الذي يقتضي المِلك للذّوات والأعراض، ويبصِّرنا بها قوله تعالى ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [البقرة: 284]، ولذا فالنُظم التّشريعيّة الواردة في السُورَة يقصد بها منفعة الخلق، لا منفعةً تعود إِلَى الخالق سُبْحَانَهُ.

صفة [2]

العلم المحيط الذي لا يعزب عنه مثقال ذرّة، والذي يؤدِّي إلى المحاسبة الدّقيقة، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: 284] والإبداء هو الإظهار، والإبراز للفكر النفسيِّ بالأقوال والأعمال، وَ﴿يُحَاسِبْكُم﴾: مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْحُسْبَانِ وَهُوَ الْعَدُّ.

صفة [3]

الحكم الذي يعني المشيئة النّافذة، والإرادة المطلقة القائمة على الحكمة، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: 284]، وللدُخول في المغفرة أو التّعذيب أسباب تؤهِّل لها.

صفة [4]

القدرة الشّاملة، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: 284].

بصيرة 2

﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 284] تبصِّرنا بأن التّربيّة القرآنيّة تقوم على تزكية النّفس ببناء المراقبة الذّاتية إلى أقصى الدّرجات؛ فالحساب على الظّاهر، ولكن الحساب على ما نخفيه في أنفسنا مثيرٌ للرّهبة.

والآية تبصِّرنا أن الأعمال النّفسيّة والقلبيّة تنقسم إلى ثلاثة أنواع، هي:

نوع [1]

الخَاطِر القلبيُّ الذي لا يصحبه عزمٌ

فلا ثواب على خيره، ولا عقاب على شرّه؛ إذْ لَا طَاقَةَ لِلْمُكَلَّفِ بِصَرْفِهِ عَنْهُ، وقد بيّن النّبيُّ ﷺ ذلك فقَالَ: ((إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ، أَوْ تَتَكَلَّمْ)). "البخاري (5269)"

نوع [2]

الخاطر القلبيُّ الذي يتبعه عزمٌ.

فإن العبد إذا عزم على فعل الخير ثم منعه عارض خارجيٌّ كُتِب له حسنة، وإذا همّ وعزم على فعل المعصية، ثم تذكّر وأناب كُتِب له حسنة أيضًا.

نوع [3]

الخاطر القلبيُّ الذي يصحبه عَزْمٌ على عمل الشَّرِّ

ولم يعمله لأمرٍ خارجيٍّ حال دون تنفيذه مع تصميمه عليه فيُكتب سيئة، ويحاسب عليه، كالحقد، والحسد.. لقد أصبح كسبًا قلبيًّا.

بصيرة 3

المحاسبة على ما يبدو ويخفى قد تكون دنيويّة، فمِن نعم الله عز وجل على العبد أن تكون المحاسبة دنيويّة، فإن أذنب ربّما عُجِّلت له العقوبة في الدُّنْيَا رحمة به

فقد سُئلت عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 284]، وعن قوله: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: 123]، فقالت: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال: «هَذِهِ مُعَاتَبَةُ اللَّهِ العَبْدَ بِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الحُمَّى، وَالنَّكْبَةِ، حَتَّى البِضَاعَةُ يَضَعُهَا فِي كُمِّ قَمِيصِهِ فَيَفْقِدُهَا، فَيَفْزَعُ لَهَا، حَتَّى إِنَّ العَبْدَ لَيَخْرُجُ مِنْ ذُنُوبِهِ كَمَا يَخْرُجُ التِّبْرُ الأَحْمَرُ مِنَ الكِيرِ». "الترمذي (2991)، وضعّفه الألباني في ضعيف الجامع (6086)"

القِسم الثاني

مزايا الإيمان المميّز المميِّز للأمّة الخاتمة المنقذة للعالم [البقرة: 285-286]

المناسبة والاتصال:

1. تبني الآيات الثّلاث الإنسان الصّالح الذي هو أساس السّعادة المجتمعية، وتبيّن الفرق بين النّظامين العالميين: النّظام الإسلاميّ القائم على مبدأ (سمعنا وأطعنا)، ونظام التّفكير البقريّ المنتمي إلى العِجْل الإسرائيليّ القائم على مبدأ (سمعنا وعصينا).

2. فلَمّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللّه ﷺ الآية الأولى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: 284]، فذكر الله عز وجل فيها الصِّفات التي تحدّد وحدانية الألوهيّة لله عز وجل، ومنها المُلْك الكامل، والعلم المحيط، والمحاسبة الدّقيقة، والمشيئة النّافذة، والقدرة الشّاملة.

3. فاشْتَدّ ذَلِكَ عَلَى الصحابة رضي الله عنهم، فَأَتَوْا رسول الله ﷺ ثُمّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَب، فَقَالُوا: أي رَسُولَ اللّه، كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصّلاةُ وَالصّيامُ وَالْجِهَادُ وَالصّدَقَةُ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلاَ نُطِيقُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللّه ﷺ: ((أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)). فقَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللّهُ عز وجل مدحهم في الآيتين بعدها. "مسلم (125)"

4. فبيّن الله عز وجل الإيمان المميّز المميِّز للأمّة الخاتمة المنقذة للعالم وميزاته، حيث قابلت تلك الصِّفات الإلهيّة العظيمة بكَمَالِ الْإِيمَانِ والتّذلُّل، من خلال الدُّعاء بما يناسب عظمة الألوهيّة، وجمال العبوديّة، وترى التّرابط المحكم الوثيق بين أول السُورَة التي افْتُتِحَتْ بإظهار مزية القرآن في كونه هدى للمتقين، وآخر السُورَة التي تبيّن ما عليه المؤمنون من التّسليم والإذعان والسّمع والطّاعة.

وتكوّن هذا القِسم من ثلاثة فصول:

فصل [1]	فصل [2]	فصل [3]
فضائل هاتين الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة.	الآيتان تبيِّنان مزايا الحضارة الإسلاميّة التي ستشرق على العالم.	اتّصال الأمّة بربِّها عز وجل يبيّن بصائر الفهم الكونيّ الصّحيح.

الفصل الأول: فضائل هاتين الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة

فضيلة [1]

الكافيتان في أمور الحياة، فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ)). "البخاري (4008)، ومسلم (807)"

فضيلة [2]

اتخذ نزولهما طابعًا مميّزًا، حيث نزلتا من كنزٍ تحت العرش، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أُعْطِيتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي)). "أحمد (21565)، وصحّحه الأرناؤوط لغيره"

فضيلة [3]

اقترن نزولهما بعروج النّبيّ ﷺ إلى سدرة المنتهى، فعَنْ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا»، قَالَ: " ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: 16]، قَالَ: «فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ»، قَالَ: " فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا، الْمُقْحِمَاتُ ". "مسلم (173)"

فضيلة [4]

نور مبلّغ مرّة ثانية عن طريق رسولٍ ملائكيّ خاصّ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ عليه السلام قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: "هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ". "مسلم (806)"

ويمكن الجمع بين هذا الحديث والذي قبله بتعدد نزول الآيتين؛ لأهمّيّتهما.

الفصل الثاني: الآيتان تبيِّنان مزايا الحضارة الإسلاميّة التي ستشرق على العالم

مزية [1]

التّسليم المؤمن والتّصديق الجازم من الأمّة الخاتمة نبيًا وأتباعًا، ويبصِّرنا بها قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾ [البقرة: 285].

خلاف المنهج (البقريّ) الذي مشى عليه بعض بني إسرائيل: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ﴾ مِنَ الْعَقَائِدِ والتّصوُرات والتّشريعات الحياتيّة الشّعائريّة والسّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة وَالسُّنَنِ وَالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى والأعمال القلبية، وكذلك المؤمنون.. وذكر ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾؛ ليبيّن عظيم اعتزاز المسلم بربّه عز وجل، وجميل صحبة التّربية الرّبانيّة للمؤمنين.

مزية [2]

الإيمان بأركان الإيمان السِّتّة دون الإيمان ببعض وترك بعض، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: 285]، فهذه أربعة أركان مرتبة ترتيبًا منطقيًا، فالإيمان بالله عز وجل هو الأساس، ثم إنه يرسل ملائكته بكتبه لتكون بينه وبين رسله من البشر، وأما الإيمان باليوم الآخر فيشير إليه بأسلوب مميّز عظيمٍ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

مزية [3]

مزيّة الإيمان بجميع الرُسل، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: 285]، وهي مزية تعطي التّفوُق الحاسم الواضح على مشعلي الحروب من متعصّبة أهل الكتاب، فدرجات عظمة الرُسل متفاوتة، ولكنهم يشتركون في أصل العظمة والمجد، وهو أنهم جميعًا رسل الله عز وجل.. وكيف يفرّق المؤمنون بينهم ومرسلهم واحد –جلّ شأنه وعزّ سلطانه–؟

مزية [4]

الجمع بين القوّة النّظريّة الفكريّة الاعتقادية والقوّة العمليّة الحياتيّة، ويبصِّرنا بذلك الجمع بين أوّل الآية وآخرها، فَقَوْلُهُ تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: 285] إِشَارَةٌ إِلَى استكمال الْقُوّةِ النّظَرِيّةِ الفكريّة، وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى اسْتِكْمَالِ الْقُوّةِ الْعَمَلِيّةِ الإنسانيّة، فلم يتناقض إيمانهم مع أفعالهم، وهذا أمرٌ لا يفقهه أصحاب التّفكير البقريّ من أهل الكتب الثّلاثة (المسلمين، واليهود، والنّصارى). (ينظر: تفسير الرازي 112/7)

الفصل الثالث: اتِّصال الأمّة بربِّها عز وجل يبيِّن بصائر الفهم الكونيّ الصّحيح

تضمنت بقية الآيتين مجموعة جمل تعبر عن التضرع والانكسار والضعف البشري متضمنة أدعية عظيمة، وتخبئ هذه الأدعية المباركة كنوزاً من أهم البصائر الحيوية التي تعطي الفهم الصحيح للواقع البشري في الكون، فتضمنت (11) بصيرة، وهي:

بصيرة 1 ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ [البقرة: 285]

تبصّرنا بأن الاستماع الواعي للأنظمة الشّرعيّة، والتّنفيذ لها يعني تحطيم أصنام القوانين والتّشريعات الباطلة، أي سمعنا قول الله عز وجل، وأطعنا أمره، ولكنه حذف المفعول؛ ليبيّن أنه لم يَعُدْ في حياة هؤلاء المفلحين أحدٌ جديرًا بأن يزاحم قول الله عز وجل وأمره.

بصيرة 2 ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة: 285]

فبعد أن قدّموا ولاء السّمع والطّاعة علموا أنهم -بحكم الطّبيعة البشريّة- ربما وقعوا في الذّنب، أو قصّروا في أداء الحقوق، فأتبعوا ذلك الولاء الجليل الاعتذار الجميل فقالوا: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾.

بصيرة 3 ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285]

تبصّرنا بأعظم دلائل الحقِّ والعدل وهو الإيمان باليوم الآخر فالمصير له معنيان:

[1] المصير الحقيقيُّ وهو يوم القيامة للحساب والجزاء.

[2] المصير الحاليُّ، أي: نصير إليك ربّنا في أمورنا، كَأَنَّهُمْ كَانُوا شاردين في أيّ تصرُّفٍ فعلوه دون الرجوع إلى الله تعالى، كَقَوْلِه تَعَالَى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الذاريات: 50]، ومعرفة المصير ينجي من التّيه والظُّلم الذي سبّبه ظنُّ الوحوش البشريّة أن الحياة لا مصير لها: أرحام تدفع وأرض تبلع دون نهاية!

بصيرة 4 ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: 285]

فالتّكليف باقٍ ضمن دائرة الوُسع، ولكن كلمة ﴿وُسۡعَهَا﴾ في الوقت ذاته تفتح آفاقاً واسعةً ليستغلّ المرء طاقاته القصوى فالْوُسْعُ: مَا تَسَعُهُ قُدْرَةُ الْإِنْسَانِ مِنْ غَيْرِ حَرَجٍ وَلَا عُسْرٍ، أما الطّاقة فتستفرغ قوّة الإنسان، فلذا قال: ﴿إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ ولم يقل: إلا طاقتها.

بصيرة 5 ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: 285]

تبصّرنا بأن كلّ إنسانٍ مرتهن بكسبه، لا بكسب غيره، فتثبت قانون المسؤوليّة الفرديّة:

[1] أي: لَهَا ثَوَابُ مَا كَسَبَتْ مِنَ الْخَيْرِ، وَعَلَيْهَا عِقَابُ مَا اكْتَسَبَتْ مِنَ الشَّرِّ.

[2] وفرّق بين الكسب والاكتساب؛ لأن اكْتَسَبَ تُفِيدُ التَّكَلُّفَ، كَأَنَّ فِطْرَةَ الْإِنْسَانِ مَجْبُولَةٌ عَلَى الْخَيْرِ، فيميل نحو الشّرّ بِالتَّكَلُّفِ المضادّ للطّبيعة البشريّة، لكنه مع اسوداد القلب يصبح أمرًا معتادًا، بل لا يعيش المجرم بدونه. (ينظر: تفسير المنار 121/3)

بصيرة 6 ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ [البقرة: 285]

تبصّرنا بأن النِّسيان والخطأ طبيعة إنسانيّة يتعامل معها بالتّسامح عند عدم الإصرار.

1 ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ﴾: فتركنا أمرك، وعصيناك، وخالفناك حال ضعفنا "، أو أخطأنا" أي: تعمّدنا، ولا تؤاخِذنا بما صدر عنا من الأمور المؤدّية إلى النِّسيان أو الخطأ، من تفريطٍ، وقلّةِ مبالاة، ونحوِهما.

2 والفرق بينهما: أن النِّسيان: ذهول القلب عن ما أمر به فيتركه نسيانًا، والخطأ: أن يقصد شيئًا يجوز له قصده، ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله، وزيد هذا المعنى بيانًا بقوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الأحزاب: 5].

3

ووضّحه قول رسول الله ﷺ قال: ((إن الله عز وجل تجاوز عن أمّتي الخطأَ والنِّسيان وما استُكرِهوا عليه)) "ابن حِبّان (7219)، وحسّنه النووي في الروضة (193/8)"، إنه التّخفيف السّابغ والرّحمة الشّاملة التي تكفل وحدة المسلمين؛ لأن الوقوع في الزّلل طبعٌ بشريٌ.

بصيرة 7 ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ [البقرة: 285]

تبصّرنا بأن الشّريعة الخاتمة قائمة على التّيسير والتّخفيف على البشريّة مقارنة بالشّرائع السّابقة:

[1]

والمراد بالإصر هنا: العهد الثّقيل الذي يترتّب على تركه العقوبات المستأصلة، أو العقوبات الدّائمة الشّاقّة، وذلك يقتضي التّخفيف من بعض التّكاليف الشّاقّة التي فرضت على الأمم السّابقة.

[2]

وذلك مثل كيفية التّوبة من الذُّنوب مما سبق ذكره، وهذا لا يعني إلغاء كلِّ التّكاليف الشّاقّة بالكلّيّة، فالْإِصْرُ ما يربط به، ويعني الْحَبْس وَالْعَطْف، فاستعير بمعنى الْعبْء الثّقيل الشديد ليَأْصِرَ صَاحبَهُ، أَيْ: يَحْبِسُهُ مَكَانَهُ، لَا يستطيع حمله، وسُمِّيَ الْعَهْدُ إِصْرًا؛ لثقله في قول الله تَعَالَى: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِيۖ﴾ [آل عِمْرَانَ: 81].

بصيرة 8 ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ [البقرة: 285]

إذا كان القانون السّابق يتضمّن مزيّة عظيمة للأمّة هي التخفيف من تبعات العهد الذي كان من قبلنا:

[1]

فإن هذا القانون يعني مزيّة جديدة هي عدم تحميل الأمّة مِنَ الْعُقُوبَةِ، أَوْ مِنَ الْبَلَايَا وَالْفِتَنِ وَالْمِحَنِ ما لا طاقة لها به.

[2]

ولأن الكلام في هذا الدُّعاء (القانون) عما لا يطاق ذكر التّحمُّل قال: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا﴾، بينما كان الكلام في الدُّعاء (القانون) الذي قبله عن الحَمْل فقال: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ "؛ لأَنَّ الشَّاقّ يُمْكِنُ حَمْلُهُ، أَمَّا مَا لَا يَكُونُ مَقْدُورًا لَا يُمْكِنُ تحَمُّلُهُ". (تفسير الرازي 123/7)

بصيرة 9 ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآ﴾ [البقرة: 286]

تبصِّرنا بديمومة المدد الإلهيِّ في واقع الأمّة، فالعفو يقتضي محو السّيِّئات، والغفران يقتضي ستر الزّلات، والرّحمة تقتضي جلب الخيرات.

بصيرة 10 ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 286]

قدّم لاستمداد النُصرة بذكر الولاية الإلهيّة:

1. لأن أعظم ما يواجه الحضارة التي صنعتها سورة البقرة لتشرق على العالم هو الاعتداء الشّرس الذي يأخذ صورة الهياج العالميِّ المستعر.

2. فيجند في سبيل ذلك القوى المريضة من المنافقين وغيرهم، وأمام هذا التّكتُّل العالميّ المعتدي لا بد من الرجوع إلى ولاية الله عز وجل؛ لاستمداد الحماية، والرِّعاية، والقدرة على مواجهة هذا الحلف الشّيطانيِّ.

3. فأتى بعد قوله تعالى: ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾ بفاء التفريع؛ لأن ما بعدها مترتّبة عليها، أي: انْصُرْنَا عَلَى الْجَاحِدِينَ وَالْمُرْتَابِينَ مِنْهُمْ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ، وَعَلَى الْمُعْتَدِينَ الباغين بما يقمع منهم العدوان. (تفسير المنار 126/3)

بصيرة 11 تربية الأمّة على الجمع والاجتماع والجماعة، ونزع الأنانيّة الفرديّة منها

فالدُعاء ابتداء من قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا... رَبَّنَا...﴾ [البقرة: 285-286] بصيغةٍ جماعيّة للتّعويد على الفريضة الغائبة التي تتمرّكز حول التّفكير بعقليّة الأمّة، لا بعقليّة الفرد الأنانيّة المستكبرة.

وهنا ربما تتساءل متلهفًا: لماذا نكرّر هذا الدُعاء مع أن الملك الوّهاب قد قال: (قد فعلت)؟

الجواب:

أما أولاً

فلتلبية حاجة النّفس الإنسانيّة جسدًا وعقلًا إلى التّذلُّل والتّضرُّع والمناجاة للجليل الكبير القدير بأجمل الكلمات وأجلها.. ألا تسمع الدّاعي كَثيرًا مَا يَدْعُو بِمَا يَقْطَعُ بِأَنّ اللّهَ تَعَالَى يَفْعَلُهُ سَوَاءٌ دَعَا أَوْ لَمْ يَدْعُ، مثل قول اللّه تَعَالَى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ [الأَنْبِيَاء: 112].

أما ثانياً

فلأن الْمُرَاد مِنَ الدُعاء بِهِ طَلَبُ الدّوَامِ عَلَى ذَلِكَ؛ لِئَلّا يُنْسَخَ ذَلِكَ مِنْ جَرّاءِ غَضَبِ اللّهِ عز وجل، كَمَا غَضِبَ عَلَى الّذِينَ قَالَ فِيهِمْ: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ [النِساء: 160].

أما ثالثاً

فلأن أجزاء عظيمة من حياتنا ما زالت بحاجة إلى هذا الدُعاء في تفاصيلها، ومن ذلك التّفسير الجميل الذي ذكره مَكْحُولٌ رحمه الله، حيث قال: ﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ [البقرة: 286]: الغرْبة، وَالْغلْمَةُ أي: شِدّة الشّهوة مع وجود مانع من النِّكاح كالاغتراب، أو ضعف الإمكانات.

خاتمة

البيِّنة القرآنيَّة تظهر في تسوير سورة البقرة

- هكذا ظهرت البيِّنة القرآنيّة في سورة البقرة في أبهى حلّة، وأفخم خطاب، فجاءت خاتمةُ سورةِ البقرة متناسقةً مع موضوعاتها وجوّها وأهدافِها.
- وكان ختامًا يُطرِب الْقَارِئَ وَالسَّامِعَ، وتُسفِرُ كَمَا يُسْفِرُ وَجْهُ الشَّمْسِ إِثْرَ نُزُولِ الْغُيُوثِ الْهَوَامِعِ، وَتَخْرُجُ بَوَادِرُ الزَّهْرِ عَقِبَ الرُّعُودِ الْقَوَارِعِ.

كَشمسٍ لا يَمُرُّ بِها أصِيلُ ❊❊❊ يسيرُ بإثرِها جِيلٌ فجِيلُ
يا أيُّها الظمآنُ رِدْ بابَها ❊❊❊ تُروِكَ من أبحُرِها الزّاخِرة

- وفي هذا الختام تُشْهِدُنا سورة البقرة أنها تنشئ نفوسًا وحضارة ترجو لله كل وقار، وتعظِّم الله في كلِّ حال وعند اتخاذ أيّ قرار، وهذا الذي يظهر في قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: 284].
- وتُشْهِدُنا حقيقة الأُمّة العظيمة التي ستدعو العالم إلى الخير.. إنها الأُمّة التي تلخّص أفكارَها وحياتَها الآيةُ الكريمةُ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285].
- ويذكّرُنا هذا الختم المهيبُ بقول محمد إقبال رحمه الله:

لا تَقُلْ في الشّرع معنىً مُضْمَرُ ❊❊❊ ليسَ إلا النُّور تحوي الدُّرَرُ
جوهرٌ أبدعَ فيه القادرُ ❊❊❊ جوهرٌ باطنُـــهُ والظّاهـــرُ
شِرعةُ الحقِّ نظامُ الأممْ ❊❊❊ ومِنَ النّظـــم دوامُ الأُمَـــمْ
قام للإسلامِ بالشّرع قِوَامْ ❊❊❊ بدؤه الشـــرْعُ وبالشّرع الختامْ
يشحذَ العزمَ بنارِ العملِ ❊❊❊ ويُرقّيـــكَ لأعلـــى منـــزلِ
إنّ دينَ المصطفى دينُ الحياةْ ❊❊❊ شَرْعُهُ للنّاسِ قانـونُ الحيـــاةْ
إنْ تَكُنْ أرضًا يُصيّرْكَ السّماءْ ❊❊❊ ويُرَبّيكَ كما الحـــقُّ يشـــاءْ
ضَيّعَ القومُ شعارَ المُصْطَفى ❊❊❊ ضَيّعُوا رمـــزَ بقـــاءٍ عُرِفـــا
نبيُّنَا أحمـــدُ مَنْ فِي قـُرْبِهْ ❊❊❊ تَكْسِبُ الشُّمـــسُ سَنًا مِنْ قَلْبِهْ

خاتمة

* وتُشْهِدُنا آخرُ آية كلماتٍ مباركاتٍ، ودعواتٍ نيّراتٍ، وابتهالاتٍ خاشعاتٍ، اشتملت على اللُّطفِ والتّخفيف، والرّحمةِ بهذا الإنسان الضّعيف ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا..﴾ [البقرة: 286] تجعل المسلم يفرح بتكاليفِه، ولا يستثقلُها؛ لأنّه يؤمن أنّ الله -تعالى مجدُه- الذي فرضها عليه أعلمُ بحقيقة طاقته.

* وتلمس في آخر كَلِم هذه السُّورة ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معيّةَ الله عز وجل مولانا لنا؛ لتُشْرِقَ في سماء الأرضِ أنوارُ الدّعوة إلى الخير، وحضارةُ النُّورِ الجديدة، وتتغلّبَ على الظُّلمات الهائلة الضّخمة التي يَعُدُّها المُعْتَدُّون، كما قال محمّد الدرعي:

يا مَنْ إِلَى رَحْمتِهِ الْمفَرُّ *** وَمَنْ إِلَيْهِ يَلْجَأُ الْمُضْطَرُّ
وَيَا قَرِيبَ الْعَفْوِ يَا مَوْلاَهُ *** وَيَا مُغِيثَ كُلِّ مَنْ دَعَاهُ
بِكَ اسْتَغَثْنَا يَا مُغِيثَ الضُّعَفَا *** فَحَسْبُنَا يَا رَبِّ أَنْتَ وَكَفَى
فَلاَ أَجَلَّ مِنْ عَظِيمِ قُدْرَتِك *** وَلاَ أَعَزَّ مِنْ عَزِيزِ سَطْوَتِك
لِعِزِّ مُلْكِكَ الْمُلُوكُ تَخْضَعُ *** تَخْفِضُ قَدْرَ مَنْ تَشَا وَتَرْفَعُ
وَقَدْ رَفَعْنَا أَمْرَنَا إِلَيْكَ *** وَقَدْ شَكَوْنَا ضُعْفَنَا عَلَيْكَ
يَا رَبِّ يَا رَبِّ بِحَبْلِ عِصْمَتِكْ *** قَد اعْتَصَمْنَا وَبِعِزِّ نُصْرَتِكْ
فَكُنْ لَنَا وَلاَ تَكُنْ عَلَيْنَا *** وَلاَ تَكِلْنَا طَرْفَةً إِلَيْنَا
فمَا قَصَدْنَا غَيْرَ بَابِكَ الْكَرِيمْ *** وَمَا رَجَوْنَا غَيْرَ فَضْلِكَ الْعَمِيمْ

اللهم بِنُورِكَ اهْتَدَيْنَا، وَبِفَضْلِكَ اسْتَغْنَيْنَا، وَبِنِعْمَتِكَ أَصْبَحْنَا وَأَمْسَيْنَا، ذُنُوبُنَا بَيْنَ يَدَيْكَ، نَسْتَغْفِرُكَ اللَّهُمَّ مِنْهَا وَنَتُوبُ إليك.

اللهمّ آنِسْ وَحْشَتَنَا بفواتح رحمتِك، ومكّنْ لحاجاتِنا سُلطانَ قُدرتِك، واملأ سِقاءَ الآمالِ بقضائها، واعضُدْ عَيشَنا عنِ الهُمومِ بجلائها.

نعوذُ بكَ أن نفتقرَ في غِنَاكَ، أو نضِلّ في هُدَاكَ، أو نُذَلّ في عِزّكَ، أو نُضَامَ في سُلْطَانِكَ، أو نُضْطَهَدَ والأمرُ لكَ.

وصلّى الله وسلّم على سيّدِنا محمّدٍ وآله وصحبه أجمعين

والحمد لله رب العالمين